

إسحاق ما شباش

المطرودون

ترجمة

وليد تحفاصه

مايكوب 2016

يختو كاتب الشعب في جمهوريات الأديغى، والقبرتاي – بالقر، وشركيسيا، والاتحاد السوفيتى، وروسيا، الحائز على جائزة شولوخوف، وجائزة الأكاديمية الأدبية للآداب، إسحق ماشباش خطوة أخرى في تسجيل رؤيته للحرب القفقاسية – الروسية بروايته هذه "المطرودون"، بعد "حجر الرحى" و "خان جري" و "الأسيران" و "جاسوس". وتؤرخ رواية "المطرودون" المراحل الأخيرة للحرب التي لم يشهد التاريخ حرباً أشد منها ظلماً.

يؤرخ إسحق ماشباش بصدق وأمانة على عادته في رواياته التاريخية المأساة التي جرت للشعب الأديغى في القرن التاسع عشر ، فيضعها على مرأى من عينيك: تأليف أول مجلس للأديغة يشبه البرلمانات الأوروبية، والإحباط الذى أصابهم من عدم تحقق ما أناطوه به، ثم إحراقه. ثم طردهم من أرضهم حين لم ييق لهم من القوة ما يكفى للوقوف في وجه الجيش القىصري المدجج بالسلاح، ولا من يأملون مساعدته.

لا يجوز أن ننسى المصيبة التي حلت بالعرق الأديغى رغم مرور وقت طويل على الحرب القفقاسية. إذا كنت أنت لا تعرف ماضيك وتاريخك فلن يكون في متناول الأجيال التالية ما يعرفونه عنهم. ولن تستطع التخطيط لمستقبلك. هذه الأفكار وغيرها هي أهم ما في كتاب التاريخ.

مايكوب 2014.

"... لا يزال صدى الحرب القفقاسية التي فـي فيها كثيـر جـداً من البشر يصلـىـ إلىـ كـثـيرـ منـ الـرـوـسـ. ليـجـعـلـ اللهـ الجـنـةـ مـثـوىـ النـاسـ الـذـينـ قـضـواـ فيـ تـلـكـ الحـربـ الـظـالـمـةـ، أوـ طـرـدـواـ مـكـرـهـينـ منـ بـلـادـهـمـ، فـقـضـواـ فيـ بـلـادـ الـغـرـبـةـ. وـلـاـ يـنـسـ أـوـلـادـنـاـ مـآـسـيـ تـلـكـ الحـربـ الـتـيـ تـبـتـعـدـ عـنـاـ فـيـ الزـمـنـ، وـلـيـعـمـلـواـ حـتـىـ لـاـ تـجـدـدـ مـثـلـ تـلـكـ الحـربـ"

مقتطف من خطاب يلتسين رئيس جمهورية روسيا الاتحادية الذي وجهه إلى شعوب القفقاس في الذكرى 130 لانتهاء الحرب القفقاسية.

أجري وراء تاريخ قرن الأديعة المشؤوم وأناديه،
ولا صوت لصداي، يعاودني وجعي وضيقني،
وقرني يقول لي: ما حاجتك إليه، لا تستدعيه.
كان طريق أسلافك في زمان سالف جسراً لجهنم.

الفصل الأول

نَحْضُّ مُحَمَّدُ أَمِينُ مِنْ مَجْلِسِهِ إِثْرَ الْحَزْنِ الْقَلِيقِ الَّذِي دَاهَمَهُ فَخَرَجَ مِنَ الْغُرْفَةِ، وَجَلَسَ تَحْتَ شَجَرَةِ الْجَوْزِ الْكَبِيرَةِ أَمَامَ الْغُرْفَةِ وَهُوَ يَتَخَيلُ أَنَّ شَمْسَ الصَّبَاحِ الَّتِي تَذَبَّبُ ثَلَجُ قَمَّ جَبَالِ الْأَبَرَاجِ الْبَيْضَاءِ، غَيْرِ الْقَرِيبَةِ وَغَيْرِ الْبَعِيْدَةِ، تَحْرُقُ قَلْبَهُ أَيْضًاً. وَلَمْ يَسْتَقِرْ فِي هَذَا الْمَكَانِ فَتَوَجَّهَ إِلَى حَيْثُ يَحْتَفِظُونَ بِحَصَانِهِ، وَلَكِنَّهُ رَجَعَ بِسُرْعَةٍ فَدَخَلَ الْغُرْفَةِ الَّتِي يُتَلَى فِيهَا الْقُرْآنُ. وَجَلَسَ إِلَى الْمَصْحَفِ، وَمِنْ بَرَاحَةِ يَدِهِ النَّاعِمَةِ عَلَى غَلَافِهِ الْمَذَهَّبِ. وَمَعَ أَنَّهُ نَحْضُّ بِرَاحَةِ نَفْسٍ وَاضْحَى بَعْدَ أَنْ تَلَأَ مِنْهُ بَعْضُ الْوَقْتِ بِصَوْتِ خَافِتٍ طَلِيقٍ فَقَدْ تَمَّلَّ لِعِينِهِ مَنْظَرُ الشَّمْسِ الَّتِي تَحْرُقُ عَمُودَ الصَّبَاحِ، فَأَعْادَهُ الْمَنْظَرَ إِلَى الْغُرْفَةِ.

"أَرْسَلْنِي مِنْذَ أَكْثَرَ مِنْ عَشَرَ سَنَوْنَاتِ الشِّيْخِ شَامِلِ مَوْفُدُ اللَّهِ مِنْ دَاغْسْتَانِ نَائِبًاً عَنْهُ إِلَى بَلَادِ الْأَبَرَاجِ" — قَالَ مُحَمَّدُ أَمِينُ أَسِيلَوْفُ لِنَفْسِهِ — لَمْ أَشْهَدْ إِلَى الْآنِ مِثْلَ هَذِهِ الْحَالَةِ مِنَ الْيَأسِ مَعَ أَنِّي وَقَعْتُ فِي مَحْنٍ كَثِيرَةِ خَلَالِ هَذِهِ السَّنَوْنَاتِ... اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سَيِّفَهُمَا وَبِرْحَمَنَا. وَلَمَا كَتَبَتْ تَحْتِيرَ إِسْلَامَهَا فِي دُنْيَا نَا الْعَارِيَةِ بِجَيْوِشِ الرُّوسِ الْكُفَّارِ الَّتِي حَشَدَهَا حَوْلَنَا قِيَصَرُ رُوسِيَا فَإِنِّي لَا أَشْكُو مَا أَعْنَى مِنْ مَشَاقٍ يَا رَبَّ. الْأَبَرَاجُ الَّذِينَ زَعَمْتَنِي عَلَيْهِمْ، وَالَّذِينَ لَا يَتَفَقَّنُ عَلَى شَيْءٍ، أَحْمَلُهُمْ عَلَى أَنْ يَحْمُونِي بِدَمَاءِ الْكُفَّارِ. وَالْقَبَائِلُ الْأَدِيْغِيَّةُ الْأُخْرَى مِنَ الْبَجْدُوْغِ وَالشَّابِسْغِ وَالْقَبْرَتَايِّ وَالْبَسْلَنِيِّ، بَنِي فِيهِمُ الْوَبِيْخُ، لَيْسَ أَحْسَنُ مِنْ هُؤُلَاءِ إِذَا يَتَبَادِلُونَ نَظَرَاتَ الشَّكِّ. وَمَعَ ذَلِكَ لَا أَحْكُمُ عَلَى مَجْمُوعِهِمْ أَنْهُمْ أَنَاسٌ أَرْدِيَاءُ. عَنْدَ هُؤُلَاءِ كَثِيرٌ مِنَ الْعَادَاتِ الَّتِي تَزَينُ الْمَرْءَ مَا لِيْسَ فِي بَلَادِنَا. دَعَكَ مِنْ رَجُولَتِهِمْ وَصَرَاحَتِهِمْ وَاسْتَقَامَتِهِمْ. لَمْ أَتَقْ إِلَى الْآنِ بَعْرَقَ بَشَرِيِّ أَسْتَطِعَ مَقَارِنَتِهِ بِالْأَدِيْغَةِ. حَقًا هُمْ مَبَالِغُونَ فِي عَنَادِهِمْ، مَتَسَامُونَ... يَا رَبَّ مَاذَا يَجْرِي فِي بَلَادِ الدَّاغْسْتَانِ؟... وَمَا أَخْبَارُ الشِّيْخِ شَامِلِ الَّذِي أَدْعُو لَهُ اللَّهُ أَنْ يَغْمِرَهُ

بعطفه؟"

ركب النائب محمد أمين بعدما أخبر حراسه أنه لن يفارق إلى مسافة بعيدة، فلا يتبعوه.

شمس المهاجرة التي تأبى أن تتزحزح من مكانها لم تعد حمراء كما في الصباح. الجو حار ولكن النهار غير معكر كال أيام السابقة، ولا يبعث على الضيق. والغابة المتناسقة المتعددة الألوان التي بدأ يُوثر فيها الخريف المسرع إليها تمر أمام العينين صاعدةً نازلة. والغابة المتعددة على يمين سهل (شحّه غواشه) المحصر بين (حاجُر) و (داخه) تبتعد رويداً رويداً باتجاه (مخوش). والريح التي تجري على أقدامها لا تستطيع مقاومة أصوات حوافر الخيل فتضيع وراءها غاللاً الغبار الرقيقة.

الجيش الروسي يقف رتلاً على امتداد الطريق الحجري الحديث القادم من ما يقارب بطول 20 فيرستاً¹ مشاةً وفرساناً وعربات وثيراناً ومدافع تجرها البغال. والأبراخ الذين يشعرون بالإهانة لما يجري في أرضهم يقفون جماعات في القمم المحاذية يراقبون السهل المحاذي لنهر شحّه غواشه الممتد عرضاً مقدار ثلاثة إلى أربع غلوات² للخيل، حيث يصطف الجيش الروسي. وتشمع أصوات بنادقهم القديمة التي تشتعل على حجر الصوان. ويلوحون بسيوفهم وكأنهم يهددون الجيش الغريب.

– لا تتحرشو بأعدائنا الأبزاخ، لا تُخادُثُوهُم... ولا تتهاونوا في حرصكم. –
يلوح الجنرال فيليبيسون على ضباطه.

¹ الفيرست وحدة قياس روسية قديمة تساوي 1668 متراً. المترجم. والحواشي التي لا يُشار إلى صاحبها في ما يلي من الرواية هي للمترجم.

² الغلوة مقدار رمية سهم أو ثلاثة ذراع، والذراع خمسة وأربعون سنتيمتراً تقريباً.

"لا تلتفتوا إلى أعدائنا، أنسِدوا، وَعُدُوا السير!" يجيب صدى أغنية المسير الحربية أصوات الضباط التي تندى في كل اتجاه. تطغى الأغنية الغربية على امتداد الطريق من قلعة مايقواب إلى (حاجج) ويصل الصدى إلى قرى الأبراخ المتناثرة في مضيق (ثجبس)، وإلى أبعد منها.

طار النائب محمد أمين بقلبه من فوق الجيش الروسي الذي يمتد على طول المضيق الواصل إلى (غُزربيل) وحط في أرض الداغستان حيث يحارب جيش الجنرال بارياتينسك، ووصل بقلبه إلى قرية (غونيب) التي يقيم فيها الإمام شامل، وسأل نفسه كما لو كان لأول مرة: "يا ربَّ مَن يُطلعني على مَا يجري هناك؟ كن رابطِ المأوش يا كبيري الحكيم. قلبي معك وإن كنتُ بعيداً عنك. ليُنظر الله إلينا بعين الرحمة ولِيُحِمِّنا! ولكن كما سبق وأخبرتك، ليست الأمور في بلاد الشركس على مَا يُرِّام. يخشدون على تخومها جيش الكفار..."

- أيها الأبراخ! - صرخ برج حسن وهو يطلق النار في الهواء من مسدسه كأنه سمع أفكار النائب المتلاطمة - الله معنا ولو أُننا في موقف صعب؛ لا داعي لليلأس.

- أهذا أنت يا برج من لا يسيطر على مسدسه! - حين ترجل محمد أمين من الحصان بحيث لا تميز مزاحمه من عتابه قفز رفاقه من صهوات خيلهم. - لا يمكن يا حسن أن تفعل شيئاً بجيش الكفار هذا الكثيف كاجراً بمسدس واحد. يجب التفكير في إجراء ما. أظن أن موعد جلسة الأبراخ الطارئة قد حان.

- كان من المستحسن أن نعرفحقيقة نوايا الجنرال فيليسيون نحونا... - قال أَفْمَعْتَ مَرْتَوْقَه مَرْتَدَداً.

- نوايا هؤلاء واضحة... - غمغم داور بجز متلفتاً إلى جانبيه، ثم سخر من

الجيش الروسي بصوتٍ أعلى: - اسمعوا إلى طريقة غناء هؤلاء! يشحذون لنا
ثانية بغنائهم رؤوس رماحنا الأبراجية...

لنمضِ، ما الفائدة من أن نرهق عيوننا وأذاننا بمراقبة الكفار! أما منا كثير من المهمات... - امتطى محمد أمين الحصان شاعراً بثقل جسمه على غير عادته. ولما أبظوا قليلاً بالخيول قال لبرج الواقف على يساره: - أكلفك يا حسن إبلاغ الزعماء بالقدوم إلى خلال ثلاثة أيام. لا، لا تستطيع إنجاز المهمة في هذه المدة، لنقل: خلال خمسة أيام. وقال للفارسین وراءه: وأنتما يا مرتوقوه وبجز اجمعـا مخاتير القرى يوم انتهاء اجتماع الزعماء.

هل تستطيعون أيها النائب إنهاء اجتماع الرعماء في خمسة أيام؟ - سأله بجزء من سؤاله
- ومن يعرف هذا؟... ألا تعرفون ما أصعب انقيادنا نحن الأبراخ... ليست
مسائل الحرب سهلة الحل، والكفار يصعب إرضاؤهم. ألا يمكن أن يصبح
اتفاقهم أسهل إن أخبرناهم أن المخاتير يتظروننا؟... ثم استدعي النائب قائد
حرسه: - يا مَرْزِيْج اطلب من مستطلينا ابتداء من مساء هذا اليوم مراقبة
ارتفاعات حاجخ. ودون أن يُظهر على نفسه أنه مهموم بجماعات الفرسان
المنشورة في الغابات الجبلية، والتي ملأته قلقاً منذ الصباح أكثر من جيش الروس
الذى يملأ سهل الأبراخ، همس في أذن برج حسن: - لن نثير القلق في بلاد
الأبراخ ما لم نعرف النوايا الحقيقية للجيش الروسي.

– ولكن لا يليق بنا أن نقعد مكتوفي الأيدي أمام الجيش الغريب الذي يزحف نحونا أيها النائب.

نعم، نعم — أجاب النائب بعد قليل. — ومع ذلك أحتاج إلى ثلاثة أيام
بلياليها أختتم فيها القرآن. وأنتم خلال هذه المدة تقابلون الرعماء واحداً واحداً،
وتحذّنونهم، وتطّلّبون منهم البقاء جاهزين. — والآن أضاف إلى ما قاله بصوت

يسمعه من وراءهما: - أعدت التفكير في مهلة الأيام الخمسة التي سألني عنها داور بجز فرأيتها قليلة. وأنت يا ألمعْت ما رأيك في الموضوع؟

- الرأيُ رأيك يا محمد أمين - أجاب ألمعْت مرتوقه باختصار، مفتخرًا باستشارة النائب له.

- إن كنتم ترون هذا فلنعتمد على الموعد الجديد... - "يا ربِي ما أخبار داغستان بلادي؟..." - لم يستطع محمد أمين إلا أن يفكر ثانية في الموضوع الذي يشغل باله دائمًا.

- مع أنه لم يبق للنائب إلا منحدرٌ ومرتفعٌ للوصول إلى قريته فقد صلى صلاة العصر بالجماعة عند إحدى السواقي. وبعدما ساروا نصف ساعة يلتلفون حول الراية ظهرت قرية محمد أمين في المساحة الخالية من الشجر من التل الآخر. وحين رأى الفرسان والرجلين المتجمعين حول بيته سأله نفسه "ماذا أقول الآن لهؤلاء؟" غير أنه وجد بسرعة ما يقول لهم:

- يا رجال الأبراج الشجاعان الذين أتقن فيهم وأصدقهم، ويعرف كلُّ مَنَا الآخر قليلاً وروحاً، ليرضَ الله عنكم لاجتماعكم، وأنا راضٍ عنكم. لا داعي لليلأس، نحن نقف على أرضنا، وسماونا نُظِلَّنا. أنتم تجلبون الراحة للأسر والعشائر التي جئتم منها. الله الكبير الذي نأتمر بأمره معنا، وهو سندنا ومحظ أمننا. نحن ننتظر الساعة التي يطلبنا فيها إليه. لا تخطوا خطوة واحدة باتجاه جيش الكفار الذي يمتحننا به دون أمر منه.

وكما يقال إن للخبر أرجلًا كثيرة فحين وصل الخبر الوحيد الذي يتظره النائب من داغستان سريعاً عن طريق البريد بتبدل الحيل، وحطَّ في أرض الأبراج، دعا إلى الله وقلبه عند الشيخ شامل لأنَّه كان مستعداً منذ زمن غير قصير للخبر المريع "المهم أن تكون سالماً ولو كنت أسيراً... كان الله الذي أوفدك قد كتب

لكل هذا المصير فحدث. لن ينسانا أنت وأنا أيّما كنا. وسيغمّرنا بعطفه وحناه". ثم مسح براحتيه على لحيته السوداء الكثيفة، وسأل الفارس الذي سيستأنف سفره:

– على روایتك يأخذون موقد الله إلى روسيا.

– نعم، هذا الصباح ودّعْت بنظراتي موقد الله في موقع (بروشنه أوکوب). لا يأبّن، لم ألاحظ عليه إجباراً ولا شعوراً بالإهانة. يرّحلونه بأفخر عربة تتبدل أحصنتها عبر المراحل. ومعه زوجته المدللة (فوانـت)، وأمامه خمسون فارساً روسياً، ووراءه خمسون، بالإضافة إلى مستطولي الطريق. لم أستنتج مما رأيت أنه أسيـر.

– الأمر حسـن هـكـذا – قال محمد أمـين، وبعـدـما صـمتـ مـدةـ أـضـافـ بـصـوتـ عـمـيقـ منـكـسرـ: – ماـ الفـائـدـةـ منـ أـنـ يـكـرـمـكـ آـسـرـوـكـ بـعـدـماـ اـقـلـعـوكـ مـنـ أـرـضـكـ، وـأـبـعـدـوكـ عـنـ سـائـئـكـ الـتـيـ ظـلـلـكـ، وـعـنـ أـحـبـابـكـ؟ هـكـذاـ تـدـبـيرـ الـأـمـورـ فيـ دـنـيـاـنـاـ الـعـارـيـةـ...ـ مـنـ يـدـرـيـ مـاـ مـصـيـرـنـاـ نـحـنـ أـيـضـاـ؟ـ...ـ سـأـلـ نـفـسـهـ "ـ كـيـفـ سـيـتـصـرـفـ الـأـبـزـاخـ إـذـاـ سـمـعـواـ أـخـبـارـ مـنـ أـرـسـلـنـيـ إـلـيـهـمـ؟ـ"ـ وـنـادـىـ كـبـيرـ حـرـاسـهـ: – اـسـمـعـ يـاـ مـرـزـيـجـ:ـ اـصـحـبـ فـارـسـيـنـ،ـ وـاعـبـرـواـ بـضـيـفـنـاـ الـلـيـلـةـ سـرـاـ نـهـرـ لـابـاـ.

أـفـاقـ النـائـبـ فيـ الـيـوـمـ التـالـيـ،ـ وـقـدـ غـيـرـ موـعـدـ اـجـتـمـاعـ زـعـمـاءـ الـأـبـزـاخـ الـمـحـدـدـ سـابـقاـًـ إـلـىـ موـعـدـ أـقـرـبـ،ـ مـعـتـبـرـاـ مـهـمـةـ الـاجـتـمـاعـ مـاـ لـاـ يـسـتـدـعـيـ الـمـماـطـلـةـ.ـ وـقـبـلـ أـنـ يـمـثـلـ أـمـامـ الـاجـتـمـاعـ،ـ فـكـرـ فيـ طـرـيـقـ مـقـاـبـلـةـ الـجـنـرـالـ فـيلـيـبـسـونـ قـائـدـ الـجـيـشـ الـرـوـسـيـ الـذـيـ يـتـحـصـنـ مـقـاـبـلـ قـرـيـةـ حـاجـجـوـغـ،ـ قـائـلـاـ لـنـفـسـهـ "ـمـنـ يـعـرـفـ كـيـفـ سـيـتـصـرـفـ مـعـكـ مـنـ لـيـسـوـاـ أـبـنـاءـ چـلـدـتـكـ،ـ مـعـتـبـرـيـنـ أـنـكـ خـدـعـتـهـمـ؟ـ الـأـفـضـلـ أـنـ تـعـرـفـ أـيـنـ تـنـجـوـ بـجـلـدـكـ إـنـ حـصـلـ شـيـءـ؟ـ"ـ وـلـكـنـهـ لـاـ يـرـىـ مـنـ الـلـاـقـقـ مـقـاـبـلـةـ الـجـنـرـالـ الـرـوـسـيـ سـرـاـ،ـ وـلـاـ أـنـ يـعـقـدـ مـعـهـ اـتـفـاقـاـ يـنـجـوـ فـيـ بـشـخـصـهـ.ـ وـإـنـ اـصـطـحـبـ شـخـصـاـ وـاحـدـاـ

فالسر متى ما تجاوز الاثنين لم يعد سراً، وحينها سيعرف الأarezخ ولن يغفروا له. ولم ير من اللائق أيضاً أن يهرب بنفسه منهم بداعي الجن.

"وهل ما جرى للشيخ شامل أفضل إذن؟...". - يخاطر للنائب محمد أمين. - لا، لا أدينه. ولكن إن قلت إن عواطف كل مرؤوسه كانت معه فأنا أخدع نفسي. وأعرف أن كثريين سيقولون "لو مات وأيستة رماح الكفار في صدره قبل أن يسلّم نفسه أسيراً لهم لكان رجولةً منه" ولكن سلاماً سيئاً يبقى أفضل من الحرب. أيمكن ألا يكون لنا نحن الأarezخ مخرج؟ ماذا سيكون موقفهم منا إن تصالحنا مُراعين مصالح الطرفين؟ أترضخ لواقع الاحتلال روسيياً أرضنا بالسلاح مقابل ألا يقتحم جيش الكفار جبال الأarezخ ولا ينقضوا شرعة الأarezخ الأزلية، ولا يتدخلوا في دينهم الإسلامي، ونحافظ على العلاقات التجارية بين الطرفين، ولا يجندوا شبابنا في جيشهم... وماذا أيضاً؟ إن فكرت عميقاً فستظهر لك أمور جديدة تنفك من السلام. ولكن هل يحتاج الروس إلى كل هذا؟ مع من سنقيم مثل هذا السلام؟ مع الجنرال فيليسيسون أم مع القيصر الذي سيزور القفقاس؟ بالنسبة لي يستوي الطرفان. لا أريد إلا أن أفارق سلام الأarezخ الذين احتجت إلى عشر سنوات، وبشق النفس، لأفرض عليهم أن يتقبلويني... أستطيع الآن أن أتسلل من بينهم. ولكن كيف سيأتي على ذكري الأديعة الذين يقولون "الروح ثياب والشرف يُشتري"؟ لو فارقُتهم نظيفاً من الجانبين لكن أفضل، لو تحقق لي...".

قطع برج حسن ودارو بجز أفكار النائب المتلاطمة.

- تفضلاً، السلام عليكم يا صديقي العزيزين. - استقبل النائب ضيقـي الصباح بوجهه الطلق المرائي دون أن يُظهر عدم ارتياحه - اجلسـا، قبل لحظات خطـرـما لي. ولماذا ليس أـفـعـتـ معـكـماـ ياـ حـسـنـ بيـ؟

- وعليكم السلام، أيها النائب الذي ندعوك له أن يُؤْيِّد صباح دنياه الجميل بعين الرضا. - قال برج حسن الذي أُضيِّف إلى اسمه "بي" فصار "حسن بي" على الطريقة التركية، ومنزح مع مستقبله: - كما يقول جماعتنا الأديغة لسنا من الضيوف الذين تُقدِّم لهم قشطة الصباح. كنا مارين على داركم في طريقنا إلى قرى الأَبْرَاج في سهل قُجْبَس، فعَرَجْنَا لِنُطْلِعَك باختصار على مجريات اجتماع الرعماء، ونتشرف برؤيتكم في الوقت نفسه.

- لو بدأتما حديثكم برغبتكم في رؤيتي لسرققاني أكثر. - رد النائب عليهمما بالملحاح - ولكن لا شيء يعِدُّ أن يتذكرة الناس الذين تعيش من أجلهم، خير من أن ينسوكم. حياكم الله، ورضي عنكم، وهذا شعوري أيضاً نحوكم. أرجوكم أن تشربا شاياً ساخناً مع زبدة جاموس طازجة. وإن لم يكن عندكم الوقت فالشكرا لكم على زيارتكم، وببارك الله فيكم. والآن أسعكم.

- أعتقد أننا بلَّغْنا أكثر أعضاء الهيئة العامة للجمعية إن لم يكن كلَّهم. - وأضاف برج إلى كلامه - وكل الذين بلَّغْناهم ردوا علينا "كلامكم كلامنا، وفعلكم فعلنا".

- حسُّنْ أن نتشارك آراءنا ونتفق - لم يقصِّر محمد أمين عن ضيفيه في حلوكلام. وأضاف إليهم أنه ليس قادعاً عاطلاً عن العمل - وأنا في هذه الأيام قابليني كثير من الناس المنشغلين بقضايا الأَبْرَاج. وتناقشنا فيها. ما أخبار (توبا) من نواحي الأَبْرَاج يا تُرى؟

- أوفدنا أَفْمَعْتَ إلى تلك الناحية... - أجاب برج، وأضاف باسماً: - توبا من مناطق الأَبْرَاج التي يُعرف الله وحده ما تعاني من اختلاف الآراء كأحصنة لا أَزْمَة لها.

- وأنا، بعد الله، أُعْرِفُ هذا - قال داور بجز، وفضل ما يُعرف ضاحكاً: -

يقولون لنا: "لا تسمحوا لجيش الكفار أن يتوجه إلينا. وإن هزموكم فستُرِيكم
كيف كان يجب أن تقاتلواهم".

– ماذا بيدنا؟ قال برج حسن كاتماً ألم قلبه – هذه طبيعتنا نحن الأديعة... –
نسمح للأعداء ، في غياب دولة لنا، أن يصرعونا واحداً واحداً.

– أتظن يا حسن بي، يا من جعل الله يومه مئةً، أن العيب في الأديعة وحدهم؟
سؤال محمد أمين كاتماً ألم قلبه، شاعراً بالعار من أنه لم يتمكن من إتمام مهمته
التي أُرسِلَ من أجلها إلى بلاد الأبخاز لترتيب أمورها وإنجاز وحدتها وتفاهمها،
وأجاب بنفسه: – وفي بلاد الداغستان تصادفك اختلافات من هذا النوع.
ولكننا لن نستسلم لليلأس مهما حاول الكفار معنا. لينظر الله إلينا بعين الرحمة
وليُحِمِّنا!

لم يكن ضيفاً محمد أمين غير المنتظرين قد ابتعدا عن الباب حين بدأ يفكر في
مقابلة الجنرال فيليسيسون مع حلول الظلام، ليس باسم الأبخاز الذين يقودهم بل
باسم وحده. هل سيقول لهم: استسلمت لكم وأحالفكم؟ لا، هذه خيانة. إن
فعل هذا فبأي عين سينظر إلى نفسه، دعك من الآخرين؟ سيفُرِغ القضية التي
حارب من أجلها في سنواته العشر الأخيرة من معناها، وسيُسلِّم نفسه أسيراً
للكفار؟! أليس إقناعُ الطرفين المتجاهلين بخلافة السلم، كما يقول الأديعة
"ينضج لحمنا دون أن يسود سيخنا" أفضل من أن تكون أسيراً؟ الأبخاز في
موقف صعب، والجيش الروسي الذي حارب عشرات السنين في أرض الأديعة
لم يربح مكانه. يذرع محمد أمين الذي يفكر، مُصالياً بين ذراعيه وراء ظهره، في
إمكانات الصلح بين الطرفين. يقف إلى جانب النافذة، ويتبع. وأخيراً يجلس
ويرتَب أفكاره باللغة العربية.

الفصل الثاني

استدعي محمد أمين النائب مرزبج ساعة هبوط الظلام، وقال له:

– حضّر لي حصاني؛ أريد أن أزّهه، وسنكون وحدنا أنت وأنا. ولا حاجة لثالث معنا.

مهما كان نهار الصيف طويلاً فهو قصير في الجبال. أظلمت دنيا الأبراخ ما إن غابت الشمس وراء الجبل. وبدا كأن وقع حوافر الأحصنة قد حَقَّت. وساد الظلام الخفي الأرض. وحين تركا وراءهما ظاهر القرية وبدأ يقتربان من جبل

أيها النائب يا من أدعوه له الله أن يبارك للأبزاخ معروفة، خلّقنا وراءنا حدود القرية، والجهة الأخرى لا نعرف ما فيها.

- قف بجانبِي إن كنت خائفاً، ولا تمش ورائي.

– قف؛ من أنتما؟! وقف ثلاثة فرسان من القوزاق أمام الفارسين الأباخيين، وثلاثة من ورائهم.

— أنا أسيالوف محمد أمين، وهذا رفيقي. أوصلونا إلى الجنرال فيليسيون دون ضجيج. — قال النائب لم ين اعترضهما بصوت واثق، وبلغة روسية سليمة.

كان من عادة الجنرال فيلبسون أن ينام باكراً ويصحو مع الفجر. فلما أبلغوه فجأة باسم من لا ينتظره اللئَّة، فيما حاجته يخلع له جزءته، سأله غير مصدق:

- من قلتم لي؟ - ربما أخطأتم؟

لا، يا سيادتكم لم نخطئ. — أجاب حامل الخبر النقيب الركن سيرديوكوف. -
زعيم الأئمّة أسيالوف محمد أمين يود مقابلتك.

– الآن حالاً. أدخلوه إلى الغرفة الأخرى، ولا تعالوا عليه، استقبلوه استقبالاً

لائقاً بالضيف. — عاد الجنرال ذو الجسم الضخم فارتدى جزمته من جديد. وأدار ناصيته الكثيفة التي بدأ الشيب يغزوها إلى الجانب الآخر من جبينه العالى العريض. ونصب شاربيه الكثيفين المتهاللين بإصبعيه. وذرع أرض الغرفة بضع مرات دون أن يستعجل ملقاء ضيف الليل، قائلاً لنفسه: لينتظري إذ جاءني مبادراً. ووقف قليلاً يتأمل ظلمة الليل من خلال النافذة، ثم مضى يصحبه ضابطان إلى الغرفة التي ينتظره فيها محمد أمين. وسلم على زعيم الأباخ الذى نمض لاستقباله، ولما قعد قال له: أسمعك أيها النائب الذى أُكِّنَ له كل الاحترام.

— أريد أن نتكلم على انفراد — قال محمد أمين للجنرال، وحين خرج سيرديوكوف النقيب الركن والضابطان المراقبان له على امتعاض بإشارة من رأس الجنرال، خرج مربיע معهم أيضاً. ولما بقيا وحدهما أضاف أسيالوف النائب إلى كلامه: — لن ندخل في مسألة تعارف أيها الجنرال لأننا لا نعرف بعضنا أيها الجنرال الآن فحسب. أنا أعرف بعلم الله تعالى ما جرى في داغستان. ولما كان من تدبير الله فلا علاقة لأيّ كان بما جرى. ولكنني من جهتي لم آتِ إليكم لكي تأسروني. بل جاءت بي إليكم مسألة السلام بينكم وبين الأباخ التي كلفني الله بها؛ لذا أود معرفة رؤيتك للأمر. والأفضل ألا نسُوف القضية.

مع أن الموضوع الذي جاء من أجله النائب محمد أمين زعيم الأباخ كان خبراً ساراً مفاجأةً للجنرال فيليسيون فقد التقط الكلمة التي لم تعجبه؛ يقول لنا "ستصالح" بدلاً من "روسيا أقنعت الأباخ بأنهم رعايا روس فليوقفوا الحرب العبوية". غير أن الجنرال أجاب وهو يقول لنفسه "هذه الكلمة يمكن تأويلها كما تريده":

— السلام الذي يوقف سفك الدماء حسناً في أي زمان أيها النائب. ولكن

قبل أن نتكلم في طريقة الصلح يجب أن نفك في شكله. مضى على اتفاقية أدریانا بول¹ بين روسيا وتركيا، والتي منحت الأديعة لروسيا ثلاثون عاماً. أهم

مستعدون أن يلقوا السلاح ويعترفوا بسيادتنا عليهم، ويعيشوا معنا بسلام؟

- جواب هذا السؤال سهلٌ على أيها الجنرال إذ لا أحد غيرنا في هذا المكان، ولا يُسجل ما يقال. افهمُ كلامي "ستصالح"، واستغلُوه كما تشاءون. ولكنني أرغب في أن أفارق الأبراخ بسلام، وبينكم اتفاقٌ صلحٌ مكتوبٌ، وأن اتحالف معكم على الخير، دون أن تفكّروا في أن أحارب معكم.

- إن كان هذا رأيكم، وكتت واثقاً أن الأبراخ سيطعونك أيها النائب، فأنا أمنحك كلمة شرف مما يمنح الضباط بأننا لن نُفتشي سرّك إليهم. أوقفك لأن ما جئت لأجله موضوع مهم. ستفكر في أفضل طريقة لإنجازه، وسنجد لك.

- أكرر أيها الجنرال: ليس هذا الموضوع مما يحتمل التسويف.

- أنا فهمت ما تريد أن تقوله، ولكن لا تنسَ أيها النائب أن في تفليس قياداتٍ أعلى مني، وفي سان - بطرسبورغ من هو أعلى منا جمِيعاً. ثم إن

¹ بعد ما انتهت الحرب الروسية التركية يكتب ف. ن. ريبسيف في كتابه "المسألة الشركية. أولمبياد 2014. سياسة جورجيا في القفقاس": في عام 1829 حسب ما نص عليه اتفاق سلام أدریانا بول بين روسيا وتركيا فإن تركيا تمنح أراضي الأديعة لروسيا. وهكذا "تنازلت" تركيا لروسيا عن أراضي الأديعة. والصحيح أن هذا التنازل لم يكن له أي معنى. والسبب أنه، كما كان يقال في أوروبا، لم تكن تركيا حرّة في أن تتنازل عما لا تملك. وإن أردت الحقيقة فالترك لم يكونوا يوماً مسؤولين عن الأديعة، إذ أن الآخرين لم يخضعوا يوماً لأحد، وعاشوا حياتهم أحرازاً. ولم يرضخ الأديعة للنظام الذي استمدّ قيصر روسيا من تلك الاتفاقيات. وفي عام 1830 زحفت الجيوش الروسية على الأديعة الذين لم يقبلوا بسلطنة بطرسبورغ. وفي شمال غرب القفقاس نشب حرب جديدة. واستمرت تخدم قليلاً ثم تشتعل من جديد حتى أيار عام 1864" المؤلف.

الوثائق التي ستكون بيننا تحتاج إلى عمل كثير.

- أنا جهزت مثل هذه الوثيقة يا غريغوري إيفانوفيتش. - خاطب محمد أمين الجنرال باسمه واسم أبيه لاكتساب ثقته، وسلمه الورقة. - أظن أن ما فيها يرضي الطففين. - ثم أضاف بعد قليل: - لا تُخطئ أيها الجنرال في ما عَبَّرت عنه بقولك "إن كنت قادرًا على تطوير الأَبْزَاخ" إذ أني لا أتعهد بما لا أستطيع. سيكون ما في الورقة باللغة العربية وجهة نظركم. كان حسناً أن تضيفوا إليها بالروسية ما يناسبنا، ثم تعيدوها إلىي. الحق أني لا أحتجها هذه اللحظة. تكفيني النسخة التي احتفظت بها من أجل اجتماع وجهاء الأَبْزَاخ بعد غد.

- إن كان ما في هذه الورقة سيؤكّد صدقه بنفسه أيها النائب فلن أقصّر من جهتي في شيء. وسأعيد إليك في بضعة أيام ما كتب بالروسية ممهوراً بخاتمي.

- استشر زعماءك أيها الجنرال إن شئت، سيسيرهم ولا أظنهم سيغترضون بشيء. وإن أوصلت إلى ما جئت على ذِكْرِه فسأدفع الأَبْزَاخ القانطين إلى مصالحتكم إذ أين يذهبون هاجرين أرضهم. وكونوا واثقين من مرزح لأنه هو من سيكون حارسي، وهو ورأي دائمًا في كل مناسبة. وأود أن أعرف من تثق به أيها الجنرال.

- النقيب الركن نيكولاي بيتروففيتش سيرديوكوف. وحين ننتهي من إجراءات السلام بيننا سنوقع كلانا في أسفل الوثيقة.

- سأوقع لأن هذا أمر قدره الله - نحضر محمد أمين راضياً بما سمع وبما علق به. قال فيليسيون في نفسه وهو يودع ضيف الليل الطارئ باسمًا: "إن كان هذا ما تريده يا أسيالوف فسأطوع الأَبْزَاخ الذين لم يرضخوا للسلاح بهذه الورقة التي تتقبل كل ما يُكتَب عليها ريشما يأتيني جواب سؤالي الواضح منه من تفليس ومن سان - بطرسبورغ. ثم نرى ما سيحدث"

يسخر محمد أمين النائب من حادثه: "انظر كيف يتظاهر هذا الذي لا يسيطر على طرق شاربيه المتهالكين بأنه ليس مخلولاً في شيء... سيستشير تفليس، وسيرسل مبعوثاً إلى سان - بطرسبورغ... افرح أيها الكافر إن وعدوك بالصالحة ولا تأت على تفاصيل تلك المصالحة مصدقاً أن الأبراخ الذين طوّقموهم قاطنون الآن. هؤلاء لن يخالفوا أمري غير أني إن فارقتهم دون أن أدعهم في أرض المهلكة مضيت مرتاح الضمير لأنني كرست عشرة من سنواتي الخمسين لهم. أغفر لي يا رب مفارقتي الأبراخ موقتاً بين مصلحتي الشخصية وقضية السلام. أرجمني، هذه هي الخدمة الوحيدة التي يمكنني أن أقدمها لهم..."

- لا يجوز يا مرزنج أن يعرف أحد بالمكان الذي كنا فيه. سيفهم الأبراخ لاحقاً الأمر. هل تسمعني؟

- نعم أيها النائب، نعم. سيفهم الأمر لاحقاً. أنا أعمى وأصم. قولك قولي وفعلك فعلي.

الفصل الثالث

مع أن صباح الصيف جاء بالحر فالنسيم البارد يجعلك في منأى عنه. الشمس التي لم تلتقت إلى الجبل ذي القمة البيضاء الذي أشرقت من خلفه ترتفع في سماء السهل حيث يجتمع زعماء الأبراخ التسعة والثمانون، والمخاتير الذين يزيدون على الخمسة. وتظهر من جهة الغرب بعض السحب الرقيقة الممزقة، تتلاقي وتبتعد خلسة. والشهر الذي قضى منه الخريف القادم جزءاً متعدد الألوان متناسق. ومع أن طبيعة بلاد الأبراخ جميلة فالحزن بادٍ عليها بسبب احتشاد القطعان الروسية على سفوح الجبال. ولا يقتصر الحزن على الناس بل يbedo أيضاً على طريقة تجمّع الفرسان وقلقهم.

- لا أدرى إن كان الجنرال فيليسيون تراجع عن اتفاقنا؛ أراه تأخر في الجواب.

- غمغم داور بجز مهموماً بعدم مجيء الموفدين الروس.
- لا يزال أمامنا نصف ساعة — قال محمد أمين وهو يقرأ في ساعته الفضية التي تنفتح وتنطبق. — هؤلاء لم يجعلونا نرتاب في شيء منذ أن شرعنا في محادثتنا للسلام. وكذلك أرسلوا إلينا في الوقت المحدد الورقة التي توثق بالعربية والروسية اتفاقنا. ولم يحذفوا كلمة واحدة مما كتبنا نحن فيها. وقد أطلعوا اجتماع الرعماء أمس على الاتفاق ووافقنا عليه. والمخاتير الذين جمعناهم مطلعون على الأمر. وما بقي هو أن يتفق الطرفان على قبوله.
- حسن إن كان هذا رأيك أيها النائب. — قال برج حسن مؤيداً كلام النائب، واختتم بشكوه — غير أن هؤلاء يقولون اليوم شيئاً، وغداً شيئاً آخر.
- نعم، نعم. قلب الكافر يتبدل في اليوم سبع مرات... — قال أحد المخاتير الأقرب إليه.
- لو كانت حياة البشر تجري على هذه الدنيا الفانية كما نشهي لربما ما جرت لنا كل هذه المصائب يا حسن بي. — حافظ النائب على هدوئه مع أن تعليق المختار أثاره. ثم أضاف مُسِمِعاً القريبين منه والبعيدين: — لن نتجاوز ما يقدره الله تعالى لأن الاتفاق الذي ستعقده مع قائد جيش الكفار الجنرال فيليسيون لا يجري دون علمه تعالى، نبتهل إليه أن يرحمنا وينظر إلينا بعين العطف ويحمينا. ها هم الروس قادمون لم يخدعونا. — لفت النائب أنظار المجتمعين إلى الجهة التي تأتي منها مجموعة الفرسان المؤمنة بأمر الجنرال فيليسيون، وشاورهم: — ماذا نفعل؟ أنستنقل لهم؟
- إن كانت نواياهم حسنة نحونا استقبلناهم. — تتم برج. — ولكن إن قال من حاصرونا بالسلاح إنهم سيصلحوننا فلن ننسى كوننا أديغة. سرسل بضعة فرسان لملاقائهم حين يقتربون منا دون أن نخفّ جميعنا لاستقبالهم.

صاحب داور بجز الفرسان القوزاق إلى ساحة الاجتماع بعدما قيل مهمة اصطحابهم غير متحمس لها، معتقداً امتعاضه بالفخر بما كُلِّف به. ثم سلم حصانه إلى أحد الشباب، وعاد إلى مكانه بين الوجهاء.

قال برأْعْنَه إِسْلَامُ ذُو الْلَّحِيَّةِ وَالشَّوَارِبِ الشَّقَرَاءِ مُخْتَارُ قَرْيَةِ تَامِيْجَبَلِهِ، لِأَخِيهِ الْأَكْبَرِ مِنْ أَمْهَهِ:

– انظر يا عُقَسْ؛ طرفا شاريي الجنرال يتهدلان على راحتهم. ألم يكن قادراً على أن يزيح شارييه عن طرفي شفتيه إلى إحدى الجهتين؟

– ورفاقه القوزاق، ما أقل حياءهم إذ يرتدون زِينَتَنا معتقدين به!... – أجاب مَرْزَخُوي بكر الواقف في الزاوية غير مُطْلِقٍ ما يرى – لو كان يناسبهم كنُثْ هَنَّأْنُّمْ... يخدعوننا بما ليس لهم من لباسنا المتناسق.

– ليت الأمر اقتصر على زِينَتَنا، بل يسلبوننا أرضنا... – أضاف عُقَسْ إلى ما قال بكر.

– من حسن حظكم أن والدكما برأْعْنَه ميشكا لم ير في شيخوخته هذه المأسى التي يتسببون لنا فيها... لم يستطع بكر الآن إلا أن يقول.

ابعد محمد أمين النائب عن الجنرال فيليبيسون خطوة واحدة، وتوجه إلى مؤتمر الأبراخ بصوت حازم:

– أيتها الجماعة، يا موْفَدِي إقْلِيمِ الأَبْرَاخِ الْأَنْقِيَاءِ، اسمعوني! وأنت يا برأْعْنَه إِسْلَامُ، يا من أدعوه لوالده ميشكا الذي كان قلبه عامراً بالإيمان أن يفتح له باب جنته، ترجم للجنرال فيليبيسون ولأصحابه باللغة الروسية الصافية التي اكتسبتها من والدك ما سأقوله بالأديغية. ما في هاتين الورقتين من اتفاق السلام – يعرضهما النائب على المؤتمرين أمامه – مكتوب بالروسية وبلغة القرآن. اطْلَعْنَا عليهما البارحة واليوم. ولا يختلف محتوى أي من الورقتين بكلمة

واحدة عن الأخرى لأننا اتفقنا نحن ومن أثانا باسم الجيش الروسي على أن نتبني معاً ما جاء في هذا الاتفاق الذي أقسمنا عليه. أترجم لكم إلى الأديغية الورقة المكتوبة باللغة العربية، لغة القرآن، متفقين، أنتم وأنا، على الثقة التي أولاً نبي إياها الله العلي فأصغوا بقلوبكم وتحلوا بالصبر. — كان المنادون والمبليعون يرددون كلمات محمد أمين في كل مكان من ساحة المؤتمر.

— أيها النائب يا موفد الله المبارك — نادى تسي حاترباي (وكانوا ينادونه أيضاً بالأسود الفاحم)¹ الرجل التحيف المتين المنتمي إلى أسرة متقدّة — عندي لك سؤال قبل أن تترجم لنا الاتفاق إلى الأديغية: هل الأبراخ فقط هم من أقسموا على ما في هذه الورقة أم أقسم عليها أيضاً الروس القادمون إلينا؟ خرج الجنرال فيليبيسون الذي ترجم له براعته إسلام السؤال بدلاً من النائب الذي وُجه إليه، وقال وهو يحاذى محمد أمين:

— ما جئناكم به الآن أيها المحترم تسي هو عهد الجيش الذي أقوده. أردنا كسب الوقت لأن من سنتشيرهم بعيدون. ولكن بما أننا لا نتصرف دون علم هؤلاء فلا أشك أنكم سيفافقوننا لأنكم يرون أن كل سلام أمر إيجابي. — وقال لنفسه "لا تنسوا أنكم لستم رعايا القيسير عبّاً"

— حسنٌ أشك لا تشک في الأمر أيها الجنرال، ولكن من الصعب تصديق أي اتفاق لم يمر على القيسير نفسه. والآن سؤال آخر: هل ما سمعناه بشأن الشيخ شامل صحيح؟

— صحيح، وجرى اصطحابه برضاه ومع أسرته إلى روسيا.
— دون أن يأخذ صفة الأسير؟!... — الآن وجه بكر الذي كان يعرف الخبر

¹ القوسان من المؤلف.

ولكنه استغرب تعبير "برضاه"، السؤال إلى محمد أمين: إذن ماذا سيكون مصيرك يا نائب؟

- وأنا سيكون لي مصيرٌ ما بعلمكم. أدعو الله أن يبدل بأيامكم أيامًا أحسن. أهم موضوع أمامنا اليوم يا بكر هو موضوع صلحنا. سأطلعكم باللغة الأديغية إن سمحتم لي يا موظفي الأبراخ على ما في هذه الورقة. وأنتم المخولون بأن توافقوا أو لا توافقوا. ولكن لا مخرج لنا اليوم غير هذا إن سمعتم نصيحتي. ولا أطن أخبار ما يجري في الشابسغ غرباً لا تصلكم... ولذا بما أننا اليوم في وضع مبهوس منه أطلعكم على الاتفاق الذي هو سبب اجتماعنا:

"نحن -الأبراخ، المخاتير والزعamas، كل الأبراخ، متنفذي الأسر، والفالحين الأحرار¹ والعبيد - نقسم أن نكون مخلصين لروسيا حسب عاداتنا: مخلصين للقيصر الأكبر، رعايا له إلى الأيد، وننفذ ما تأمر به سلطاته، ونطيع من يكلفهم بزعامتنا، وألا نقترب أي جريمة أو سرقة بحق روسيا، وأن نسلم إلى المحاكم كل من يفعل مثل هذا كي يعاقب ويفرم تبعًا لجريته، وألا نساهم في ما يرتكبه الجرمون الفارون، وأن نحمي أرضنا من أمثالهم، وألا نسمح للأشرار وأصحاب التوايا الخبيثة أن يعيشوا بين ظهرانينا. وأن نسلم المارين من وجه العدالة الروس فوراً إلى أقرب سلطة روسية. وفيما نحن نصوغ هذا التعهد أعلمكنا أعلى سلطة بطلعات شعبنا واحتياجاته

¹ ترجمة كلمة "فُقولاً" من الموسوعة الفرنسية: (tfokolt)، أو الشعب الحر، كما تشرح. غير أنهم كانوا تابعين للسيد المالك في بعض القبائل، كما سيرد بعد أسطر في اتفاق النائب وفيليبيسون، وكما في رواية خان جري للمؤلف نفسه. وقد يختلف وضعهم من قبيلة إلى أخرى.

فأبلغنا الجنرال فيليسيون كتابة ما يلي: حين يقسم شعب الأبخاز يمين الولاء لقيصر روسيا، ويؤكّد هذا القسم بأربعة عشر فتى رهائن لضمان طاعتهم، فهم أحرار بناء على أوامر الجنرال فيليسيون في الاستفادة من المزايا الممنوحة من القيصر لرعايته؛ سيبقى لنا ديننا الإسلام، ولن يعارضونا في شيء، وإذا أراد أيّ منا الحج فبإمكانه السفر، وحده أو مع أسرته، عن طريق إسطنبول أو غيره؛ ولن يدفع الأبخاز ضريبة، ولن يُساق أبناؤهم إلى الجيش، ولن يُساووا بالقوزاق. وستُمنح الحرية لأبناء الأبخاز الراغبين في الخدمة في الجيش الروسي. وسيمارسون خدمتهم كسائر الجنود على قدم المساواة والعدالة. وستبقى أفراد قبيلة الأبخاز المتنوعة على ما هي في حريتها وفي تنوّعها. وأراضي الأبخاز تكون لهم وحدهم. ولا يحق لقرى القوزاق الاستيلاء على أي قطعة أرض للأبخاز مهما كانت صغيرة. وتحمي روسيا أملاك كافة الناس بفعل سلطتها. وكعادة الأبخاز منذ الأزل يبقى للأسر المتنفذة عبودُها وفلاحوها الأحرار. وعلى روسيا أن تعيد دون مقابل كل عبد آبق يهرب من الأبخاز. وتحمّل عرق الأبخاز الحرية في افتتاح مراكز تأديب بما يتناسب مع احتياجات إقليمهم ومع العادات السائدة. وعلى قائد جيش القفقاس ترتيب أنظمة هذه المراكز. وسيقيم الحاكم الروسي للأبخاز في ما يقوّب. وهذا الحاكم سيكون موعد الأبخاز إلى الحاكم الأعلى، ومحتملاً حاجاتهم وصلاحيّة هذا الحاكم في التدخل هي اقتراف بعضهم الخيانة، أو من تقدّم بحقه شكوى في سلوكه، أو ضد بعض المخاتير الذين يمثلون العرق ويُطّاعون ويصدر منهم في الوقت نفسه ما يُعدُّ سوء سلوك. وتقسم على تنفيذ ما ورد في هذا الكتاب باسم عرق الأبخاز، وباسم الله، ونبيه العظيم محمد، وباسم الكتب الأربع التي أنزلها الله: الإنجيل والتوراة والزبور والقرآن. وندعو الله أن يحيّ السلام على هذا الاتفاق. بسم الله الرحمن الرحيم.

آمين".

– ما ترجمته لكم إلى الأديغية وهو في هذه الورقة – يعرض محمد أمين النسخة العربية ملولاً بما للحضور – إن كنتم يا زعماء الأبراخ المتنفذين المدعوين باسم جميع الأبراخ، وأيها المخاتير الوجهاء، وكل من حضر اجتماعنا المصيري، مضمراً لنا الخير أو غير مضمراً، موافقين فكروا ثلاث مرات القسم ليكون بمثابة إعلان موافقتكم.

– ولماذا لا نوافق وقد نطبقتم بما في قلوبنا! – صاح أعمى مرتوقوه الذي كلفه محمد أمين أن يقول هذا، ووافقه شخص آخر في الجهة المقابلة، وتحاوب معه أحد المخاتير معلنًا موافقته. وبدأ النقاش بين المئات الذين كانوا واجهين إلى الآن.

– مهلاً أيها النائب، يا موعد الله المبارك إلينا – صاح عُقس – أنا من جملة من سيعاهدون غير أني لا أعرف إن كان الجانب الروسي سيعاهدنا بال مقابل... ومع ذلك سأذلك عن أمر يشغل بالي: هل سيلتزم أبناء جنسنا الشابسغ بقسمٍ مثل قسمينا؟

– يا براغنه! – صاح مرزبج غاضباً من بين الناس الذين يقف معهم – حتى لو لم يلدهك ميشكا الذي تحمل اسم أسرته، مالك تحتم بما لا يجب عليك الاهتمام به؟ ما علاقتنا بالشابسغ؟ الآن كل امرئ ونفسه. قلن ما يقولون، وافعل ما يفعلون!

– أيها الفلاح مرزبج! – انفجر براغنه عُقس غاضباً من الكلام الذي وُجه إليه. – إن كنت تعيرني بوالدي معتقداً بكونك كبير حراس النائب فأنت مخطئ – هو رباني وأنشأني. ولا تستهين بأبناء قومنا الشابسغ. هؤلاء يقاومون، كما نحن، ما يحدث لقومنا من إبادة.

- صحيح، تقول الحقيقة يا أخي الصغير. - خرج الآن مَرْخُوي بكر الرجل الشixin الممتلىء الذي تبتوا عليه اسم والده المتوفى بديلاً عن النسبة، مِنْ بين مَنْ يقف بينهم بكل قوة، ووقف إلى جانب عُقُس.

النائب الذي أدرك أن عاقبة المهاترات سيئة أَكَدَ على حارسه المعتمد بجسامته: - كفى يا مربِّع! وأنت يا عُقُس أتفهم هفتاك على أبناء قومك الشابسغ. وأنا أتألم لحالهم كما تتألم. ولا أظننا وحدنا في هذا الشعور؛ أتوقع أن يكون لأعضاء المؤتمر أيضاً هذا الموقف. - وأضاف النائب محمد أمين مُسِمِعاً الأبعد في الاجتماع: - أبتهل إلى الله العزيز العلي الذي نطعنه اليوم بملء إرادتنا وأضع فيه أملِي أن يجعل الشابسغ ينهجون نحجانا. أمين يا إلهي. - وحين ضجَّ المؤمنون المسلمين المجتمعون في الساحة، من فيهم براغُنَه المترجم، بدعائهم امتطي محمد أمين حصانه الذي قربوه إليه ليظهر بوضوح أمام الحشد، وناداهم مرة أخرى ملوحاً بوثيقة القسم: - إن كنتم موافقين على عهد الأبراخ فلنردد، كما اتفقنا، ثلث مرات!

- وأنا عندي سؤالان قبل أن نفعل هذا أيها النائب - قال بكر متمهلاً بصوت عالٍ غليظ - ما هذه الأسماء الإنجيل والتوراة، والاسم الثالث الذي نسيته، التي تذكرها إلى جانب القرآن؟

- أيتها الجماعة؛ أقول لكم، بما أن الفلاح مَرْخُوي بكر سأَلَ عن التوراة والإنجيل والزبور: هذه كُتُبُ الدين المسيحي. وهذه التي يُقسَّم عليها من يتصالحون معنا. - أجاب محمد أمين قائلاً لنفسه: "هؤلاء يجب أن نقطع عليهم طريق الأسئلة قبل أن يتبروا ضجة على طريقة الأبراخ".

- لا بأس إذن! إن كانت هذه هي الكتب المعتمدة للتوبة والقسم فأنا موافق أيها النائب - أنهى بكر كلامه - وتنازلَت عن السؤال الثاني. ولكن كنا نتمنى

أن نُطلِّعُنا على ما تنويه بشأن مصيرك الشخصي لأننا لا نخلو من القلق عليك يا أيها المؤمن المبارك الذي شرّقنا به الله.

- سيكون مصير نائنا وزعيمنا المبارك كمصيرنا بعدهما عشنا عشر سنين معاً من المشقة ونحن نقول ما يقول ونفعل ما يفعل، وبعدهما هدانا إلى الدين الإسلامي الكريم، وقادمنا أفراحنا القليلة وألامنا التي لا نهاية لها. — أجاب برج حسن الذي لم يساهم في الحديث إلى الآن بدلأً ممّن وُيّه إليه السؤال.

- أما قلت لكم — أسرع محمد أمين الذي ما يزال يصلح من جلسته على صهوة الحصان، منتاشياً بالكلام الجميل الذي كان يشتهيه فسمعه — أنت من ألق لأجلهم، لا أنا. أنا سأعيش أينما كنت، سواء كنت في ضائقه أم كنت مرتاحاً، والله في قلبي. سيكون مصيري كمصيركم. غير أني، إن وافقتوني، كنت أود أن أشارك الشيخ شامل، وهو الذي أرسلني إلى الأبراج الأبطال الذين أنزل الله عليهم دنياهم الفانية، ما يتحمله. أنا واثق أن الله العلي العظيم الذي يتيهله إليه البشر ولا يتيهله هو إلى أحد سيسمعنا. وسنعيش راضين بما كتبه لنا. والآن دعونا ننجز قسمتنا، والله الذي نأتمر به في قلوبنا.

جفلت الغربان التي سمعت المجتمعين يرددون قسم الأبراج ثلث مرات متتالية، واهتزت أعلى الأشجار، وصهلت له بعض الخيول.

قال الجنرال فيليبيسون الذي كان يعرف تفاصيل الاتفاق الكاذب ذي المهلة القصيرة، ليراغنه إسلام المترجم المصاحب لمجموعة الفرسان الأبراج المرافقين لموكب الجنرال، وهو يودّعه:

- تعرف الروسية جيداً... وعندك اسم إسلامي... — ثم أضاف مازحاً: — ونص القسم الذي قبلتموه اليوم ينص على تسليمنا أمثال والدك بрагونوف الذين هربوا إليكم.

- والناس الذين توفاهم الله من أمثال ميخائيل إيزوتوفيتش، والذين تحولوا إلى أبزاخ وغيروا دينهم، ولم تسألوا عنهم، ويعيشون بين ظهارينا، من رجال ونساء، ليسوا قلائل. ولكتهم لن يعودوا إليكم ولو سلموهم لكم... - وفي هذه اللحظة تمثلت أمام عينيه الفتاة الروسية نات - نات التي كان مرزخوي بكر يربيها. وتذكر عجبس ابن أخيه الأكبر عقّس.

الفصل الرابع

أصوات المنادين المجاورة التي ارتفعت وقت شرب الشاي على طريق قرية (تامبي حيله) كانت تقول شيئاً واحداً: "... الروس والأبزاخ أنجروا اتفاقاً يقضي بإيقاف سيل الدماء والعداء بين الطرفين...", "الجيش الروسي يتراجع وتعود إلينا مراعينا وأراضينا الزراعية...", "... ووعدوا بإجلاء القوزاق الذين وطنوهم في أرضنا...", "... افرحوا فالسلام يسود الأبزاخ!...", "... دعونا نشكر النبي محمد أمين¹ الذي أرسله الله العلي العظيم إلينا، والذي حمانا شر الكفار، ولتبتهل إليه أن يديعه على رؤوسنا..."

- ماذا يا ترى يقول المنادون ذوو الأشداء الواسعة؟ - ترجل مرزخوي بكر القادر من القرية المجاورة مغمماً، ولما لم تستقبله ابنته الصغيرة خلافاً لعادتها نادى باتجاه البيت: - أين أنت يا نات - نات، لماذا لم تستقبليني... إيه، وأنت يا ابنة آل تازه² أين احتفيت؟

¹ كذا! والحق أن ما أترجمه بعبارة "موقد الله" يمكن ببساطة أن يترجم بنبيه. بل إنّ محمد أفندي أحد أبطال هذه الرواية يصرّح أكثر من مرة بأنه نبي يتصل بالله. ولكنني تورّعْت عن استعمال كلمتي "نبي ورسول".

² من تقاليد الأديغة ألا ينطق الرجل اسم زوجته، بل يكتّي عنها بأيِّ اسم مستعار، أو تعبر مفهوم كما هنا.

حين دخل بكر إلى الممر سمع من خلال باب غرفة الجلوس المفتوح:

– لا تبكي يا ابنتي الصغيرة، يا نات – نات! هؤلاء سيقولون الكثير، والله لن أسلّمك لأحد!... وهاهو أبوك عائد...

– ماذا جرى لكمًا أنتما الاثنين؟

– ما زلت تقولون اطمئنوا – قالت زوجته جانشـر دون أن تترك ابنتها ذات الخمسة عشر عاماً تفارق حضنها – رميتمونا في مصيبة... ليرم الله نائـبـكم الذي جمعـكم وجـنـرـالـهـ الكـافـرـ في مـصـيـبـةـ لاـ مـخـرـجـ مـنـهـاـ!ـ أـلـاـ يـجـبـ أـنـ تـفـكـرـواـ فيـ ماـ تـقـولـونـ وـمـاـ تـفـعـلـونـ يـاـ مـنـ بـارـكـ اللهـ فـيـكـمـ؟ـ

– نـحنـ فـرـحـونـ بـالـسـلـامـ الـذـيـ أـقـنـاـهـ فـيـ بـلـادـ الـأـبـرـاخـ وـأـنـتـ يـاـ اـبـنـةـ آـلـ تـازـهـ تـلـعـنـنـاـ وـتـدـيـنـنـاـ.

– يـاـ بـكـرـ،ـ لـاـ سـمـحـ اللـهـ أـنـ الـعـنـكـ؛ـ وـهـلـ فـيـ الدـنـيـاـ فـرـحـةـ تـسـاـوـيـ رـؤـيـةـ السـلـامـ يـسـوـدـ أـسـرـتـكـ،ـ وـأـنـ تـعـيـشـ حـتـىـ فـرـحـةـ أـوـلـادـكـ؟ـ!ـ وـلـكـ هـذـاـ لـاـ يـنـطـقـ عـلـىـ أـسـرـتـنـاـ...ـ وـالـآنـ بـدـأـتـ الـأـمـ وـابـثـهـ الـبـكـاءـ مـعـاـ.

– أـيـ مـأـتـمـ تـقـيـمـانـ؟ـ!ـ – جـلـسـ بـعـدـمـ نـهـرـهـمـ بـدـلـاـ مـنـ أـنـ يـسـكـتـهـمـ.ـ ثـمـ خـاطـبـهـمـ بـصـوـتـ أـرـقـ وـهـوـ يـعـصـرـ سـوـطـهـ فـيـ رـاحـتـهـ:ـ أـخـبـرـنـيـ مـنـ أـسـاءـ إـلـيـكـمـ كـائـنـاـ مـنـ كـانـ.

– أـلـاـ تـسـمـعـ مـاـ يـعـلـنـ المـنـادـونـ؟ـ!

– هـؤـلـاءـ أـصـحـابـ الـأـفـوـاهـ الـوـاسـعـةـ لـاـ يـطـلـبـونـ إـلـاـ أـنـ يـجـبـرـونـاـ عـلـىـ الـفـرـحـ...ـ مـهـلـاـ،ـ مـهـلـاـ...ـ!ـ ...ـ لـمـ كـانـ الـجـلـسـ الـأـعـلـىـ لـلـأـبـرـاخـ قـرـرـ إـعـادـةـ الـفـارـيـنـ الـرـوـسـ إـلـىـ نـاحـيـتـنـاـ،ـ نـاحـيـةـ بـلـادـ الـأـدـيـغـةـ،ـ كـائـنـاـ مـنـ كـانـوـاـ،ـ سـوـاءـ كـانـوـاـ رـجـالـاـ أـمـ نـسـاءـ،ـ وـبـغـضـ النـظـرـ عـنـ أـعـمـارـهـمـ،ـ إـلـىـ أـصـحـابـهـمـ دـوـنـ مـقـابـلـ مـادـيـ،ـ فـلـاـ أـحـدـ يـسـتـطـعـ مـخـالـفـتـهـ...ـ!ـ – تـصـلـ الـكـلـمـاتـ إـلـىـ بـكـرـ،ـ وـيـشـهـدـ عـلـىـ مـاـ يـسـمـعـ:ـ

صحيح، هذا جزء من القرارات المتخذة في المؤتمر...

- نات¹، لن أذهب إلى أي مكان يا نات! - تنتزع نات - نات بقوامها الرشيق نفسها من أمها وتعلق بعنق أبيها - لا تسلّماني إليهم!

- كفى، لا تبكي يا ابني. وهل عجيبٌ إن اتخذوا مثل هذا القرار في الاجتماع؟... هذا لا يتعلق بك... بل بالرجال، بالرجال لابسي القبعات... لم يبق أحدٌ في قريتنا منهم بعد براعنه ميشكا الذي رحل إلى العالم الآخر. أنت لم تكُوني بلغت الثانية من عمرك حين وجدتُك على ساحل (فرزه) جالسةً على جثثمان أمك.

- نعم، يا ابني. عَبَرَ بك أبوك في تلك اللحظة المأساوية القرى القوزاقية وهو يسأل عن أسرتك، ولكن لم يعرفك أحد. لا نعرف اسم أسرتك، بل لا نعرف إلا أنك كنت تناذين نفسك قائلة: "نات - نات".

- حسنٌ أنكم لا تعرفون اسم أسرتي!... - أسرعت نات - نات بالقول وهي تمسح دموعها. ثم أخذت فجأة: - ولو لم يكن براعنه إسلام يعرف اسم أسرته القوزاقية لكان أفضل، وكذلك ابنه (زيش)...

- ما الذي يدفعك إلى هذا الكلام يا ابني؟ - سُأَلَ بكر ابنته مستغرباً ما يسمع، ونظر بطرف عينه إلى امرأته.

- وهذان، الأب والابن، رجالان، يلبسان قبعة... - قالت الصبية وعادت إلى جانب أمها.

- لهذا السبب تقولين!... - أخفى بكر ألم قلبه. ثم أضاف كأنه يخاطب نفسه

¹ الناء الأولى هي ضمير الملكية للمتكلّم الجمع، بمعنى "خاصّتنا" أو "ملّكتنا"، والثانية: نداء الأب الذي هو في اللغة الأدبيّة: "ته" بنصف فتحة، فيصبح المعنى: "أبانا" بافتراض حرف نداء قبله. وينحّل الأدبيّ غيرُ الطفل أن ينادي أباًه بضمير ملكية المفرد: يا أبي.

بلا معنى: - هؤلاء آل براعن، الأب عُقُس والابن إسلام، تحولا إلى أديغين حقيقين حتى لم تبق ضرورة للسؤال عنهم. - وأنهى بعد فاصل قصير: - وزبشن الذي أتيت على ذكره وابن عمّه عُجُّبْس شابان أديغيان لا يُعلى عليهم في أديغتيهم.

- وأنا فتاة أديغية! - جزمت الآن نات - نات.

- نعم، طبعاً، أنت فتاة أديغية. تفهم الله سبحانه مأساتنا فمنحك إيانا. - قالت جانشر هذا، وانفعلت من كلامها وبكت.

- هذه الآن مبالغة يا ابنة آل تازه، اسمعا، بدلاً من جلوسكم هكذا حضرا لي فطوراً.

- ها هو حالاً. - نضت الصبية بخفة وأحضرت الإبريق وحوض الغسيل، وقدمتهما لوالدتها ليغسل يديه، وأتبعتهما بالمنشفة.وها هي تقول له وهي تضع المائدة أمامه: - ما الذي يبرد الشاي المغلي في الموقد في ظل هذه الحرارة الشديدة، لا يزال ساخناً جداً. والبرك لا يزال ساخناً، كانت نانا غطته. وقشطة الجاموسة سميكه جداً. تفضل يا تات، بالهنا!

- هل قلت "الجاموسة"؟ - امتدح بكر ما سمعه مستغرباً: - ما أحسن ما لفظت اسمها الحقيقي¹!

- وهل نسيت يا بكر - كانت جانشر أيضاً مرتاحه لما سمعت - هذا مكان حمونا يسمى به الجاموس.

- وجدّي كان يحب قشطة الجاموس. - لم تبق الصبية خارج نقاش الأب والأم.

¹ ي يريد أن يقول إن اسمها المتداول هو حرفياً ثور الماء أو بقرة الماء.

- وأنتِ؟ - ابتسم بكر الذي كان يدهن البرك الساخن بالقشطة.

- وأنا أحبها!

- اجلسني إذن وكلّي معي قشطة الجاموسه!

- لا - صرخت نات - لن تقبل نانا. تقول إن رب الأسرة يجب أن يأكل وحده لينزل الطعام إلى معدته. تعالى يا نانا، دعينا نترك تات يأكل على راحتة. والآن هل تعرفان ما سأقول لكم؟ توقفا عن مناداتي بـ "نات - نات" ونادياني: **نَفَسَتِ**.

أعاد بكر اللقمة التي غمسها من الصحن الخزفي. وبدلأً من أن يقول لها "ليس تصرفًا صحيحًا أن أغير الاسم الذي سماك به أبواك إلى اسم أديغي" امتدح الاسم الروسي الذي تحول إلى اسم أديغي:

- لا يا ابتي، لا أعرف لماذا تطلبين تغيير اسمك وأنت تملكتين اسمًا جميلاً. أليس اسم "نات - نات" ما كان يناديك به جدُّك؟

- كان يُجليسني في حضنه قائلاً وهو يمسح على رأسي: "نات - نات طفلتي المدللة، أنتِ مثل لقمة طعام أو شربة ماء لي".

- نعم، نعم، يا صغيرتي. كان جدك يحملك على ظهره مردداً هذا الكلام. - لمحت جانشر لزوجها فيما تؤيد كلام ابنتها: - ربما تزيد تغيير اسمها لأن براعته عجبس يناديها باسم آخر ...

- وأيُّ اسم يعرفه هذا الشثار عجبس ينادي به ابنتنا؟ - سأله بكر غاضباً مُبعِدًا المائدة ولما يُكمِل طعامه.

- لا أعرف يا حسرتي، يضيف إلى "نات" اسمًا صعب النطق.

- ليس من أجل هذا نان... - قالت نات - نات بصوت منكسر، ثم حددت الاسم الذي يناديها به عجبس حين يكونان وحدهما: - ليس فقط

لأنه يناديني "ناتاشا - ناتالا" ... ألم تسمعوا ما قاله المنادون ...

- هل تسمعين يا ابنة آل تازه ما تقوله نات - نات؟ - سأل بكر وغضبه على زوجته أكبر من لومه لها، ثم واس ابنته بكلام ألطف: - لستِ أنتِ المعنية بهذا الأمر يا ابنتي، بل أنا.

" ألم تسمع ما يقوله هذا التافه عجبس حفيد بُراغُنه ميشكا لابنتنا الصغيرة؟! ... - يسأل بكر الذي لم يكمل فطوروه وهو يتفحص قوائم فرسه. - أيُّ "ناتاشا ناتالا" هذا الذي يناديها به؟ كثيرون من يظنون أن والدي هو من سماها نات - نات. حين وجدُهَا على ساحل (فرزه) وسألتها عن اسمها أجابته: نات - نات، واظبنا في أسرتنا على مناداتها بهذا الاسم. والآن بدؤوا حين أصبحت تتخذ قوام فتاة بالغة يعيدون إليها وعيها بهذا الاسم ناتاشا - ناتالا... وأضيف إلى القرار المتخذ من قبل فيليبسون مؤتمر الأبراخ بأن يُعاد إلى ذويه كل روسي انتقل إلى طرف الأبراخ. متى كانت نات - نات روسية؟! ليست هي بل نحن لا نذكر الأمر... ألسنة الناس التي لا تقل من الثرثرة تُذكّر بـ بما نسيت، وتنقلك بصدق الكذب... - جاء بكر مع القلق الذي ألم به إلى ظل الإسطبل. - وأنا بقيت أؤجل الأمر إلى اليوم والغد فلم أستطع هذا العام زيارة شجرة البلوط التي دفنت في قيئها المرحومة أمها. ولماذا أتكاسل وأمامي النهار بـ كماله؟ أنزه حصاني في الوقت نفسه، وأبلغ والدة نات - نات أن ابنته صارت صبية، وأُريخ ضميري..."

ركب بكر وخرج إلى ظاهر القرية، وحين بدا منزل بـ راغنه إسلام حاد بسرعة عن طريقه. استقبله مختار القرية إسلام كأنه كان في انتظار صديقه الأسن:

- تفضل يا بكر، تفضل!
- حياك الله يا إسلام، لم أقبل أن أتجاوز بـ بـ منزلك بعدما رأيتك.

- أرى في وجهك أمراً يُقلِّفك.
- ليس ما يُقلِّفني سراً. هذا موضوع أذاعه المنادون في القرية... القرار الذي أُخْذَ بإعادة الناس الذين صاروا جزءاً منا إلى القوزاق تحول إلى هم لابتنا. تبكي، تُفْنِي نفسها.
- وهذا هو الموضوع؟... - تظاهر إسلام بالضحك وأردفه برأيه: - إما أن المنادين لم يفهموا على نحوٍ صحيح ما بُلغناهم إياه وإما أنهم يتصرفون كما يريدون. ثم إن رجال الدين يمارسون نصيبيهم من التضليل في الموضوع.
- الآن فهمت. - وافق بكر على تفسير المختار. - ولا أعرف لماذا لا يسكت أخي الأصغر الإمام محمد... ارتاد المدرسة، وحجّ، وُنُصِّبَ إماماً على قرية تامي حبله فورّطونا. كان الأفضل من هذا، وقد بلغ الخمسين، لو تزوج...
- ما كنت لأُسْعِح لك أن تتكلّم على أخيك الإمام بهذه اللهجة لو لم يسمح "للإمام" التركي الجاسوس عبد الله أن يخدعه، ولو لم يقف إلى جانب نائب الداغستان القوموق¹ في ما قاله وفعله، وما لم يقله ولم يفعله... ولكن لا أعرف كيف يشمل القرار ابنتكم. آه حقاً، الآن فهمت. الآن، قبل لحظات كُلِّمْتُ المنادين ألا يُشيعوا ما لم يفهموه. قرار مجلس الأُبْرَاخ يتعلّق بالرجال الروس الذين انضموا بأنفسهم إلى الأُبْرَاخ. وإذا كانت ابنتكم فهمت الأمر هكذا فالقرار يشملني أيضاً. - سخر إسلام مما قاله بشأنه هو، واختتم كلامه: - ومع ذلك ففي اليوم الذي اختتمنا فيه مجلس الأُبْرَاخ وجّه لي الجنرال فيليبيسون الذي كنت أُترجم له، ونحن نشيعه، الكلام نفسه.
- إذا كان فيليبيسون وجّه إليك كلامه ففي القرية من يوجّه إلى نات - نات

¹ عرق بشري من أصول تركية يعيش في الداغستان. المعجم الأدبي.

الكلام نفسه... - ثم فصل بكر الذي لا يطأوه قلبه: - لا أكتمك أن ابنكم ُجُبِس يناديها بالروسية ناتاشا - ناتالا.

- لماذا قلت! - سأله برأُّه مستغرباً، ثم اختتم جازماً بالجواب الذي فهمه: - سأحرّم عليه من أجلك أن يثرثر متفاصلحاً بلغة والدي المرحوم الروسيه والقوزاقية.

- كفى يا برأُّه - ندم بكر على ما قاله. - لا تدعنا، وقد تقدمنا في العمر، نتدخل في شؤون أولادنا في ما يخص كلام المندلين. اسع؛ رافقني إن لم يكن لديك مانع إلى حيث أذهب.

- يا بكر، قل حين تحتاج: إمش معّي، وليس: إن كنت تريده، هكذا كان المرحوم والدك مِرْزَخُوي ووالدي ميشكا يقولان. سأركب معك، غير أني لن أسألك عن وجهتك.

الطبيعة جميلة لأن الخريف في منتصفه تماماً. وإذا أطللت على أعلى غابة (ُجُبِس) بدت سلسلة قمم بيضاء متراصفة من ناحية (طوابسه). والغابات الفسيحة التي تنزلق من هذه المرتفعات متتجاوزة حواف نهر شحه غواشه بعد ُجُبِس، وابتعدت إلى نواحي فرزه ونهر لابا، لا تشبع من النظر إلى الأوراق الحمراء - الصفراء لأشجارها. والشمس الباهتة التي حمّها قيظ الصيف ترتفع إلى وسط السماء. ورغم انقطاع النسيم فإنّ وقع حوافر الأحصنة ورفوفة أجنحة الطيور الفزعة منها تُسقط الأوراق الصفراء من الأشجار، فتتطاير في النسيم كالفراشات الملونة.

- هذا هو يا إسلام ما ححدث لنا... - قال بكر وهو يتسلقان أحد المرتفعات الواقعة بين ما يقواب وشحه غواشه حيث يضيق النهر. - نحن اعتدنا على بلاد الأباخ ذات الجمال الأخاذ غير أن الجميع يطمعون فيها.

- وليست بلاد الأبراخ وحدها، يمكن أن تبدأ من بلاد الوبيخ إلى القبرتاي مروراً بالشابسغ والمخشوش والبسلي، فتقول: كل بلاد الأدبعة مستهدفة. حتى في هذه اللحظة، رغم أننا صاحبنا الجيش الروسي في الأبراخ، نتجول فيها خائفين حذرين. الحق يا بكر أيها الكبير، أريد أن أسألك: ألا يمكن أن تُطلعني، ولو على نحو محدود، على المكان الذي نقصده دون أن نُعرق أنفسنا في قضايا الأديعة التي لا نهاية لها؟

- المكان الذي نقصده يا إسلام جزء من جوانب القضية الأديعية أيضاً فلا تستعجل. سأطلعك لنفقي بك على سرِّ من أسرار أسرتنا متى انحدرنا من المرتفع المقابل لنا، وصرينا بعد بضع غلوات على ضفة فرزه... - همز بكر حصانه فأسرع، ولم يتأخر إسلامُ المشغول بالله بالسر الذي لم ينكشف بعد. وبعدهما ما وصلنا إلى فرزه، وسارا بمحاذاة الضفة بعض الوقت، ترجل بكر عند شجرة البلوط الكبيرة، وأشار لصاحبه إلى القبر الذي يبرز منه حجرٌ شاهدٌ صار الآن بمستوى الأرض: - هذا قبر والدة نات - نات.

- ومن يعرف قبرها؟! - صرخ برأغْنِه إسلام مما سمع. - كيف تعرف أنه قبرها؟ - ربما كان الله أرسلني إلى الطفلة نات - نات... حين هربت إلى هذا الاتجاه يلاحقنا القوزاق. صادفت الطفلة التي تجلس إلى جثمان أمها المتوفاة، أنزلت الأم إلى الأرض، وجئت إلى البيت من كانت تسمى نفسها نات - نات... تعال نقف في حضرة القبر لأبلغ المرأة التي تسكنه بما جئت لأجله. ولكن لنقرأ لها دعاء قبل كل شيء، ولنختمه بـ آمين. - حين انتهى الاثنان من الدعاء وأيديهما مرفوعة إلى وجهيهما، قال بكر لإسلام: - وأنت يا إسلام أقرأ دعاء آخر.

- أي دعاء؟ ألم ندعُ معًا؟

- أتكلم على الدعاء الخاص بقومها الروس. سمعت مرة المرحوم أباك ميشكا يلُقِّنَكِ إِيَاهُ وَأَنْتَ صَغِيرٌ.

- كان والدي عَلَمْنِي "يا أباانا الذي في السماء..." - ما الذي جاء بهذه المسكينة وعندها هذه الطفلة إلى نواحينا؟" قال إسلام لنفسه، وأضاف لبكر: - أقول هذا ولكننا نحن أيضاً لا نفهم الدعاء بلغة القرآن... - لام نفسه، ثم صرَّح بسبب مجئه إلى القبر: - أعرف أنكِ روسية ولكن لا أعرف اسمك ولا نسبةكِ أيتها المرأة التي لم تشهد فرح ابنتها.وها قد جئتُ بصحبة إسلام ابن براغنة ميشكا الذي تحول إلى أديغى صميم بيننا واعتنق الإسلام لأقول لكِ: ارتحالي في قبرك، ولِيَجعَّلَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ! لا تقلقي على ابنتك، نحن نربيها. ومهما قاسينا من شقاء فمصيرها مصيرنا. ها هم أبناء قومك الروس والأرباح عقدوا صلحاً. ستعيش معاً كما كتب اللَّهُ عَلَيْنَا لأنَّ كُلَّ مَا يجري إِنَّما بأمره. في وقت ما في المستقبل حين تصبح نات - نات في سن البلوغ سأجيءُ بها إلى قبرك، وستمسح بيدها على شاهدة قبرك. وأنا أعمل ما يسعني من أجل ابنتك التي صارت ابنتي...

- نعم، نعم. - رأَيْتَ إسلام على كتف بكر المنفعل جداً - قدمت للمرأة المسكينة ما تستطيع دون أن تسأل عن أصلها. هيَّا إلى البيت فقد مالت الشمس إلى الغروب. - وبعدما مشيَا بعض الوقت لم يستطع إسلام أن يكتم ما فَكَرَ فيه وها عند القبر: - ما الذي أتى بالمرأة التي كانت تحضن الطفلة التي كانت تكاد تتعلم المشي؟

- ومن أين لنا أن نعرف؟ اللَّهُ وحده من يعلم. لو لم تكن في مشكلة كبيرة لما أتت المسكينة إلينا... - قال بكر لبراغنة مهوماً بما لا يُعرف: - ما رأيَتَ وما سمعتَ يبقى بيننا يا إسلام. - ثم أكمل بعد لأيٍ: - لا أدرِي لماذا فتحتُ لك

فليبي... رعما لأنه كان على أن أُنفَس عن ضيقِي، أو، لا تؤاخذني، لأن دمأً روسيًّا يجري في عروقك... لا أعلم، لا أعلم، الله سيفهمنا...

- نعم يا بكر، نعم، الله سيفهمنا وسيغمونا برحمته. هل يعرف أخوك الأصغر الإمام بهذا الموضوع؟

- نعم يعرف. طلبت منه أن يُقسم على القرآن - أسرع بكر بالحصان وقال لمن وراءه: - غير أني لا أثق بأخي الذي لا أراه في السنة إلا مرتين أو ثلاثة. الآن كانت أشعة الشمس الغاربة هي التي تُحرق دون دخان السحابة الرقيقة السوداء التي أسرَّها في كبد السماء...

الفصل الخامس

ظهرت في بلاد الأديعة في الشهرين التاليين للاتفاق الذي عُقد بين الأَبْرَاخ والجنرال فيليسيسون آراء وأقاويل كثيرة، فإذا أيدَ البدجوغ والقبرتاي والبسلي سلام الأَبْرَاخ فإن الشابسغ والوبيغ والساز - الأَبَاطَة اعتبروا الأَبْرَاخ مخدوعين ومدفعين إلى الخطأ. ولم يبق في أي مضافة ولا في أي اجتماع أو مؤتمر موضوعٌ أهمٌ من هذا. بل كلما اجتمع شخصان لم يتكلما إلا فيه.

والجنرال فيليسيسون الذي وجد فرصة لالتقاط أنفاسه، والذي يقول شيئاً ويفعل غيره لم يخلد إلى الراحة: كان يشقق طرقاً في الجبال تحت ستار خدمة الأَبْرَاخ البريئي النوايا. ويقتلع الغابات التي تقف أمام هذه الطرق، ويفتح الأسواق التي يبيع ويشتري فيها سكانُ الجبال الأَبْرَاخ، والقوزاقُ سكانُ البلدات الكبيرة المحيطة بالأَبْرَاخ. ويرسل الأطباء إلى الأَبْرَاخ إن احتاجوا، والأدوية، ولا يصرف الأَبْرَاخ الآتين إلى المستوصفات العسكرية دون معاييرهم. وإن احتاجوا أرسلهم إلى ما يقواب. وكان حريصاً على استمرار السلم بين الأَبْرَاخ والجنود الروس، وبين سكان البلدات القوزاقية الكبيرة وسكان القرى الأَبْرَاخ. ويحاسب كل من

يخالف القانون كائناً من كان. ولكن الحق أن كل هذه الإجراءات كانت لإرضاء القيسير الذي التزم أمامه، والقادم إلى بلاد الأديغة.

اقتنع أغلب الأباخ بالسر الذي يتضمنه اتفاق السلام، وكان أربعة فقط ليس بينهم أيٌّ أباخى يعرفون حقيقة الوضع: القيسير ألكسندر الثاني، والجنرال فيليسيون، ومحمد أمين النائب، وممثل القيسير في تفليس بارياتينسك. ومع أن الأخبار الأخرى التي يجري تناقلها في طول البلاد وعرضها كانت مجرد أقاويل بعضها صحيح وبعضها كاذب فقد كان الاتفاق أقرب إلى خدعة للأباخ. غير أنهم كانوا بعيدين عن الاقتناع بالخدعة؛ كانوا كمن أحسن بالنار غير أنه لم يحترق بها بعد.

كان الشابسغُ الذين تُشوى أراضيهم على نار القوزاق، والوبيخُ الذين تصل إلى أنوفهم رائحة هذا الشواء أشدَّ الناس قلقاً من الوضع. وجاء إلى بلاد الأباخ مندوبان عن هؤلاء، وهما زان قوه قارباتر، وبرزج جراندوقه، برفقة ثلاثة من الحرس، عبر الطريق الوحيد المفتوح الحالي من الجنود الروس، طريق طوابسه الجبلي، وتوقفا صباحاً عند مضافة النائب محمد أمين.

وفجأة طار الخبر في أرجاء الأباخ متنقلًا من قرية إلى أخرى. ووصل بريد الخيال المتابع من حاجخ إلى قلعة مايقواب في ساعة. وكان أمرُ الجنرال فيليسيون مختصرًا:

- لا يُسمح لموفدي الشابسغ الذين يقاتلوننا بالاحتكام بالأباخ الذين صالحونا. أوصلوا الأمر الذي يقضي بتسليمهما حالاً إلى النائب أسيالوف.

وكانت آراء الناس الذين وصل إليهم خبرُ موفدي الشابسغ والوبيخ مختلفة: "ماذا يريد الشابسغ الذين لا شأن لهم بنا حتى يأتوا إلينا؟" ، "وهل الوبيخ

الذين لا يعرفون أين يتوجهون أحسن من الشابسغ العنكوف¹؟ "، "كانوا يسخرون منا حين نرتاد أسواقهم على ساحل البحر ملقيين إيانا بالأذى الطحالب²، ويسليوننا جهاراً، "الروس الذين تصرّفنا بحكمة فصالختاهم يفتحون لنا عبر الجبال طرقاً لم تيسّر لنا طوال عمرنا، وافتتحوا لنا الأسواق دون حاجة إلى أن نذهب بعيداً. ويعالجون مرضانا، وخفّت صداماتنا القاتلة..."، "لو سمعنا كلام زان سفري الحكيم، والد زان قارياتر، وتشاورنا في موضوع الوحدة الأدبية لربما لم يجر لنا ما جرى..."، "الحاج بزوج جراندوقه رجل حكيم عاشر كثيراً من الناس وله خبرات عميقه، وقابل السلطان التركي..."، "لا تصدع رأسي ببروز ذي العمامة المتسخة..."، "الشابسغ المراوون والوبيخ والساز—الأباطحة الجُنُب ليسوا أناساً صالحين..."

عيب علينا - قال مرتضوي بكر لا يُطيق الجمع المتنافر الذي وجد نفسه فيه - لا تدعونا نتكلّم بسوء على الضيوف الذين عبروا كل هذا الطريق الخطير. سيسئونون إن وصلهم كلامنا. سيقولون عنا إن الأبرار تخلوا عن أديغتهم.

– ما يقوله الفلاح مرزاخي صحيح، – أيد غش مرزاخي بكرأً، وأبدى رأيه: لنصير بشأن ضيوفنا، لا تدعونا نتكلّم عليهم بسوء! هؤلاء أمامهم مهمة؛ لم يأتوا ضيوفاً في إقامة طويلة. أظن أن فطنة نائينا، وهو السبب في الصلح الذي دشنه الأبراخ المسلمين بفضل الله تعالى، وراء مجئهم إلينا.

— هذا حسنٌ يا مرزبِع، نحن مرتاحون إلى أن الله العلي العظيم الذي نبتهل إليه ولا يحتاج هو إلى أحد كلف نائينا بهذه المهمة. — قال غمشت مولي الذي لم

¹ كان من المكونات الرئيسية للأديغة.

² ربما يقصد باللقب كون الأباخ فردان كالطحالب التي هي مجموعة خلايا تدوم الواحدة إلى جانب الأخرى بلا جذور ولا سقان ولا أزهار.

يكفي باعتناقك الإسلام بل ارتدى القلنسوة البيضاء المسندة على أذنيه، والتي تشهد، لا على على صحة إسلامه فحسب، بل على عمله بتعاليمه. – ولكن يسرنا أن نُطلعنا على ما جاءنا به ضيوفنا؛ ألسنت يا مربِّيَّ موضع ثقة نائينا محمد أمين وساعدته الأيمن. وسيرضي الله عنك، ويغمرك برحمته.

– بعد الله سبحانه وتعالى، وبعد موَّده محمد النائب، وبفضل المهمة التي أسندوها إليّ في شأن قضية الأَبْرَاج، نحن أيضًا نعرف طرفاً من الموضوع – قال مربِّيَّ معتداً بنفسه، قائلًا في سرّه: "توقعت أن يسألني هذا المنحوس، ضيف كل الموائد، ما لا يخطر لغيره من الناس"، واختتم بكلام يوحى بالريبة والخوف: – ولكن الأفضل ألا تسأل عن سر رجال البلاد الأربع الذين يتداولون في المضافة أسرار البلاد. لن تكونوا بعيدين عن الساحة حين يحتاجونكم أو يستشرونكم.

– نعم يا مربِّيَّ، نعم أيها الكبير. أنت فطين، تختلف عنا. استفدت كثيراً من حكمة النائب. – لا يزال الفلاح الذي ثبت عليه اسم "مولى" يسأل – لا أعرف رابع الذين سمّيَّهم رجال البلاد الأربع. من هو يا ثرى؟ – من طرف الشابسغ زان قوه، ومن طرف الوبيخ بزرج، ومن طرف الأَبْرَاج أسيالوف النائب؛ أيكون من نسيت ذكره هو مثل مخاتير الأَبْرَاج جاري برج حسن بي؟ بدأ بعض الفلاحين الذين رأوا غش مربِّيَّ موضع ذا الأنف الكبير والعينين الواسعتين والشفتين الغليظتين والذقن الناتعة يزداد سواداً على سواد يبتعدون خلسة. وفي اللحظة نفسها اضطرب حشدُ الأَبْرَاج الذين رأوا مجموعة من الجنود الفرسان الروس قادمةً من جهة حاجخ، محترفين في تأوييل سبب ظهورهم. ونادي داور بجز المارس على درج المضافة العامة:

– إهدؤوا؛ لا خطر! وأنت يا مَرْتَوْقَه اصحاب براوغه إسلام ومرزخوي بكر

وغش مرزِّيغ واستقبلوا الروس بسلام. — أوكَلَ مهمة استقبال الضيوف إلى متنقذ آل أَفْمَعْتُ، ودخل هو إلى غرفة الضيوف متمهلاً.
— كان كبيِّرُنا زان قوه سفري يقول إن العالم يسير على قوانينه الواضحة — توقف داور بجز عند الباب كي لا يقطع كلام الحاج برزج، مع أن الخبر الذي وصل إليهم كان مما لا يُتوقع. — النهار يتبعه الليل، والشمس الغاربة تُشرق من جديد. وبعد الشتاء ربيع، والصيف يتبعه الخريف، والثلج يسقط، والمطر يهطل، وليس الرعد والبرق دائمي الحضور. ما يحدث في العالم كثير... والأديعة الذين لهم لغة وعادات وتقالييد واحدة، العِرْقُ المفتت الذي يأنف من الوحدة والاتفاق، جزءٌ من هذا العالم... نعم يا قارباتر قلت كلاماً جيداً. حتى اللقالق التي تهاجر إلى الجنوب تعيش متحدة متعاونة راضية بمن يتزعمها، مطيعة له. ولولا هذه الوحدة والانصياع لتأهت اللقالق في الطريق، وتبددت وسط السماء. وهذه الوحدة يا قارباتر هي التي كان يسعى إليها والدك سفري طوال عمره. انظروا إلى أين أودى بنا ما لم نستطيع تحقيقه.

— أوقفك يا ضيفنا العزيز في أن الدنيا التي يمتحننا فيه الله العلي العظيم لها نظام واضح. — قال أسيالوف النائب لنفسه مبتسماً في سرِّه: "أظن هؤلاء جاؤوا ليحاسبونا لأنني دفعت الأَبْرَاجَ إلى أن يفعلوا ما لم يستطيعوه طوال عمرهم، ولكن من جهتي أنا لن تستخلصوا شيئاً مني. راحلة طرقي جاهزة" وأنتم أيضاً تعرفون أنه لا يجوز لمسلم أن يتناهى أن كل ما يجري إنما يجري بعلم الله العلي العظيم. ولأن الأَبْرَاجَ أدركوا هذا فقد منحوا قضية السلم الأولوية، وجعلوا من أنفسهم مثلاً لأبناء قومهم الأديعة... لن أكتم أني أنا وزان قوه سفري — ليجعل الله الجنة مأواه — لا تتفق أقوالنا وأفعالنا، بل كنا يُشهر أحْدُنَا السلاح في وجه الآخر. ولما كان الله هو من يقيِّم الحق فليُغفِّر لنا كلينا... —

قال النائب، ثم أضاف: - ومع ذلك فقد بقي في ذاكرة الأديعة مثالاً الرجل الحكيم. ولو أصغينا لرأيه لربما ما وصلنا إلى ما وصلنا إليه. ولكن لا تدعونا نعتبر ما حققه الأarezax خطأً مع أن الأديعة يفضلون الرأي الخمير على الرأي الفطير. وأنت يا زعيم مخاتير الأarezax برج حسن بي لماذا لا تساهم في النقاش؟ - وماذا أضيف واليوم الذي سيظهر فيه الحق ربما ينتظرونا... - قال برج حسن بي الذي لم يكن يطيق كلام النائب.

- نعم يا حسن بي، نعم - قال النائب كأنه مستعد للإجابة عما سمع - أمامنا جنة الله الأحد الذي نبتهل إليه أن ينظر إلينا بعين الرضا وجهنم. ما الأمر يا داور؟ أهناك ما يُقلّق؟

- ظهر عدد من الجنود الروس في ظاهر البلدة فأرسلت عدداً من فرساننا بقيادة ألمع مرتزقة لاستقبالهم. وأمرت العامة المحتشدين أن يكونوا مهذبين في ملاقاً تهم.

- حسناً فعلت يا داور. ماذا ينون يا ترى؟ أليس عجياً أن يتصادف مجئكم ومجئهم؟!... هيا جددوا المائدة! وهملاً سنتقبلهم حسب عاداتنا.

- لا أيها النائب - جزم زان قوه قارباتر - لم نأت إليك لنجلس على المائدة مع موفدي جيش القيصر الذي في الأديعة على يديه. فهمنا أنه لا خير في مجئهم. ومع ذلك، فبعدما سمعنا وقع حوار أصدقائك أعدائنا، لن ننقض عاداتنا الأزلية إن وافقني صاحب الأحسن، لأن الأديعة يرون أن الضيف يقرر متى يأتي، والمضيف يقرر متى ينصرف.

- أنت على حق يا قارباتر - وافق الحاج برج رفيقه الأصغر سناً، واختتم مبتسماً: ولكننا لن نسمِّ النائب الذي نحن في ضيافته بالقول المأثور - "من يكره الضيف لا يُضجع لحمه"، ولا نشك في قولهم "ضيف الأديعة في مأمن".

فإن تصرفنا كما سبق وقلت يا قارباتر فسيعيب علينا الأبزاخ، ولن يقبل مضيفنا سلوكنا.

- أهملت في ما قلت أيها الحاج، يا من جعل الله يومه مئّة، قوله "الضيف لا ينزل على ضيف آخر"¹ وأضيف إلى "المضيف يكره استقبال ضيفين معاً" كما أن الضيف لا يحب ضيفاً آخر معه". ولكننا مهما تصرفنا معهم وتصرفاً فلن نقارنكم بهم فنقتل روح الأديمة فينا. هيا يا داور لا تتأخروا في معرفة نوايا الضيوف غير المنتظرين!

رجع داور بجز قبل أن يمضي وقت طويل إلى الغرفة.

- أنت أيها النائب مقصود مجموعة الجنود الروس الذين لا ينون الترجل عندنا، ويقودهم الكابتن الركن سيرديوكوف.

- وأمثال هؤلاء العديمي العادات لا يجوز استقبالهم... - استأذن النائب ضيوفه قائلاً لنفسه: "لاشك أن أحدهم أبلغهم باستقبال ضيوفنا": - إذا سمحتم لي ولم تؤاخذوني فسأقابل الكفار الذين على باب الدار. وأنت يا حسن بي أرجو أن تشاغل ضيوفنا الأعزاء.

كان الجنود العشرة يقفون في ثلاثة أرتال يتوسطها القائد كما وصفهم داور. والفرسان الثلاثة المرافقون لأعمدة مرتوقه يقفون أمامهم على صهوات خيالهم. والعامّة يملؤون الفسحة المقابلة لمنزل محمد أمين. والنائب يقول لسيرديوكوف الكابتن كأنه يراه لأول مرة:

- ترجل أنت أيضاً لأنّي أنا على الأرض فأقضي واجبك.

- هذه الورقة المتضمنة الاحتجاج - قال الكابتن بعدما ترجل - كتبها إليك

¹ يعني تحبّذ انتصار الضيف الأول بمحيء الثاني.

الجنرال فيليبيسون الذي أقام الصلح مع الأ祚اخ.

- استلم يا إسلام الورقة التي أرسلها الجنرال فيليبيسون، وترجمها لنا على مسمع من الجميع إذ لا سرّ بيننا.

- "هذا الاحتجاج موجه إلى زعيم الأ祚اخ محمد أمين أسيالوف النائب. يترجمُ براعته إسلام إلى الأديغية - وصلنا خبرُ استقبالك أعداءنا الذين لم يصالحونا زعماء الشابسغ والوبيخ فنبِّلِغُك أن زعيم الأ祚اخ المتصالحين معنا لا يحق له أن يفعل مثل هذا. وعليك أن تُبعِّدَ حالاً ضيوفك الذين ينقضون صلحنا من إقليم الأ祚اخ على مرأى من موْفَديِّ لأننا نعرف أنك غير قادر على تسليمهم لنا. ونلحّ عليك ألا تكرر مثل هذه التصرفات. وأنظر الجواب.

التوقيع: قائد جيوش شمال غرب القفقاس فيليبيسون"

- هل سمعتم أيها الأ祚اخ أننا لا يجوز أن ننقض اتفاق الصلح؟ - سأل محمد أمين مُسِّعِاً المحتشدين على الباب، والأبعد، والضيوف في الغرفة، ثم صاح الموقف بسرعة: - ولكن هذا لا يعني ألا يختلط بنا أحد، ولا ألا تزوروا أنتم أقرباءكم وأبناء عشائركم وأهاليكم الأبعدين. ليس الأ祚اخ من الناس الذين يعلقون أبوابهم على أنفسهم ويحبسونها في بيوتهم، ولا من يقاطعون جيرانهم، أو يعزلون عن أبناء قومهم. إنهم أناس صالحون، يُعِّزِّزُون الضيف، ويقولون الحق.

- أنت على حق يا نائب - وافقه أحد الفلاحين.

- وهم أحرار - أضاف غيره.

- وليسوا محروميين من الرجلة!

- لا يصالحون الكفار بل يقتلونهم.

- اهدؤوا لحظة أيها الأ祚اخ يا أمة محمد! - رفع النائب يده في وجه الناس المتورعين، وتوجه إلى موْفَديِّ القيصر:

- أتسمعون هؤلاء وترونهم؟... جواب هؤلاء هو ما ستنقلونه إلى من أوفدوكم.

- ونادى أفعى قائلًا لنفسه: "يجب أن أنجو بجلمدي حالاً من هؤلاء، لا يجوز أن أقيم فيهم مزيداً من الوقت" - اعتبروا بـهؤلاء ساللين إلى خارج الإقليم.

- وحين عاد النائب أسيالوف إلى الغرفة بـرأ نفسه أمام برج حسن مخفياً ما يعتمل في قلبه، متظاهراً بالندم على الصلح الذي أقامه مع الجيش الروسي: - ما كان يجوز الوثوق بجيش الكفار لو كنت أصغيت إلى نصائحك أحياناً يا حسن بي، يتدخل في ما يعنيه وما لا يعنيه... - ثم توجه بالكلام إلى الحضور: - لا داعي للقلق أيها الضيوف. اطمئنوا. لن نتصرف كما يطلبون منا. سمعتم ما قال العامة الأبخى، ونحن نؤيدكم. ولكن حتى لو لم يكن إلا العيب فقد جعلني ما حدث أفكر في وجود جواسيس بيننا. ستعامل مع هؤلاء ما إن تتخذوا طريقكم. لو توقفتم أيها الضيوف الأعزاء، ولو لم ينصرف العامة جعلتكم تتحدثون إليهم. والأفضل لو استطعنا جـعـكم بـمـخـاتـيرـ القرى... نحن الأبخى قـيـدـناـ أنـفـسـنـاـ عـلـىـ مـاـ يـبـدوـ،ـ لمـ نـعـدـ أحـرـارـاـ فـيـ مـاـ نـقـولـ أوـ نـفـعـلـ فـيـ بـلـادـنـاـ.

- لا داعي للقلق كما هو رأيك يا محمد أمين فلا تلم نفسك إلى هذا الحد. - قال بـرـزـجـ الحاجـ الذيـ يـعـرـفـ حـبـثـ محمدـ أمـينـ - نـعـرـفـ وـضـعـكـ،ـ وـقـدـ تـفـهـمـنـاـهـ.ـ كـانـ الأـفـضـلـ لـوـ اـجـهـتـمـ إـلـيـنـاـ قـبـلـ أـنـ يـصـدـأـ القـيـدـ الـذـيـ قـيـدـتـمـ بـهـ أـنـفـسـكـمـ دـوـنـ أـنـ تـنـتـظـرـوـ اـنـكـسـارـهـ مـنـ تـلـقـاءـ نـفـسـهـ.ـ هـيـاـ يـاـ قـارـيـاتـرـ،ـ سـنـرـكـبـ طـرـيقـنـاـ وـالـنـهـارـ أـمـامـنـاـ.ـ لـاـ نـعـرـفـ مـاـ يـجـريـ فـيـ نـوـاحـيـنـاـ مـنـذـ الـبـارـحةـ.

- لـاـ تـظـنـوـ أـنـاـ مـلـلـنـاـ مـنـكـمـ،ـ وـأـنـاـ نـطـلـبـ مـنـكـمـ الإـسـرـاعـ فـيـ الرـحـيلـ إـنـ قـلـنـاـ لـكـمـ رـافـقـتـكـمـ السـلـامـةـ يـاـ ضـيـوفـنـاـ الـأـعـزـاءـ.ـ دـنـيـانـاـ الـتـيـ نـعـيـشـهـاـ هـيـ دـارـ اـبـتـلـانـاـ مـنـ الـلـهـ سـبـحـانـهـ.ـ قـالـ النـائـبـ دـوـنـ نـفـاقـ وـإـنـ كـانـ اـرـتـاحـ لـمـ سـمـعـهـ مـنـ الضـيـوفـ.ـ ثـمـ

توجه إلى برج وقال له: - دون أن نثير الشغب يا حسن بي أنا سأشيع الضيوف، وأنت تابع مهام المختار التي تُشيع المدوع في صفوف الأبراخ.

الفصل السادس

- لماذا احتشد كل هذا العدد؟ حتى الطريق لا يسعنا! - قال النائب وهو يودع ضيوفه إلى الطريق السري الذي يعرفه هو - ليبيق مزبوج إلى جانبي رفقاء، وليرعى الآخرون. - وحين وصلوا إلى الطريق الذي يريدها بعدها مشوا قرابة نصف ساعة، دلّ الضيوف على الطريق باختصار: - لن ندخل في مراسم الترجل والمصافحة يا بزوج ويا زان قوه. أدلّكم على الطريق الذي لا يعرفه غيري لأننا مسلمون بينما ثقة متبادلة. ستصلون مرتاحين إلى شاطئ بحركم إذا سرتم بكل جدٍ على هذا الطريق حتى تغيب الشمس الحمراء وراء جبل آزشت. مع السلامة، لتبقوا في صحة جيدة. من غير الله يعرف متى نلتقي ثانية؟ وأين سنجتمع إذا لم يكن أحد غيره يعرف الطريق الذي خطّه لنا؟... - استدار محمد أمين فجأة بمحضه وأسرع قائلاً لنفسه "حين جمعني الله الأحد إلى إخوانى في الدين، لا في الأصل، الأديغة - الأبراخ فعلت لأجلهم كل ما استطعت بما أmediت من قوة. وما تحقق لي كثيرٌ، وما لم يتحقق ليس قليلاً... ومن أين جاء الكفار الذين هاجمنا؟... وما أقواهم! طردو الفرس الذين احتلوا القفقاس، وقربوا إليهم الكُرج¹ والأرمن. واحتلوا بلاد الشيشان والداغستان وغزوا بلاد الأديغة باتجاه البحر الأسود... لا أقول هذا عن ضعف في قلبي؛ فافهموني وارحمني يا إلهي العظيم. لا أمل لي غيرك وإن أخطأت في ما أهدف إلى فعله وفي ما سأفعل. لا يأس أن يكون مصيري مصير موذك الشيخ شامل... لا

¹ سكان جورجيا.

أعني بهذا أني لا أتألم لمصير الأبراخ السليمي التوايا الذين وزعت فيهم شبابي ومعتقدي، ولا أنهم خانوني. من عرف، وكيف كنا سنعرف أن كل ما حدث لنا كان سيحدث؟ وكما فهمت الآن متأخراً لم أفك في أن أجد في تركيا التي كانت تخدعنا وتُضلّلنا مكاناً آمناً. والآن ما شأن روسيا التي سأتجه إليها؟..."

– الشمس غابت يا نائب، والطبيعة هادئة تماماً... – قال غش مربزج، فصحا محمد أمين من أفكاره.

– ماذا قلت يا مربزج؟ نعم، والشمس غابت، والدنيا هادئة... أظن أن ضيوفنا وصلوا إلى مرتفع طوابسه. وكيف سيعرف هؤلاء الأديغة القلقون ما يتظارهم في المكان الذي يتوجهون إليه من نار الحرب الهائلة؟ هذا هو ترتيب دنيانا العارية يا مربزج: تغيب الشمس فيظهر القمر، وتحتشد النجوم في السماء. هذه المصايب الخافتة أليس مصدرها قلعة مايقواب؟... تعال لندخل إليها. ونكتب وذ الجنرال فيليسيون الذي يجفونا اليوم. ولكن يا مربزج، بما أننا أنت وأنا يثق أحدهنا بالآخر، فأنت لم تر شيئاً ولم تسمع.

تنصّت الفارسان حين اعتليا طرف مرتفع مايقواب: مع أن كل شجرة صامتة في قلب الغابة تخفي وراءها خطراً فهما أيضاً لا يصدران صوتاً سوى صوت تنفسهما. ونهر شحمة غواشه المائج يشبه حياة الأبراخ المضطربة. وتتصدر من الصفة الأخرى بعض أصوات الكلاب. وتبدو المنعة الروسية من بين أسنة النار الموقدة إلى جانب المراصد الثلاثة العالية.

حين خرج الفارسان من غابة المرتفع ووصلوا إلى ضفة النهر اعترضهما المستطعون القوزاق الثلاثة:

– توقفا، من أنتما؟

– آرشت" – حين قال لهم النائب بكل برادة كلمة السر فتحوا لهما الطريق،

وذهب بهما الفارس القوزاقي الثالث إلى باب الجنرال فيليبيسون مع عدد من الفرسان.

- كنت واثقاً أيها النائب من مجيك، ولكن ليس هذا المساء. — استقبل الجنرال ضيفه الليلي بفتور مع أنه كان سعيداً بقدومه.

- لو كان كل ما نشهي في دنيانا الفانية يجري كما نريد أيها الجنرال... — بدأ النائب محمد أمين أسيالوف يناور حول الجواب، واختتم باللخرج: — من كان يعرف أن زعماء الشابسغ والوبيخ سيأتون إلينا. وأن ثوصل إلينا احتجاجك في وقت قدومهم تماماً... — ثم أضاف متضنعاً المزاح: — تعرف على ما ييدو يا جنرال كل ذبابة تطير في الأبراخ.

- بدأت معرفتي بالأمر منذ هذا الصيف يا زعيم الأبراخ — رد فيليبيسون بالمزاح. — ولكن علينا أن نعرف أيضاً كيف ستتصرف معنا حبات ندفع ثلث الشتاء، وكيف سيتعامل معنا الأبراخ الذين سيثير دفء الربيع قلوبهم. ولما كان كل منا موضع ثقة الآخر فسأقول لك ما عرفت من أمرك اليوم: لم يعد الطريق الذي عدت به بضيوفك سراً، لا عليك ولا علينا.

- عرجت عليك يا جنرال لأنني توقعت هذا منك. ولكن لماذا نصدع رأسيينا اليوم بما لم يعد له قيمة. هناك طرق سرية أخرى تتفرع من جبال الأبراخ... ولا أظنك تجهلها. أنا قمت بما يتربّع علىّ من ناحيتك. وما يشغل بالي اليوم هو كيف سأفارق الأبراخ الذين ترعمتهم عشر سنوات. فهمت يا غريغوري إيفانوفيتش ما تزيد أن تقوله. لا أستطيع ولو أسرّتني الآن أن أهتمك بسوء التصرف معي، ولكننا كلينا نعرف أن الأبراخ لن يقبلوا منك هذا الإجراء. وكما كنا اتفقنا قبل إبرام الصلح، فلو أخرجتني من بينهم قائلاً: "يكفي ما ترعمت الأبراخ الذين لست منهم" لتوجهت إليكم وضميري راضٍ بما أقول وأفعل.

وأرجو أن يفهمني الله ويرحمني في هذا السلوك.

"ما جرى لهذا الحال مماثل ينطبق عليه قوله: "في أوقات الضيق كلّ وما ينقد به نفسه" – ابتسם الجنرال فيليسيون – الشيخ شامل الذي أسرناه، وهذا الذي أمامي يتصنّع الإمامة أليا علينا معظم سكان إقليم الأديعة، شمال القفقاس باسم الحرب الدينية، والآن بعدما أخفقا يتولّان إلينا. وكما يقول الأديعة أنفسهم "لا تخرج ولا تدخل ولا تقع عيني عليك وأنت في البيت"، أو إذا أردت تعبيراً أدقّ يريد أن يخرج من الموقف وحاله "نصح لحمه ولم يسُود سيخه". ونحن قادرون أن نقدم لك مثل هذه الخدمة دون أن نخسر الكثير. من حسن حظك أنك أطعّتنا متحللاً بالفطنة والخبث في ما يعود عليك بالفائدة، فحملت مرؤوسيك الأبخاخ على إطاعتنا في "قضية الصلح". ولو أطعنناهم الآن على حقيقتك وأيمانك الكاذبة لمزقك إرباً إرباً. ولكننا لن نخدم بأيدينا أساس الجسر الذي أقمناه. أقمنا الجسر معًا ولبيق على رأسه عصوبينا الخيرُ المرئي، والشرُ الخفي... إنه يحتمي بنا في الوقت الذي يُعْزَّز فيه الأبخاخ. وسأقول له ما أعرفه عنه في هذا الشأن".

– أظنّ أيها النائب أن الأبخاخ مرؤوسيك يعاملونك كما تعاملهم؟ – سأل فيليسيون طارق الليل.

– لا أعرف لماذا تقول هكذا أيها الجنرال. – جفل محمد أمين من السؤال المفاجئ، وأعاد السؤال بسرعة، ناطقاً باسم المضيف، وبصوت أدعى إلى الثقة: – أهناك مشكلة ثارت من ورائي ولا أعرفها يا غريغوري إيفانوفيتش؟

– لأني أتساءل: من يعرف إن لم يكن هناك مثل هذا... نحن في دنيا لا نعرف فيها ما سيحدث في يومنا، دعكَ مما سيحدث غداً.

– أنت على حق في هذا يا جنرال. أوقفك الرأي. من كان يعرف أن الأبخاخ

الذين عاشوا عمرهم أحجار القلوب والعقول سيصالحونكم؟ حتى أنا لم أصدق حتى حدث ما حدث. كما يقال: المضطرب يتسلق ضفة النهر العمودية، فلا أقول إنه ليس بين من طوّعُتهم من لا يحبني، ومن لا ينظر إلى شرراً، ومن يصفني بالغريب. ولذا، ولأن من كسبوا القضية ينظرون إلينا بعيون مختلفة، كيف لي أن أعرف ما سيقرره هؤلاء بحقي غداً أو بعد غد. أود أن أفارقهم دون مزيد من التأخير.

- ماذا تتأمل مني أيها النائب في شأنك؟

- سأجمع هيئة المخاتير يوم الجمعة القادمة، ولذا أتمنى أن تخبروها في ذلك اليوم أنكم تأخذونني من بينهم كما فعلتم بالشيخ شامل. ولن يخرج الأبراخ عن طاعتكم في ما ستقرروننه بشأني لأنهم يفتخرنون دائماً بأن تستشيرهم. وإذا كان الأمر بيدي فسأرفقكم حالاً على طريق بطرسبورغ على حسابي.

- والأسرة؟ - بدا من صوت فيليسيون قلقه الشخصي على أسرته هو البعيدة.

- ستبقى أسرتي بين الأبراخ وهي منهم في الأصل. - أجاب باختصار النائب أسيالوف الجاهز مثل هذا السؤال، ثم صحق التعبير: - وهذه لن يسمح الله أن أهجرها. لابد أن يجعوني بها يوماً ما. إن شئتم دعوا الأبراخ يصدقون أي أسييركم... - أنهى محمد أمين الآن بصوت أحْفَتَ.

- لا، يا نائب - أفلق فيليسيون المسألة غير المنتظرة - لا تدعنا نتتَرَفْ هذا الخطأ. سنخسر ما قلنا وما فعلنا إذا سمع الأبراخ كلمة "أسيير". لا أهمية لمن يوْدَك ومن لا يوْدَك ما دمت زعيم الأبراخ. سُتُدْعى إلى سان - بطرسبورغ لحل موضوع ما يريده الأبراخ وما لا يريدونه.

- هذا حلّ جيد يا جنرال. سأتصرف كما تقررون. لا أريد منكم إلا أن تعبروا بي نهر بشزه.

- لن نوصلك إلى نهر بشره وحدنا - طمأن الجنرال النائب الذي كان يسمى نفسه الأسير. - سنجعل الأبخاخ يشيعونك إلى النهر برفقة مئة فارس.

- هذا رقم كبير يا جنرال. - اختتم النائب الذي عادت إليه الروح مازحاً مع الجنرال - حسناً سنرى ما يأمر به الله.

- وهذا صحيح. ونحن سندعو الله من أجل أن يتحقق لك كل ما تريده. وسنعضدك. ولكن من يصلح زعيماً للأبخاخ من المقربين إليك؟

- لو سألت أي رجل من الأبخاخ، بمن فيهم حارسي مربزج، - ابتسם محمد أمين - لما وجدت بينهم من يعترض. لهذا كان الشيخ شامل أرسلني إليهم حين زاروه في الداغستان على شكل وفد من زعاماتهم... برج من بينهم رجل حكيم فطّن، وخبيث، ولكنه غير أهل للثقة. وداور وأفمعت وتسى ليسوا أفضل منه... والحق يا جنرال ما حاجتكم إلى زعيم ذكي؟ ألا يكفي أن تختاروا من بينهم صاحب قبعة كبيرة يفخر بنفسه إن أشار بإصبعه إشارة مهينة؟...

"لم نعد نزيد شيئاً إلا أن تفارق الأبخاخ الذين يسمونك بالداغستان القوموق¹" - صافح الجنرال النائب مودعاً وهو يكظم غيظه - لا تعليمتنا ما يجب أن نفعل وما لا نفعل في حين أن ما على لسانك غير ما في قلبك. تسخر من الأبخاخ معتقداً أنه ليس بينهم من يصلح أن يحل محلك لأن غايتك لم تتحقق... لو لمّحنا لهم مجرد تلميح إلى خداعك لهم لاستلوا روحك ولو لم يبق إلا صاحبك مربزج ذو الرأس الهزاز. ولكننا لن نضرّ أنفسنا بأن نُقحمنها في هذا الموضوع. المكان الذي ستصحبك إليه اتسع لكثيرين من أمثالك. ستتجد أنت أيضاً نوعاً من الملجم...".

¹ تسمية النائب باسم قبيلته الداغستانية على جاري العادة بمناداة الشخص باسم أسرته أو عشيرته.

- مع السالمة يا نائب - قال فيليسيون لضيفه الليلي كاتماً حقيقة مشاعره نحوه، وابتسم له - لا أطلك تحتاج إلى مرافقين من الفرسان في نواحينا.
- إن قلت لك نعم - لا تحرّني إلى الخطأ يا جنرال - لن يقبل مني ليلي المظلوم وطريقي السري... - مزح النائب مع فيليسيون، وحدد بصوت أهداً اليوم المتفق عليه: - الجمعة القادمة موعدنا.

الفصل السابع

السفر غير السري لـ محمد أمين قسم الأبراخ - على غير ما توقع - إلى فريقين: المحتشدون على ضفاف نهر شحه غواشه، ونهر قُجبس، ونهر فَرْزَيشه فريق؛ وأهل توبا المقيمون في الجبل، وسكان طوابسه الواقعة على الشاطئ فريق آخر. الأولون الذين صالحوا جيش القيصر المتمرد قريباً جداً منهم، وإن كانوا يعيشون اليوم في سلام، مهمومون بما سيحدث لهم غداً. وهذا القلق يثير فيهم أقوالاً متفاوتة. والفريق الثاني الذين وصلتهم أخبار الجيش المعادي والصلح قيلاً عن قيل يعيش أكثرهم ، ولا يعرفون بعد حقيقة العدو ، يعيشون وأملهم ومنعهم هما انعدام الطرق إلى أماكن سكنهما. وهناك من لا يهمهم شيء مهما جرى في الأبراخ ما لم يمسّهم أنفسهم.

ولكن أغرب شيء هو أن الطرفين - ومعهما الطرف الثالث - وإن اتفقا في الاجتماع الأعلى للأبراخ الذي عُقد اليوم لمناقشة موضوع محمد أمين، في جو بارد كثير المطر، اختتموا يومهم دون أن يحملوا الأمر ما لا يحتمل، بصلة الجمعة بإماماة محمد أمين نفسه.

- حياكم الله أيها الأبراخ، أنا راضٍ عنكم - خاطبهم محمد أمين ذو الواحد والأربعين عاماً بصوت حادٍ ، كاتماً قلقه من الرحلة الطويلة التي تنتظره، ومن الاستقبال المتوقع له حيث يذهب. ثم استراح وأراح السامعين قليلاً، وأضاف:

- لينشر الله بينكم الوفاق، ليكن الله دائمًا في قلوبكم؛ إنه رحيم. أعزوه؛ من يسكن الله قلبه فالجنة بانتظاره. ومن ينسه فطريقه سراط جهنم الضيق. الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر! — كرر ثلاث مرات متتالية، وأنهى نداءه: — أنا حان موعد رحلتي وهؤلاء الفرسان الكفار المودعون — ونظر باتجاه الريف الذي أقسموا فيه على الوفاء للاتفاق، وقال:

— لن ندعهم ينتظروننا.

- مع السلام يا نائب، رافقك الحظ السعيد! — قال أحد العامة المكلف بأن يقول هذا.

- أتدعوا لأجله بعدها شتتنا؟! — رد عليه غيره.

- أيفرقنا من يتابع أمور الأبزاخ؟.. — سأله حزيناً بلاخوه مزحب¹.

- أتسمع ما يقول هؤلاء؟ — قال تسي حاتريباي ليرج حسن غير متتحمل ما يسمع.

- "لا إله إلا الله" — ساهم عُمّشت مولى بالشعار الديني. ووافقه مزحب بصوته الأجيش. ثم انضم إلى الجوقة غيرهم.

ظل الفرسان الأبزاخ المودعون يزيدون، وأصواتهم ترتفع إلى أن تجاوزوا مرتفع حاجخ. حتى إذا صاروا على الطريق القصير المؤدي إلى (فرزيشه) همس مزخوي بكر في أذن براغنه إسلام:

- كفى ما مشيناه يا براغنه مودعين النائب الذي لا خير في قلبه ونحن نردد الهاتف غير النابع من قلوبنا، مؤذين حناجرنا.

- صحيح يا أيها الكبير، أوقفك. ولكننا لا نردد الهاتف الديني لأجل النائب،

¹ قد يكون اسم مزحب تحرifaً لمُصعب أو مذهب لأنه ليس في الأديغية عين أو هاء أو ذال.

وسنعود إلى تامي حبله والله في قلوبنا. من يا ثُرى هذا الفارس الذي يجري
نحونا دونوعي؟

- انظر إلى ثم إلية تعرفه! - غمغم بكر الذي لا يريد أن تقع عينه على الفارس
المرتدي عمامة زرقاء.

- لماذا أنت واقفون هنا بعدما اسللتكم من الفرسان المسلمين الذين يشيعون
موفدهم العزيز؟ - تسمر الأفندى أخوه مرتضى محمد أمامهم، وسألهم معتبراً
موضوعه هو الأهم.

- حصاني يعني من ألم في حافره... - قال بكر باسماً لأخيه الأصغر.

- حقاً هذه مشكلة كبيرة في الحصان... وأنت يا براغنة؟

- وأنا انقطع حزام سرج حصاني.

- هذه المرة، أيها المسلمون الذين أدعوه لهم أن ينفعهم، لا أستطيع أن
أنفعكم. من الضوري أن أتحقق بثلة الفرسان المشيعين للنائب. الله الرحيم لن
يقطعكم في منتصف الطريق، سينظر إليكم بعين العطف. - أقلع محمد أفندى
بحصانه، وقال لمن وراءه: - أنتما لا تُطيعاني ولكن لأجل مثل هذا الموقف
أقول لكم: ليكن الله في قلبي كما دائماً، لا تنسيا ذكره...

ركب بكر وإسلام غير عابئين بما خاطبهما به محمد أفندى الجارى وراء الركب
المشيع، وسلكا طريق قريتهما. ولم يكونا وحدهما: كان في سفح المرتفع فرسان
أحد أو مئتي يعودون.

كان بقى على محمد أمين قرابة ثلاثة وعشرين يوماً ليقطع طريقه إلى سان -
بطرسبورغ. ولم يكن يعرف إن كان سيلتقي بشامل أم لا، ويأنف من أن يسأل
في هذا الشأن الضابط سمولينسك المكلف بالموضوع، والذي لا يخالطه كثيراً بل
يزداد تيهاً عليه يوماً إثر يوم. وحين يأخذه النعاس كان الأبراج الملتئون

المشحونة قلوبهم موضوع أحلامه دائمًا.

الفصل الثامن

لم يكن مضى أسبوع على مفارقة محمد أمين أسيالوف بلاد الأبخاز حين نشب صراع الزعامات فيها. برج حسن وداور بجز يساندهما مخاتير قرى شحه غواشه وفُجُبس وفرزبشه من جهة. وشَّي حاتر باي وأفمعت مرتوقوه يساندهما أبخاز توبا وطوابسه من جهة.

والآن غش مرزبج المتبحّح الذي نسي القول المأثور "عاجز ويريد أن يقفز" ، ويفتخر بأنه يرافق النائب ، يشيع عن نفسه أن الجيش الروسي يسانده. ومع أن برج وتسى لا يعبأن بالأخبار التي يُشيعها فإن رؤيته في الليل على طرق حجّخ ومايقواب تجعلك تتوجّس من أمور كثيرة. ومرزبج نفسه ظل يهدي الضباط الروس البنادق الأثرية ، والسيوف الأدبية ، والمزخرفات الفضية والذهبية ، والمطرزات ، وغيرها من الأشغال اليدوية حتى توهما أنه غني متندذ في قومه. وعرفوه على امرأة قوزاقية وحيدة يتّردد عليها أحياناً.

– يا برج انشغلنا بصراعاتنا الصغيرة – لمّح إليه يوماً أحد زعماء المخاتير – فجعلنا مرزبج ذا الأنف الضخم يطفو على السطح بأساليب معيبة.

"لو وضعوا بلاد الأبخاز تحت تصريفي ، وقال لي هؤلاء: لا تُثير العداء بين الفلاحين ، والصراعات بين الأسر ، وفُدّ البلاد دون أن تحرّف عن الصدق لتخيلوا أنني لا أعرف شيئاً من أسرارهم. – ابتسم برج وهو يمر براحته على لحيته التي لم تطل ، وبدأ الشيب يغزوها. – لم يكونوا يُسدون للنائب أمثال هذه الصائح بصراحة. ومهما قال في بلاد الأبخاز ومهما فعل ، ولو أنه كان يقتل معارضيه في الأقبية الباردة ، ولو كان يحكم عليهم بالإعدام ، ولو أنه فرض بالحرب الإسلام على أبناء قومنا الشابسغ والمجدوغ ، فإنهم لم يكونوا يعارضونه

إلا مغمومين بينهم وبين أنفسهم، مكتفين بشتمه في غيابه. الحق أبى إن قلت: أنا وتسى لم نكن مثلهم فأنا أخدع نفسي. لقد حملنا على أن نقوم بكثير مما لا نريده. ولكن لا أستطيع أن أقول هذا بشأن الزعيم أعمشت وبعض الفلاحين من عامة الناس، بمن فيهم مربزج الذي يعيروني به. لا أريد أن أثير في الأباخ بعدما فارقنا النائب - ولو أنه يقول إنه لم يفارقنا - عداءً بين الأسر والقرى. ما أفلقني وشغل بالي شيء آخر: أحاطنا الجيش القيصري، بذرائع مختلفة، رغم أنه صالحتنا، بقى قوزاقية: داغيستانسك ونيجيجورودسك وتيلسcker ونوفو ميخائيلوفسك وإميرتيسك وبشيفسك ولاينسك وبسيبايسك وأخميتوكوفسك وكوجورسك وغيرها. ويزيد عدد أفراد الجيوش التي تفتح الطرق، وتقتلع الغابات وتنصب المحسور. وأينما توجهنا وأينما أنصتنا لم نعد نسمع إلا كلاماً وأغاني قوزاقية..."

- حين أعاد النائب مربزج دون أن يسمح له بمرافقته إلى حيث سافر فقد كله قيمته، ولذا فإن وافقته قال كلاماً كثيراً و فعل. - أفاق برج حسن من أفكاره، وأضاف إلى تسي حاتباي وكأنه يعرض به في آن واحد: - وسأقول رأيي في الموضوع الآخر حيث قلت إننا نشتبك ونتصارع، أيها الكبير الذي أحترمه: إن لم تكن علاقتنا نحن الاثنين، وعلاقتنا بغيرنا هكذا فهو أفضل. مثل هذه العلاقات العدائية لا يقتصر ضررها علينا، بل يشمل الأمة كلها.

- وهذا صحيح، إذا كانوا اختاروك من أترابك وجعلوك زعيمياً فلا يجوز أن يقتصر تفكيرك على حماية شخصك، ولا أن تحسب حساب أي إنسان، بل يجب أن ينصب اهتمامك على من وضعوا أملهم فيك، وأن تكون صادقاً معهم وتتألم لآلامهم وتعاملهم بالحسنى، وتظل تشحذهم بالأمل في السلام. ومع أننا نثق بك في هذه الأمور يا برج فلا أعرف ماذا تعنى بعبارتك "حيث ركب

النائب" أيمكن أن يعود إلينا؟ لا تكتمنا إن كنت مطلعاً على ما لا نعرفه.

قال برج لتسى المظاهر بالمسكنة الخبيثة وهو يحدق في العينين الضيقتين اللامعتين المستديرتين اللتين كانتا تحرقانه بنار عدم التصديق:

- أنت تتعلق أيها الكبير بالكلمة التي خرجت من فمي عبشاً، أعني كلمة "رَكْب". ولكني سأقول لك ما تعرفه أنت وأعرفه: النائب يستحيل أن يعود إلى الأبراخ. بل سأسمعك أيضاً ما يُقلِّفك: ربما كان ما يُقلِّفك هو كلام مثل الجيش الروسي سيرديوكوف في اجتماع المخاتير "استدعوه لمقابلة القيصر من أجل حلّ مسائل الأبراخ"؟

- صحيح ما تقول. النائب لن يعود، وإن رجع فلن يرحب به الأبراخ الذين أعرفهم.

- يا تسى لن أعلق على ما قلته لأنه صادقٌ صدقَ الشمس فوق رؤوسنا. ولكنني قلقٌ أكثر للنهاية المرتقبة لطريقة النائب في مصالحة الجيش القيصري والأبراخ.

- ألسنت أنت يا برج من كان المستشار والمعاون الأول للنائب القوموق حين أثار مسألة الصلح في الأبراخ؟ - سأله تسى بصوت هادئ حازم لا يتناسب مع نحافته.

- نعم، أنا كنت المعاون الأول له - قال برج دون أن يدخل بصوته، واختتم بكلام أَنْعَم، - ولكن بعد أن أُنْجَرَ الاتفاق بين الأبراخ والجيش القيصري فحسبُ أخْبَرَني بسرّه. أما كنت تعرف النائب الذي كنا نقف إلى جانبه؟! ولكن صلحه...

- نعم، كنت أعرف حقيقة النائب. - قاطع تسى كلام برج - ولكني لم أكن مؤذّنه أُنْفِدَ له ما يريد، ولا خادماً يرسله لقضاء حاجاته.

- يا تسي، يا كبير، أنت تهيني - أزاح برج براحتيه الضخمتين طرفي عباءته اللذين كانا يقيدان ركبتيه. - حاولت أن أحملك فلا أجييك، ولكن أئٌ جدال عدائٍ تخوضه مع؟! ثم عاد فلامه متكلفاً الصير: - فَكَرْ أحياناً في حدود ما يصل إليه كلامك!

- لا تعليمي يا برج! - لمعت عينا تسي الصغيرتان كجمرتين - أنا رجعت منذ زمن بعيد من حيث كنت أنت!

- على رسٌلِكما يا تسي ويا برج! أنا أكبر منكما ولو ب يوم واحد. - اعترض داور بجز الذي لم يتدخل إلى الآن في الحوار - وأنت يا فمعٌت كفٌ عن الابتسام الخبيث! إن سمعتنا المجموعة التي تبكي على النائب سخرت منا. أنت يا برج، زعيم مخاتير الأبزاخ، أكمل ما كنت بدأته. الصلح بين الأبراج والجيش القبصري... ما المنفعة التي جلبها إلينا هذا الصلح؟

- ربما أخمن أحاطونا بالقري القوزاقية دون حرب... - قال تسي بصوت أشد انكساراً، ونظر في وجه برج متظراً جوابه.

- أسمعني يا كبير ما يُنسيني الإهانة التي لحقت بي. وأنا يُقلقني تكاثر القرى القوزاقية، وزيادة عديد الجيش القبصري، والطرقات التي تعبر الجبال، والغابات التي تُقتلع. وهذه تنقض الاتفاق بين الجانبين.

- إذا كانوا ينقضون فاطلب دون تأخير من فيليبيسون الذي يخدعنا أن يعيد إلينا قومنا الذين هرعوا إليهم لأنك من يضع الأبزاخ أملهم فيه. - لم يستطع تسي إلا أن يُهمِّهم مرة أخرى. وحدَّ ما كان يشغل باله مبرئاً نفسه ببعض كلمات العتاب: - لا تسمعون كلامنا ولكننا نحن مخاتير شرق الأبزاخ وشمالها، وجنوبها ناحية توبا وطوابسه، لا يخلو كلامنا من الحقيقة، ولسنا من السذاجة فنشرب الماء من أنوفنا. ونحن نعي معنى ما نقول. صرفتم رجال الشابسغ

والوبيخ الكبار بحججة أن الجيش القيصري النهاب الذي لنا معه عهْدٌ لن يقبل. كان المشروع الذي جاء به الرجال آخر أملٍ للأديعة. ولكن النائب الذي يقتلونون من تحت رجليه أرضاً ليست له لم يسمع لكم أن تسمعوا مشروع الرجلين. هيء أيها الأديعة المنحوسون! كم نحن قصيرو النظر، كثيرو الشقاق! نعيش ونحن نتنافس على الرجولة... إمض يا ألمعْت؛ ما الفائدة في أن نجلس نتمارى ثم نتصالح، نمدح أنفسنا ونفتخر؟! سنزور مرة أخرى أبزاخ منطقة توبا. حين اختفى الرجال الأباخيان اللذان ابتعدا بجفوتهم بين أوراق الأشجار الملونة تألم برج حسن معتبراً أنه هو من تسبب في الإشكال. فنصحه داور الأكير الذي فهم حقيقة وضعه:

- ارتُح، ألا تعرف من هو تسي؟! هذان لن يتجاوزا توبا إلى مكان أبعد.
- لم نوفق تسي على رأيه منذ اليوم الأول ولكن كان فيه نصيب من الصحة... من كان يدرى أن النائب سيفارقنا وبعضاً إلى أعدائنا الروس وفي ذمته الصلح غير المكتمل؟
- نفذ بريشه كما يقول القبرتاي لأنه عرف أنه لم يعد له مستقبل في الأبزاخ، وأننا لن نسكت على خداعه لنا.
- أنا أعرف ما يستحق... - تقبل برج ذنبه - كان الأفضل أن نعامله بالخبث الذي كان يتعامل به مع الأباخ الذين يُرعبهم جهنم الله، لا أن نودعه بألف فارس... ما الفائدة من أن تلاحق برصاصك المهدى الذي فات؟ وبدلاً من أن تتبع المهام الملقة على عاتقنا صرنا كلما اجتمع اثنان من الأديعة اغتاباً الثالث. ومن يغتابانه يعيش في عزه.
- يا برج، أيها الزعيم المبارك، أرجوك، هذا لا يجوز. لم تترك فينا غطاء غير مكشوف!

- وما العمل؛ هذا واقعنا.

من بعيد يظهر جبل أو قتين بقمه البيضاء. والسحب السوداء التي تخرج من خلفه تتجه نحو سماء المراعي فوق جبل لاغوناقه. وعقابان يحومان في منتصف النهار، يتقاربان، ويتبعادان كأنهما يبحثان عن شيء فقداه، وأحدهما لا يعرف الآخر ويحرص عليه، والغابة الملونة التي ضاع في مجاهلها الفارسان الأبراخيان تخرج منها عربات ثيران ملأى بالخطب اليابس. ووراء الصبي الجالس على الحمل فارسان مددجحان بالسلاح – أحدهما غش مزبج، والثاني غمست مولى.

- السلام عليكم¹، نهاركما سعيد، أيها الزعيمان المباركان – حياهما مولى الذي استقبلهما بخلط من العربية – الأديغية، وأضاف دون انتظار الجواب ما يعتقده – إن كنتما تبحثان عن جماعة تسي فقد دخلت إلى ذاك المضيق دون أن يهتموا بنا أو يلتفتوا إلينا.

- مهلاً يا غمست، لحظة، ما أكثر ثرثرك... – عرض غش مزبج مفتخرًا بنفسه مولى الذي نسي أن يراعي وضعه باعتباره الأصغر عمراً، ثم توجه إلى الاثنين الآخرين بلسان حلو لا ينمّ عما في قلبه: – رافقكما السلامة يا زعيمينا الخيرين. لو كنتما بحاجة إلى جماعة تسي لرفقتماهم... أتساءل ما المعروف الذي سيسيديه طحالبُ توبا؟! هؤلاء لحناتهم من بعيد بعين واحدة، ولم تأخذ منهم محدثين. وماذا كنا سنقول من لا يبعون إلا بمصلحتهم الشخصية لو كلّمناهم؟ ما كانوا ليفهمونا.

- لا يجوز تقويم جماعة تسي بهذا الشكل – ضحك برج ضحكة خفيفة،

¹ بالعربية في الأصل.

وأعاد مرزبج إلى وعيه — هؤلاء يتبعون قضايا بلاد الأَبْرَاج، منذ وقت قصير
جئنا بِهِم من ظاهر القرية.

— هكذا؟... حسن أن تعود علاقاتكم إلى هذه الحال. أخطأْتُ.

— لا بأس عليك؛ أنا المذنب في هذا.

— المذنب في هذا بِيَّنْ... النائب الذي لم يوْدُّ عَنْا، ولم يخطر على باله.

— وأنت يا غش، أي عيشة تحيا؟ — توجّه برج بالسؤال إلى مرزبج الحارس
السابق للنائب، والذي زُرِعَ حُبُّ النائب في قلبه، مما يجعله يبخّع نفسه وهو
يسمع ما يقال في النائب، والذي يبرئ نفسه.

— نحن ماذا سنكون أيها الزعيم المبارك، نعيش كيما اتفق في هذا العالم. كما
ترون جئت مع الفلاح مولى الذي ترجّاني كي لا يفاجئه الشتاء دون مخزون من
الخطب.

— نعم أيها الرعماء المباركون، — غمغم، ثم أسرع بالتصريح راضياً — ترون ما
نفعني به مرزبج، ليحِّمِّه الله العلي ولِيُعْطِّفْ عليه. ألا نخاف الآن أن نأتي
بالخطب من غابتنا... جنود الكفار، وهذا أنتم تسمعونهم، يفتحون الطريق وهم
يعنون أغاني الجن، يقتلون الغابة، ويلوثون الآبار التي نعرف منها ماء وضوئنا.

— ولكن لا نمتنع لأجل هذا أيها البائس من أن نأتي بحمل خطب من الغابة —
قاطع مرزبج الحديث غير متحمّلٍ ما يقوله الفلاح مولى.

— صحيح يا مرزبج يا من أدعوه له الله أن يجعل يومه مئةً، نأتي بالحمل
بفضلك. مرزبج يتفهم جيداً مع الكفار، يلبيّون له طلباته أيها الرعيم المبارك
حسن بي.

— حسن يا مرزبج أن يكون لك مثل هذه الداللة عليهم — مدحه داور بجز، ثم
لامه: — ثم تقول لي إنك نكرة مغمور.

- لا، لا — لم ينكر مولى ما قدموا له من خدمة — لا يجوز نسيان الرجال الحكماء الشجعان من أمثال غش مربיע. أتعجب إن كان يوماً ما حارساً للنائب الهائم؟... حقاً أنظر إليكم يا زعماءنا المباركين؛ لماذا أنتم في الغابة دون حراس؟

- حياك الله أيها الفلاح مولى على قلقك على زعمائنا، نحن في عالم لا أمان فيه، خير لك أن تتحرس. وأنا يرضيكي أنك تفهمتني. وإن شاء الله ينحصرون لي حراسة — قال مربيع مرتاحاً لما سمع.

- يسرنا أن تقلق لأجلنا — لم يتأخر برج في شكره — صارت جبال الأbizاخ خطيرة خلافاً للماضي، بل يمكنك أن تتوقع الخطر وراء كل شجرة. لم يعد الأbizاخ أحراضاً في بلادهم كما كان آجدادنا وآباؤنا. ولكننا على أرضنا، وسماونا ظلنا. إن تمعنا بالوقاية والوحدة فالله سيحمينا، ونحن سنحمي أنفسنا. — ثم أضاف: — تعال في الأيام القليلة القادمة إلى المجلس الأعلى، نحتاج إليك أنا وداؤر.

— متى ما دعوتماني فأنا حاضر حتى من هذه اللحظة أيها الزعيم المبارك! — قال غش مربيع لا يسعه السرج من الفرح.

— لسنا جاهزين اليوم لاستقبالك، سنخبرك متى احتجناك.
— متى ما أعلمتموني... — ارتخى الآن صوت غش مربيع الذي لم يفهم لماذا قيل له: "لسنا جاهزين اليوم لاستقبالك".

الفصل التاسع

أبرقت السماء من جهة الجنوب فجأة، ودوى على إثره الرعد في يوم معتدل متاخر من الخريف. ثم اختفى كل شيء في مضيق قحبس، فأفلتت بعض قطرات المطر من السحابة السوداء الوحيدة التي ارتعبت من الضوء والصوت.

- بسم الله، يا إلهي، أي برق ورعد قصّنا ونحن في فصل الخريف... - جفلت جانشر وصرخت من داخل البيت: - يا نان - نفست أين أنتِ، ألم تُرعبك الصاعقة؟

- لا يا نان، لا. إن لم يكن صوت مدفع فلماذا أخاف من الرعد؟.. - صاحت من الغرفة المجاورة نفست التي كانت تصفر شعرها متمهلة - تات يقول إن البرق والرعد يحدثان في الشتاء أيضاً. السماء تُمطر من دون سحب. والشمس تشرق... انظري يانان، لا مطر ناحية موقع تامي وبراغنه؛ أليس عجيباً يا نان؟

- ويحدث مثل هذا يا ابنتي - تتوقف جانشر عن نسج جرابها الصوفي قائلة: "ما أشد ما كبرت بالقياس إلى الصيف الماضي" وتبتسم لابنتها. - يا نفست برفت الصاعقة، ابتعدت عن النافذة! - "يا إلهي لا أعرف ماذا رأت هذه الصبية في آل براغنه. لا تسمح لك أن تأتي على ذكرهم بسوء ولو بكلمة واحدة... أينطبق عليها القول المأثور: "البيسان يُهر، وكل يعود إلى أصله؟"

- سألت جانشر نفسها، ولامت نفسها لأنها فكرت في هذا الموضوع.

- وهل أنا في خطر - قالت نفست التي لم تفارق النافذة - بل الفارسان اللذان يرسل البرق صواعقه فوقهما... أحدهما عمي محمد، والآخر أين رأيته؟.. آه تذكرته: هو مربزج الذي كان يحمل المصحف للنائب حين استضافوه في قريتنا هذا العام إلى ختم القرآن.

- ألم نسمع أنه سافر مع النائب؟.. - سألت جانشر، واختتمت بما تعتقد به بحاتمة تنم عن إشفاق - ربما لم يرتع قلب المسكين في بلاد الغربة... من حظنا أننا جهّزنا غداء لا نخجل منه، ولم نتکاسل بذرية أن لن يأتي إلينا أحد. اذهبي

واستقبلِي عَمَّكَ زِيْكُوشُو¹، وادْعِي رفيقهِ الضيفِ إلى الغرفة.

– نَانَ، أَحِيَاً تَتَفَوَّهُ بِأَشْيَاءِ عَجِيْبَةِ؛ مَتَى لَمْ تَكُنْ مَائِدَتَنَا جَاهِزَةَ؟! – عَاتَبَتْ نَفْسَتَهَا وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظَرَةً مُرَأَيَّةً.

– نَعَمْ، يَا ابْنِي نَعَمْ. أَلْسِنَا أُسْرَةً أَدِيْغِيَّةَ سَوَاءَ كَنَا نَتَظَرُ ضِيَافَةً لَا، لَمْ نَفَتَرْ يَوْمًا إِلَى طَعَامٍ. وَهَكُنَا رِبَّانَا أَهْلِيَّ وَحْمَاتِيَّ. – وَعَقَّبَتْ جَانِشَرُ عَلَى كَلَامِ نَفْسَتِهِ مُمْتَدِحَةً نَفْسَهَا قَلِيلًاً: – لَمْ نَسْمَعْ أَنْ سَلْفِيَّ الَّذِي لَا أَجْلَسَ فِي حَضُورِهِ زِيْكُوشُو وَمَرْزِيْجَ لِيْسَا عَلَى عَلَاقَةِ حَسَنَةٍ²? – جَعَلَهَا الشَّكُّ الَّذِي تَسَلَّلَ إِلَى قَلْبِهَا بَارِدًاً تَسَأَلُ نَفْسَهَا. – وَبَكَرَ الَّذِي كَنَا نَتَظَرُ قَدْوَمَهُ الْيَوْمَ لَا يَزَالُ غَائِبًاً فِي الْمَرْعَى أَعْلَى الْجَبَلِ. – أَضَافَتْ مَا كَانَ يَشْغُلُ بَالَّهَا.

بَعْدَمَا صَبَّتْ نَفْسَتِهَا عَلَى أَيْدِيِّ الضَّيْفِينَ لِيَغْسِلُهَا وَخَرَجَتْ مِنَ الْغَرْفَةِ سَأَلَ مَرْزِيْجَ بَعْدَ قَلِيلٍ مُحَمَّدًا:

– أَهْذِهِ يَا أَيَّهَا الْأَفْنَدِيُّ الَّذِي أَدْعُوكَ لِهِ بِالنَّمَاءِ هِيَ الصَّيْبَيَّةُ الْقَوْزَاقِيَّةُ الَّتِي يَرِبِّيْهَا بَكَرُ الَّذِي لَا خَلْفَةَ لَهُ؟ لَوْلَمْ أَكُنْ أَعْرَفَ أَخْبَارَهَا لَا خَطَرَ لِي قَطَّ أَنَّهَا غَيْرَ أَدِيْغِيَّةٍ. مَاذَا قَلْتَ لِي اسْمَهَا؟

– أَنَا أَنَادِيْهَا بِنَاءً عَلَى رَغْبَتِهَا: نَفْسَتِهَا. وَبَكَرُ وَزَوْجَتِهِ يَنَادِيْهَا نَاتَ – نَاتَ. وَأَهْلُ الْقَرْيَةِ يَعْرُفُونَهَا بِهَذَا الْاسْمِ أَيْضًاً. أَتَكُونُ تَرْغِبُ فِي ابْنَتِنَا عَرْوَسًاً لَابْنَكَ؟.. – سَأَلَهُ ثُمَّ مَازَحَهُ: – أَتَعْرَفُ كَمْ سِيْكَلَفَكَ مَهْرُهَا؟ لَنْ يَكْفِيْهَا كُلُّ مَا ادْخَرْتَ فِي حَيَاكَ.

¹ اسْمَ سَمَّتْ بِهِ جَانِشَرُ سَلْفَهَا مُحَمَّدُ أَفْنَدِيُّ لِأَنَّ التَّقَالِيدَ لَا تَسْمِحُ لَهَا بِنَطْقِ اسْمِهِ، وَيَعْنِي الْاسْمَ: الْفَارَسُ الْجَوَالُ.

² وَتَقْضِي التَّقَالِيدُ الْأَدِيْغِيَّةُ أَيْضًاً أَلَا تَكْشِفُ الْمَرْأَةُ الْمَتَزَوْجَةُ وَجْهَهَا أَمَّا الْأَغْرَابُ، وَأَمَّا الْأَقْرَبَاءُ الْمَسْتَنِينَ، أَوْ تَحْلُسُ فِي حَضْرَتِهِمْ أَوْ تَتَكَلَّمُ.

- لم يخطر لي مثل هذا يا أفندي... ولكن قل لي أي شيء في نفسك ما دمت بدأت بالموضوع، لا تخف عنّي. إن لم يكُف ما عندنا أَمْنَا البقية بطريقة ما...
- قال مربِّي الذي تورّد وجهه من الباحسّمة¹ وعَرَضْ بأمله كأنه يحدّه: - إذا كنتم محظوظين فلن يصل إليّكم قرار الجيش الروسي المتعلق بالروس الذين فروا إلى نواحينا... لولا أنّ براغنه ميشكا رحل عن الدنيا لقيدهم وأعادوه إلى ذويه.
- وهل يمس الأمر شخص إسلام الذي اعتنق الإسلام وصار جزءاً من الأديعة؟.. - سأّل محمد أفندي ولو أنه سبق أن سمع بالموضوع.
- ماذا تقصد يا محمد أفندي، يامن أحسن الله إليه، بكلامك على من صار أديغياً حقيقةً واهتدى إلى الإسلام. من السهل أن تفتت الأسرة وأن تبدل الدين.
- لا يا مربِّي. حدث أن تخاصمنا أنت وأنا، وصالحتنا النائب، ولكن لا أسمح لك أن تقول هذا بشأن الدين الذي أنزله الله علينا! - شحب وجه محمد أفندي، وسرعان ما ثار غضبه: - لم يبق في الأبراج موضوع نتحدث فيه نحن الرجلين البالغين إلا موضوع الفتاة التي نسيت أصلها؟
- والله هذا صحيح - وافق مربِّي الأفندي بلسانه، غير أنه أجايه بينه وبين نفسه "سنرى مصيركم لأنكم تهيجون بسرعة كلما أتينا على ذكر هذه الفتاة" ثم عاد عن طريق المراوح إلى الموضوع الذي ما كان يفارق ذهنه: - يسرني أن ترافقني كما اتفقنا لأنني يجب أن أزور الزعيم برج حسن، ولو أئمّ يقولون: متى أكل الضيف نظر إلى باب الانصراف.
- ليس لي شاغل في تلك الناحية. إن كان المقصود من ذكرت اسمه لا أريد،

¹ شراب قومي يُتَحَذَّدُ من الدُّخن أو الذرة البيضاء، ويُوحَى الاسمُ باسم إله الخمر اليوناني باخوس.

بعدما أبعد الله عنا نائبه الذي أرسله إلينا، أن ألتقي به، بل أن تقع عيني عليه. ولكن إن كنت وعدتك فسأذهب معك. ما حاجته إليك يا ترى؟ إنه يفتن بين الناس الحكماء الذين كانوا مع النائب، وأنا أؤهلم.

- وهل وصل إليك أيضاً؟.. والله لم أتصور أن يتصرف معك على هذا النحو... كانت تصل إليّ بعض الأخبار المتفرقة ولكن لم أكن أصدقها... ورب المholm إنه يُقرب إليه أخاك الأكبر بكر الذي اغتبناه، ويبعدك أنت.

- إذا كنت تريد معرفة الحقيقة يا مزبج ، يا من أدعوك له بالخير، لم أكن في الماضي أيضاً قريباً جداً منه. ولكن گرمي للنائب ولأخي الأكبر لم أكن أبين على نفسي شعوري نحوه... والآن لا يكفي برج يابعادي عن شخصه بل، بعدما نزلت عليه الرعامة فجأة - وإذا شئت أن تعبر بكلام صريح آخر: بعدما سلّبهم الرعامة - لم يعد يعرف إن كنت ما زلت حياً. سترى، وستقول لي إنني سبق وأخبرتكم، إن لم يدخل جيّاً أسود بين برج وتسني.

- وأنت هذا رأيك يا أفندي؟.. لأنني أنا أيضاً أتوقع هذا... ليس برج مُحققاً في أن يتجاهل مثلك أنت الأفendi المتعلم الذي حجّ ثلث حجات، وكان مستشاراً للنائب... - تظاهر مزبج بأنه يعتبر ما سمعه غير مناسب، فأضاف وهو يقول في نفسه "لو كنت أعرف أن علاقتكم هكذا ما كنت طلبت منك مرافقتي" - متى عرفت ما ينويه لي برج سواء كان خيراً أم شراً فسأطرح موضوعك أمامه. من أين سينأتي بحارس مقدم مثلني وأفندي مثقف مثلك؟ هؤلاء يجب أن تكلمهم بصرامة، لا أن تتأمل منهم أن يفهموك. أنا أعرف ما يريد برج: يستدعيه لأنه يحتاج إلى. لست وحدي، وأنت أيضاً لا يُستبعد أن يحتاجك في أمرٍ ما.

- وأنا كنت أنتظر هذا... ولكنني لا أعرف كيف أرافقك ضيفاً طفيليًّا غير

مرغوب.

– إن كان هذا رأيك فأنت حَرّ... ولكن سواء كنا رفيقين أم لم نكن فقد قلت ما قلْثُه في شأنك. لا تتردد في ما ستفعل. هؤلاء يجب أن تكون دائمًا أمام نوازفهم، ولا يليق بنا أن نختفي من أمامهم فتحقق لهم رغبتهم.

– يا نفست، يا ابنة آل مرزخوي الجميلة – قال محمد الأفندى حين دخلت الفتاة التي نادها: – بلّغى كنّتنا والدّنّاك أَنَّها متعنتنا بطعمها، اشكريهما باسمنا على ضيافتها.

– نعم يا محمد أفندي نعم – أتى مَرْبِعُ الضيف – سعدنا بِمَايَدَةِ أخيك الأَكْبَرِ بَكْرِ المبارَكَةِ حتَّى لو لم نحظ بِلقاءِه. وأنتِ أَيْتَهَا الصَّبِيَّةُ ليكِ حظك سعيدًا مع آل مرزخوي. ولِيتحققَ اللَّهُ لَكَ كُلُّ مَا تَتَمَنَّيه، مَا أَنْسَوْكِ إِيَاهُ وَمَا لَمْ تَتَسَمَّيه. نحن سُنُركِب طرِيقُنا بعدَ أَنْ نغسلُ أَيْديَنا.

– وهل ستعود وتسافر وأنت وصلت توًا من السفر يا مَمَّثٌ؟ – سألت نفست عمّها، وهي تخفي أن كلمات الضيف المسمومة "أَنْتِ أَيْتَهَا الصَّبِيَّةُ ليكِ حظك سعيدًا مع آل مرزخوي. ولِيتحققَ اللَّهُ لَكَ كُلُّ مَا تَتَمَنَّيه، مَا أَنْسَوْكِ إِيَاهُ وَمَا لَمْ تَتَسَمَّيه" أحرقتها، بعدما نادته بالاسم المرحّم الذي كانت تناديه به منذ طفولتها.

– نعم يا نفست، نعم يا ابنتي. سُنَذَّهُ لِزِيَارَةِ بَرْجِ الرَّعِيمِ الكَبِيرِ أنا وَمَرْبِعُ الفلاح الطيب. وهذا ما سُتَبَلْغُونَه لِلْكَبِيرِ أَخِي.

– ماذا جرى لك يا ابنتي حتَّى يَحْمِرَ خَدَاكَ هَكَذَا؟.. – سألت جانشر ابنتها بعدما عادت من تشيع الضيوفين.

¹ النطق الأدبي المألف لاسم محمد.

- لم يجر لي شيء! — حسمت نفست الموضوع، وتوجهت إلى النافذة.
- أ يكون الضيف المراقب لعمّك لم تعجبه طريقتك في حمل المائدة وخدمتها؟!
- انظري يا نان إلى الضيف الذي يودعونه كيف يتصرف مع عجبس الذي يمسك له لجام حصانه، وهو يقول له أشياء...
- لا أفهم ما تقولين... ما الأمر يا حسرتي؟ ماذا يعرف عنكمَا قبل أن تولدا!
- أليس حسناً أن يدعوك بالسعادة لأنك ابنة آل مرزخوي؟ ما الخطأ في هذا؟
- وما موضوع "ما أنسوك إيه وما لم تنسيه"؟ وما شأنه بي؟... — انفجرت نفست باكية فارتمت على صدر أمها. لست طفلة صغيرة فلا أفهم ما يلمح لي به. ومت لم يرد عليه بشيء.
- كفى يا نفست يا ابنتي الجميلة، اتركي هؤلاء لوالدك.
- أنا لا ألوم ممت، لاذنب له... بل مرزيج، لا أعرف ماذا أخطأت بحقه، لا شفقة في قلبه.
- ليأخذ الله مرزيج القبيح إلى حيث لا رجعة منه! وإن كان سلفي زيكوشو مذنباً فليلحق به! — رفعت جانشر رأسها بعنف، وصرخت في إثر الرجلين اللذين سمع وقع حوافر خيلهما.
- نان، ألم أقل لك إن ممت لا ذنب له؟!
- لو لم يكن مذنباً لما سمح لرفيقه أن يلمح لك متظاهراً بالصمم.
- ما الأمر يا نات — ناتالا؟ — سأل برأغنه غجبس حين دخل الغرفة مستغرباً ما يرى — وأنت هل أساء إليك مرزيج؟
- انصرف عني أنت أيضاً، لماذا تدعوني "نات — ناتالا"!... — ردت نفست على جارها الشاب.
- يا ولدي الحلوين، لا تتجافيا لأن أحدكمَا قال كلاماً غير ذي بال. —

نصحت جانشر الشابين وهي تنظر إليهما بعين الحبّة.
كانت نفست تزيد من أمّها أن تضمّها ضمة حارّة، ولكنّها صبرت في حضور
غجّبس.

الفصل العاشر

بعض غلوّات حسانٍ يركض خبأً وصل الفارسان إلى قمة المرتفع. ولما ارتفيا
انخلت عقدة لسان مربّع من جمال المنظر على مدّ البصر:
- انظر يا أفندي ما أجمل عالم الأبزاخ!... أرأيت في الحج حيث كنت وحيث
تغمر الرمال الأرض مثل هذا الجمال?
- اسْكُثْ يا مربّع! لا توصّف أرض الحج بمثل هذا. أرجو أن يفهمنا الله
العلي العزيز الذي خلق الكون بكماله، ويرحمنا ويحمّينا. ليست جنته وجهنم
في الدار الفانية التي يمتحننا فيها. حين يتوفّانا إليه فحسب سمعناه أين هما. لو
أن الأبزاخ المتمردين أطاعوا النائب لربما لم يحدث لهم ما حدث... ها نحن
الأديغة، يا ربّ أغثنا، على سرّاط جهنم. لقلّه آمين يا مربّع! - رفع الأفندي
راحتيه الرقيقتين الناعمتين إلى خديه، واختتم دعاءً عريّ الأصل باللغة الأديغية،
- افهمنا وارحمنا واحمنا يا الله!

نُفّست ابنة آل مربّع التي كانوا يشيعون عنها أخباراً مختلفة لم يكن جمالها
يعيب عن ناظري مربّع. لا يزال تغيّر لون وجهها حين لمّح إليها ببعض
كلمات في معرض امتداحها أمام عينيه. يسأل مربّع نفسه مستغرباً "كيف
يوقّق آل مربّع بين ما لا يتفق، كيف يقنعون أنفسهم والقرية بأنّ ما ليس
لهم هو لهم؟" - ورفيق الأفندي يخفّي هذا. أحقاً أنّ بكر استولدها من أرملة
قوزاقية وجاء بها؟ وهل اضطرت زوجته أن توافق؟.. ليس مستحيلاً، ففي العالم
تحدث غرائب كثيرة... مع أنّ الواضح أنّ في عروق الصبي الأشقر الذي

ساعدني في امتطاء حصاني ممسكاً بلجامه وركابه دماً روسياً فقد ولدته امرأة أديغية، ولا يخفى أنه ابن نصف القوزاقي براعنه الذي أسلم وسمى إسلام. الحق ما أشدَّ سذاجتنا نحن الأديغة فلا نخترم أنفسنا ولا نعرف قدرنا إذ أصبح براعنه إسلام مختاراً للقرية الأديغية! غرأتنا هم من سيضموننا آخر الأمر تحت جناحهم في الوقت الذي نشغل فيه أنفسنا بمحاربتهم ومصالحتهم... وهل هم وحدهم؟.. الحظية التي أذهب إليها على سبيل الترويج عن النفس شعرني دون حياء كلما ارتدناها أنها تطمع في أن أتزوجها... ثم يأتيني هذا الأفندي ذو الرأس المتطاول ليحدثني عن الكفار والإسلام والمسيحية وما لا يعلمه إلا الله؛ أللحب دين ليميز هذا من ذاك؟..."

- وأخيراً هذا ما جرى لنا أيها المسكين... - خرج مرزبج من بين أفكاره المتلاطمة، وقال مداوراً حول ما يعتزم فعله، مُسِمِّعاً رفيقه وكأنه يكلّم نفسه: - أقول: لا أرى في نفسي الفتاة الرشيقه التي قدمت لنا الفطور شيئاً من خصائص أسرتكم...

- لا تدعنا تتحدث في ما كنت ت يريد أن تقوله يا مرزبج - حسم محمد أفندي الموضوع بجملة واحدة.

- هكذا؟ وهذا جواب يمكن أن يُسْكِنِي... - ولكنه أنهى بعد قليل: - هناك أمر بإعادة القوزاق الذين لجأوا إلينا.

- ليست نفست بربخوي، ولا آل براعنه الذين لا تجدهم مشمولين بهذا الأمر. لا تشغله بالك بما ليس من شأنك! - رد محمد أفندي على رفيقه الذي لم يتوقف بصوت هادئ خشن، معتمداً على حصانه على نحو لا تعرف معه أهون نفسه محمد أفندي ذو اللسان اللطيف. ثم أكمل بصوت أعنف: - هذه فتاة مسلمة اعتنقت الإسلام.

- مهلاً يا أفندي، هدى نفسك! ما الذي جرى لك لتنفعل بهذه الحدة؟ -
لجم مربزج الآن حصانه والتفت إليه. - لم أعرف أنك نزق بما لا يتناسب
وكونك أفندياً. - إن كنت ترى أني أتابع مهمة ليست من شأني فأنت مخطئ.
ولكن لم يعجبك تدخلني في شؤون أسرتك، فأنت على حق في هذا. لن أقول
لك غير هذا.

- يا من أدعوك له أن يلين الله قلبك، يا مربزج، سامحني إن كان صوتي احتد بما
لا يتناسب مع شخصي وصفتي. ولكن هذا لا يعني أننا لا نعرف عنك بعض
الأمور غير الصحيحة.

- وووي، يا حسرتي! - صاح مربزج واعتداه بنفسه باد من صوته - كيف
عرفت الفحولة الوحيدة التي يخفيها الرجل؟

- "يرونك في الغابة، ويسمعونك في العتمة" يا مربزج يا من أسدى الله الخير
إليه!

- والله يا أفندي أنظر إليك فأراك إنساناً عجيباً بريعاً كما خلقك الله... قل لي
إذن: هل يميز الحب بين الأعراق والأديان؟

- والله لا أعرف بم أجيب على هذا.

- إن كنت لا تعرف فلن نتكلّم على السر الذي بين الرجل والمرأة. - لم يدفع
مربزج رفيقه الأفندي يكمل كلامه، وأسرع بحصانه قائلاً في نفسه "لو كنت
تعرف اللذة التي في هذا السر لما بقيت عازباً إلى الآن. من حسن حظي أنك
لا تعرف صاحبات معارفي من الضباط الروس". ولم يتأخر محمد أفندي عنه.
وحيث بدت قرية برج من بين أوراق الأشجار التي عصف بها آخر نصف شهر
من الخريف قال غش مربزج: - يسرني أنك سافرت معي يا أفندي، غير أنّ لي
عندك رجاء: لا يبدُّ عليك أى انفعال مهما تصرف معي مضيفي بخبير أم بشرّ.

ربما لا تتيسر أمري كما أتوقع، من يعرف؟!

- وإن سألوني أيها الكبير؟

- إن سألكم فهل ستخفيفي؟ هل كنا سندًا للنائب بلا جدوى؟!

- ربما كان وقوفك إلى جانب النائب هو سبب استضافتك. أنا لا أعرف من نفسى ما يعيبنى... - قال محمد أفندي ثم ارتعب فبدى بسرعة تعبيره: "لا أعرف من نفسى" إلى: "لا أعرف من أنفسنا".

لاحظ مربزج هذا الارتكاب، فقال لنفسه: "انظر إلى هذا الذي لا يفارق اسم الله لسانه!" أنت كنت إلى جانب النائب بأوثق مما كنت معه، محللاً أكبر المظالم شرعاً، موافقاً إياه. وحين عرضتُ عليك دون إلحاح مرافقتى إلى برج رافقتني كأنك غير متهمس ولذا تغيير من نفسك الآن... سترى كيف ستتصرف معي إن أوكلي مهمته تتناسب مع النظام الجديد! وأي نظام جديد؟ ألم يكن برج مع النائب حين صالحنا فيليسيسون؟ ونحن كنا بينهم مؤيدين لهم. ولم نكن وحدنا، بل الأبراخ كلهم تقريباً. وأين تذهب بسعي وأفمعت وبراغنه وأخيك الأكبر بكر، والشباب الذين يؤيدونكم؟ لسنا نحن الأبراخ على ما نمذج به أنفسنا كما يخيل لبرج ودارو وأنصارهما"

- والله يا أفندي، هذه الدنيا مركبة على نحوٍ عجيب في الأبراخ سواء وافقنا أصحاب هذا الرأي أم عارضنا. - خرج مربزج من أفكاره التي كانت تتبع عليه حاله، - الجو حار في مضيق قُحبس، وبارد على هذا المرتفع.

- لأن الهواء البارد يمر على قمة جبل أوشتون - قال الأفندي الذي سلبه أفكاره، وحدد: - والشقاء على أبواب الأبراخ. وحطابو جيش الكفار على عجلة من أمرهم في الغابة.

- وليعملوا من حصى طرقهم فتيلًا للنار!... - غمغم مربزج واختتم:

- لا أحد غير الله الأحد يعرفهم كما أعرفهم أنا. أستم يا أفندي من يقولون إن الشك في من لست متأكداً من تهمته حرام¹؟ ولن أكشف لك السر ولو سألتني. اسمع؛ علينا أن نصل في الموعد المقرر لأن برج يتظمنا.

"وماذا سأفعل أنا في المكان الذي نسرع إليه؟.. - سأله محمد أفندي نفسه وهو يسرع بحصانه، وتابع أفكاره: - شكرأ لك إن كنت ترى أني بعيد عن رؤية برج للسلطة، فهذا يوافق مزاجي. ولكن لا تخطئ يا مربزج. أين كنتم أنتم حين كنا نوطّد الإسلام ونوقف البلاد على قدميها في الأبراج، في العهد الذهبي للنائب؟ لا أقول إنكم لم تنجزوا شيئاً ولكن إن قستم أنفسكم إلى فأنا بعيد عنكم بعْد قريبي تامي حبله عن المرتفع الذي نقف عليه الآن. ومن تكّلف ببناء المساجد؟ أنا. ومن اهتم بافتتاح المدارس ومراكز تعليم القرآن؟ أنا. ومن تابع تنفيذ الأحكام؟ أنا. ومحاكم القرى الأخرى، ومهام المخاتير، وانتقاء أعضاء المجلس الأعلى... مهلاً يا أفندي لا تبالغ. لا تنسبها كلها إلى شخصك!... لماذا إذن يستضيفه وأنفه في السماء برج المختار وهو الذي لم يكن يفعل وقتها إلا خدمة النائب كساعي بريد؟! برج لا يعرف عني شيئاً البتة، ولا يعرف أني أخو بكر المقرب إليه... وإن أردت الحقيقة فأنا لا أعرف في نفسي ما يحاسبني عليه. أ يكون وصفي لداور بجز مرة بأنه ملحد هو ما لا يغفرون له لي؟ أنا وصمت تسي حاتر باي كثيراً بهذه الوصمة، غير أنه لا يعادبني..."

كان بناء محكمة برج حسن، حيث يدير أعماله، خالياً خلافاً للأيام الأخرى إذ لم يكن مربوطاً إليه سوى حصانين. ولم يكن يظهر في القريب لابس قبعة أو

¹ يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ بَعْضَ الظُّنُونِ إِثْمٌ﴾ (الحجرات 49/12)

لابسة غطاء رأس لأن الوقت وقت صلاة الظهر. والقرية الجبلية التي لا يسكنها إلا سبع وثمانون أسرة هادئة فلا يُسمع نباح كلب أو صياح ديك. وليس على باب المحكمة المُشرع أيُّ حارس.

— هذان الحصانان، إن لم أخطئ، هما لبرج وداور. — قال مرزبج وهو يربط الحصان إلى السارية — ترى يا أفندي هؤلاء يتظروننا.

— كيف خطرت لك مثل هذه الفكرة السيئة وقت أداء صلاة الظهر يا مرزبج؟

— لم يتقبل محمد أفندي ما سمعه — هيا، لتووضأنا نحن أيضاً إذ لم يفتنا الوقت ولنقف ونصلِّ أمام الله. انظر ها هم وجهاؤنا أيضاً يتوضؤون عند ساقية تيجين العائدة لبرج.

— إن انتهيتم من الوضوء فلنبدأ الصلاة يا أفندي! — قال برج حسن المشمر عن ذراعيه وساقيه وهو ينشفها فالتفت الأفندي إلى مرزبج كمن يقول له: أتري أن الوجهاء محتاجون إلى، وبدأ الصلاة مع الرجال الثلاثة الذين خلفه، مكيراً الله والفرح مما سمعه بادِ من عظام كتفيه ومن ظهره.

وبعد عدد من الركعات والسجادات، والجلسات والوقفات، وتلاوة الأدعية، دعا محمد أفندي للرجال الأربع، من فيهم شخصه، وكأنه يصلي بهم في الجامع:

— ليقبل الله صلاتنا أيتها الجماعة، وليتحقق لنا كل خير! — ثم سألهما الآخرين بسرعة: كيف حالكم يا وجيئينا العزيزين، يا من بارك الله في حسناتكم. مضى زمن غير قصير لم نجتمع فيه، ولم نتشارك أقوالنا وأفعالنا. ولكن هذا لا يعنيني من أن أذكركم بالخير... — وحين سعل مرزبج سعلة خفيفة ذات مغزى أصلح كلامه: — الحق حين طلب مني مرزبج — ليجعل الله يومه مئة! — السفر معه رافقته فالسفر وحيداً في هذه الظروف خطير... ولو

- أني لا أعرف إن كان لي مكان معكم. ولا أعرف إن كنتم ستخوضون في مواضيع لا يجوز لي أن أسمعها. وإذا كان الأمر هكذا فسأمضي إلى الجامع.
- لا أحد يخفي عنه سراً يا أفندي - قال له برج حسن حين عادوا إلى المحكمة، ثم نصحه: - ولا تنظر إلى نفسك هذه النظرة! فعل غش مزبوج خيراً إذ صحبك مع أنه يصر على السفر وحيداً. وستكون شاهداً على سبب استدعائهما وسبب عتابنا له.
- أفضل أن أكون شاهداً صالحاً على أن أكون شاهداً سيئاً - تظاهر محمد أفندي بالمزاح ولو أنه فهم أن لا خير ينتظرهم. وسأل داور متأملاً خيراً فيه: - أليس صحيحاً أيها الكبير؟
- "الصدق يبقى صدقاً دائماً، والكذب كذباً"، وإن شئتم أشهد عليه قوله مأثراً أديغياً.
- "الصدق ينتصب أمامك حتى لو ظنت نفسك صرعته، والكذب يسقط أمامك وإن ظنت أنك نصبه". أهذا ما تريده أن تقوله ياداور؟ - سأل مزبوج وغمغم كاظماً غيظه بصعوبة: - لا أنهم سبب استدعائي... ولماذا تعرضتم إلى سفري وحيداً على المchanan.
- الآن، حالاً ستفهم يا مزبوج - قال برج بدلاً من داور. - نريد أن نعرف ما وراء سفرك الليلي إلى مايقواب، وإقامتك في حاجنخ.
- اسمع ما يصدع رؤوس هؤلاء!... والله أمركم عجيب أنتما... - ابتسם مزبوج وسأل يغلبه عتابه: - ألسْتَ حراً في أن تجحول في بلاد الأبخاخ التي أقمنا فيها السلام؟!
- نعم أنت حر، غير أنك لست حرّاً في أن تنقل أسرار أرض الأبخاخ إلى الجيش الروسي! - أجابه برج حسن جواباً هادئاً، ثم أتبع بالسخرية: - إن

كنت تتكلّم على مساحتك أنت في هذا السلام فهذه مداعاة للضحك.

– يا برج حسن، أيها الوجيه، أنت تهيني! – ارتفع صوت غش مزبج فجأة من حدة طبعه.

– ولماذا تهيني؟ نقول الحقيقة.

– أتسمع يا أفندي ما يقولانه لي؟! – وجّه السؤال إلى محمد أفندي من أجل أن يستدرجه إلى صفة، فلما صمت الآخر قال بصوت أهداً، شاماًًاً الثلاثة بكلامه: – والله أنظر إليّكم فأراكم ثلاثة عجبي التفكير... إن كنت تقصد المسلك الواسط إلى الطريق الجبلي المؤدي إلى أرض الشابسغ يا حسن بي، وعن تخرّبِيه من قبل الجيش الروسي، فاسأل من كان شريكَك في العمل، النائب. ولا تتهمني بما ليس ذنبي. وإذا كنتُ على صلةٍ معرفةٍ ببعض الضباط الروس فأيُّ ذنب في هذا؟.. أوَ لن تقبلوا أيضاً تؤدّه بعض نساء القوزاق الرخيمات إلى في سوق قوزاق حجّ حجّ أيضاً؟!

– ماقلةَه الآن يا مزبج غيرُ مقبول البتة! – جفل محمد الأفندي مما سمع – لا تسمح للرخيمات الكافرات أن يغرينك؛ سيسحرنك، هذا حرام!

– اسمع ماذا يقول هذا! – سأله مزبج وأستأنه البيضاء القوية تلمع وعيناه السوداوان تدوران في محجريهما: – ماذا تعرف أنت يا أفندي عن النساء القوزاقيات في الوقت الذي أصبحت فيه عجوزاً ولم تتزوج؟ إذا كنت تستقبّح النساء القوزاقيات فلماذا تُخفون امرأةً أفقاً منها في أسرة مزخوي؟!

– يا مزبج! – قال مزخوي محمد مقاوماً انفعاليه – لا تتدخل في ما لا يخصك!... من حسن حظك أننا جالسون في حضرة وجهاء الأباخ. ويحجمني عن الرد كوني موFDAً من الله سبحانه الذي أحمل إليه أقوالي وأفعالي.

– وماذا بيذك لتضرني؟ – نتّأت كتفا غش مزبج كما يحدث حين يغضب.

- اهداً يا مرزبج، لستَ في الغابة. - نهر برج مرزبج. - ولا تننس المجلس الذي أنت فيه.

- نعم يا برج، وأنت يا داور، وأنت أيضاً يا أفندي، فهمتُ أني رجل غابات، وفهمتُ سبب استضافتي، وحقيقة هذا الذي صفتَ إلى جانبكم الأفندي، وفهمت عدم حاجتكم إلىِّي. إنَّ كان هذا سبب استدعائي - نحضر غش مرزبج مبتسماً ابتسامة ساخرة - فاسعدوا بجلستكم، سأغادركم. - وحين وصل إلىِّي الباب خاطب من تركهم: - كما قلت لكم قبل أيام، أيها الرعماء المباركون، لا تقيموا ولا تسافروا دون حراسة. أقول هذا قلقاً عليكم، لا إرهاباً. ولماذا أنت جالس يا أفندي، سافر معِّي، كما يقول الجمكوي¹ : سافر مع من جئت معهم دون أن تجعل من نفسك نصف نبيل.

- إنَّ تبادلنا، بعلم الله، بعض الكلمات الجافية، فلن أجعل من نفسي نصف البيل الذي ليس عند الأبراخ منه يا مرزبج. سأغادر معك لأننا جئنا معاً إذا لم يُعْد وجهاًونا بحاجة إلىِّي.

- أيمكن ألا تحتاج إليك وقد فرحتنا برؤيتك - قال برج وقد رأى في عيني مرزخوي ما لا يستطيع قوله - لا سرّ عندنا خفيفه عن محمد أفندي، والموضوع الذي تحتاج فيه إليه، وأنت يا مرزبج أصيّر، سُنُشركك فيه.

- حياكم الله على الإنسانية التي عاملتمني بها. ولكنني لا أكرر ما قلته؛ أنا مغادر. وإن أردتَ يا أفندي أن تنفذ ما قلت من أجل ألا أبقى وحيداً في دار الوجهاء، فسأنتظرك في ظاهر القرية القريب.

¹ قبيلة أديغية من المكونات الأديغية الاثني عشر.

الفصل الحادي عشر

كان قلباً مرزخويًّا محمد الأفندي والفلاح غش مرزبج متباعدين ولو أنهما متقاربان ظاهراً. ولو لا أسيالوف النائب لعاشا كسائر الأبراج الذين تحولوا إلى فلاحين لا يتلائقون ولا يعرف أحدهم الآخر في عالم الأديعة المضطربة.

في البداية يمارس مرزخويًّا محمد الأفندي الذي بني الجامع في تامبي حبله بفضل تعاون الناس وتشاورهم ، مُفيدةً الناس، دون أن يضره كونه عازباً، طقوس الدين الإسلامي مستفيداً منها. وبخالط المخوش والبسلي في هذه الطقوس كالماتم وعقود الزواج المهمة. ويعرفونه في تلك الأثناء أكثر مما يخالط الأبراج في مراكزها وغريها. وفي الستينيات حين احتفظ بالضابط الروسي تورناو أسيراً في تامبي حبله، عمل محمد أفندي مع المخوس التركي القادم من تركيا عبد الله أفندي دون أن يعرف حقيقته. وبعدها حين استقدم الأبراج النائب أسيالوف من الداغستان وحتى توجهه إلى روسيا، كان مرتبطاً بأعلى محكمة دينية أبراجية، ومولى وأفندياً لأبراج منطقة لابا وفرزه.

وغض غش مرزبج الفلاح الثاني ولد في قرية نقارا الواقعة في أعماق جبال ناحية طوابسه. وحين اكتسب قوام الرجال ركب الحصان الوحيد في الدار دون اعتبار حال والديه المزمنين وغاب عدة سنوات في نواحي الوبieux دون أن يعرف أحد مكانه. وتزوج من يتيمة من الساز - الأباء. وحين عاد إلى القرية برفقة ابنتهما الوحيدة الخرساء كان قد تأخر عن جنازة أبيه وأمه اللذين دُفنا في يوم واحد. ولم يكن أحدٌ يعرف متى يخرج من القرية ومتى يعود إليها لأنَّه كان يمارس قطع الطريق منفرداً. وأمّا امرأته فلم تعد تعبأ بسيرة الزوج المتنقل بعدما أهلك الجدرى ابنتهما، فعاشت وحيدة أرملة وغير أرملة. ولكن، لم تكن الدنيا تسعها من الفرح في بضعة الأيام التي يظهر فيها من جديد مرزبج الكبير كما كانت

تناديه هي.

كان السبب في التقريب بين الأباخين المختلفين في كل شيء هو النائب محمد أمين: اختار النائب مرزخوي محمد الأفندي من بين بضعة المرشحين الذين فكر فيهم لأنه يحتاج إليه بوصفه لا مشاكل في التعامل معه، وأنه مطيع يأتمر بما يريده، متقن لعمله على طريقة النائب في وصف كل الشيوخ الأباخ. وأما في شأن غش مرزبج الرجل الجسيم فلم يكن للنائب خيار، إذ لم يتردد منذ أول نظرة إليه في اختياره، مدركاً أنه سيكون نعم الحارس المخلص له، المطيع لما يأمره به.

متى قدّم النائب مرزخوي محمد الأفندي وغش مرزبج أحدهما للآخر، ومتى كانا معاونين له؟ خلال خمس عشرة سنة أو عشرين، ولو لم تكن هذه من العمر إلا رقة عين، جرت على أرض الأباخ الأديعة مآسٍ كثيرة لا يمكن أن تخطر على بال، في حين ما تزال القمم البيضاء على حالها. وعلى هذه الأرض دوى الرعد، ونزلت الصواعق، وقصفت مدافع جيوش الأعداء، وتناولت البنادق، واشتبكت الرماح، وتثلمت الخناجر والسيوف، وتكسرت النصال على النصال. وأقيمت المناحات على الملاط، وبقي الكثيرون لا يجدون فرصة ليخلعوا عنهم ملابس الحداد. ومن كان يعرف أن النائب الذي ظن أنه جلب السلام إلى أرض الأباخ سيلحق مسرعاً بشامل إلى روسيا؟ وإذا كان الوضع في الأباخ يبدو كأنه سلام ففي كل مكان تسمع أغاني القوزاق بدلاً من أغاني الأديعة. وإذا كفّت المدفع عن القصف، والسيوف عن الصليل، والرماح عن التكسير، فالطرق تُفتح في الجبال بحجّة متقنة ، وتنصب الجسور، وتتوغل القوات الروسية شيئاً فشيئاً إلى بلاد الأباخ.

"وما حاجتي إلى الأفندي الذي أنتظره؟ - سأل غش مرزبج نفسه - حين

ابتسموا في وجهه طمع في بقايا الجبن بين أسنانهم... وحين أخبرتموني مسافر وقد أوكلوا إليه ظاهراً المهام الدينية التي لم يستطع النائب خلال سنوات حله، لم يودعني وداع صدقة أو إنسانية... — كان غش مزبوج همز وهو تحت الشجرة حصانه ضاغطاً على سرجه فارتعب الحصان، ولكن، كما يقال إن لم يركض قلب الفارس لم يركض حصانه. التفت مرة أخرى إلى من كان ينتظره. ولم يكتف بهذا بل ترجل وأرخي حزام سرجه، ثم شدّه. — أنت مجانون يا غش — ضرب مزبوج بالسوط أسفل رجليه. — أكانت غلبيّتي عزيّتي فسكت حين طلبوا مني المساهمة في الحديث لو لم أكن مجانوناً؟ حتى برج ودارور ترجياني في النهاية وواسيني وعاتياني بلطف على كل حال... وانظر أي موقف اتخذه مني أخيراً هذا الأفندي!... أي أفندي هذا الذي كان النائب يصفه وأمثاله: "قبل أن يصبح مولى صار غازى موائد"! وديكا الجيش المنفوخان الآخران؟ كما كان لتحق لي النائب الذي شيعناه، وكما أمنلني أصدقائي الضباط الروس الذين أودعهم أسراري، سأركما متى وطّد الجيش الروسي نفسه في أرض الأبخاز نوع الرعامة التي سلبتموها من الفلاحين الأبخاز السُّدُّج. ولكنني قبل كل شيء سأعرّف الفلاح الذي أفرطتُ في إطلاعه على أسراري ثم أهانني، قيمته، ولا يجوز أن تُبقي الصاحب الذي خانك في أسرارك في مرتبة من هم أصدقاؤك وليسوا أصدقاءك، وكثير من أمثال هؤلاء اقتلعتهم من طرقي... إن لم يكن وشى بي إلى من تركته معهم!... ولماذا أهتمّ من لن يجدوا شاهداً؟ من بقي لي في الأبخاز هما تسي وأفمعُ..."

كان ما يفكر فيه محمد أفندي الذي أوكلته إليه أمور الدين في بلاد الأبخاز، وهو يجري باتجاه السهل الذي ينتظره فيه مزبوج شيئاً آخر: المجرد أين قلت له "... سلوكك غير صحيح لا تدع النساء الرخيصات يتخذنك خديباً. ولا

تتدخل في أمور لا تفيدك" قال لي "ماذا تفهم أنت في العاهرات، أنت عجوز ولست عجوزاً، تعيش عازباً؟ وإذا لم يعجبنيك فلماذا تخونون ابنتهن المتحررة في بيتك؟" فأهانني أمام الوجيهين. لأول مرة أسمع تعريضه بعزوبيّتي التي يعلم الله بها؟ ليست هذه أول مرة أسمع فيها هذا التلميح، لا يضرني في شيء. ولكن وصفه لابنتنا الوحيدة بأنّها "متحللة" لن يرضي عنه بكر، ولن أتحمله أنا. ولا يكفيه هذا بل يناور بالكلام مذكراً إيانا بضرورة إعادتها إلى الروس الذين تنتهي إليهم. هذا الرجل لن يتوقف عند هذا الحد بل سيتهمني بالقباحات التي مارسها في الأبخاز فيفقد من صاروا أصحابي ثقتهما فيّ. أنا لم أقل شيئاً في شأنه. ولا سألني عنه جماعة برج. بل لا أعرف كيف سينقرانه مني!... ما فعله ما كان يجوز أن يفعله لو أراد أن يعيش محترماً بين الناس. وأنا، ألسنُ موفد الله، لا أستحق هذه المعاملة منه. الواقع أنه لا مجال لأن أغتابه أو أنصره. إذ لا يبدو له أثر. أيكون ماضي في سبيله دون أن ينتظري؟ لا مشكلة إن لم ينتظري، لم ينتظري وانتهى الأمر، والله بيني وبينه. لو عرفت أنه سيفعل بي هذا ليثُ ليتني في مضافة الذين غضب عليهم والذين ترجوني أن أبقى معهم؛ إذن كانت معرفتي بجم تعمقت إذ لا بدّ حادثوني في الليل..."

- طال تأخرُك يا مرزخوي! - خرج من الغابة مرزيج.

- أهذا أنت يا مرزيج؟ - نظر محمد أفندي من طرف عينه سعيداً بالصوت

الذي عرف، ثم لامه بلطف: - ظننتك رجعت دون انتظاري!

- أتظنني مثلك؟

- لا يخلق الله شخصين متباينين يا مرزيج. يختلفان في طباعهما حتى لو تشابهما في المظهر.

- أتفقصد الرجلين اللذين تركتك معهما يا مرزخوي؟

- الحق أني لا أعرف ما وراء كلامك، ولكنني لا أشبههما، ولا أنت تشبههما،
ولا هما يشبهاننا.

- لماذا إذن كنت تتأمل فَمَوْيِهِمَا؟

- احترس في ما تقوله يا مربزج، يا من أدعوك الله له بالخير، أنت تتجاوز
الحدود... - نصح محمد أفندي غريمي، ثم أضاف: - سأقول لك ما طلبه
هذا الرجلان اللذان غضبتهما: ترجياني أن أعيدك إلى مائدتهما، مما
رزقهما الله، حين تنطفئ سُورَةُ غضبك.

- هل أعتبرهما يا مربخوي - ضحك غش مربزج من خارج قلبه - لأنني أعرف
من سيئاتهما الكثير؟ وهل أنا مشتاق إليهما جداً؟

- لم يخلق الله يا مربزج إنساناً لا محل له على هذه الدنيا الفانية... - ثم سأله
عما صبر عليه إلى الآن: - لماذا يا مربزج تُقْحِم اسم أسرتي التي لا تُطِيقُها كلما
نطقت كلمتين ولا تنادي بي باسمي؟

- وما العيب في هذا؟ - سرت ابتسامة ساخرة على وجه مربزج - لا يجوز أن
ننجا في نحن الاثنين في هذا الوقت العصيب لأن بعض الأحداث جرت بيننا.
إن كان يُرضيك ناديتكم بالاسم الذي كان يناديكم به النائب: الفلاح - منح
مع الأفendi.

- لا، لا، إنس هذا، ما تنادي بي به يرضيني أكثر.

- حسناً يا محمد أفندي - وافق مربزج بسرعة - سأناديكم بما تريده تماماً،
ولكن لا تدعنا ننسى صلاة العصر التي أمرنا بها الله. وما شأننا بالرجلين اللذين
جعلوا منك موFDAً إلينا، لن نزعجهما. لنمضي إلى نهر شحه غواشه لنصل إلى على
ضفته، ثم نبتهل إلى الله من أجلنا كلينا.

- حسناً. ولكننا سنبتهل إليه، إلى من يحتاج إليه الجميع ولا يحتاج إلى أحد،

ليس من أجل شخصينا فحسب، بل سنشمل بدعائنا الأبراج البوسّاء أبناء قبيلتنا، وكل الأديغة أبناء عرقنا.

- حقاً يا أفندي، حقاً، لسنا وحدنا، بل لينان كُلُّ المسلمين نصيّبهم من خير الله، وليرحّق لهم كل خير. يا ربِّي ما أخبار الشابسغ الذين لا حدود لمعاناتهم؟ حين جاءنا هؤلاء برجائهم وأملهم أرسل الجنرال فيليبسون الذي يزعم جماعة برج أني صديقه موّفيه الضباط محتاجين، فلم نستطع أن نتكلّم بحرية... - ثم قال لنفسه: "هذا ما سيحدث لك إن لم يكن عندك زعيم حكيم".

- ليحمنا وإياهم الله العلي الذي سنقف أمامه مصلّين يا مربّع يا طويل العمر إن شاء الله. - وأضاف محمد أفندي في قلبه إلى مربّع الذي كان يقوده إلى مكان تأدية الصلاة: "غير أني لا أعرف إن كان سيغفر لك آثامك أنت" حين توضأ على ضفة النهر الجبلي التي لا يسمعان فيها ما يقولانه وعادا إلى الضفة العليا بناء على رغبة مربّع ليكونا أقرب إلى الله، وبسطا سجادي الصلاة من جلد الماعز، دفع مربّع ملحوظاً محمد أفندي صاحبه غش مربّع من الضفة العمودية. ولما لم يكن مستعداً لسماع استغاثة الساقط مسح يديه حين رأى الجثة تتقاذفها أمواج النهر، ووقف وصلى العصر وكأنه لم يفعل شيئاً.

الجوار حيث لا يسمع إلا خرير النهر، والبعيد، هادئان. ولما لم يكن أحد رأه إلا إن شهد عليه العقاب الوحيد المدوم في السماء فقد أنهى محمد أفندي الصلاة داعياً إلى الله "اغفر لي إزهاق روح عبد من عبادك إذ لا شك أنك على علم بما فعلته كائناً من كان الضحية، وكيفما كان". وطوى سجادة غش مربّع الذي فارق الحياة مُكرهاً، وعلقها إلى جانب السرّج حيث كانت. وهمس في أذن حصان الضحية الذي لم يفهم شيئاً مما حدث، ماسحاً على رقبته، متجنبًا النظر في عينيه. لو لم أبادر أنا لفعل بي ما فعلت به... تعالَ لن أتركك

وحدك.

لم يتتبه محمد أفندي الذي كان يسير بين الحصانين، ممسكاً بـلجميهما إلى أنه لم يركب إلا عندما صهل حسان مرزيج. وما لم يكن يفارق ناظريه هو الجثة التي كان يتقادفها الماء الجاري. أو همته حمامة الحسان أن مرزيج أفلت من الماء وصعد إلى الضفة العالية فتلقت حوله، وامتطى حسانه. ثم توغل في الغابة بعدها حثّ الحصانين قائلاً لنفسه: لماذا أسمح لعينٍ عارضة أن تراين بالصادفة؟ ولم يسر طويلاً: ابتهل إلى الله جالساً على صهوة حسانه أن يغفر له ذنبه. وتلا دعاء لنفسه.

"ولما كان الله قدر للمسكين مرزيج الطريقة التي انتهت بها حياته لم أتجاوز أمره تعالى. سيرحني، وسيحمياني. — بِرَّاً محمد أفندي نفسه بلسان معسول، وقلق على الحسان المربوط إلى جانبه. — ولكن لا أعرف ماذا سأفعل به. إن أخذته إلى منزلنا، إن رأوني أدور به، شكّ الناس في... وجماعة برج يعرفون أن مرزيج كان يتظارني في ظاهر القرية وأني لحقت به. وإن أدعى أني لم ألتقي به فain أذهب بهذا الحسان ذي العينين الواسعتين الذي بقي معى؟ وإن قيدته في الغابة صارت الدابة البريئة ضحية المفترسات... أفضل حلٍ هو أن أدعى لبرج وجماعته أني لم ألتقي بـمرزيج بل رأيت حسانه وحيداً فبحثت عن صاحبه حين لم أجده في ظاهر القرية، فلم أستطع أن أتجاوز هذا المكان. وهم سيتصرفون، غير أني لا أظنهم سيهتمون بالأمر كثيراً..."

لم تجر الأمور كما خطط لها محمد أفندي: ركب الذين سمعوا الخبر، وعلى رأسهم برج وداور، وتوزعوا على مجموعات، وبخثوا في ظاهر القرية، والأماكن البعيدة في عمق الغابة، وضفاف الأنهر العابرة، والسهول، حتى القرى القرية وموقع الجيش الروسي. ولكن المساء حل دون أن يعثروا على مرزيج، فعادوا إلى

قرية برج.

– لا يمكن لرجال من نوع غش مربزج أن يختفوا في بلاد الأباخ، سيظهر أينما كان – قال الفلاح غمشته مولى، فوافقوه، وانصرف كل إلى عمله.
ما إن صلى محمد أفندي بالمصلين صلاة الصبح في قرية برج التي قضى فيها ليلته حتى جاء فارسان قوزاقيان إلى برج حسن بخبر عثورهم على جثة غش مربزج.

– أيكون من تأتون على ذكره غير غش مربزج؟ – سأله برج حسن ثانية الفارسين، واختتم: – ما العمل إن كان هذا، سنقوم بمراسم دفن جثمان المسلم، ونقله إلى قرية نقار.

– نعم أيها زعيم المبارك، نعم يا حسن بي – وافق محمد أفندي الزعيم الأباخى كأن لا علاقة له بالأمر – لن نبعس جثمان من مات قبل أوانه حقه، سندفه حسب ما يستحق... كان المغفور له مربزج صديقى الأكبر سنًا، يعرف أحدهنا الآخر جيداً، ألسن أفندياً! وسأذهب بشخصى مع من ينقلون الجثمان. أدعوا له بالغفران والرحمة أيتها الجماعة. لندع الله أن يفتح للرجل الصالح غش مربزج أبواب جنته!

الفصل الثاني عشر

– تسي وأفمُعْت قادمان، يا زعيم الخير – نقل غمشت مولى الذي يعرف كل من وطئت رجلاه ظاهر قرية برج حبله.

– ليتحقق الله لك كل خير، تفضل! – قال برج حسن الذي كان يلعب طاولة الرهر مع ابنه أريشت ذي العشرين عاماً في اليوم الخريفي المتأخر المعتمد، للضيف القادم.

– حياك الله يا زعيم الخير، نحن حاضرون لإجراءات استقبال الضيف.

– يستحق الضيوف القادمان من توبا البعيدة تسي وأفعمعُت استقبالهما بحفاوة.
ولكن هذين يجبان لحم الجدايا السميّة فبلغا الخدم أن يحضرّا لهما منه. مهلاً،
من يعرف إن كانوا ملاً من لحم الماعز؟ اذبحوا لهما من الخرفان السود.
– إن لم يكونوا بخيار فقد لا يُطيلان الزيارة ثات – قال أزشت الذي كان يعرف
طبيعة تسي.

– الأديغة يضيفون أي شخص كان إن لم يأت بالسلاح يا ولدي – نفض برج
حسن الذي يلبس طوال النهار عدة الحرب لباسه الحربي، وقال لابنه: – تعال
يا ولدي تستقبل ضيوفنا عند باب الدار بروحنا الأديغية. لا تُخطئ، قف إلى
يساري كما تعرف!

في المساء كان بضعة أشخاص مختارين يسهرون في مضافة برج حسن. وكان
بينهم داور بجز الذي أرسلوا وراءه فارساً إلى قريته القرية.
تتوالى إلى المضافة موائدٌ عليها لحم الماعز ولحم الحروف، والأجبان والألبان،
و"باستة"¹ الذرة الساخنة. والنقانق المسلوقة والمشوية، وبرك الجبن،
و"السلامه"². وبين الشباب الذين يؤدون هذه المهمة غمسّت الذي يتقطّع كل
كلمة يسمعها. وأحياناً يخاطب الشباب الذين يتناقلون الموائد بصوت يسمعه
الكبار في المضافة:

¹ الطعام الأديغي المعروف إلى الآن، وكلمة "باستا" هي الكلمة الفرنسية pâte التي تعني العجين عموماً، وكثيراً ما يكون الحرف è مسبوقاً بـ s ، مما يعني أن الأصل البعيد للكلمة هو paste. وكذا في اللغة الأديغية تعني طحين الذرة المسلوق، أو الذرة أو الرز... حتى تشير كالعلجين، وتقدم مع اللحم أو الزبدة وغيرها حسب ما يتوفّر.

² عجين رقيق مدعوم بماء أخرى يقلّى بالزيت، ويُقدّم غالباً في المناسبات المفاجئة كالضيوف الطارئين.

- والله لن تصدق حكمة كبارنا ورشاقتهم مهما رروا لك ما لم تسمعها وتعاينها. ليبارك الله في أنساهم. لا يسمحون للباخسسة أن تسليهم عقولهم، ولا ينقض أحدهم كلام غيره. ولا يتمارون. ولا يخالفون تقاليد الأكبر والأصغر سنًا. هذا ما يسمى آداب الأديمة.

- ولماذا لا تقول: أدب الأبراخ، وتقاليد الأبراخ في المناسبات، ورشاقتهم ونظافتهم أيها البائس. يقول أحد العاملين في نقل الموائد له.

- اسمع ماذا يقول هذا! - لا يقبل غمشت مولى ما يسمع. - أليس الأبراخ أديمة؟ نُفني أنفسنا، نحن الأديمة، ونحن نتمارى بمثل هذه الأقوال. - وحين يدخل مولى إلى المضافة لتغيير المائدة يقول للمسنين كسباً لقلوبهم: - يا مسنينا الأعزاء، يا من أدعوا الله من أجلهم بالخير، إن كنتم راغبين في شيء من المرح أو الترويح عن أنفسكم فسنستدعى عازف الربابة¹ ليغني لكم من أغاني أجدادنا.

- ما ذكرته حسنٌ أيها الفلاح، - قال تسيي - ولكن الأفضل ألا تُقحم مثل هذا في المناسبة التي جاءت بنا إلى اجتماع وجهاء الأبراخ. حين تُرفع الموائد، وتبقى وحدنا سنتحدث في الأمر يا حسن بي، ويما بجز.

- صلاة العشاء يا كيبرنا؟ - سأله حذيراً غمشت مولى إلى من خلفه وهو يرفع المائدة، وأصلاح التعبير بسرعة: - سيفهم الله موقفكم إن تأحرتم في أداء الصلاة لأنكم ما شربتم الباخسسة إلا بعلمه.

- أغلقوا الباب، لن يدعنا هؤلاء تتكلم براحتنا. - لم يملك ألمعُت مرتوقه إلا أن يصرّح بما لم يُطِقْه.

¹ في الأصل آلة بدائية خاصة بالأديمة، ترافق غالباً عازف الأكورديون عندهم.

- لا تدعنا نفعل هذا يا مرتوقه - لم يقبل برج حسن ما سمع - لن نعزل أنفسنا عن عامة الأبراخ مadam موضوع حديثنا هو الأبراخ، قضيَّتنا قضيتهم.

- صحيح، أيد تسيُّ برج - إن أبعدنا الفلاحين فعلى من نعتمد؟ لسنا نحن مثل النائب الغريب... هذه أرضنا نحن الأبراخ. ربنا فيها، ونشأنها، وستنتفس فيها آخر شهقة. ما يقلقك أيها الزعيم الأبراخى يُقلقنا. لن أطيل المقدمات ما دمت بدأت بالموضوع: ما أريد الحديث فيه هو أنه حين وفد إلينا الشابسغ والوبيخ قاومنا الجنرال فيليبيسون بكل قوته في شأن الموضوعات الأدبية التي جاؤونا من أجلها. أوضاع هؤلاء حسب معلوماتنا، أغمضت وأنا، سيئة. يحرقون بلاد الشابسغ قادمين من جهة مدينة إيكاترينا¹. وأرض الوبيخ محاصرة بالسفن الحربية. يقول الروس لهم إن محمد أمين صالحنا مع الأبراخ، وأنتم افعلوا مثلهم. منذ اليوم الأول، أنتم تعرفون هذا، لم أكن موافقاً على صلح الأبراخ - الروس. والآن ترون جمِيعكم رأي العين ما جرى لنا. هؤلاء يتسللون إلى أرضنا بـ"ذرائع" مختلفة.

- ونحن - أهل توبا - سيصلون إلينا. وافق أغمضت رفيقه الأسن.

- نعم، نعم - قال تسي، ثم أضاف: - ولكن ليس من أجل أهل توبا فحسب يجب أن نقلق، بل من أجل بلاد الأبراخ كلها. وسأنظر إلى أبعد من هذا: بمن فيهم الشابسغ والوبيخ والساز - الأباطة. أما حان الوقت لنساعدهم ونرفع من معنوياتكم!

- أتريد أن تقول: يجب أن ندعم هؤلاء بالمقاتلين ناقضين اتفاق السلام؟.. - استعجل داور بجز على عادته.

¹ مدينة قوزاقية على الضفة المقابلة للشابسغ من نهر بشزة، كان فيها قلعة شهيرة. يتردد اسمها في رواية خان جري مؤلف هذه الرواية إسحاق ماشباش.

- كل شيء في وقته بحسب أوضاع الأديعة الحالية! — حسم تسي الموقف،
وسائل برج:

- ما رأيك أنت أيها الزعيم المبارك في أن نرد الزيارة ملئ زارونا، لأهلا؟

- لا أدرى إن كنا سنتزورهم لدعهم عسكرياً، ولكن كان من اللائق أن نرد عليهم بزيارة. إن كنتم جاهزين فخيولنا أيضاً جاهزة.

ركب الزعيم الأبيزاخي برج حسن برفقة تسي وأفعى الطريق إلى بلاد الشابسغ والوابيغ فجراً. واستحسنوا بعد تفكير أن يرافق أفندي هذا الجمع، فاصطحبوا محمد أفندي الذي استدعوه في الليلة نفسها.

لاحظ برج حسن عند الظهر فحسب أن الخمسة عشر فارساً الذين شهد لهم الصقيع الصباحي بأن خارهم سيكون صحواً زادوا على الخمسين. ومع أنه لم

يشغل باله بهذا الموضوع فقد قال تسي الذي حدس قلقه:

- لا تهتم يا برج بكثرة عدد فرساننا. ألا تعرف أننا لن نقول للأديعة ماذا تريدون حتى رافقتمونا في حين لم ندعكم؟ كلما زاد عدتنا كان أفضل لوحدة الأبيزاخ ووعي الأديعة. ما إن نصل إلى آخر حدود الأبيزاخ حتى نصرفهم مع الشكر. وإن لم أخطئ ففرسان توبا الذين أرسلنا إليهم أمس ينتظروننا على ذاك المرفع. — ثم أضاف بعد وقفة قصيرة: — هؤلاء يقولون إنهم سيبقون مع الشابسغ العالقين في نار الحرب.

- ولكن يا كبير — تكلم برج من خلال شاربيه ولحيته دون أن يعرف ما وراء الكلام الذي سمعه الآن — هذا الحشد الظاهر للعيان يزيد على مئة فارس... لم تنفع على أن اتفاق السلام يشترط أن لا نذهب إلى إخواننا الشابسغ والوابيغ بصفة نجادات عسكرية. بالإضافة إلى أن الجيش الروسي المتمركز أمامنا لا يقبل أن يجتمع منا أكثر من خمسين فارساً في أرضنا.

– ما العمل إذن إن وجب أن نجتمع المجلس الأعلى للأبزاخ ومجلس المخاتير؟..
– شدّ تسي لجام حصانه فارتفع في الهواء قليلاً. وتوقف حشد الفرسان من خلفهم على مسافة غير قريبة ولا بعيدة. – أعلينا أن نستشيرهم ونستأذنهم في هذا أيضاً؟

– علينا أن نخبرهم قبل ثلاثة أيام – ابتسם برج وإن كان ما قاله آلمه.
– الحق أن هذا لا يجوز!.. أتسمعون أيها الفلاحون ما يفعلون بنا؟! على ما ييدو يا أفععْت افترقنا ونحن لا نعرف شيئاً وتجتمعنا الآن في عمق جبال توبا...
هذا ما فعله بنا النائب الذي تحول قلبه إلى قلٍّ كافر.

– هذا بدبيهي أيها الزعيم المبارك الذي ندعوه له إلى الله، القوموق¹ تخلَّى عنا في ساعة البؤس وانصرف إلى جوار الكفار. – وافق محمد أفندي صاحبه تسي.
– يا مرزخوي! – قاطع أفععْت كلام الأفندي – لا يحق لك أن تتكلم هكذا على النائب الذي وقفت معه سنين وأطعنته.

– ما تقوله صحيح يا مرتوقه، يا من أدعوه له أن يحسن الله إليه. – وافق محمد أفندي بصوت خافت أفععْت – ساندَ النائب بعلم من الله العلي الذي يتهم إلَيْه الناس ولا يحتاج هو إلى أحد. ولكنني فارقته كما ترون عندما انكشف لله وللناس عن جنبي كذاب. إذا كنا أخطأنا في عهد النائب، كلنا نحن المجموعة هذه، فلنندع جميعاً إلى الله أن يغفر لنا ويرحمنا لأنَّه يحب التائبين. قولوا: آمين!

– إذا كان الله يحب التائبين يا أفندي يسُرُّنا أنك انضمت إلينا، ونحن بقى ذِكر النائب على ألسنتنا بالخير وبالشر سنوات عديدة. – حين فرغا من

¹ يقصد النائب محمد أمين المتنمي إلى قبيلة القوموق كما سبق في حاشية أخرى.

الدعاء اختتم تسي حاترياي جدال رفيقيه.

- لم يتضمن إلينا محمد أفندي فحسب - قال برج مسرعاً - بل أقنعته أن يكون أفندياً لكل بلاد الأبرار المسلمين.

- ونحن عندنا بعض العلم بالأمر يا زعيمنا المبارك، خيراً فعلت يا زعيمنا المبارك. - قال تسي - غير أن ما يقلقني في هذه اللحظة ولا أفهمه هو أمر واحد: ليس مذكوراً في وثيقة الصلح مع الجيش الروسي أن علينا أن نستأذن الجيش الروسي في موضوع الخمسين فارساً إذا جمعنا المجلس الأعلى أو مجلس المخاتير، أو إذا قررنا السفر إلى مكان ما؛ أليس كذلك؟

- صحيح ليس مذكوراً، غير أن الجنرال فيليسيون ذكره لي مع وفد جاء لهذه الغاية.

- أكان ما أرسله مكتوباً؟ - لم يقنع تسي.

- لا، بل بلغه لي شفهياً القوزاقي سيرديوك.

- أسمعت يا أعمدت، نحن لا نعرف شيئاً.

- كنت قررت أن أطلعكم عليه البارحة ولكن هذا السفر المفاجئ أنساني إيه. - برج نفسه.

- هل أعضاء المجلس الأعلى ومجلس المخاتير على علم به ولو لم تطلعنا نحن الاثنين أيها الرعيم المبارك؟ أمثال هذه من قضايا البلاد... - قطع تسي

كلامه، واختتم بالمزاح: - حسن إن كان مجرد كلام فما يخرج من الفم تذروه الريح؛ نحن لم نسمع بشيء ولا نعرف شيئاً. ما رأيك يا أفندي أنت بالموضوع؟

- أيها الرعيم المبارك، ما نمضي إليه الآن، وما نتكلّم فيه، وزعيمنا برج حسن الحكيم، كله بعلم الله العلي العزيز الذي نحن من أمته، ولذلك ستتصرف بما قرره. ولكن علينا في كل مسائلنا، وفي كل كلامنا، أن نعود إليه طاهرين في أي

وقت.

نظر تسي إلى ألمع بطرف عينه يريد أن يقول له: أسمعت تلميحهم إلى ، متظاهراً بأنه لم يهتم بهذا التلميح، وإن كان لونه شحوب، غير أن ألمع سأل غير مبالٍ لاعتياذه على عدم التوقف عند هذه الأمور:

– ألا ترتاب المرحاض يا مرزخوي؟

– لم يخلق الله إنساناً لا يرتابه يا ألمع. أحمل معى إبريق الماء إليه. – أجاب محمد أفندي صاحب اللسان اللطيف جواباً سريعاً غير محضّ.

– أذهب على رجليك؟ – مرة أخرى سخر ألمع من الأفندي.

– لا يحملونني! – حسم الحديث باختصار.

– وليس مستبعداً أن يحملوك.

– يا ألمع! – لم يُطق داور بجز صبراً – أليس لسخرتك التي ورثها من أهل توبا حدّ يوماً ما، كرهناها!

– لستوقف عن نزقنا نحن الأذاخ! – في هذه اللحظة صرخ برج، وأضاف بين عتابهم وملاطفتهم: – انظروا بأعينكم وقلوبكم؛ ألا ترون فرسان القوزاق الذين اعترضونا؟

– ماذا ينوي لنا أصحاب القبعات المتوجة بالأحمر¹? – همس غمشت المولى إلى جاره كوبا هارون وقد أحرجه ليصحبه.

– لا أظن هؤلاء دون نوايا مبيتة. – غممغ كوبا هارون مستاءً مما يرى. – لأجل هذا أقول لك لا تدعنا نشارك في توديع الزعماء.

– هل خبأتم رؤوسكم حين وقعت أعينكم على القوزاق؟ – عرض بهم فلاج

¹ أدخل القوزاق تعديلاً على القبعة الأدبية ليتميزوا، وهو أن غطوا أعلاها بقمash أحمر.

آخر.

- وسيوفنا وختاجرنا ليست مثلمة أكثر مما يحملون. — بادر غمشت بالردد.
- هذا صحيح — ثبت هارون قبعته على رأسه.
- أمام الكفار — يشجع محمد أفندي الأبراخ — الله كبير وقوى. قولوا نحن من أمتهم، وسيغمروا بعطفه، وسيحمينا.
- اصبروا أيها الأبراخ، إياكم والحمية، إمض يا تسي — لاطف برج بطن حصانه قائلاً لنفسه "من أوصل خبر انطلاقنا إلى بلاد الشابسغ ليلة أمس ولو أئنا لم نكتمه؟" — سلاقي نحن أيضاً سيرديوك الذي ركب ملاقاتنا — أخبر برج حسن الكابتن سيرديوك بتفوره منه من أول كلمة: — لا نخليك بل نسمعك لأنك نقضت تقاليد التقاء مجموعتين من الفرسان على أرض الأبراج.
- لسنا وحدنا بل أنتم أيضاً تنقضون. — أجاب الكابتن القوزاقي بصوت هادئ معتمداً بكتافياته الذهبية وبالفرسان المئة من ورائه، ثم حدد: — أتكلم على الأمر الذي أبلغتكم إياه قبل أيام الجنرال فيليسيون وهو ألا يجتمع خمسون فارساً على أرض الأبراخ. وليس هذا وحده، بل اعترضكم بفرساننا المسلمين لأنكم ماضون إلى أعدائنا الشابسغ الذين يحاربوننا.
- لا يحق لنا، حسب كلامك، أن نزور أبناء قومنا.
- وهؤلاء لو صاحلوكم لسمحنا لكم بالسفر. غير أن هناك أمراً بأن لا تشاركونا أعداءنا في أفعالهم، ولا تساهموا معهم في مشاريعهم.
- وإن جاهاكم يا سيرديوك القوزاقي بالسلاح! — ارتفع صوت تسي بسبب ما سمعه.

- السلاح يُجايه بالسلاح — أجاب سيرديوكوف بلا مبالغة ظاهرة، ثم أصلح اسم الاحتقار الذي خاطبه به تسي: — أنا لست سيرديوكوف القوزاقي، أنا

كابتن في جيش قيصر روسيا المثير. وسيرديوكوف هو نسيبي. وإذا قلت هذا فلا يعني كلامي أني أحترق القوزاق، هؤلاء حماة بلاد روسيا الحاملون راية الفخار. وإن تجاينا بالسلاح الذي ذكرته يا تسيي — الآن رُكِّز الكابتن على نَسَب تسيي، — نقضنا اتفاق السلام بيننا نحن والأبخاز. وإن كنت تتبعه بنتائج هذا الأمر، واخترته فكما تريده. ولن نقول المزيد في هذا الموضوع لأن ما اعتبرناكم لأجله بينَ.

— ماذا نفعل يا برج؟

— في كلام هذا الرجل جانبٌ من الصحة. لسنا وحدنا، نحن الاثنين، من اتخذ قرار الصلح الأبخازي — الروسي.

— هذا صحيح... ولكن إذا كان هؤلاء سيهينوننا في بلادنا هكذا فاعتبره مُلغىً منذ هذه اللحظة. امض، سنعمود وأذناب خيولنا قطعها القوزاق في عقر دارنا... — ولكن سنجد أيها القوزاقي سيرديوك طرفاً سرية في جبالنا تؤدي إلى الشابسغ!

الفصل الثالث عشر

كما هي العادة في كل زمان في الجبال، لم يسمح الثلج المفاجئ لخبر الإهانة التي أُلْحِقَتُ أَمْسِ بالفرسان الأبخاز على طريق طوابسه، أن يسري من بيت إلى بيت، ومن قرية إلى أخرى.

كان للفرسان الذين رجعوا إلى بيوتهم الدافئة وجهاتٌ نظر مختلفةٌ إلى الموضوع: بعضُهم مثل كوبا هارون تحرقه نار الإهانة، والآخر غمسته مولى فرج لأنَّه نجا من العاصفة الثلجية. آخرون لم يكونوا معهم يشمون بهم إذ يفعلون ما ليس من شأنهم، وغيره يرى الإهانة لحقت به شخصياً. ومن يعلن استعداده للحرب حاضر. وغيره ممتعض مما حدث لأنَّه لن يذهب ثانية إلى أسواق القوزاق.

والمحاتير فرحةون إذ "لن يشغلوهم بعد اليوم بالمجتمعات" ورجلٌ لم يجد الفرصة لجمع حطب التدفئة تأكله زوجته بسأها. ومن ولدت بقرته حديثاً لا تسعه الدنيا من الفرح. والأسرة التي عندها مريض بالغُ المرض تنتصّت على همس الريح التي تحمل الثلوج المتاثرة، وتقلق. أمّا الشباب فلا تسأل عنهم إذ لا حدود لسعادتهم: هي فرصة لمعازلة البنات، وزيارتهن في بيوتمن، والأعراس وحفلات الزفاف...

ولأنَّ الحياة حيَاً فهـي تحرـي في الأـبـراـخ كـما تـرـيد دون أـن تـمـيـز بـين النـاس وـدون أـن تـسـتـشـير أحدـاً. ولـكـن النـاس يـعيـشـون، كـما العـادـة، كـلـ حـسـب نـشـاطـه أو كـسلـه، وـخـيـه وـنـجـاحـه في أـمـورـه، هـذـا عـلـى رـجـلـهـ، وـالـآـخـر عـلـى حـصـانـهـ. وـهـذـا بـيـتـه دـافـئـ، وـآـخـر بـيـتـه بـارـدـ، وـهـذـا سـتـرـتـه مـتـهـرـةـ، وـالـآـخـر تـلـمـع مـخـازـنـ الـطـلـقـاتـ الفـضـيـةـ عـلـى سـتـرـتـهـ. وـهـذـا خـاوـي الـبـطـنـ، وـالـآـخـر مـتـخـمـ بـالـطـعـامـ وـالـشـرـابـ.

في قرية تامي حبله شتاء عنيف: منذ أكثر من ثلاثة أيام تُصْفِر فيها الريح الشرقية. وتمارس فيها العاصفة الثلجية شورها. ولم تمرّ مضائق قحبس وبشخه بمثل هذه الحالة منذ زمن بعيد. ومثلُ هذا اليوم هو ما يقال فيه إن الكلب لا يُطرد من الغرفة.

مجلس مرزخوي بـكـرـ وـجـارـه دـدـايـ إـلـى نـارـ المـوـقـدـ بـعـدـ الـظـهـرـ. يـشـرـيـانـ الشـايـ الذي أـتـتـ بـهـ نـفـسـتـ. وـيـأـكـلـانـ مـعـهـ مـنـ الـبـرـكـ السـاخـنـ. وـيـتـسـامـرـانـ.

– كـيـفـ تـدـبـرـونـ أـمـورـكـمـ يـا دـدـايـ فـي شـأـنـ حـطـبـ التـدـفـفـ؟

– لا نـقـطـعـ عـنـهـ بـفـضـلـ اللـهـ. قـبـلـ العـاصـفـةـ الثـلـجـيـةـ جـعـنـاـ أـنـاـ وـالـوـلـدـ بـكـمـيـةـ كـافـيـةـ منـ الغـابـةـ وـقـطـعـنـاـهاـ. – اـبـتـسـمـ دـدـايـ وـهـوـ يـمـسـدـ لـحـيـتـهـ غـيـرـ الـكـثـةـ وـشـارـبـيـهـ. – أـتـسـمـحـ لـيـ رـيـةـ بـيـتـيـ أـنـ أـقـعـدـ دـوـنـ حـطـبـ! وـالـوـلـدـ الـذـيـ جـلـبـهـ مـعـيـ وـالـذـيـ الـآنـ فـيـ سـنـ الزـوـاجـ مـثـلـ أـمـهـ لـاـ يـهـدـأـ بـالـهـ.

نعم، سمي أخِي الأصغر محمد ولد طيب. ولكن لا أعرف لماذا لا يتزوج... -
قال بكر الشارد عما حوله بسبب الشارات المتطايرة من الحطب المشتعل مع
تقليل الجمر بالملقط. - تقول الجمرات المتطايرة: إن ضيفاً ستأتيكم مع
أخبار.

- أي ضيف تتكلم عليه يا بكر في هذا الشتاء القارس؟!
- الضيف يا جاري لا يميز شتاء من صيف. موعده هو مناسبة مجئه. أقول
فقط ما يفهمه الناس من كلمة "تپشس"¹. إن شاء الله لا تأتينا أخبار أخرى
تدعوا للقلق غير هذا. سنجد ما نقدمه لأي ضيف. وإن لم نجد فهل يشتهِ
الناس الجار بالببطال² عيناً!

- نعم، نعم يا بكر. نعيش مع الجيران وعندنا ضروريات حياتنا. غير أني لا
أعرفحقيقة نوايا الجيش المحتشد حولنا، ونوايا القرى القوزاقية المحطة بنا.
- أفي هذا اليوم احتشدوا حولنا! ألا تتذكر الجاسوس فيدور - فيدور الذي
أحْفَظْ به في بيت آل تامي؟

- وكيف لا أتذكر هذا المسكين؟... كنا نسميه بالإضافة إلى فيدور - فيدور
باسم تورناو. جالستاه طوبلاً حتى نؤانسه. عزاني حين فارقت أمي الحياة وبكى
عليها.

- إن كنت تتذكر أن نسبه كان تورناو فبعد أسره فحسب بدأ الجيش الروسي
يقتتحم أرضنا ويقيم القرى القوزاقية حولنا.

- ألا يزال تورناو حياً يا ترى؟ - سأله دادي الذي رجع خمساً وعشرين سنة
إلى الوراء مستعدياً ذكريات أيام الشباب.

¹ الكلمة من مقطعين: تپ: الجمر، وشن: الراكب.

² يقصد أَنَّ أَيَّاً من جانبي الببطال لا يستغنى عن الآخر، فكذلك الجيران.

- وماذا تفعل به؟ ليأخذه الله في رحلة لا نهاية لها. ألا يكفي ما جلبه لنا هؤلاء من بؤس!

- صحيح يا بكر. لا يجوز أن نشفق على أمثاله... ولكن لم نكن نستطيع إلا أن نتألم لحاله لأنه صار قريباً منا. - قال ددai، ثم أضاف لنفسه: "وهذه التي تأتينا بالطعام والتي تتخذها ابنةً هي من بناتكم"

- نعم، لا يزال حياً. حين أتيت على ذكره مرة للكابتن سيرديوك تبيّن أنه كان من معارفه، ويعرف أخباره جيداً. قال لي إنهم كرّموه بأعلى المدaiا القيصرية، وسرحوه من الجيش.

- ماذا قلت؟! ما أسمعه عجيب... - أضاف ددai رأيه هو أيضاً بين المصدق وغيره مستغرباً: - ليقدِّم القيصر إذن للنائب القوموق أيضاً أغلى هدaiاً! خدعنا نحن الأَبْرَاج على أكمل وجه.

- سأقول لك يا ددai رأيي في محمد أمين النائب.

- قل يا بكر، قل! - فرح ددai كطفل يقدموه له الحلوi. - أودّ معرفة أخبار النائب سواءً مدحته أم لم تمدحه. وأخوك الأصغر محمد أفندي صاحبُ اللسان العذب عايشه بضع سنين؛ أليس كذلك؟

- ولا أستطيع أن أزعم أني أنا وأنت وغيرنا لم نكن ننفذ أوامره أو نعترض عليها.

- وهل كان يبقيك على قيد الحياة إن لم تنفذ أوامره!... قال ددai كمن يبرئ نفسه.

- هذا صحيح يا أخي الأصغر، أوقفتك. كانت الهيبة سائدة في الأَبْرَاج أيام النائب، وكانت فيها سلطة. والآن يزعم من خرجوا من مخابئهم أنه كان عهد خوف البعض من الآخرين، وعهد إبادة بعضنا بعضاً. وفي هذا صحة أيضاً.

ولكن من الصعب الفصل بين الميبة والطاعة. أ تكون النشارة قليلة حيث يُنشر الخشب؟ ربما اهتمتني بأني أطلق النار على الماضي، وأن ما جرى لم يكن من عادات الأبراخ وتقاليدهم، ولكن لم أكن أوفق النائب على قرنه الدين بالدنيا وإن لم أستطع التعبير صراحة عن موقفني. وليس صحيحاً أن تعيش وقلبك موجّه دائماً إلى القبلة حيث الكعبة؛ فللعالم ثلاثة اتجاهات أخرى: الشرق والغرب والشمال.

- ثُدّكْري بوالدك الرجل الحكيم يا بكر، ليوجهه الله إلى الخير حيث رحل. كان يروي لنا في طفولتنا أموراً كثيرة مثل رحلاته إلى شتى قاله وأسْتَراخان ومواقع كثيرة أخرى. وكان الرجال الصالحون يتخذونه أحياً مستشاراً ولو أنه كان من عامة الفلاحين. كان يزور هذا الأسير المهارب تورناو فيدوروف، ربما بداعِ الإشْفَاق. يا ربِّي، إذا عبرت البحر الأسود باتجاه الجنوب، أهذه هي تركيا، يا بكر؟

- إذا عبرت البحر فإستانبول من جهة الجنوب الغربي، على ساحل البحر الآخر. يقال إن تركيا خسرت أكثر المواقع التي كسبتها بالحرب.

- إذن ربما كان سبب انتصار الروس علينا هو تخلي تركيا عنا...

- يا ددائي لا أعرف ما تقوله، وهل كنا ملوكاً لتركيا حتى تساندنا؟! ألا يكفي كم خدعْتُنا! أنسىْتَ كيف أن أمثال الجاسوس عبد الله كان يذرع أرض بلادنا بصفة أفندي؟ نعم، وكذلك أمثال الجاسوس الروسي تورناو. والنائب أسيالوف ليس أحسن منهما. ولكن ما يختلف به عنهما هو أننا ترجيناه، وهو الذي ينوي التجسس علينا، فأدخلناه بلادنا. جعلنا نعادي نحن أيضاً الروس الذين يحاربُهم شامل تحت عباءة الدين، بحجج أنه تفضل علينا بالإسلام، وأنه ينظم لنا بلاد الأبراخ. وحين لم ينجح مخطط الإمام شامل صالحنا نحن مع الجيش

الروسي ولحق بشيخه.

- هل روسيا من صالحناها أم الجيش الروسي؟ - استمر ددai الذي ارتاح لسماع بعض الأخبار التي عنده فكرةً عنها ،في طرح الأسئلة.

- ومن يعرف هذا؟ بعضهم: مع الجيش الروسي، وآخرون مثل أخي الأصغر محمد أفندي مع دولة روسيا. غير أني لا أثق في أحد. وسأطلعك على رأي العجوز التي في بيتي، والتي لا تسمح برفع مائدتها، تقول: ستظهر حقيقة الصلح بين الأبزاخ والروس في الرابع فحسب.

- وهذا أيها الكبير عجيب. غير أن بالي مشغول بمحمد أفندي الذي أرسل وراءه برج على عجل، ولم يعد.

- ونحن، الأسرة كلها، مشغولون بغيابه. أما سمعت كيف فقد غش مزبج. نحن نعيش في دنيا تقلق فيها على من يخرج من بيتك إلى أن يعود... مهلاً - انتصبت أذنا بكر من وقع الأقدام الصادر من جهة المسطبة. - لا بد أن أخي الأصغر عاد حسب القول المؤثر: من تأتي على ذكره جالس على عتبة الباب. - وبعدما جلسا مدة دون أن يظهر أحد أنتصت بكر ثانية، ثم سأله زوجته التي دخلت وهي تُصلح وضع غطاء رأسها، لا يستطيع صبراً: أليس في البيت أحد! هل عاد سلفك الأفندي؟ لماذا يُخفي نفسه؟

- لم يعد زيكوشو - ابتسمت جانشر على استحياء - جاء من يغازل ابنتنا. - هذا حسن، هذا خير، أيتها الأسرة المباركة - نخص ددai معتبراً أن بقاءه في بيت فيه شباب يغازلون الفتاة، وربما كان بينهم ابنه، لا يليق. - وأنا عائد إلى بيتنا، يكفي ما جلستُ عندك. أي شتاء لعيم هذا الذي يعصف بالأبزاخ! حين شيع بكر ضيفه إلى الباب المجاور وعاد، همس في أذن جانشر وعيناه نحو الغرفة التي فيها الضيوف الشباب:

- من هؤلاء؟

- عبشاً خرج ددai مستعجلًا - قالت جانشر ضاحكة - ليس من يغازل ابنتنا هذه المرة ابنه. بل عجبس ابن براغنه عُقُس. لا أعرف لماذا لا يهدؤون في هذا الجو القارس.

- لا تقولي هذا! نسيت أن ما يجري وراءه هؤلاء لا يميز صيفاً من شتاء. - قال بكر بجثث، وعاد فسأله: - من إذن تختار ابنتنا بين ابن عُقُس وابن ددai؟

- وهل تخبرك! لن تعرف إلا حين يأتي موعد تنفيذ اختيارها.
- ومتى سيحدث هذا؟

- لماذا يا حسرتي مستعجل على زواج الصبية؟ - جفلت جانشر - أتريد أن نبقى في البيت الخالي وعيوننا تحدق لامعة في الفراغ؟!

- أنا من يستعجل عليها؟! وهل أنا من يريد أن يبقى في البيت الخالي؟ ندم بكر على ما صدر عنه عفواً، وبرأ نفسه: - والله أنت عجيبة يا عجوز ، تتهمني بما لم يخطر لي. إن كان هذا ظنك طرد़هم! لا، لن أفعل هذا فاطمئني. وإن أردت الحق قلت لك شيئاً آخر: عجبس بن عُقُس شاب رزين كوالده، جدير أن يؤسس أسرة. ومحمد بن ددai شاب نشيط ومجد... ولكن ريشما يؤسس ابن ددai أسرة...

- نعم يا بكر، نعم. - لم تسمح الزوجة له أن يكمل رأيه في ابن ددai، وقالت ما تريده هي: - وسيظهر خطاب آخر لابنتنا نات - نات.

- ألم تتفق على ألا ننادي الصبية باسم نات - نات؟ ردّ بكر على زوجته.

- كنا نريد أن يكون اسمها نفست، وأن نناديها نحن به، ولكن هل يمكن أن نُنسى القرية كلها اسم نات - نات؟

- وهذا صحيح، ليكن نات - نات، المهم ألا يكون ناتاشا... لا أعرف إن كان خطاب آخرون قادمين الآن أيضاً. أيكون القاًدُم زيكوشو؟ ألا تسمعين أصوات شباب قادمين. أحدهم، إن لم أخطئ، هو جارنا محمد، - وأضاف بكر باسماً: - لا بد أن ددai القلق ظن أَنْهم يسلبون ابنه خطيبته فأرسلهم. ألا تعرفين أنه لا يتورع عن أي شيء يخطر بياله... - غير بكر الموضوع مع أنه تذكر أن ددai لم يكن قبل زواجه بالشاب الجذاب - أظن أن ددai نسي أنه يمكن أن يكون الفتاة متهة خاطب.

- يا لمصييتنا! ليت هؤلاء الخطاب الشباب ذوي الدماء الحارة لم يتشارجو في غرفة الفتاة...

- إن فعلوا هذا، فسأطربهم كما قلت لك... أتسمعين. انصرفت مجموعة براغنه، أحسنتم صنعاً، هذا من تقاليد الأديغة. لا تدعينا أيتها العجوز نجلس دون عمل مادام الأصغر منا سنًا تصرفوا هكذا. أمسكي هذه القطعة الجلدية جيداً لأقصها إلى شرائط رفيعة أحتاج إليها من أجل سرج حصاني.

مع أن الوقت هو وقت العشاء بعد ما غابت الشمس منذ زمن طويل حين تخلد الطبيعة إلى الهدوء فالريح الشرقية لم تهدأ: تصفر فوق الثلوج التي راكمها في أجناب الإسطبلات، وأسفل الجدران، وأجناب الأزقة، وتبعده ما استطاعت منها. وبحمد ما لا تقدر عليه.

ورغم مُضيِّ بعض الوقت على انتصار آخر الخطاب من غرفة الفتاة لا تظهر نفست، وبكُر القلق لهذا السبب ينظر في وجه زوجته، والأخرى تغيير موضوع الموقف كي لا يبين عليها أثر للقلق أمام زوجها:

- كأن الريح تهدأ.

- حان وقت هدوئها. - يتنصلت بكر، ويقترب من النافذة. - السماء مقرمة

ممتلئة بالنجوم... لماذا لا تخرج نفسك من الغرفة؟

- ربما تكون نسيت... لأول مرة تفعل هذا حين ينصرف الخطاب من عندها؟

- والله أنت النساء طبعك عجيب... أعلى أن أختي من وجه ابنتي ومن وجوه الخطاب؟! إذن سأتفقد الماشي... - يغطي بكر ظهره بالفروة ويخرج من

الغرفة. وحين يعود بعد قليل يستغرب ما يرى: - عجيب، لا تزالين وحدك!

- ربما أتعبعها جلساً لها، - همست جانشر لزوجها - رأيتها مستلقية في الفراش بملابسها فتركتها نائمة.

- هكذا؟ لا بأس إذن... - أجاب بكر باختصار كأنه غير مبالٍ، ثم غير موضوع الحديث: - نار الوجاق تنطفئ، وكذلك موقد غرفة أخي الأصغر.

أحببت أن يجد غرفته دافئة إن عاد الليلة بالصادفة.

لم يخطئ الأخ الأصغر الذي كان بكر مشغول البال لأجله كأنه يعرف: ما إن أذكى نار الموقد الذايبة حتى سمع صوت حصان محمد أفندي من جهة الغناء.

وحين خرج من الغرفة قال ملن تعطي وجهه قطرات ندى الخريف:

- أما كان يمكنك أيها البائس أن تصبر قليلاً فلا تغامر في مثل هذا اليوم؟
ادخل الغرفة، وأنا سأتكفل بخدمة الحصان.

- من كان يعرف أن الثلج غزير في نواحينا؟

- وهل الجو صاح حيث كنت؟

- حين صحا الجو بعد يومين مثلجين فكّرت أن أفرحكم بمنصبي الجديد، فعرجت عليكم يا بكر لأنني مسافر غداً.

- فيما بعد، لاحقاً - مع أن بكر كان متعجباً من منصب أخيه الجديد الفرح به فقد قال له ثانية - ادخل الغرفة حتى لا يؤذيك البرد.

حين دخل بكر الذي انتهى من خدمة الحصان وجد نفسـت قد وضعـت إبريق الماء والطشت أمامـ من سيتوضاً لصلـة العشاء، وزوجـته جانـشـر ثـعـد العشاء لـسلـفـها.

– أعطـني الحـلوـان يا تـاتـ، عندـنا خـبـرـ جـيدـ – استـقبلـتـ نفسـتـ والـدهـا فـرـحةـ.
– ليـبارـكـ لـكـ اللهـ فيـ كلـ خـيرـ ياـ اـبـنـيـ. إنـ كـنـتـ سـتـبـشـرـينـيـ بماـ أـتـوقـعـهـ أعـطـيـتكـ
ثـمـ قـماـشـ ثـوبـ.

– أـرـفـقـ خـبـرـ مـتـ¹ المـفـرـحـ بـهـذاـ، – أـبـدـتـ نفسـتـ حـذـاءـينـ إـلـىـ الـكـعـبـينـ جـمـيلـينـ
– عـلـىـ قـيـاسـ رـجـلـيـ تـامـاًـ. إنـ اـشـتـرـيـتـ لـيـ قـماـشـ ثـوبـ جـمـيلـ فـسـيـلـيـقـ بـهـماـ جـداـ.
– لاـ يـلـقـونـ فـيـ العـادـةـ حـطـبـةـ مـبـارـكـةـ مـنـ أـجـلـ ماـ يـلـبـسـ فـيـ الرـجـلـينـ، وـلـكـنـ أـقـولـ
لـعـمـكـ الـذـيـ قـلـبـهـ عـلـيـكـ: حـيـاـكـ اللهـ. وـالـآنـ لـاـ تـأـخـرـيـ فـيـ مـاـ سـأـعـطـيـكـ عـلـيـهـ
الـحـلوـانـ.

– كـلـيـفـ مـتـ بـمـنـصـبـ أـفـنـدـيـ الـأـبـرـاخـ كـلـهـاـ بـدـلـاـ مـنـ النـائـبـ مـحمدـ أـمـينـ.
– هـذـاـ خـبـرـ سـارـ، أـفـرـحـتـيـ، وـأـفـرـحـ لـكـمـ جـمـيـعـاـ، أـنـتـ وـوـالـدـتـكـ وـعـمـكـ. هـذـاـ
حـظـ سـعـيدـ لـآلـ مـرـزـخـوـيـ وـإـنـ كـانـوـاـ أـسـرـةـ صـغـيـرـةـ. وـهـوـ مـفـخـرـةـ لـلـقـرـيـةـ كـلـهـاـ.
وـلـكـنـيـ لـأـحـبـ أـنـ يـضـيـفـ أـخـيـ إـلـىـ اـسـمـهـ هـذـاـ التـبـيـرـ الـظـالـمـ "ـبـدـلـاـ مـنـ النـائـبـ".
وـأـنـتـ يـاـ أـفـنـدـيـ كـلـ الـأـبـرـاخـ مـاـ رـأـيـكـ ؟

– نفسـتـ قـالـتـ هـكـذاـ، وـلـكـنـ الحـقـ أـنـهـ لـمـ يـخـطـرـ بـيـالـيـ.
– وـلـاـ تـفـكـرـ فـيـهـ! – حـسـمـ بـكـرـ الـمـوـضـوعـ لـأـخـيـهـ، ثـمـ لـاـطـفـهـ: – وـأـنـاـ لـنـ أـفـوتـ
صلـةـ الـعـصـرـ، سـأـصـلـيـهـاـ معـكـ.
حينـ أـدـىـ الـأـخـوـانـ الـصـلـاـةـ، وـبـقـيـاـ وـحـيدـينـ فـيـ الـغـرـفـةـ أـكـمـلـاـ الـحـدـيـثـ:

¹ هو ترخيم اسم محمد عند الأديغة.

- المهمة الكبيرة التي كلفوني بها يا بكر ليست من طليبي – قال محمد أفندي
- بل قررها برج وجماعته في المجلس الأعلى للأarezax.
- أتبرئ نفسك أمامي؟
- لا، بل لأنك قلت عن النائب كلاماً سليباً.
- قلت لأنه كان يطلب في أثناء تشيعينا أمواتنا أن لا نتكلّم بل بلغة القرآن.
- في كلامك شيء من الصحة يا بكر، ولكن خصومه، وأنت تعرف، كانوا يشيرون عنه أموراً من هذا القبيل. لا أقبل كل ما يوجهه إلى النائب من اتهامات لأن الله لا يحب اتهام الإنسان بغير حق. صحيح كان يعرف لغتنا جيداً يا بكر، ولكن الله كان قال له "تعلّم لغتي أيضاً".
- هكذا! – سأّل بكر بعدما انتفض برأسه. ثم برأ نفسه وداخماً معاً: – تعرفون هذا خيراً منا أنتم قراء القرآن، ومن أدوا فريضة الحج. أتذكرة أن النائب تكلم على رأس الجثمان بلغة أديغية سليمة... حقاً الله عادل، ونحن أمته. وهو حامينا. ولا نخيد عما يبلغنا إياه موفدوه، وأنت منهم، بقدر الإمكان.
- يسرني يا بكر أن تدعّني بين موظفي الله الأحد الذي يبتهل إليه الناس ولا يبتهل هو إلى أحد. سأقول لك أمراً لم أقله لأحد إلى الآن وإن لم أبلغ بعد هذه المرتبة العالية، مرتبة الموفد: أحياناً أسمع صوت الله... و يحدث هذا بعدما غادر النائب أرض الأarezax. ربما لانت قلوب أعضاء المجلس الأعلى للأarezax نحوبي بعلم الله وأمره.
- لا تشك في هذا يا أخي الصغير. كيف تصرف معك تسي حاترياي؟
- تسي الذي من أمة الله واحدٌ من أوائل من رشحوني.
- هذا أمر جيد. انتبه لأن برج وتسى يتهافتان أحياناً في شأن الأarezax. لا تغتر.

بكل ما يقوله! لا تدع نفسك تخطئ أمام الله الذي أنت موفده. ليست فطنة كل مخلوقاته متشابهةً. أتذكّر من جعل والديك – ليرجّهما الله حيث هما – يوافقان حين قررت أن تحجّ وأنت اهتديت إلى دينه تعالى؟ لو شهدا ما تحقق لك لما وسعتهما الدنيا من الفرح. نعم يا أخي الأصغر، يسري أن تذكّرهما بالخير وتدعو الله من أجلهما، وترعاهما في عالم الآخرة. والآن سأسألك في أمر يشغل بالي: ماذا يجري بشأن القرار الذي اتفق عليه الطرفان في موضوع تسليم اللاجئين أو الأسرى إليهم؟ السلام يسود نواحينا بفضل الله...

– ينفذون للجيش الروسي، جيش الكفار بعض ما سألت عنه مما جاء في قرار التسلّيم، ولو لم يجرّ الأمر في الأذنax كما نريد لأنّ تحقيق ما ليس مفيداً صعباً.

– قال محمد أفندي ثم سأّل بسرعة: – لماذا السؤال؟ أفي قريتنا أمثال هؤلاء؟ إن كان الأمر يتعلق ببراعته ميشكا فقد انتقل إلى رحمته تعالى منذ زمن بعيد بعدما اهتدى إلى الإسلام وتحول أديغياً حقيقةً. وابنه إسلام مختار قريتنا. وأسيرة حمرزقوه، إن كنت تسأّل عن تورناو فيدور إن كنت تذكّر يا بكر، أرسلناه إلى جماعته. ووسيطنا جان سعيد الأفندي الذي قُتل على يد الجيش الروسي بعدما قدم له هذه الخدمة. كنا أرسلناه بمبادرة من عندنا إليهم. وماذا بعد؟

– ما لمح إليك به من كان على مائتنا غش مزبج... كيف مات هذا الأبله الكبير، ليغفر الله لي؟ وصلتنا أخبار متضاربة.

– وكيف يموت هذا المسكين؟! ربما مات من عناده. حرام أن تشمّت بمن مات. وربما كان صحيحاً تجاوز الخير والشر في الدنيا. ولو لم يحدث ما حدث له لربما أوقعنا، كل الأسرة، في مشكلة بشأن صبيتنا نفست إذ لا يتورع عن شيء... كان الله قدر ما سيحدث له مهما تصرف معنا لأن كل إنسان ينتظره

المصير الذي خطّه الله على جيئنه. يكفي ما تكلمنا على المرحوم مرزعج. أنت طوال النهار على رجليك، وأنا جاء بي الله من طريق شاقّ، ولذا سرتاح ليتنا ودعاؤنا إلى الله على شفاهنا.

— مهلاً، مهلاً يا أخي الأصغر — استعجل بكر وكأن صباح الغد لا يتظره — كيف نسيت هذا الموضوع؟ أصحيح أئمّهم لم يسمحوا لكم بالسفر إلى بلاد الشابسغ؟

— صحيح، غير أنّ جماعة تسي سافروا إليهم عبر طريق جبلي لا يعرفه جيش العدو. ولم يأتوا بأخبار سارة. لم يتراك الروس بيد الشابسغ شيئاً: بوغوند وأبنه وإيل. ويغزون قبيلة حاكوف. ومن المقرر بعدهم أن يتوجهوا إلى الوبيخ. لا أخبار جيدة، ليحمنا الله!

— كنت أتوّجس من هذا... — تنهد بكر عميقاً — ويقولون إن الربع سيكون وبالاً على الأبخاز. وسأقول تعليق ددai على صلحنا: قرية جل منفوخة...

— ددai يقول الكثير... — مع أنّ محمد أفندي تظاهر بعدم الالكتراش بما سمع فقد أضاف: — ربما لم يكن هذا رأي ددai وحده... يا إلهي ارحمنا، واحننا، لا أمل لنا سواك.

الفصل الرابع عشر

يُحيّل إليك حين يتُفجّر الربع في الغابات الجبلية الواقعة بين شرق شميس نهر لابا، وغرب شميس نهر طوابسه، والتي هي بلاد الأبخاز المتوجهة نحو الجنوب، أن الشتاء لم يمْرّ عليها، ولا عصفت الرياح العنيفة بالثلوج.

شميس ربيع السنة الجديدة القلقة الدافعة هي نفسها التي أشرقت عليها خلال آلاف السنين التي مرّت: السماء المنخفضة — العالية في نظر سكان الجبال زرقاء، ولا شيء فيها إلا الشمس التي تنشر أشعة فرحتها، اللهم إلا بعض الجوارح

الحائمة فيها. والأشجار التي تقف على رؤوس أصابعها لتبلغ الشمس الدافعة تبتهج بأوراقها الوليدة. وأشجار الفواكه تتفجر غير قادرة على الصبر فتتبرعم بالزهور الملونة، فيبشر هواء الجبل الصافي روايحة العطرة. وأطراف الأعشاب المشورة تحت الثلوج، والتي انكمشت على أنفسها فوق الأرض الباردة، ترتفع من جديد وقد عاد إليها وعيها. وقطعان المواشي والخيول من أبقار وخراف وماعز وخيل تبدو في كل اتجاه. وتسمع أصوات شبابات الرعاء، واصطفاق أسواطهم. وتتجاوب في القرى أصوات بعض الديكة التي نظف الربيع حناجرها فاحتدّت أصواتها. والأطفال الذين استدرجهم النهار الصahi من بيوتهم يلبعون في مصاهي الشمس. والمسنون يجتمعون على أطراف الأسيجة.

– أترون، وتسمعون ما يفعل الجيش الذي صالحونا معه في جبلنا؟ – سأل أحد المسنين لا يُطيق سمع أصوات اقتلاع الأشجار، وتكسير الأحجار، وغناء الأغраб.

– أسمعها لأول مرة يا أسلاننج؟! – ضحك غمشت مولي الذي لا يراعي تقاليد الكبير والصغير، والذي يتدخل في كل حديث. – ألم يقولوا إن جيش الكفار يشق لنا طريقاً، مكفراً عن منعنا في الشتاء الماضي من السفر إلى الشابسغ بعدهما ندم على سلوكه، وأنشاً يعتذر منا بطريقته...

– أيها الشاب، اهداً قليلاً لتسمعوا ما سأقول لكم – قال عجوز آخر شابت حياته – حسن أن تفتح طريقاً لا تُثْرُ فيه، غير أني أظن أن ما ينشئونه لنا لن يفيدنا. منذ زمان أجدادنا، وخلال السنوات المئة، عمرى أنا، كفانا، يا جماعة الخير، الطريق الوحيد الآتي إلى قريتنا برج حبله، لم نستطع أن نهرئه.

– ساحني يا كبير – قال كوبا هارون الواقف في زاوية البناء في حضرة المسنين يستحي من الجلوس خلافاً لغمشت مولي – لا أعرف لماذا يقف هؤلاء في

وجه الربيع. يقصون الأشجار التي شرعت أوراقها تتفتح... يبدو أن شيئاً لا نعرفه يدخل في أمر السلام. ثم إن قريتنا، وما حولها من القرى، ليست الوحيدة التي يفتحون لها طريقاً... بل في نواحي ما يقواب وحجخ وخدج...

- ألا يعرف جماعة برج وتسى بكل ما قلته؟ - سأل أسلانبج ثانية.

- وهل يمكن ألا يعرفوا يا وجيئنا المبارك؟ - أسرع مولى بالرد بدلاً من هارون الذي وُجّه إليه السؤال - لم يبق لزعمائنا شاغل آخر. يذهبون إلى الجنرال فيليسيون ولا يستطيعون مقابلته.

- لأنه لا يقيم وزناً لوجهاء الأبراخ؟

- يتذرون بأنه سافر إلى ستافوريل¹ - شت قاله، فإلى أن يعود.

- سيورطوننا في مشكلة وهم يتحججون بهذه الحجة... - قال يدج أسلانبج لنفسه، ثم توجه إلى الأحدث سناً، المتجمعين في مكانهم من المسنين: - أيها الشباب، إياكم أن تسيئوا إلى عمال الطرق كما فعلتم في العام الماضي دون استشارة الأكابر سناً!

أخرجت من بيت الفلاح كوبا هارون مائدةتان، على أولاهما جرتان من ماء العسل، وصينية عليها كؤوس، وعلى الأخرى كومة من البرك الساخن، وإلى جانبهما إبريق ماء يغسلون به أيديهم، ووضعوها كلها أمام المسنين.

- ألقى كلمة على شرف الطعام الذي خصّونا به يا أسلانبج، ودعنا نتناول منه - قال بلاخوه إبراهيم بعد أن انتهى الشباب من سكب الماء على أيدي المسنين قبل تناول الطعام.

- لا يجوز لي أن أخطب على المائدة بحضورك يا إبراهيم، نسمعك يا من ندعوك

¹ النطق الأديغي لستافوروبل.

الله أن يُقييك على رؤوسنا المزيد من السنين. - رد عليه أسلانج.

- إذن سأقول بعض كلمات إن كنتم تحفظون حق المسن حسب تقاليدنا. ندعوا إلى الله من جهز لنا هذه المائدة كوبا هارون، ولأسرته، أن يتمتعوا بصحة جيدة، وللنمساء اللواتي قمن بهذه المبادرة أن يفوق الخير في حياتهن الشر، والهموم من ورائهن، وأن يتمتعن بشيخوخة هادئة مريحة مع أولادهن، وأن يسود السلام في الأبراخ، وأن تكين الخير من يحملونه لنا في قلوبهم، وأن يغلب حظنا من لا يودوننا. تفضلوا يا جماعة إلى الطعام!

ابعد الشباب تاركين اثنين منهم يخدمان المائدة.

لم تدعهم أصوات تكسير الأحجار وقلع الأشجار وغناء القوزاق القادمة من المرتفع يمين برج حبله، يحسّون بدفء الفطائر، ولا بحلاوة ماء العسل. وأما الأصغر سنًا فهم يتحادثون بالعيون حتى لو كانوا عاجزين عن التعبير عمّا يعتمل في قلوبهم. ويقول أحدهم لا يطيق صيرًا:

- أقول الحق: لا يجوز أن نتحمل ما يفعله بنا هؤلاء.

- ألم تسمع يا هارون ما أوصانا به الوجيه المبارك؟

- نترك الكفار يفعلون ما يريدون بهذه الحجة... - غمغم مزحب الشاب الجسيم ذو الكتفين العريضتين، والذي أُستعيد من القوزاق في العام الماضي. - لا تغتروا بابتساماهم في وجوهنا، ومبناياهم لنا بالأصدقاء... يكفي ما أحقوا بي أنا من العذاب... ر بما ما كنتم رأيتموني ثانية لولا المرحوم غش مرزج.

- وهذا البائس مات على أيدي هؤلاء، كما يقول المثل: من لا يهدأ يسقط أخيراً... - قال كوبا هارون، ثم تظاهر سريعاً بأنه يعدل كلامه - على كل حال لا أعرف إن قضى على أيدي هؤلاء... انظروا إلى فرسان القوزاق... واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة...

- كفى، - قال مزحب لرفيقه - لا تصدع رأسك بهم، عددهم سبعة وستون... وعلى رأسهم القوزاقي اللعين الذي مرّغ فمك بلح الخنزير بارابليزا ميقول.

- أراه، سأريك أكل لحم الخنزير هذا يقبل حافر حصاني! - خفض مزحب طرفه كتفيه المدببتين، وأضاف بصوت أطفالي: - لو لا أن جدي إبراهيم يعني...

ومع أذان الظهر، بدأ المسنون الذين سيتوهضون يقومون من مجلسهم، والأحدث سناً يتفرقون. وظهر في الشارع بعض المصلين يتوجهون إلى الجامع.

- لماذا تختلف أيها الشاب عن أترابك المصلين؟ - سأل إبراهيم حفيده مزحب.

- وهل أتركك يا جدي وحدك في الشارع؛ سنعود معاً إلى البيت.
- ولماذا أنا وحيد؛ أليس الله معي! وعصايم عمادي. امض لا تتأخر عن أقرانك. وأنا لا أزال أسيطر على رأسي ورجلتي. وينتظرني في البيت ماء وضوئي وسجادة صلادي. - ثم توقف إبراهيم فجأة وسأل: - أي مربزج، وأي لحم خنزير، وحافر حصان، كتتم تتحدثون به أنت وهارون إلى أصحابكم؟ لا ترتفع لي بجفونك مبرّئاً نفسك! لا تظن أن الله سدّ أذني إذا كان المهرم قد أوهنتي بعض الوهن. تعال، لا تدعني أخطئ في الكلام أمام الله الذي ستفتح أمامه للصلوة. هل فهمت يا شاب؟ إن فهمت فهذا هو الأمر. قلت لك ألا تتأخر عن رفاقك. اسع يا شاب - نادى إبراهيم حفيده - القوزاقي اللعين الذي كان ينوي إهانتك عن طريق لحم الخنزير يُرضيكي أن تخبره على تقبيل حافر حصانك ثلاثة مرات دون أن تضرره ضرباً مبرحأ. آه يا أيام الشباب المنحوسة من أين أسترجعك؟! شكا إبراهيم لنفسه وهو يلتج بباب داره.

- هل أزعجك أحد أيها العجوز؟ - سأله العجوز الرقيقة التي استقبلته.

- من غيرك يزعجني يا ابنة قبيلة بسلني؟ - قال لها، ثم مازحها. - لأنني تذكرةت ليتنا الأولى!

- ابتعد عني، لا تُخرجني! قد يسمعنا أحد... ماء وضوئك وسجادة الصلاة جاهزان، ولذا طهر نفسك مما قلته، وقف أمام الله.

تغدى إبراهيم بعد الصلاة غداءً خفيفاً. وبعدما صحا من غفوته على مقعده الوثير نادى إلى خارج الغرفة:

- إيه، هل تسمعوني؟

- هل تريدين شيئاً يا أبانا؟ - دخل إلى الغرفة ابنه باتر الذي تجاوز الستين بقامته الفارعة وزنه الكامل.

- هذا أنت يا ولد! - سأله كمن يراه لأول مرة، ثم عاتبه - هل ستترك دون أن تُطليوني على وجهتك؟ أراك تأنقت...

- أليس اليوم يوم الجمعة تات، كنت في الجامع.

- هكذا لا بأس. وماذا يقول من خالطتهم؟

- لم ألتقي بإنسان غير مهموم بما يحدث في الأزدراك.

- حقاً، وأنا مهموم كذلك... امض يا ولد وجهز لي حصاني. ولينفضوا الغبار عن كسائي وقعني وحذائي الجلدي وخرنخي وحزامي، وبندقيتي ومسدسني أيضاً. ماذا حدث لك أنت وابنك اليوم حتى تتغامزا بعيونكم؟ سأزور برج.

وكنت سأذهب إلى الجنرال فيليبيسون لولا أنك أخبرتني بغيابه - أكيد إبراهيم لابنه باتر الممسك بزمام حصانه: إن كنت لا تريدين أن يصقر سوطي على ظهرك فلا تتعلق بذيل حصاني من حرصك على! دعوني أمض إلى حيث توجهت مرتاح البال. لابد أن أجد في دار برج حسن من يمسك لي زمام

حصانٍ وركابه فيساعدني في الترجل. — حتّى إبراهيم الحصان شاكاً في أن عجوزه وكنته التي لا تظهر في حضرته تراقبانه من النافذة.

لم يكن مقرّ زعماء الأبراخ الذي سافر إليه بلاخوه إبراهيم بعيداً جداً. كان قريباً من الجامع حين تعبّر المرعى الفسيح الذي يقيم على كل جانب منه زهاء خمسين أسرة، وتنجاوز بضعة بيوت. وقد راح إبراهيم وغدا في سنواته المئة على هذا الطريق أكثر من ألف مرة. ولكن في هذا اليوم فحسبُ خطر له أن يقطعه على الحصان فيستثير عجب الناس. وكما يقول هو: من أين يُستعاد الشباب؟ لن تلحق به ولو طارته راكباً.

يتوقف بعض المصلين الذين تأخروا في الجامع قليلاً ويحيّون بلاخوه إبراهيم. ثم يتبعونه بعيونهم مستغرين طريقة امتطائه، وقوامه المتماسك، وأناقته الزائدة، عاجزين عن تفسيرها. وحين بدأ يقترب من الصبيان الذين يلعبون في المرعى لعبة "الغر" ¹ توقفوا عن صخّهم. وتوقفت امرأتان لم تعبّرا الطريق ريشما عبر. حين وصل إبراهيم إلى مقر المجلس مستغرياً خلؤً مرابط الخيل من أي نزيل استقبله الرجل الذي في الفناء وساعدته في الترجل مسكاً بزمام الحصان. ورتب إبراهيم متمهلاً الكسأء والسيف والخنجر والحزام والمسدس، وسأل مستقبّله:

— يا ولد هل برج في مقرّ عمله؟ أبلغه إن كان فيه!

— تفضّل يا إبراهيم، تفضل يا زعيم الخير. رأيتكم فسررت برؤيتكم. — استقبله برج حسن قبل أن يجد الرسول الوقت لإبلاغه.

— حياك الله يا برج، يسرني استقبالك لي على هذا النحو — قال إبراهيم بعدما دخل إلى الغرفة وجلس — لستُ وحدي من قدرّته بهذا بل قدرت نفسك

¹ لعبَة لم يدركها جيلِي في الجولان، وهي قرص خشبي يدفع بالعصا. القاموس الشركسي.

أيضاً. هذه هي العادة في عالمنا الأدبي. وهذا ما يمنحنا القوة لعيش. ولكن ماذا يقال يا برج: إن عشت طويلاً رأيت قطأ حاجاً. أظن أن هذا حديث لي في شيخوختي... لا أتحسّر على ما مضى. لا أريد أن آتي على ذكر النائب عديم الإيمان. أشبعنا حروباً وفتناً، وفرق بيننا وهو يردد اسم الإمام شامل ويقتدح شجاعة الأديعة. أين هم الآن هؤلاء القوم؟ أنا أعرف أين هم! ولكن لم آت إليك لتحليل أمور هؤلاء ومتابعتها، بل للسؤال عن أموركم كيف تجري، ر بما أعرف شيئاً عنها غير أني أريد سماعها من فمك أنت.

- أمورنا واضحة للجميع كما تعرف يا إبراهيم، ظاهرة للعيان. تتبع أمور ما لا نفهمه وهو على مرأى منا ومنكم. غير أنه لم يبق الآن مجال للشك في أن الروس الذين صالحناهم خدعونا.

- إن كنت ترى هذا يا زعيم الأذخاخ - ما سمعه إبراهيم جعله يتكلم دون تردد - فالآن أثق بك. اتضح الآن أنكم خدعونا في العام الماضي حين حثّنا النائب على إقامة الصلح والتعهد أمام الجيش الروسي. وأنت إن فهمت هذا أخيراً فأنا راضٍ عنك. لا تتراجع!

- لو كان الأمر يتعلق برجولتي وحدها أيها الرعيم المبارك لما تراجعت ولو ضحيت بنفسي. ولكن الحل أخيراً لا يتعلق بما نقول نحن ونفعل، بل بما سيكون عليه موقف الأذخاخ كلهم.

- ما الأمر؟ هل الأذخاخ عميٌّ، بُكمٌ، لا حول لهم؟ لو لم يبق غيري لما سمحت لهم أن يترافقوا عن حماية بلادهم. وفي هذا الشأن كان جدك صديقي العزيز يقول: "إذا كان الصوتُ الخافتُ أو الصوتُ العالي صوتَ القوم فالجميع سيسمعونه وسيفهمونه"

- حياك الله يا كبارنا الخير على تذكيرك إياي جدي بالخير. ألسنتكم أنتم من

كانوا يقولون: فَكِرُوا قَبْلَ أَنْ تَشْرِعُوا فِي أَيِّ عَمَلٍ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا، وَلَا تَفْسِحُوا مَجَالًا لِلْخَطَا. المَوْضُوعُ الْقَوْمِيُّ الَّذِي نَتَكَلَّمُ فِيهِ الْآنِ يَا إِبْرَاهِيمَ لِهِ مَقَارِبَاتٍ مُخْتَلِفَةٌ، وَلَذَا نَرِيدُ تَجْنُبُ الْخَطَا. وَهَذَا سَيُظَهِّرُ حِينَ يَعُودُ الْجَنْرَالُ فِيلِيُّسُونُ الَّذِي اسْتَدْعَاهُ الْجَنْرَالُ إِفْدُوكِيمُوفُ إِلَى سَتَافْرُوبُولٍ — شَتَّى قَالَهُ.

— وَهَذَا يَا بَرجٍ يَصْلُحُ جَوَابًا لِي. مَنْتَ طَلَبْتُمْ مِنِي الْقَدْوَمَ فَأَنَا جَاهِزٌ فِي أَيِّ وَقْتٍ. وَلَكُنْ يَسِّرُنَا أَنْ تَنْفِذُوا الْمَهْمَةَ الَّتِي أَوْكَلْتُهَا إِلَيْكُمُ الْأَبْرَاجُ بِعِزْدَادٍ مِنَ الْتَّعْقُلِ. وَدَاعِاً يَا بَرجٍ، لِيَحْقِّقِ اللَّهُ أَمَانِيَّكُمْ. — حِينَ اعْتَمَدَ إِبْرَاهِيمَ مَدْعِيًّا لِلْبَطْوَلَةِ عَلَى رَاحْتِيَ الرِّيقِيَّتَيْنِ سَأَلَ كَأَنَّهُ غَيْرَ مَهْتَمٍ كَثِيرًا بِالْمَوْضُوعِ: — الْحَقُّ يَا بَرجٍ، هَذَا الْجَنْرَالُ إِوْدَاكِيمُ¹ صَاحِبُ الْعَيْنَ الْثَّلَاثَةِ² مِنْ أَيْنَ جَاءَ مِنْ جَدِيدٍ بَعْدَمَا كَادُوا يَقْتَلُونَ إِحْدَى عَيْنَيْهِ؟..

الفصل الخامس عشر

رَغْمُ مُضِيِّ أَكْثَرِ مِنْ ثَمَانِينَ عَامًا عَلَى إِنْشَاءِ قَلْعَةِ سَتَافْرُوبُولِ الَّتِي صَفَرَتْ فِيهَا وَلَعِبَتِ الْرِّيَاحُ الْشَّرْقِيَّةَ بِضَعْفِ أَشْهَرٍ فَقَدْ اَكْتَسَبَتْ مَظَاهِرُ الْمَدِينَةِ بَعْدَ مَا عَيْنَوْا حَاكِمًا فِي تَفْلِيسٍ يَمْثُلُ الْقِيَصَرَ، وَأَرْسَلَ هَذَا الْجَنْرَالَاتِ الَّذِينَ سَيَتَّرُّعُونَ مِنَ الْأَدِيغَةِ أَرْضِيَّهُمْ بِالْدَّمِ. وَلَيْسَ الْجَنْرَالَاتُ الْرُّوسُ وَالْقَوْزَاقُ الَّذِينَ عَاصَرُوكُمُ الْقَلْعَةَ قَلِيلُينَ: سُوفُورُوفُ، وَبَارِيَاٰتِنْسَكُ، وَبِرِّمُولُوفُ، وَزَاسُ، وَفِيلِيمِيَانُوفُ، وَفِيلِيُّسُونُ، وَإِفْدُوكِيمُوفُ، وَمَنْ أَيْضًا؟.. يُمْكِنُكَ أَنْ تَذَكُّرَ أَنْسَابَ كَثِيرٍ مِنَ الْجَنْرَالَاتِ، وَمَنْ مِنَ الْكِتَابِ الْرُّوسِ الْكَبَارِ مِنْ بُوشِكِينِ وَفِيْسِتُوْجِيفِ — مَارِلِينِسْكِي وَلِيرِمِنْتُوفِ، اِنْتِهَاءً بِالْفَرْنِسِيِّ أَلْكَسِنْدَرِ دُومَا الْكَبِيرِ³، لَمْ يَقْضِ لِيَلَةً فِيهَا.

¹ النَّطْقُ الْأَدِيغِيُّ لِاسْمِ إِفْدُوكِيمُوفِ.

² سَيَأْتِيُ قَرِيبًا تَفْسِيرُ هَذَا الْلَّقْبِ مِنَ الْكَاتِبِ.

³ الْكَبِيرُ أَوُ الْأَبُ، وَابْنُهُ يَحْمِلُ الْاسْمَ نَفْسَهُ مَعَ لَقْبِ الْابْنِ، وَكَلَّا هُمَا كَاتِبٌ.

ولد إفدوكييموف في القرية القوزاقية الكبيرة الواقعة في الشيشان ناروسك عام 1804. وكان والدُ الصي الذي سماه نيكولاي أحدَ من حاربوا في الشيشان. وعاش في تلك القرية بعدما سُرّح من الجيش، ومات فيها. وإكراماً لآثار والده الحربية رعت الدولة نيكولاي إفدوكييموف، وعلّمته، وضمّته إلى الجيش حين بلغ الثامنة عشرة. وبدأ جندياً عاديًّا، وحارب في القفقاس حتى مُنح رتبة الجنرال، ولقب الكونت.

وبعدما أُسر الإمام شامل في بلاد الداغستان في العام الماضي، أرسله إلى ستافروبول لتقصير أمد الحرب التي تشنها روسيا على الأديغة مثله القيصر في القفقاس الفيلد مارشال بارياتينسك. والآن هو في انتظار الجنرال فيليبيسون الذي لا يوده.

مضى على خدمة إفدوكييموف ثلاثون عاماً، وباستثناء المرات القليلة التي استدعي فيها إلى بطرسبورغ وتفليسيس لمحاولات حربية فإنه لا يتذكر أنه نام أعزل من السلاح، قائلاً لنفسه "أستريح فحسب حين أسمع دوي المدفع وصليل السيف ووقع حوافر خيل القوزاق، وأنخطى حث المخارقين الجبلين المتمردين، وأمضي إلى انتصارنا". ويعيش معتداً بالجروح الكثيرة على جسده، حتى تحت المطر كأن لم تنزل عليها نقطة ماء، وكأنه ليس وأمثاله المقصود بقول الأديعة "من لا يهدا يسقط أخيراً". ويلقبه الأديعة بسبب الندبة التي تركتها رصاصة تحت عينيه اليسرى بصاحب العيون الثلاثة.

أزاح الجنرال إفدوكيروف الورقة التي كان يقرؤها قائلاً في نفسه: "سأري الشراكسة الذين ثبتو عليّ لقب "ذى العيون الثلاثة" كيف هما عيناي" ونمض لا يستطيع الاستمرار في الجلوس. وذرع أرض الغرفة بضع مرات، وعاد فجلس على الكرسي الوثير. والآن امتنعت أمام عينيه كيفية أسره للإمام شامل، وهي

الحادثة التي كانت تروح عنه بعض أحزانه... ومع أن الجو كان حاراً في بلاد القوموق في الشهر الأخير من الصيف فالجو في جبل أفار بارداً في أي وقت من العام. الشمس تشرق ولكنك لا تحس بدهتها. وقرية غونيب التي تشبه عش العقاب عالية حتى إن قبعتك تسقط عن رأسك إذا نظرت إليها. ولا يصل إليها غير طريق واحد. والقرية التي أسره فيها الجيش الروسي محاصرة من كل الجهات، سواء كان لها مدخل أم لم يكن. ومريدو الإمام يحاربونهم بالرماح حرباً جنونية بلاوعي. ويعمر يوماً واثنان وثلاثة والطرفان المتواجهان لا يعرفان التراجع. ولم يبق من حلٍ إلا مئة مختارون من جنود العقيد إفدوكيروف بقيادته شخصياً. وإن استطاعوا فسيشنون هجوماً مفاجئاً على المريدين من وراء الجبل المنتصب القبيح الذي يثقوون به. إن شجاعة إفدوكيروف وذكاءه هما من أوقع الإمام شامل في الأسر.

"مع أن مشكلة الإمام شامل حلّت بهذه الطريقة فلست من ينسبون الحال إليه، بل الفيلد مارشال بارياسك... — رغم أن ما اعتبره إفدوكيروف إهانةً ظهر عليه من طريقة في الابتسام فقد أضاف لنفسه خائفاً من أن يطلع أحدٌ يوماً ما على شعوره نحو الماريشال. — صحيح، صحيح، لا أعتبر على أحد. وإن كان الأمر يتعلق بممثل القيسير الفيلد ماريشال فالشّكر له إذ لم ينسني: عمل على أن يشرفني برتبة الجنرال قيصري المنير الذي أخدمه، وبالوسام العالمي. وهذا هو الآن كلفني أن أخضع شراكسة غرب القفقاس، بل إن لم يستجيبوا لي، أن أطردهم عبر البحر، وليرحلوا حيث يشاءون... والجنرال فيليسيون الذي استدعيته لا يستوعب هذا الموضوع. يقول "أصلحكم، صالحوني" فيخدعنا وبخداع نفسه أيضاً بالحل الوحيد غير المفيد لنا... القفقاس كلها ستكون لنا نحن، الروس! الأفضل من كل شيء أن نكون نحن مالكيه. متى ما حققنا

مصالح الروس فليقعن الجليون بالبقية الباقيه! " – قطعت الأصوات البشرية التي صدرت من جهة باب الدار أفكار إفدوكيروف، فرتب بسرعة ما على طاولته من أوراق، ونحضر: أخيره المقدم فلانسكي الذي دخل تواً: – الجنرال فيليسيون أتى إليكم يا سعادتكم.

– ليدخل! قال إفدوكيروف الواقف إلى النافذة ويداه خلف ظهره إلى المقدم، وحين سمع صوت الباب استدار، واستقبله ماداً يده كأنه مشتاق إلى ضيفه الجنرال فيليسيون: – يسرني جداً يا غريغوري إيفانوفيتش أن نلتقي ثانية في بلاد الشركات ونحن أحيا وبحصبة جيدة. كيف قطعت الطريق؟ كيف تصرف معك أعداؤنا الأ祚اخ – الشركس؟ كيف تجري أمورنا في تلك الناحية؟

– الأ祚اخ الذين صالحونا في سلام لولا الشابسغ والوبيخ الساحليون. ولكن قبل أن أطلعك على وضعنا في جهة الغرب من القفقاس يا نيكولي إيفانوفيتش فأنا أهنتك على أسرِك الإمام شامل بصفتك جنرالاً، وبالمكافآت التي حصلت عليها. وأدعوك أن تتمتع بحصبة جيدة، وأن تكون دائماً موضع ثقة بلادنا العظيمة التي تُسدي إليها الخدمات، وأن تعيش طويلاً لأجلها.

– شكرأ لك يا جنرال. غير أني أظنهم يشيعون عنى تقريرات لا تستحقها. أنا كنت مع مثل القيسير في القفقاس الفيلد مارشال ألكسندر إيفانوفيتش بارياتينسكي الذي أسر الإمام شامل. ولم أفعل إلا أن قاسمه شئأ من الشجاعة. ومن أجل ألا نتكلم في هذا الموضوع أكثر من هذا فلنقل ما يلي: كل ما يُكال من مدح للجيش الروسي هو من حق قائد الأعلى القيسير ألكسندر الثاني؛ ليبق على رأسنا يُظللنا أطول مدة، وليرُدّنا إلى انتصارات جديدة! – توقف قليلاً ثم أضاف – والآن سنتكلم في الموضوع الذي

استضفتك من أجله أيها الجنرال، وسأدخل في الموضوع مباشرةً: لا تُرضينا سيرة أمور روسيا العظمى في القسم الغربي من أرض الشراكسة. من تُجبرهم على الاستسلام يجب أن تعود أراضيهم إلى الروس أيها الجنرال. وإن أشبعنا هؤلاء وبقي شيء للشراكسة فليفرحوا! لا أريد أن أسمع منذ اليوم شيئاً عن الصلح مع الأوزاخ. هذا أحد العوامل التي ستلجم انتصارنا. لم يكن هناك ما يسمى صلحاً وليس الآن!

- لم تكن تفليس جاهلة بمساعدة النائب أسيالوف لنا في موضوع الصلح يا سيادتكم.

- كان هذا أمّس، وأول من أمّس يا جنرال! - ارفع صوت إفدوكيروف رغم حرصه على ضبط نفسه. ثم أضاف كاظماً انفعاله: - وما سنتكلم عليه الآن موضوع لا يحتمل المماطلة لأنّه موضوع اليوم والغد... ألم تطلع على خبر مشروع تأليف فيدريالية من الشابسخ والوبيخ والأوزاخ؟ لافائدة في مجرد الاطلاع على الموضوع، بل اعتبر نفسك لا تعرف عنه شيئاً. لا يجوز أن نسمح بتأليف الفيدرالية الشركسيّة التي تستطيع تأليب أوربا وكل أعدائنا في العالم على أرضنا التي رويناها بدمنا الروسي! انتهينا من هذا الموضوع. وكي لا يقول الأوزاخ إن الجنرال الروسي خدعنا، فبناء على أوامر تفليس ستغادر اعتباراً من اليوم جبهة الشراكسة، وتضع نفسك تحت تصرف قائد الجيش الروسي في شمال القفقاس الذي هو أنا.

- أنا محارب في جيش القيصر الذي أودعته شرف! - نحضر الجنرال الذي فهم أن الأمر محسوم، وأضاف ملصقاً يديه إلى جنبيه.

كسر إفدوكيروف الصمت الذي خيم على الغرفة:

- سأحّبني على أمري غير المرغوب يا جنرال. ما العمل؟ نحن جنود ليس لنا ألا

ننفذ ما نؤمر به. تعال لنتغدى معاً. وإن وافقتني نرّوح عن أنفسنا بكتّاس. ونتكلّم المزید في قضية الشراكسة. حقاً أريد أن أسألك يا غريغوري إيفانوفيتش ما تقييمك لمن صار زعيمًا على الأبخا خ برج، بعد رحيل النائب أسيالوف؟ لا أذكر من قضى تحت سيفي فهو أخوه أم أبوه... ملأ الشراكسة جسدي بالجروح، ولكنهم ألقوا أنفسهم بأنفسهم إلى التهلكة... — نحضر إفدوكيروف مغمّماً وصاحب فيليسيون إلى الغداء.

الفصل السادس عشر

ما يعرفه اثنان لا يعود سراً. سبق خبر الجنرال فيليسيون صاحبَه، وترك وراءه ستافروبول وبروجني وأوكوب وشتوين، ووصل في اليوم التالي إلى مايقواب. ثم انطلق منها ووصل إلى إيكاترينودار والشاسبغ والوبيخ.

كان لكل إنسان رؤيه الخاصة للخبر الذي شاع في الإقليم الأديغي من شمال القفقاس. ولم يكن تبديل الجنرال الروسي خبراً مستغرباً عند الشاسبغ الذين يسكنون جهة أبنه وإيل الحصورتين على شاطئ البحر حيث يحرق كل يوم عدد من قرى الأديغة إذ كانوا ينظرون إلى كل قائد عسكري على أنه عدو. وكان كل الجنرالات متشابهين في نظر الوبيخ والساز الذين تصيّبهم المأساة نفسها من جهة البحر. والأبخا الذين عقدوا صلحًا مع الجنرال فيليسيون في العام الماضي وحدّهم بلا أوجوبة ولا معرفة صحيحة.

ومن عادة الأبخا لدى حلول مصائب مفاجئة أن يجتمع رجال كل قرية عند الجامع أو مقر المختار. ولكنهم هذه المرة التقوا في بريه برج حبله المقابلة للجامع حيث قيادتهم. ومن وقت لآخر كان يزيد عدد المجتمعين بانضمام الوفدين من القرى القريبة. والنساء القربيات من مكان الاجتماع يقفن على نوافذهن، ويراقبن فلقايات على مصير أسرهن، أو يرصدن من أبواب دورهن. وبعض

النساء المسنات الملهمات مجتمعات هنا وهناك.

داور بجز وأفمغت مرتوجه هما من يهدّئان الآن الجمع الذي بلغ قرابة ثلاثة بين فارس ورجل. ويقف إلى جانبهما بلاخوه إبراهيم فمن يدرى ما قد يدرى من أحد هؤلاء الأرباخ الحادّي الطباع، فيردعه بحبّيه سنه. ويتميز حُرّاش أسلانج بقمعته الكبيرة من بين أقرانه، وهو الذي يمكن أن يكون له تأثير في الجمع. والجميع يتظرون عودة الوفد المؤلف من برج حسن وتسى حاترّباي يرافقهما مزخوي محمد الأفندى الذى سافر إلى مايقواب صباحاً. ويرفضون أن يتفرقوا.

- ما مصير اتفاقنا بعدما أبعدوا الجنرال فيليسيسون؟ - صاح كوبا هارون من بين حشد الفرسان الأحدث سنّاً، المجتمعين في مكان آخر.

- الوثيقة التي عادت إلى يد الجنرال فيليسيسون القوزاقي، يا مبارك، هل مزقها أمامنا؟.. - ردّ غمشت مولى على كوبا هارون.

- يا غمشت ما أصدق شهادتك على صحة معنى نسبك¹ فلا تتحمل أي سؤال، أغلق فمك قليلاً! اعترضه بلاخوه مزحب - لست من سأله هارون.

- لا هُنّي في نسب أجدادي يا بلاخوه!².. ونسبك أنت... لم يُكمل غمشت ما كان يريده، وأكمل بصوت أَنْعَمْ: - هذارأيي فحسب... - انسّل مولى من بين الفلاحين الذين كان معهم، وعاد إلى الأكابر سنّاً.

- أيها الشباب - نادى داور بجز العافية - لا تتهازروا أمام الكبار. وثيقة صلحنا معنا نحن. وأما خبر الآخر فتحن بانتظار أن يحمله إلينا زعيمانا

¹ يشير المتحدث إلى نسب محاوره "غمشت" الذي يعني من لا يوده القلب. ويمكن أن يفهم الاسم إذا أحسّنت النية، وبقراءة مختلفة قليلاً، بمعنى من يوده القلب، تبعاً لفهم حرف الميم فيه؛ فهو حرف نفي أم حرف تعريف.

² يعني بلاخوه: راعي الأفاعي.

الكبيران برج وتسى. تحلوا بالحِلم!

- نسمح للكافر الذين تسللوا إلينا أن يفعلوا ما يريدون بذرية الصبر والحِلم -
أدلٍ فلاح من الأكابر سنًا برأيه.
- صحيح. لسنا أحراً في أن نسير على طرقنا، ونرعى مواشينا في مراعينا،
ونستجر الخطب من غاباتنا. - وافقه شخص آخر.
- وحين نرتاد أسواقهم يفتشنا فرسان القوزاق ...
- ولسنا أحراً في أن نخالط أبناء قومنا الشابسغ والوبيخ وأن نزور أقرباءنا.
- سمحنا لهم أن يحاصروا أرض الأبزاخ كلها ونحن نبشّ في وجوههم وبيشون.
- وبعد قليل سيحتل هؤلاء صدور موائتنا، ويعثرون بنا.
- أيها الشباب! - رفع بلاخوه إبراهيم عصاه إلى ما فوق رأسه وهزّها -
اهدوها قليلاً. دعونا نسمع من قدمناهم، الرعماء! أتسمعون يا جماعة الأبزاخ
الذي جعهم الله في موقف القلق؟ إن سمعتم فهذا حسن، اصبروا! هؤلاء هم
جماعة برج قادمون إن لم تخطئ عيناي. ليذهب عدد من فرساننا يستقبلوهم
ويصحبوهم إلينا!
- يجري اجتماع للأبزاخ في القرية لا نعرف عنه شيئاً - قال برج لتسى مستغرباً
ما يرى في البرية. وسأل أكبر الفرسان المستقبليين خراش أسلامبج: - ما هذا
الحشد الكبير الذي خرجتم منه يا أسلامبج؟ ماذا ينوي هؤلاء المجتمعون؟
- هؤلاء أيها الرعماء المباركون - أجاب أسلامبج شاملاً برج وتسى ومحمد
أفendi - فرسان ورجاله من القرى القرية، ومن مناطق أخرى جاء بهم الخبر
الذي سمعوه، ينتظرونكم - وحدد بسرعة رأيه الشخصي في المسألة: - ليس
لأنهم حزاني على ما فعلوا بالجنرال فيليبيسون في شتّ قاله وستافروبول، بل
لأنهم لا يعرفون ما وراء الجنرال اللعين إفدوكييموف ذي العيون الثلاث.

- ليات إلينا ذو العيون الثلاث هذا الذي ذكرت اسمه يا أسلانبج إن كان كره حياته! - حتى تسي حصانه كأنه لم يعبأ كثيراً بما سمعه.

أفسح المجتمعون الطريق حين اقترب الفرسان الزعماء القادمون من ما يقواب من مكان اجتماع المسنين. وقال محمد أفندي الذي أذن له برج وحاتر باي بنظرهما بعدما رفع جسده قليلاً عن السرج:

- أيتها الجماعة التي أدعوا من أجلها الله الذي يتهلل إليه الجميع ولا يحتاج هو إلى أحد، أن يغمرها بالعطف والرحمة، دعونا نستمع إلى زعيمي المجلس الأعلى برج حسن وتسي حاتر باي. هيّا يا حسن بي!

- نحن، تسي وأنا، كنا في ما يقواب اليوم. ووصلنا إلى قلعة شتحاله. لم نأت بخبر سار. ولم نقابل الجنرال فيليسيون الذي أبرمنا معه العهد، أخبرونا أنه طلب إلى إيكاتينودار. وسيذهب منه إلى سان - بطرسبورغ مقابلة القيسير. غير أن عدم عودته إلى نواحينا مؤكّد. أقول هذا ولكن من يعرف؟

- كنت أتوّجس من هذا وأنتم تبصمون على العهد... - غمغم العجوز بلاخوه وسأل: - يا برج قل بصرامة. ما فعلوه بالجنرال فيليسيون في ستافروبول لا يهمنا ولم يحزننا، الرجل بشاربيه المتهالين أهاننا مرات، وخرب بيوتنا. ولكننا مهمومون بمصير وثيقة صلحنا.

- كنا تكلمنا يا إبراهيم يا زعيم الخير أمس في ما ينص عليه إعلان الصلح. ونتيجة للقرار الذي اتخذناه كنا، تسي حاتر باي وأنا، ومعنا محمد أفندي، في ما يقواب والقلعة التي أنشأها الجيش الروسي على مسافة أبعد في شتحاله. وكنا ننوي الوصول إلى إيكاتينودار ولكن...

- وهذه المرة أيضاً أعادكم القوزاق؛ أليس كذلك؟ - سأّل كوبا باسماً، ثم أضاف ساخراً وكأنما من نفسه: - ونحن نركب مرات كثيرة، لا يتعلّق الأمر

بالركوب فحسب. بل أن يكون سفرك ذا جدوى.

- من يا ثُرى يعand زعيمنا الأكابر سنًا؟! - استنفر محمد أمين في مواجهة الفلاح الذي يقاطع كلام برج، وكأنه لا يعرف اسمه، وأكمل بصوت هادئ: -

اصبروا أيتها الجماعة! نسمعك يا حسن بي، يا زعيم الخير.

يتضاحك الفلاحون الذين يحتشدون في المواقف البعيدة، مقابل موقف زعماء المجلس الأعلى وبعض الأكابر سنًا: - لا نسمع ما تقولون!

- أين المبلغون؟

- لماذا ليس هنا مثيل المنبر العالى الذى كان يتكلم من فوقه النائب؟

- اركب حصانك - همس تسي لبرج - برونك ويسمعونك.

- أيها المبلغون، بلّغوا كلامي بمحاذيره إلى العامة! - ألح برج على المنادين حين استوى على السرج، ثم أضاف بصوت أقرب إلى تبرئة النفس: - أعدكم أن تروا هنا المنبر العالى الذى تطالبون به. أطلب من المخاتير اليوم أن يصنعوا منابر للكلام، ليس في برج حبله وتسى حبله وحدهما بل في كل قرية من قرى الأبراج التي كان النائب يخشى أن يعلو عليه أحد فلم يؤسس فيها المنبر. الأبراج ولدوا في الجبال ويعيشون أحرار القلب والعقل. ليقولوا ما في قلوبهم دون مناكدة أو مشاحنة! ولكن لن أغفر لمن ينقض عاداتنا الأزلية بحججأنا أحرار في كل شيء. والآن سأقول لكم رأى في وثيقة صلحنا: لا يعني إبعاد الجنرال فيليسيون أن الوثيقة التي تحمل خاتمنا وخاتمهم قد تُقضى. ستظهر حقيقة الوضع حين يأتي أفرادكم إلى نواحينا كما قيل لنا. أنت ونحن نعرف أننا لم نركن إلى السلام الذي أقمناه في فترة السنة والنصف الماضية. إن أردتم معرفة الحقيقة فأنا يسؤولي أنكم لم يتتحوا لنا الفرصة لنجيب على مسألة وحدة الأعراق الأديغية الثلاثة، الأبراج والشاسع والوبيخ، التي طرحت علينا. ولكن هذه ليست مسألة

محسومة في رأينا، كنا بـلـعـنـاهـم موافقـنـا. وـسـنـعـيـد خـلـالـهـذـه الأـيـامـالـحاـوـلـةـ.

ـ صـحـيـحـ، فـيـ الـوـحـدـةـ قـوـةـ! ـ أـيـدـتـ بـعـضـ الأـصـوـاتـ بـرـجـ.

ـ وـأـيـنـ كـنـتـ إـلـىـ الـآنـ؟ بـتـرـونـ وـرـاءـ ذـنـبـ الـحـصـانـ بـعـدـمـاـ فـوـقـ رـأـسـهـ. ـ قـالـ مـحـتـدـاـ
بـلـاخـوـهـ مـزـحـ بـنـاسـيـاـ أـنـ جـدـ إـبـرـاهـيمـ هوـ كـبـيرـ الـحـلـقـةـ، ثـمـ اـخـتـبـأـ وـرـاءـ أـتـرـابـهـ.
وـلـكـنـ مـنـ كـانـ يـخـافـ مـنـهـ أـكـتـفـيـ بـسـعـلـةـ مـصـطـطـعـةـ مـتـظـاهـرـاـ أـنـهـ لـمـ يـسـمـعـ شـيـئـاـ.

هـدـأـ الـاجـتـمـاعـ الـذـيـ كـانـ إـلـىـ الـلـحـظـةـ كـسـرـبـ نـخـلـ خـارـجـ خـلـيـتـهـ. شـمـ الـظـهـيرـةـ
تـشـرـقـ، وـفـيـ سـمـائـهـ الـقـرـيـةـ الـعـالـيـةـ بـعـضـ الـجـوـارـ تـحـومـ. وـتـهـامـسـ أـورـاقـ الـأـشـجـارـ
عـلـىـ جـانـبـ الـبـرـيـةـ، وـالـأـبـعـدـ مـنـهـاـ. وـقـبـعـاتـ الـشـلـجـ الـتـيـ تـلـبـسـهـاـ قـمـ الـجـبـالـ الـتـيـ
تـتـبـاعـدـ مـنـ جـهـةـ الـبـحـرـ بـيـضـاءـ نـاصـعـةـ كـعـمـامـةـ مـحـمـدـ أـفـنـيـ. وـلـسـمـ بـوـضـوحـ
أـصـوـاتـ حـرـكـاتـ الـجـنـوـدـ الـرـوـسـ الـعـاـمـلـيـنـ فـيـ شـقـ الـطـرـيـقـ، وـحـطـابـيـهـمـ، وـأـغـانـيـ
الـقـوـزـاـقـ.

أـطـلـقـ الشـيـابـ بـعـضـ طـلـقـاتـ الـمـسـدـسـاتـ بـاتـجـاهـ الـمـرـتفـعـ الـذـيـ كـانـ تـصـدـرـ مـنـهـ
أـصـوـاتـ فـرـحـ قـوـزـاـقـيـةـ، وـرـدـتـ عـلـيـهـاـ مـسـدـسـاتـ قـوـزـاـقـيـةـ. وـلـوـحـ كـلـ طـرـفـ لـلـآـخـرـ
بـالـأـسـلـحـةـ الـمـشـهـرـةـ. وـتـبـادـلـ الـكـلـمـاتـ السـاـخـرـةـ وـالـصـفـيـرـ.

ـ هـذـاـ لـاـ يـجـوزـ! ـ لـمـ يـقـبـلـ بـرـجـ حـسـنـ مـاـ يـسـمـعـ وـمـاـ يـرـىـ. ـ أـوـفـقـواـ هـؤـلـاءـ
الـمـشـاغـبـيـنـ! لـاـ تـدـعـونـاـ نـنـقـضـ الـعـهـدـ الـذـيـ بـيـنـاـ. الـأـهـمـ الـيـوـمـ مـنـ يـهـاجـمـونـاـ هـوـ
اجـتـمـاعـنـاـ، وـطـرـيـقـةـ تـعـاـثـلـنـاـ مـعـ الـوـضـعـ الـحـالـيـ. نـحـنـ لـنـ نـفـارـقـ بـلـادـنـاـ وـجـبـالـنـاـ إـلـىـ
أـيـ مـكـانـ، وـلـيـسـ لـنـاـ مـكـانـ نـذـهـبـ إـلـيـهـ. تـحـلـوـ أـيـهـاـ الـأـبـرـاخـ، يـاـ مـنـ أـدـعـوـ اللـهـ
لـكـمـ أـنـ يـرـحـمـكـمـ وـيـحـمـيـكـمـ، بـالـصـبـرـ وـالـحـلـمـ. وـلـنـسـتـمـعـ الـآنـ إـلـىـ مـاـ سـيـقـولـهـ الـزـعـيمـ
مـعـاـوـيـيـ تـسـيـ، فـيـ هـذـاـ الشـأـنـ وـفـيـ غـيـرـهـ.

ـ سـيـكـونـ كـلـامـيـ مـخـتـصـرـاـ أـيـتـهـاـ الـجـمـاعـةـ ـ قـالـ تـسـيـ رـافـعـاـ جـسـدـهـ عـنـ السـرـجـ
ـ مـعـ أـنـيـ كـنـتـ خـلـالـ سـنـوـاتـ مـنـ رـافـضـيـ الـسـلـامـ الـذـيـ أـقـامـهـ مـلـصـلـحـتـهـ النـائـبـ

الغريب الذي لم أكن أضمر له الود فكلاً الحاضرين في اجتماعنا يرون فائدة هذا السلام في أن سمح لنا أن نلقط أنفاسنا. وليس النائب الذي نجا بجلده جُبناً من يستحق الشكر بل الجنرال فيليبيسون الذي أبعِد عنا. وأعرف أن بينكم من سيرفع في وجهي احتجاجه: "أليس هذا السلام الخادع الذي أقامه معنا هذا هو من فتح الطريق للأقدار الذين يدِّرسون في بلادنا العنة جبالنا ومراعينا وأنهارنا"، ولكن الأفضل أن نتذرع بالصبر كما ترجمكم برج. وإن وحدنا الأعرق الأديغية الثلاثة فنحن الأبراخ من ستعود إلينا هذه الغابات والجبال والأنهار. ليكُن بيننا الوحدة والتفاهم! نحن ستحمّلنا الرجولة التي وهبنا إياها الله!

– الوحدة! شجاعة الأبراخ! – رد المجتمعون ملؤُحين بخناجرهم فوق رؤوسهم. – وأنا اسمحوا لي أن أمتطي حصاني وألقي كلمة ما – كان الصدى ما يزال يتجاوب في الجبال حين طلب بلاخوه إبراهيم الكلام – أيها الأبراخ، يا من أدعُكم أن تعمّروا ضعّي ما عُمِّرْتُ... – ما إن نطق إبراهيم هذه الكلمات حتى هو رأسه ميتاً.

لم يفهم المجتمعون ما حدث حين سادت الفوضى صدر الحلقة. وما سمعوا "كساء اللباد"، "التابوت" فهموا أن إبراهيم الذي أنزلوه من السرج فارق الحياة. وحين رفع الشباب جثمان معمر القرية المحترم، ملفوفاً بكسائه اللبادي الأسود، واتجهوا به إلى بيته، تبعه كل المجتمعين ممسكين بأزفة خيولهم.

عندما مددوا جثمان الراحل إبراهيم على أرض الغرفة ووجهه إلى القبلة، ووضعوا خنجره فوق الكسأء، قال محمد أندبي الذي كان يُصلح وضع عمامته الزرقاء:

– قضى الله الرحيم سبحانه أن يتقل إلى رحمته بهذه الطريقة. كلنا بأمر الله.

وكلنا أمته. ما كتبه الله على جهاهنا سيكون آخرتنا. ووالدنا المرحوم مرزخوي -
ليفتح له الله باب جنته - سمعته كثيراً يُثني على رجولة إبراهيم وطبيته. وحين
صارت برج حبه مقر إقامتي تحدثنا مرات كثيرة. كان عجوزاً قوياً تجد عنده
الحكمة والراحة.

- نعم، نعم. - قال تسي مؤيداً كلام الأفendi وفي نيته لجم خطابه الطويل. -
كان إبراهيم من رجالات الأبراخ، وكانت رجولته وطبيته متلازمان. قضى
حياته على سرج حصانه، ورحل عن الدنيا من على السرج. ليفتح الله له باب
الجنة.

- سيكون الغد اليوم الأول ل الكبيرنا إبراهيم في الجنة. - تكلم برج على ما لم
يخطر ببال الحاضرين.

- حقاً، لماذا لم أتذكر هذا يا حسن بي؟! - انتفض محمد أفendi لما سمعه -
اليوم عشية يوم الجمعة. سندفن كبيرنا الذي أنعم عليه الله بأن تصلّى صلاة
الجنازة عليه يوم الجمعة غداً. قولوا آمين، ولندفع له!

الجو اليوم صحو، كما كان أمس، ر بما إكراماً للصالح إبراهيم. وببلاد الأبراخ
الجلبية معتدلة الحرارة. والسماء التي ترتفع فيها بعض مرق السحاب الرقيقة
البيضاء تبدو عالية. وإذا نظرت من خلال الهواء الصافي الذي اعتادت عليه
الأبراخ رأيت الغابات الواسعة، والقمم البيضاء، والدروب المتباude، والقرى
المتناثرة المقابلة تبدو في السهول وفي رؤوس التلال.

لاتتسع بريه برج حبه للمشاركين في الجنازة لأن الأبراخ وفدو عن بكرة أبيهم.
وهم متوزعون حسب أعمارهم في مجموعات. يتحادثون، كلهم مهمومون
بالمصيبة القادمة التي يعرفون عنها شيئاً ولا يعرفون. وكلّ يروي خبر الجنرال
فيليسون من وجهة نظره، ويتدحه أو يغتابه. أما الجنرال الذي سيعود إليهم

إفدوكيروف فقد مزقوه إرباً إرباً معتبرين إيه أسوأ من الجنرال زاس. وهناك من لا يقبل هذا الرأي ولكنهم قلة.

لا يزال على موعد إخراج الجنمان من البيت ساعة.

كان الأباخ يلقبون الجنرال إفدوكيروف بذى العيون الثلاث ولكن عُمشت مولى ذا العيون الأربع صرخ متعجباً مما يرى:

– انظروا إلى الفرسان القوزاق قادمين!

بعدما وصل الفرسان القوزاق الخمسة تركوا فارسين منهم يمسكان أعنّة خيلهم ، ودخل الثلاثة الآخرون من البوابة الكبيرة المفتوحة وألقوا التحية، عرّى العقيد الذي أنعموا عليه حديثاً بالرتبة الأسرة والحاضرين:

باسم الجيش الروسي المتمركز في حجّخ، وباسم القوزاق في التجمعات القرية، وباسمنا، نعرّي الأسرة والقرية بوفاة الرجل الطيب والحكيم المعروف أينما كان، بلاخوه إبراهيم. يُحزننا غيابه عنا، وندعو لكم بطول العمر مثله، وبالسلام، وله براحة النفس حيث رحل.

برج حسن الذي ترك تسي و محمد أفندي بمعرفتهما، وخرج لاستقبال المعزّين القوزاق، أجاب باسم الأسرة المصدومة وباسم الأسرة الكبيرة، وباسم القرية:

– حيّاكم الله على مقاسمتنا حزننا، متّكّدين عناء السفر. جمعنا الله وإياكم على خير، لا على مثل هذه المصيبة، وطور علاقات السلام بيننا!

بعدما انتهى الضيوف القوزاق الذين يُلمّون بالعادات والتقاليد الأديغية من تأدّية واجبهم وركبوا قال هارون لعدد من يقفون إلى جانبه:

– كان سيرديوك ذو الكتافيات الذهبية اللامعة حلو اللسان معنا اليوم وإن كنت لا أعرف ما يخفيه لنا...

– وماذا بيده غير هذا! – لم يستطع الفلاح ذو الأذن الحادة أن يتجاوز

الموضوع فأدل من حيث يقف بيضع كلمات – يستحقون الشكر لمجرد زيارتهم لنا... – وبرج زعيمنا قابلهم بلسان حلو أيضاً... وإن كنت لا أدرى ما يعنون بحالة السلم التي بيننا... نتحارب، ثم يدعو بعضاً لبعض!

تجمع الرجال والنساء في مجموعتين على الجانبين لحظة أخرج الجثمان من الغرفة. وتوسط محمد أفندي الذي سيقوم بإجراءات التأبين الساحة. وبعدما فرغ من الأدعية تجاوز برج، حسب الاتفاق، وأعطى الكلمة لتسلي.

الفصل السابع عشر

أواسط ربيع عام 1861.

برزج جراندوقه بعمامته البيضاء ولحيته الشائبة، والذي لا تقدر عمره بأكثر من ستين سنة، رجل معتدل القامة، متين الجسم. ذرع أرض الغرفة بضع مرات وكأن ما يطأه ينخسف تحت قدميه، وتوجه إلى النافذة التي تصطخب من ورائها أمواج البحر. وقال لنفسه وهو يتأمل عالم الأديمة – الوبيخ، مهموماً بتأخر ابنه إسلام برج إلى نواحي الأبراخ: صحيح ما يُقال "أُرسِلَ الولد في مهمة، واتبعه"

قال الحاج برج في نفسه: "الأبراخ الذين خدّعهم محمد أمين النائب وفيليبيسون خبّئوا رؤوسهم وصمتوا في جبالهم لا يعرفون ما العمل." ثم غضب وسأل نفسه عما يرتأي بالأبراخ أن يفعلوه: – "أين اختفت رجولة الأبراخ؟ أبهد هذه البساطة رضخوا كالبجدعون للتحالف مع الروس؟... والقبرتاي الذين أخدّهم يرمولوف ليسوا أحسن منهم. و البسلني والأباظة لم نعد نسمع أصواتهم. وتركيا التي لم تساعدنا إلا بالكلام خدّعتنا سنوات طويلة، وباعتنا إلى روسيا. والإنجليز والفرنسيون الذين كانوا يقولون: أنتم أحرار، نحن معكم بالقتال، خدعونا... أبهد هذه السهولة إذن شتّونا، نحن الآثني عشر فرعاً للأديمة؟ – أخن – الوبيخ

والسابع من بقي في الميدان؟ لا يجوز إلا أن نعيد الفرع الكبير الأ ragazzi
المخدوعين من الروس إلى وعيهم مهما تصرفوا معنا. وإن قلت ما أقول أيمكن
للأديغة الذين احتل الروس أرضهم بالقوة أن يرضخوا للإهانة بهذه السرعة؟
كنت على حق ولو لم نطعك في مسألة توحيد الأديغة يا زان سفري. ليرحمك
الله حيث رحلت. ربما لم يحدث لنا اليوم ما حدث لو سمعنا كلامك. ومع ذلك
يساندني أيها الكبير في جمع المجلس الأعلى للأديغة الأحرار ولذلك قارباتر.
وستسمع بالكلام العالم كله، ولو تأخرنا قليلاً، وستفهمهم أننا نحمي حررتنا...
لم يبق لنا مخرج آخر..."

- أناديك يا جراندوقه فلا تسمعني... - لاطفت حاجت التي فتحت الباب
بهدوء زوجها.

- أهذه أنت؟ - سأله الحاج من خلفه، وقال لزوجته: - تعالى وانظري إلى
الشمس التي يزقها البحر.
- يا لحني، ما أشد حمرها!

- وكذلك شمس الصباح وهي تشرق حمراء فانية ومع ذلك لا ترعبك!... يا
رب كيف ستكون شمسنا غداً؟ لا داعي لللماس. سيتلو ليتنا خار... وماذا بعد؟
أظن بالك مشغولاً بتأخر الولد؟
- أيهجر الأبناء طرق آبائهم؟

- أطمني سأسافر إن لم يُعد اليوم أو غداً لأن طريق الأ ragazzi خطير، رغم سعادتي
لاكتسابه طباعي.

- لا تدع الوساوس تغزو قلبك، الله معه، ثم إنك أرسلت معه جماعاً غير قليل.
_ أليس لأنني أرسلت معه جماعاً كبيراً ثقيني الوساوس! قولي له على لساني متى
عاد أن يختتم سنوات عزوبيته الثلاثين.

- أأنا من لا تطلب منه، ولكنك لا يسمع كلامي؟

- لا يسمعك لأنك تبتسمين في وجهه وتدللينه! قولي له على لسانك وانظري إن لم يسمعك... مهلاً؟ أليس ما نسمعه وقع حوافر حصان؟ إنه عائد على قول المثل "من تأتى على ذكره تجده على عتبة الباب". - أمر الحاج برج امرأته بصوت حازم: - اصبرى يا امرأة، سيترجل من حصانه ويدخل إلى غرفتك ريشما تعودين إليها.

بدأ جراندوقة يتوضأً متظاهراً بعدم الاهتمام بصوت الحصان القادم من الفناء، ووقف على السجادة، ومع أول ركعة دخل إسلامبج الغرفة، وأغلق الباب بسرعة كي لا يقاطع صلاة والده.

وحين أنهى الحاج برج صلاته استراح في مكانه المفضل كأنه غير متلهف على رؤية ولده، وبدأ يقلّب حبات السُّبحة. وما دخل ولده إلى الغرفة قال له بين العتاب وعدمه:

- خير مقدم يا ولد، أطلت غيابك. ما أخبار الأبراخ حيث كنت؟

- لم نر فيها يا تات أي شيء ساز. الجنرال أندوكيم يمد الطرق الخربية إلى عقر دار الأبراخ. وبيني حولهم قرى قوزاقية.

- هكذا إذن!... انتظرت أن تأتيني بخبر ساز يا ولد. ما رد فعل الأبراخ المخدوعين إذن؟

- الأبراخ نادمون. يقولون إن الجنرال فيليسيسون والنائب محمد أمين خدعاننا. وبرج حسن وتسى حاترباي سألا عن صحتك، وأعلماني أئمماً يوافقانك في شأن المجلس.

- هذا خبر حسن! - لمعت عينا الحاج الصافيتان الثاقبتان. - هذا يا ولد ما كان يجب أن تخبرني به أولاً. برج حسن وتسى حاترباي رجلان حكيمان.

- والنائب الخبيث محمد أمين لم يكن يودّهما. ولو عرفت أن المجلس سيكون سبباً في ضمِّ الأبراخ إلى المجلس لأرسلتك إليهما رسولاً يدعوهما إلى نواحينا.
- لا حاجة لأن ترسلني إليهما. أخبراني يا والدنا أنهما سيأتيان إلينا في الجمعة القادمة.
- أخشى أن تكون أخبرتكم بمجتمعنا أنا وقاريater سفري يوم الجمعة القادم!
- لا، أسمع منك هذا الخبر لأول مرة.
- هذا ليس سراً. ولكن مع هذا أقول: من يعرف... إذا كان برج أخبرك هذا فسنستقبله باحترام. يقولون إن من يتراجع عن خطئه يجعله الله في صحبته. أيّ أصوات خيل تصدر من الفناء؟ ليس هذا صهيل حصانك... - أكثي الحاج سؤاله دون أن يقطع تسيبيحه، ودون أن ينظر إلى ابنه الواقف إلى جانب الباب.
- هناك ثلاثة أحسنـة هي حصتي من عشرة غنمـناها من راع قوزـاقـي في طريقـنا من الأبرـاخ... - قال أـسـلـانـيـعـ كـأـنـهـ لاـ يـعـيـرـ أـهـمـيـةـ لـلـمـوـضـوـعـ، وأـضـافـ بـمـزـيدـ منـ الـلامـبـلاـةـ: - بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ رـجـلـ قـوزـاقـيـ.
- الأـحـسـنـةـ مـصـدـرـ دـخـلـ لـنـاـ - قال الحاج دون أن يرفع رأسه الشقـيلـ الذي تـلـيقـ بهـ العـمـامـةـ عـلـىـ وـجـهـ عـرـيـضـ وأـضـافـ: - وـمـاـذـاـ نـفـعـ بـالـأـسـيـرـ القـوزـاقـيـ، نـطـعـمـهـ وـنـقـوـيـهـ؟!
- وهذا لن نـقـيـهـ بـلـاـ عـمـلـ يـاـ تـاتـ... سـنـبـادـلـهـ معـ أـحـدـ التـجـارـ الـأـتـرـاكـ الـعـابـرـينـ بـقـطـعـةـ قـمـاشـ بـنـطـالـ مـتـىـ صـارـ عـبـيـأـ عـلـيـناـ.
- وـكـمـ عـمـرـهـ تـقـرـيـباـ؟ أـخـيـفـ هـوـ أـمـ بـدـيـنـ؟
- فـيـ حـدـودـ الـخـامـسـةـ وـالـعـشـرـينـ طـوـيلـ الـقـامـةـ، قـوـيـ الـبـنـيـةـ.
- وـأـيـنـ هـوـ؟ - سـأـلـ الحاجـ الذـيـ كـفـ عنـ التـسـبـيـحـ.

- أمرت بحبسه في غرفة خارج أرض الدار. أستدعيه لك إن أردت.
- وماذا أدىس البيت باكل لحم الخنزير. تعال معي ألق نظرة عليه!
خرج من الغرفة، وحيا الرجال الذين يشتغلون في الدار المحترمين بإيماءات
رؤوسهم. ومشيا إلى حيث يحتفظ بالأسير، وأسلامبج يتاخر بعض خطوات عن
والده.

المدوع المخيم على قرية برج "مئحو" المنتشرة على ضفة النهر الجبلي "بساحه"
ينقضه اصطدام أمواج البحر القريب. وتتزاحم النجوم التي أيقظها صخب
الأمواج وقت حلول الظلام. ويحيي إليك أن أضواء المصايف المنزلية من هنا
وهناك تتغامز. هبت الكلاب وتنابت على صوت إطلاق نار من بنادق، ثم
هدا كل شيء فجأة. والبومة التي خرست على أصوات الكلاب وإطلاق النار
عادت إلى العيق.

- يا ولد - نادى الحاج برج إلى الوراء دون توقف - اعرفوا من تسبب
 بإطلاق النار فأفزع القرية! وهذه البومة التي حطت يقال إنها رمز للشئم فتدبروا
 أمرها!

- حسناً تات، سنتعرف من أطلق النار، ونقرر مصير البومة. - لم يستطع
 أسلامبج إلا أن يعبر عن قلقه لوالده رغم إعجابه بقامته ومشيته: - لا أعرف
 ما يتأمل هذا القوزاقي ذو العُرَة الذي تذهب إليه؛ إنه لا يكفي عن الكلام.

- أتفصد أنه ثرثار؟ سددنا أفواه كثير من أمثاله... سأل برج بلغة روسية
 سليمة الأسير الذي نمض بقامة رشيقه، مازحاً معه:

- أنت ضيفنا القوزاقي؟

- لا أعرف إن كنت ضيفاً أم أسيراً أم أيها الحاج برج، جاء إليك بي ولدك
 مقيداً على حارك الحصان.

- لا أظنبني أوفدْتُ ولدي إلى الأبراخ وراء أسير. ولكن إن استطاع أن يحملك إلى فهذا دليل رجولة. تنطق اسمي جيداً يا قوزافي.
- لأن اسمك على ألسنة القوزاق كلهم.
- أبخير أم بشر؟ - ابتسم جراندوشه.
- أقول لك الحق: يتكلمون عليك بصفة قاطع طريق ثكاب ظالم.
- هذا إذن ما يصفوننا به! - عبر الحاج عن رأيه الشخصي معتبراً الوصف لا يتعلّق به فقط: - مع أني أقدر صراحتك يا قوزافي فإن ما يصفني به قومك مُضحك... على ما ييدو استوليتم على الأرض التي ليست لكم ثم تنظرون إلينا على أننا ثكابون... هذا يا ولد ما يحدث لنا نحن الأديعة الوبيخ... - تخلّى جراندوشه فجأة عن روسيته وعاد إلى لغته الوبيخ: - لو أطعنا زان سفري وعقدنا مجلس الأديعة - الوبيخ لرما ما جرى لنا ما جرى اليوم. - لابد من أن نعقد المجلس ولو تأخرنا قليلاً. - حين سمع الأسير القوزافي كلمة "مجلس"¹ رأى الحاج انتفاضة رأسه فتابع بالروسية: - لا تستغرب يا قوزافي، سعقد بسرعة الاجتماع الذي سيكون أساس وحدة الأديعة - الوبيخ. ليس هذا مشكلة بالنسبة إليكم. هيا قل لي اسمك ونسبتك. هل قدموا لك العشاء؟
- أطعموني جيداً ولو أني لا أعرف مصيري. أنا راضٍ. لم يهينوني في بيت الإمارة سوى أنكم جاؤوا بي مقيداً على الحصان.
- لست من عامة القوزاق حسب ما أسمع منك.
- لا تحاول أن تدفعهم إلى افتدائِي بهذه الحجة - حسم القوزافي ذو الغرّة الكبيرة الأمر.

¹ وهي في الأصل بالعربية.

- وأنا لم أفكِر في مثل هذا... - نظر الحاج برج الذي سرَى على فمه مشروع ابتسامة خفيفة نحو ابنه.

- إن كان هذا ما تقول فسأُطلعك على اسمِي ونَسَبي. نسيِّي هو فويتينكو، واسمي إيفان سافيلفيتش. وأنا من بلدة لابينسكا القوزاقية. وأنا فارس قوزاقي في فوج نيجيغورودسكا.

- هذا الأَسْيَر الذي جعْلَتْنا به يا ولد من نوع المجنين العقلاة. لا يفهم الوضع الذي هو فيه الآن... - قال جراندوقه لابنه.

- نعم يا محترم، - أسرع فويتينكو الذي امتدحوا اسمِه، مصراًًا للزعيم الوبيخ باسمه الأَمْبَرِي - أنا حارس الدولة الروسية!

"اسمع ماذا يقول!... تذكر برج اسم الأُسرة الذي كان سمعه على ضفة نهر لابا قبل قرابة عشرين عاماً. - أكان نسبُّ الحاكم القوزاقي المحلي الذي جاھنِي بالسيف فويتينك؟ كان يحاربني محدقاً فيّ، مردداً، بالصوت نفسه، وبالكلمات نفسها، ما يقوله لي هذا الذي أَمَامِي. إن لم تخْتَيِ الذاكرة كان هاجني بصدر الحصان مسمياً نفسه سافيلي أندريانك... ومن حسن حظي أني أزهقت روحه وهو على ظهر حصانه لحظة أَهْوى بسيفه على ظهري... يا رب ما أغرب ما تتصرف دنيانا دون رحمة!..."

- على ما يبدو - خرج الحاج برج من أفكاره - كان اسم والدك سافيلي أندريانك.

- نعم يا محترم! - فرح فويتينكو إيفان لما سمع - وأين تعرَّفَه؟

- سمعتهم يذكرون اسمه، لم يكن عديم الرجولة.

- حياك الله يا محترم على ذِكْرِكِ والدي سافيلي أندريانوفيتش فويتينك بالخير. ثم اختتم بصوت منكسر: - كان عمري خمس سنوات حين قتل الشراكسة

والدي. ولم أثأر له حتى اليوم. ولا أكتمل أن من تشفيت بقتله من الشراكسة باسم والدي ليسوا قليلين. ولكن لو التقيت بالقاتل الفعلي لوالدي لأزهقت روحه وإن كانت فيه خابتي.

- ليس صعباً أن تجد قاتل والدك. - قال برجز بعدم اكتتراث واضح - إنه أمامك!

- أأنت من قتل والدي؟

- أنا، صحيح تماماً . أستم أنتم والروس من يقولون "من يقابلك بالسيف يمُت بجراحته سيفه"؟ - حين نمض الحاج برجز ووصل إلى الباب، قال ملن وراءه: - احلقوا للقوزاقى غرته؛ لا أريد رؤيتها ثانية. وأحرقوا زيه القوزاقي... - وحين وصل إلى غرفة إمارته قال لابنه: - هيا، ادخل إلى غرفة والدتك، ونقد بسرعة ما ستطلبنه منك باسمي.

الفصل الثامن عشر

منذ الزمن البعيد الماضي، والأديعة بعروقهم الاثنى عشر: الأبراخ والبسلي والقبرتاي والجمكوي والبجدوغ والشابسغ والناثنواي والمخوش والهاتقوى والأدمي واليجرقواي والوابيخ، يعيشون في إقليم شمال القفقاس، بما فيه شرق البحر الأسود وبحر آزوف. والأديعة من أقدم الأجناس البشرية على الأرض. وأراضي هؤلاء الزراعية غنية. ومراعيهم كثيفة العشب. وقممهم مكبلة بالثلوج، وغاباتهم ملونة فسيحة. وتبعد سواديقهم المتنوعة كأنها تلتقي وتفترق. الصيف في إقليمهم طويل، والشتاء قصير. وخريفه بين الأحمر والأصفر، وربيعه زهور كثيرة الألوان، خماراته مشمسة، ولياليه مقرمة غزيرة النجوم. وينجح ملوكهم في برواج الجنون، ويتمونونها أنها هي أرض الأديعة.

يجلس جراندوقه برج وبرج حسن تحت شجرة الإجاجاص العملاقة التي تحميهم

من شمس الربع الحارة. يرتدي كلّ منها رغم الجو الريعي الباعث على الضيق، كسامٌ صيفياً أسود تزيّن صدره طروفُ الرصاص، وقبعة من جلد الحروف الفاحم متناسقة مع الكسام، كأنهما سيسافران في رحلة مقررة. وعلى جانبي كلّ منها سيفه وخنجره ومسدسه. وأكسية الساق الرقيقة الناعمة ملفوفة حول كواحلهما.

على المائدة التي رفعوا عنها الفطور جرة ماء بارد وكأسان. نسيم البحر الرقيق يهز أوراق الأشجار مجتمعةً. وتبعد بعض السفن الروسية بعيدةً عن الشاطئ بضع فيريستات. والجبال البيضاء القمم التي تبدأ من طوابسه والغابات الملونة، الفسيحة تتبع إلى جهة أبخازيا القرية. ولا ترى في السماء العالية مزقةٌ سحابة. وقرية متخا التي يقطنها أكثر من مئة أسرة تبدو مرتاحه: الأولاد والصبايا الذين لا يعرفون ما ينتظرون في السنوات الثلاث أو الأربع القادمة يلعبون فيها، وتقافز فيها الفراشات الملونة، وتجابو زلاقات العصافير. وتتصدر أصوات طرق الحداد من المحددة، وتسمع همسات أمواج البحر القريب. ولا تجد في عالم الأديعة راحة للنفس رغم أنه يشبه الجنة.

— عاش زان سفري حتى عاين بنفسه السبب الذي كان من أجله يقول: إن كان الأديعة الذين وهبهم الله مثل هذه الأرض الجميلة السعيدة عاجزين عن توحيد صفوهم وإنشاء دولة خاصة بهم فستكون نهایتهم على يد الجيش القيصري الذي يداهمهم. وأنت وأنا يا حسن، يا من جعل الله يومه مئة، لم نشهد هذا اليوم فحسب بل نفني مكتوفي الأيدي. دعونا نفعل ما يتربّ علينا: لعقد المجلس الأدبي الحر، ولننوجه إلى العالم الحر العادل شفاهًا بما يفعلون بنا اليوم. وستنوجه بمعطلينا أولاً إلى روسيا، وإلى تركيا التي تساندنا ولا تستطيع، وإلى إنجلترا التي تخدعنا، وإلى فرنسا.

- وبولونيا؟ سأله برج حسن المضيف، وفسر بسرعة سبب لفته عليه: - لأن أهلها تصرفوا معنا على نحو جيد في عصر زان سفري.
- وهؤلاء، صحيح، يجب ألا نتناساهم.
- لم تذكر يا محترم، حين عدّت أسماء أعضاء المجلس الأدبي، البجدوغ والقبرتاي.
- البجدوغ والقبرتاي ليسوا موضع ثقة. هؤلاء صفقوا إلى جانب روسيا.
- ونحن، في عهد النائب، كنا متحالفين مع روسيا.
- لا تخطئ يا حسن، الأبراخ صالحوا روسيا ولم يتحالفوا معها.
- نعم، نعم. كان النائب خدعنا في هذه المسألة. واستفاد الروس من هذا الصلح فأدخلوا قواهم إلى أرضنا. وحين نقول إننا ندمتنا على خطئنا يصّمون آذانهم ويختلون مراuginنا وأراضينا الزراعية. والجنرال فيليسيسون الذي كان يحرص علينا نوعاً ما عمل إفدوكيروف على إبعاده... - لاحظ برج حسن أن فويتينيك الذي كان يقطع الخطب نصب أذنيه حين سمع أنساب الجنرالات الروس فسأل: - من هذا الخليق الرئيس الذي يتنصل علينا؟
- هل تذكر يا حسن القوزاقي فويتينيك الذي وقعت ضربة سيفه على كتفني قبل أعوام في نواحيك؟ هذا ابنه. حملوه إلى قبل أيام من الأبراخ. أظنه أوقف فأسه حين سمع أنساب الجنرالات الروس وإن لم يفهم ما نقول.
- وهل تتركه حراً في أرض الدار كما أراه! - وحالاً أصلح برج حسن نادماً على ما قاله عن الأسير القوزاقي: - حقاً يعيش بيننا نحن أيضاً أمثالهم وقد تحولوا إلى أديعة.
- أظنك تتكلم على أولاد براغنه ميشكا.
- نعم، على عُّفُس وإسلام ولدي براغنه ميشكا. وهم الآن من رجالات

الأبزاخ. وحين سمعا بخبر المجلس الأدبيغي أيدانا قبل الجميع.

- حقاً هذه هي الحياة، وهذا ما يحدث لنا... وكثير من جماعتنا يساندونهم.

غير أني أشفع على هذا اليائس لأن والده قضى على يدي.

- وهم لا يشفقون علينا.

- نعم، هم ظالمون... ولكن ألا يجب على طرف ثالث أن يوقف الطرفين المتقابلين بالسلاح.

- أتظن أيةاً المحترم أن المجلس يمكنه أن يحل هذه القضية؟

- الإنسان يعيش على الأمل. وهذا الأسير لا أظنه دون أمل... إن كنت تريده أن تفعل خيراً فاصحبه إلى الأبزاخ، وأعده إلى جماعته. وما ستكتسبونه منه لا أطمع فيه.

تظاهر برج حسن بأنه لم يسمع ما لم يعجبه رغم انفعاله لما أسنده إليه، وقال وهو يفتح ساعة جيبيه الفضية:

- زان قارباتر تأخر.

- لن نتحرك من مكاننا؛ حان موعد وصوله. سأرسل عدداً كبيراً من الفرسان لاستقبال زان لأن الشابسغ في مشكلة من تواجه الجيش الروسي.

- هل ناديت أيةاً المحترم؟... - نادى فويتينكا من وراء الإسطبل.

- ما الذي جعل هذا لجوجاً؟ - غضب برج غير متتحمل تحرير الأسير.

- لا تنهر هذا المسكين... يعتمل في قلبه الكثير... كما ترى، هذا ما جرى لنا... لا تلم الشاب الأسير الذي هُمه هو جماعتك الأبزاخ. روحه كلُّها مغروسة في قومه. - في اللحظة التي كان يريد فيها أن يقول لبرج حسن "هذا البائس

الذي قُتل والده بسيفي أريد أن أعيده إلى أهله" قطع أفكاره من ناداه:

- أيةاً المحترم. ليس ما يشتهيه هو رائحتي الأبزاخية، الدُّم الأدبيغي الذي لم

يستطيع استئنفاده، وأرضنا التي لم يستطع احتلالها، هما ما صارا همّه. أسمعك يا حاج فأراك تغيرت عما كنت عليه سابقاً. أظن أن فعل الخير والإشراق غالباً عليك.

- أهذا رأيك أيها الضيف؟ - توقف الحاج برج وارتفع: - كانت لحانة أيام زمان سوداء، ورؤوس أكتافنا متينة، وكلامنا صلباً. في شبابنا لم نكن نكتفي بسيف واحد نكسره في المعركة متشبهين بالطيور الحرة، متتكلفين الجنون. ولم يكن جرح واحد فحسب يصيب أجسادنا، ولم يكن من ندفنه من الأصدقاء قليلين. منذ عدة سنين نحارب من لا تستطيع أن نهزمه متنافسين فيما بيننا، محروميين من الأرض، ساعين وراء المديح. ألا مخرج لنا إلا السيف المشهور والخنجر؟ فكّرنا أنا وزان قارباتر أن نسمع صوت مجلس الحرية الأديعي إلى العالم، ونحن نعرف أن هناك من سيقولون: فوّتوا رأس الحصان ويلحقون بذيله، ووتتأملون منكم أيها الأبراخ أن تقفوا إلى جانبنا.

- والأبراخ لم يبق لهم أملٌ غيره. ولكن لا أعرف إن كان العالم سيسمعنا.

- يقولون: من لا تناهيه لا يهينك، سترى ما يحدث.وها هم الشابسخ قادمون. خرج زان قارباتر الرجل الأشقر القوي بقامته الصلبة، من بين الرجال الكثيرين الذين ترجلوا عند مربط خيل برج جراندوقة، وخاطب المستقبلين الذين نحضوا لاستقباله واستقبال إسلامي معصوبَيْه يده اليسرى، ماشياً على يسار الأخير، وحياتهم بالأديعية، وليس بـ"السلام عليكم" بالعربية:

- نهاركم سعيد، أيها الكبار!

- ونهارك أسعد - أجاب الحاج برج على التحية. - تفضلوا، اجلسوا يا قارباتر. كيف حالكم، وما أخباركم. وصلتم في وقتكم فأرتحمونا من الانتظار، مع أنكم اجتازتم طريقاً شاقاً عبر الجيوش الروسية.

- حياكم الله أيها الكبير. نحن جئنا سالمين دون خسائر عبر طريق جبلي سري، غير أن إسلام مج محروم.

- وأنت أيها الشاب ماذا حدث لك؟ - سأل الحاج برج ابنه كأنه لا يعي أهمية لليلد المحرومة.

- رماني قناص من الجبل فأصاب عضلة ساعدي.
- لأنكم لم تكونوا حذرين.

- سيُشفعى إن لم يصل الجرح إلى العظم. على والدك جراح كثيرة أخطر من هذا. - اختتم برج حسن الموضوع.

النقى سكان قرية ماتخوا الكبيرة برمتهن تقريباً في الجامع دون انتظار الأذان. ومع أن المؤذن رأى الحشد فقد توضأ وصعد إلى المنبر، وأعلم السامعين متوجهأ إلى الجهات الأربع بقدوم صلاة الظهر. وفهم المتجمعون من النزول السريع للمؤذن قدوة ضيوف الحاج برج. وأفسح الشباب الطريق للضيوف.

توقف الحاج برج عند درج الجامع، وقال للمصلين:

- أيتها الجماعة، سأعرفكم بضيوفنا الأعزاء القادمين من الأزاخ والشاسغ بعد أن نقضي صلاة الجمعة. وستتشارو في موضوع لقاء الوبيخ - الأديةة الذي لم نكن نستطيع إجراءه حتى الآن، والذي كانوا يمنعوننا منه.

وبعد انتهاء صلاة الجمعة احتشد زهاء ألف رجل، من المصلين، من الخارجين من الجامع، ومن الذين لم يتسع لهم فصلوا في الشارع وفي المحيط حاملين معهم سجادات الصلاة، ومن الجيران القريبين من الجامع، بانتظار ما سيقول الحاج برج وضيوفه. واجتمع كذلك عدد من النساء.

- أيتها الجماعة! خاطب الحاج برج أبناء قريته - لن أطيل كلامي إليكم في الوقت الذي وقع فيه الأديةة - الوبيخ في مأزق - مهلكة ميؤوس منه، لم يعد

فيه للسيف فائدة. ولا تظنوا إن استخدمت عبارة "مهلكة" أن الحاج جراندوقة برج أصابه الوهن. الرجولة وحدها لا تكفي. افهموا أننا لن نستطيع الصمود بالسلاح وبالقوة البشرية في وجه الدولة العظمى، ودعونا نفكر في المخرج. لا بد لنا من أن نفكر في الدولة التي ستساندنا، وفي النداء الذي نتوجه به إلى العالم نُفهِّمه أننا وصلنا إلى نقطة النهاية ونحن نحمي أرضنا وحريتنا، وأن نؤسس المجلس الذي سيقوم بهذه المهمة حالاً. وهناك من سيقول لنا "وَأَيْنَ كُنْتُمْ إِلَى الْآنِ، إِنْ صِرْتُمْ عُقَلَاءِ!"، ولكن ما العمل؛ ما لم نفعله في وقته أَجَاهَنَا إِلَيْهِ الضرورة. ماذا علينا أن نفعل أيتها الجماعة؛ الماء يغلي على النار حقاً ولكنه يطفئ النار أَخْيَرَاً. نستشيركم. "نؤيدك يا حاج! البلاد، المجلس، الحكومة!" – بعد الاتفافات المؤيدة أَنْهَى الحاج برج كلامه باختصار: – بارك الله فيكم يا أبناء قومي أنا راضٍ عنكم. والآن نعطي الكلمة للضيف القادم إلينا من الأَبْرَاج برج حسن.

– يا كبارنا، ويَا شبابنا، وأيتها النساء اللواتي يستمعن إلينا، أيها المسلمين الذين أدعو لكم أن يتقبل الله منكم صلاة الجمعة. سأختصر كلمتي أيضاً. قبل أن آتي إلى بلاد الوبيخ حبَّت الأَبْرَاج طولاً وعرضًا. وبحاوب معنا الناس الذين استشرناهم في المسألة التي طرحتها عليكم. أَمَّلْنَا بعد الله الذي يبتهل إليه الجميع ولا يحتاج هو إلى أحد هو البلاد والمجلس.

– مهلاً، قبل أن تعطي الكلمة إلى شابسوج زان قارياتر، أرجو منك أيها الزعيم الكبير الحاج برج، يا من أدعوه له أن يجعل يومه مئة، أن تسمح لي ببعض الكلمات – خرج من بين الحشد مستنداً على عصاه، ضاغطاً على رأسها، عجوزٌ نحيف يرتدي فراءً من جلد الذئب رغم حرارة الجو، وعلى رأسه قبعة قديمة من جلد الحروف المدبوغ. – حياك الله يا حاج على أنك سمعتني.

أكذب عليكم إن قلت إني كنت أعرف والد هذا الرجل زان سفري جيداً جداً. ولكنني قابلته بضع مرات. وأكتسبت منه حكمة. كان لنا رجلاً حكيمًا ليس للشابسوج جيراننا وحدهم، بل لكل إقليم الوبيخ والأبراخ. واحتجزته تركيا عديمة الإيمان لثحبط قضيتها. وحين عاد إلينا فارق الدنيا على صهوة حصانه قبل أن يتسرى له تحقيق هذه القضية التي اجتمعنا مضطرين لأجلها اليوم. فلنندع له أيتها الجماعة لأن أمثاله من الناس الصالحين مثواهم الجنة.

- حياك الله أيها الكبير - نظر زان فارباتر في وجه العجوز سعيداً بما سمع عن والده، بحيث تفهم من نظرته رغبته في معرفة اسمه.

- أنا يا ولدي ينادياني الوبيخ والساز الجبليون بـ "وبيخ"، وإن ناديتني باختصار "بيخ" فهو أفضل.

- لستمتع بشيخوختك، ولتحقق فيها أمنياتك يا وبيخ. أسمعني كلاماً لم يسمعه والدي طوال حياته وطوال عمله بقضايا الأديعة. ولكن، ولو لم أستطع أن أجعل الناس يقولون "الولد مرأة أبيه"، ما جاء بي إليكم هو قلقه - طريقه - الأديعي يا وبيخ. لأنهم يقولون: ما لم تفعله في حينه تُضطر لفعله فجأة، ومع أن الإهانة التي يُلحقوننا بها تحرقنا جميعاً فإن لم تستفد من الفرجة التي لا تزال مفتوحة أمامنا قبل انفراض الأديعة فستنزلون من على سطح الأرض دون جذور. ولأن الشابسوج الذين أمثلهم يعتقدون أن المخرج الباقي لنا اليوم هو هذه الكلمات الثلاث: البلاد! المجلس! النساء! فأنا أوقفكم باسمهم. وأعاهدكم باسم الله ألا أتردد في تنفيذ ما تكلفوني به.

اختتم برج جراندوقه الاجتماع بتذديد الدعاء لأنه أدرك أنه لا يجوز الكلام أكثر من هذا على الموضوع الذي ما يزال في بدايته.

- الموضوع الذي تكلمنا فيه اليوم في اجتماعنا الوبيعي - قال برج جراندوقه

حين عاد إلى الغرفة — ما يزال مجرد بداية. ولا تزال أمامنا مهام كبيرة. علينا أن نباشر العمل حالاً في اجتماع موظفي الشابسغ والوبيغ من أجل ألا نترك المجال لغيرنا ليقولوا إن الثلاثة الذين اجتمعوا وحدهم في شأن مجلس الحرية تركوا الأعمال دون التأسيس لها؛ ألا يكفي عشرة مختارون من كل عرق؟

— قليل — لم يقبل برج — الأفضل ألا ينقص العدد عن الخمسين.

— سيكون لاجتماع عدد كبير من المندوبين قيمة أكبر — وافقه زان قارباتر.

— دعونا إذن نرسل بعض الموفدين إلى الدول الثلاث دون اعتبار لعدد سكان كل دولة، ولنتفق على ستين مثلاً. — اختتم برج بخاتمة قصيرة — سعقد هنا الاجتماع الأول في الجمعة الأولى من الشهر القادم.

الفصل التاسع عشر

انعقد اجتماع مندوبي الأبراج والشابسغ والوبيغ والساز في 13 حزيران عام 1861 في أرض الوبيغ. اجتمع مجلس الأديغة الذي سموه باجتماع الحرية الكبير (البرلان)¹، وانضم إليه خمسة عشر شخصاً. وقسموا أراضي الأعراق الثلاثة الممثلة في المجلس إلى اثنى عشر منطقة. وعُين لكل منطقة مُفتٍ وقاضٍ وختارٌ محددون. وقرروا اختيار المخاتير المرتبطين بأماكن عمل محاكم المناطق بمعدل مختار لكل مئة أسرة. وأصدروا الأمر القاضي بتأسيس جيش من خمسة عشر ألف محارب. وتناقشوا في سُبيل إيصال أخبار المجلس الذي يقتصر هدفه على توطيد السلم إلى روسيا وتركيا وإنكلترا وفرنسا. واختاروا الأشخاص المكلفين بتحضير النداءات.

ولم يكن الأديغة السُّدُّج الذين أسسوا المجلس يعرفون بعد أنه اُلْخِذ في شهر

¹ القوسان من المؤلف. والبرلان الكلمة الفرنسية كما هي في الأصل.

أوكتوبر من العام الماضي 1860 قرار طرد الأديعة من أرضهم في اجتماع القيادة العليا المنعقد في فلاديفوستوك بمعروفة القيصر ألكسندر الثاني، وأن الجنرال بوريس ميليكوف أُرسل إلى إسطنبول، وأن الأتراك وافقوا¹.

الفصل العشرون

حين رأى ددai على باب برج فرسان العرس ساعة ابتداء الظلام فهم أن ابنة آل مرزخوي في طريقها إلى بيت عريتها، فنادى ابنه غيراً مرتاح لطريقة ركوب الأخير:

– ماذا تنوى يا ولد؟ أتكونون تنوون أن تفعلوا شيئاً من جنون الشباب! لن أسمح لك بخطوة خارج أرض الدار! – أغلق ددai الباب وسدّه بجسده. غير أن محمد قفز بالحصان من السور وأسرع باتجاه الغابة القرية. لحق الأب بابنه على الحصان، قائلاً في نفسه "لا يجوز أن أتركه يفعل ما يريد، هذا ابناً الوحيد

¹ أخذ قرار طرد الأديعة في اجتماع قيادات الجيش العليا في شهر أوكتوبر عام 1860 في فلاديفوستوك – ويكتب ف. ن. رياسيف في كتابه "مسألة شركيسيا" – وساهم في الاجتماع الذي ترأسه قائد جيش القفقاس أ. ي. برياتينسك، وقرر فيه مصير الأديعة الجنرال د. أ. ميليوتين، وج. ي. فيليسيون، وي. إفدوكييموف ود. ي. ميرسك، وآخرون من ذوي المناصب الكبيرة... وقد تعارضت آراء الجنرالين فيليسيون وإفدوكييموف جداً في مسألة سير حروب شمال غرب القفقاس، ومصير الجبلين. وعلى سبيل المثال ألح فيليسيون على التحلي بالرجمة نحو الجبلين، وعدم شنّ حرب قاسية عليهم، وشُئل شركيسيا بالاتفاقات التجارية بين روسيا وتركيا، وعدم نقضها. ولكن إفدوكييموف نقض كل ما قاله فيليسيون معتبراً آراء الأخير غير صحيحة. ورأى أن يطرد الأديعة من أراضيهم، ويوطّن مكانهم القوزاق المسلّحون. ووافق برياتينسك، وميليوتين الذي كان وقتها رئيساً للأركان إفدوكييموف فتقرر رأي الأخير. ووقف القيصر إلى جانب إفدوكييموف فهاجم الجيش الأديعة بقيادته على نحو أعنف. وهكذا استأنف الطرفان الحرب المدمرة لهم...". المؤلف.

الذي رزقنا به الله"

حين دخل ددai في الغابة أوقفه الظلام الخفي الذي لا يصدر منه وقع حواري الحصان. وأنصت: لا يسمع إلا أصوات طيور قلقة في مكان غير بعيد ولا قريب. وارتفع من جهة القرية أصوات المختللين الطربة بالعرس. ترجل ددai من الحصان غير عارف السبب. أنصت مرة أخرى متوجهاً صوت أغنية العرس التي كانت تبتعد. جلس متمسكاً باللجام ومسح الطريق بعينيه وأذنيه. وأنصت لعل شخصاً آخر على الطريق. وحين صوت الحصان هازًّا أذنيه فجاوبه حصان ابنه من الناحية الأخرى توجه إلى مصدر الصوت، ولام ابنه المستند إلى جذع شجرة دون أن يعْنَفه:

– هل يجوز هذا ياقلليل الحظ؛ لم ترك لي شيئاً لم تفعله بي – ثم قال له وقد هم أن ينهض لوالده: – كفى، ابق جالساً. لا أحد يرانا. وأنا سأجلس إلى جذع هذه الشجرة. – جلس ددai قليلاً وتابع كلامه: – هذه هي دنيانا... من أين لي أن أدرى أنتا ستحجّم هكذا في الغابة... لا تحكم على الدنيا بالظلم لأن فتاةً ما رفضتكم، ولا تعتبر ما جرى إهانة. تفوح إن ثُمْت في الغابة واكتشفت فجأة طريقاً ما ولكنك لا تعرف إن كانت خاتمه سرية أم علنية. ربما كان ما جرى لصالحك. ألا تعرف من أي عرق هذا الذي أهانك؟

– يا والدنا، لو كان الأمر بيدي لما جعلتك تقول مثل هذا... – قال محمد دون أن يرفع رأسه.

– وأنا، يا ولد، لو لم تورطني في المشكلة لما قلت لك ما قلتُ. لست من عليه أن يقول هذه النصائح. لن أخجل منك لأنه ليس عندي من هو أكبر أو أصغر مني يقوله لك. إن أردت يا ولد فسأقول لك ما دام الموضوع افتتح: ما كنت لأقبل أن تتزوج من ابنة القوزاقي الذي قتل والدي. وجدتُك التي قتلت

على أيديهم ما كانت لتنقل، ووالدتك...

- نظرة والدي مختلفة يا والدنا.

- اسكت، هذه أُمّ! – ارفع صوت ددai، ثم أُنْهِي بصوت ألطاف: – محبة الأب والأم لولدهما تختلفان ولو قليلاً. لا تدعنا نقول ما لا يجوز في هذا الموضوع. هيا، لنعد إلى البيت. سننهي أنا ووالدتك جيراننا آل مرزخوي آل براغنة. وأنت متّع نفسك في العرس، لا تُظهر على نفسك...

ترك ددai ابنته محمد في القناة لخدمة الحصانين. واستقبلت المرأة متلهفة زوجها لتعرف ما جرى للرجلين اللذين خرجا مسرعين، يلحق أحدهما بالآخر ولو أنها كانت تعرف أن الأسرتين الجارتين تصاهرتا.

- ماذا جرى لكما، الأب وابنته، هذا المساء؟ – إن عرف الناس أصبحت مهزة لهم... ألم تبق في القرية فتاة إلا ابنة مرزخوي!

- قولي هذا لابنك الحساس نحو العار، وليس لي. – قال ددai للمرأة دون أن يرفع صوته، وأضاف بلهجة أعمّ: – وأنا لم أتركه دون شيء من العتاب والنصائح.

- وأنا سأنصحه. لن نسمح للرجل أن يتملكه... – قطع صوت الباب الصادر من جهة الممر كلام "خان" الزوجة، فنادت ابنتها معتقدة أنه لن يدخل الغرفة التي فيها والده، بل غرفته هو: – يا محمد، يا ولدي، نحن هنا، تعال، لم تذق لقمة طوال النهار.

تجاوز محمد عتبة الغرفة كأن شيئاً لم يحدث له، ثم الباب، وقال لهم وهو يقف عند طرف الصوفا دون أن يجلس حيث والده:

- لماذا تجلسان في الظلام!

- لا أعرف يا حسرتي لماذا لم نشعل المصباح... – نهضت خان كمن تبرئ

نفسها — والعشاء يبرد.

— أطعمي إذن الولد، وأنا سأذهب إلى جيراني. — وحين وصل ددai إلى الباب قال للمرأة من خلفه: — وأنت لا تتأخرى كثيراً عني.

— يكفي أن أنهيهم غداً... هل أترك الولد وحده في البيت!
— لماذا أكون وحدي؟... — لم يقبل محمد كلام أمه.

— صحيح يا ولد. وكما قلت لك شارك في عرس آل براوغه، وامرح مع أفرانك!

— نعم يا محمد، اسمع كلام والدك يجنبك الخطأ — غيرت خان الموضوع بسرعة: لن أزور آل مرزخوي خالية الوفاض لأن عندي عجيناً جاهزاً. سأخبر لهم من الشلامه لأجل من سيزورهم في مناسبتهم. وقالت للرجل الذي لم ينزل بعد من المسطبة: وأنت ما كان عليك من بأس لواننتريني، — كنا زرناهم معاً.

— حسنٌ أن خطرت لك الشلامه يا أم محمد، ولكن لا ضرورة أن تتبعيني فيقول من يرانا: انظروا كيف يمشي والمرأة متعلقة به.

— ما تقوله صحيح يا والدنا؛ أوقفك. — قال محمد لأبيه دون أن ينظر إليه بل إلى أمه مبتسمًا لها.

— حسن، أنت الرجال ستظلون تحسبون حساب ما قيل أو سيقال. — ما إن خرج الزوج من الغرفة حتى نظرت خان إلى ابنها راضية وتظاهرت بلومه: — يا محمدى، ألا توافقني مرةً في مسألة ما!... نعم يا طفلي الذهبي، أمرح معك فحسب، والدك وأنا راضيان عنك. شارك آل براوغه عرسهم دون أن تُبدي على نفسك شيئاً. كان ميشكا براوغه رجلاً صالحاً. وصلنا معروفة، أنا والدك، مرات عديدة، وساعدنا في تأسيس أسرة. وولداه عُقس وإسلام، وأنت تعرفهما، رجلان يرفعان رأس أبيهما. هما من أهل الأبرار.

بعضِ الوقت بطيئاً حين تكون بلا عمل. وإذا كان عقلك ويداك في العمل مضى خمارك لا تشعر به فاستقبلت النهار التالي بعد نوم ليلي قصير. انقضت أيام عُرسِ آل براعنه، وتبعها يوم مراسم تقديم العروس لحماتها وجاراتها المسنات.

في أيام العرس الثلاثة رقص محمد واستمتع كأن العرس ليس عرس ثات — نفسُت التي لم تتزوجه، مخفياً سماعه ما يقوله من وراء ظهره بعض النمامين الباحثين عن الفتنة بين الأسرتين. واليوم هو من يُدير أمور الحفلة. ويحلُّ أحياناً محلَّ العازف على آلة الإيقاع لأنَّه ماهر في العزف عليها فِي ريحه. وحين يبدأ رقصُ ثنائيات الغزل يُسرع إلى أجمل الفتنيات فيدعوها إلى الرقص متودداً إليها. ويحمسُ أقرانه داعياً إياهم إلى مزيد من التصفيق، ويُلهب العرس متجاوزاً دور منظم أدوار الراقصين والراقصات.

وفي الناحية الأخرى، وراء سقف الإسطبل المنخفض، تُطبخ ألوان الطعام الخاصة بهذه المناسبة: اللحم يُسلق في القدرين الكبيرتين المنصوبتين على النار. وفي أوانٍ أخرى تُحرس الباستا، وغيرهن من النساء يقلين "البرك"¹ وبعض الفتيان الأفوياء يُقطّعون الخبز على الطاولة الطويلة المسنودة إلى جدار البيت. ويخلطون في البراميل الخشبية البالخسمه وعصير العسل. ويصقّون على الموائد المتلاصقة التي يجلس عليها كل دفعة أكثر من مئة مدعوٍ صحونَ البرك والباستا.

كلما اقترب موعد عصرية جلوة العروس على حماتها تعلالت أصوات عُرسِ آل براعنه الصاحبة: يُيدي عازفو الأكورديون والربابة آلة الإيقاع نشاطاً متزايداً.

¹ البرك تجاوزاً، وفي الأديغية: خلوف. قشرة رقيقة من العجين محسنة بالجبننة الشركسيّة حسراً، أرفع شأنًا من الشلامنة، وأصعب إعداداً، تقلَّى بالزيت، وتقدم في المناسبات الرسمية، وفي الضيافات الطارئة.

وعريف الحفلة من جهته يرقص مع الراقصين غير عابئ بجهد يديه ورجليه. ويشتتني على من يقدمون لهدايا، ويدعوا لهم أن يعوض الله ما جادت به أنفسهم مئة ضعف. ويشجع غيرهم على أن يمدوا أيديهم إلى محفظ نقودهم. حين رأى عريف الحفلة الفرسان السبعة الذين ربطوا أحصنتهم ودلفوا إلى الدار، وقف في ساحة المحتفلين وقال:

أيها الجمع، جاءكم ضيوف يقاسمون آل براغنه فرحهم. تفضل يا زعيم الأرباح المبارك حسن بي. وأتتم يا رفاقه الطيبين. يرجوك الحاضرون عرس آل براغنه أن تشارك في الرقص فتلرائهم أخْمَص قدميك، مستعیداً أيام الشباب.

- لن أدعكم تتزوجوني ولو أن الركاب خدر أخْمَص قدمي - دخل برج حسن إلى الساحة، وكما العادة في أعراس الأديعة، حين دخل راقصاً وتوجه إلى جمع الفتيات، خرجت الفتاة التي حان دورها في الرقص لترقص معه. وهس داور بجز في أذن العريف الذي ترجم إلى الجمهور:

- أيها المحتفلون! الجماعة التي يرأسها الزعيم الكبير برج حسن لم ترنا خالية الوفاض. يقدمون لآل براغنه الذين أسسوا أسرة حساناً بسرجه، وإلى العروس زناراً فضياً وسواراً وقلادة وقرطين. شكرأً لهؤلاء الكبار. والدعاء للشابين اللذين أسسا أسرة أن يعيشوا في الأرباح وقد نمت أسرتهما، دون أحزان وهموم.

كان شخصان فقط ورثا اسم أسرة براغنه ميشكا ذات الأصل الروسي: عُفُس ابن زوجته والذي رياه هو، وإسلام الذي ولدته له "عُنْه" التي تزوجها. هنأ زعيم الأرباح عُفُس ملِمِحاً إلى أنه كبير آل براغنه، وأنه الأخ الأكبر لإسلام، وأن إسلام مختار القرية.

وبعد الغداء توجه برج حسن ل الكبير الأسرة مكرراً التهنئة:

- أطال الله عمركم أنت يا عُفُس ويا إسلام، وأنعم عليكم بشيخوخة

سعيدة. ولِئَلِئَلاً الأُسْرَة طُويَّاً! وَنَحْن مَا تَزَالْ أَمَامَنَا مَهْمَة: سَنَزُورُ أَقْرَبَاءَكُمْ آلَ مَرْزُخُوي لِلتَّهْنِيَّة. وَمُحَمَّد أَفْنَدِي الَّذِي لَمْ يَقْبَلْ أَنْ يَنْقُضَ الْعَادَات¹ يَنْتَظِرُنَا عِنْدَ أَخِيهِ الْأَكْبَر. أَدَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْخَيْر وَالسَّعَادَة! لِيَحْقِّقَ اللَّهُ لِلْأُسْرَة وَلِلْقُرْيَة أَمَانِيهَا، وَلِيَحْمِّلَ اللَّهُ الْبَلَاد الْجَدِيدَة الَّتِي تَأَلَّفَتْ مِنْ اِتْحَادِ الْأَبْرَاجِ وَالشَّابِسَغِ وَالْوَبِيَخِ. وَيَنْظُرُ إِلَيْهَا بَعْنَ عَطْفِهِ. وَيُسْمِعُ الْعَالَمَ النَّدَاءَاتِ الَّتِي أَرْسَلْنَاها إِلَى بَعْضِ بَلَدَنَ الْعَالَمِ!

بَعْدَمَا هَنَّ الْضَّيْوُفُ بَكْرًا وَمُحَمَّد أَفْنَدِي بَأْنَ ابْنَةَ مَرْزُخُوي تَرَكَتْ ذَكْرِي طَيِّبَةَ بَيْتِهَا، وَحَمَلَتْ مَعَهَا أَمْلًا وَخَيْرًا إِلَى أَسْرَتَهَا الْجَدِيدَة، اِنْتَقَلَ الْحَدِيثُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى الْقَلْقِ الَّذِي يَسُودُ الْأَبْرَاجَ، فَاخْتَتَمَ بَرْجُ حَسَنِ النَّقَاشِ حَتَّى لَا يَحْتَدِمُ:

– مَاذَا بِيَدِنَا! هَلَّا كُنَا عَلَى يَدِ رُوسِيَا الَّتِي تَغْزُونَا بَعْدَمَا سَمَحْنَا لِتُرْكِيَا أَنْ تَخْدُنَا مُسْتَسِلِمِينَ لِلرَّاحَةِ وَالْحَرِيَّةِ، لَا نَحْتَمِ لِشَيْءٍ مَا يَجْرِي حَوْلَنَا، مُصَدِّقِينَ الْمَدَائِحِ الرَّاهِفَةَ بِحَقْنَا، مُثْمِنِينَ عَالَمَنَا الْأَبْرَاجَ الَّذِي خَلَقْنَا اللَّهُ فِيهِ. وَلَكِنْ لَا دَاعِي لِلْلَّيْأَسِ حَتَّى الْآن يَأْذِنَ اللَّهُ أَيْهَا الْأَبْرَاجُ. سُنْقُهُمْ بِنَدَاءَاتِنَا تُرْكِيَا وَرُوسِيَا، بَلْ إِنْكِلَتْرَا وَفَرْنِسَا، أَنْ شَعْبُ الْأَدِيْغَةِ شَعْبُ عَادِلٍ لَمْ يَغْزُ أَحَدًا طَوَالَ تَارِيَخِهِ.

– أَتَتَأْمَلُ أَنْ يَسْمَعُونَا أَيْهَا الزَّعِيمِ الْمَبَارَكِ؟ – سَأَلَ دَدَايِ.

– سِيَكُونُ عَلَى الْأَرْضِ حُكُومَاتٍ عَادِلَةٍ، وَأَنَّاسٌ عَاقِلُونَ يَفْهَمُونَا إِنْ لَمْ يَفْهَمُنَا مِنْ ذَكْرِهِمْ. – أَجَابَ بَرْجُ حَسَنٍ مُتَفَاءِلًا.

– وَهَذَا صَحِيحٌ – أَيَّدَ مَرْزُخُوي مُحَمَّدَ أَفْنَدِي الزَّعِيمِ.

¹ يَقْصَدُ بَعْدَمِ نَفْضِ الْعَادَاتِ أَنْ حَضُورَ الرَّجَالِ مِنْ أَهْلِ الْعَرْوَسِ فِي الْعَرْسِ مُسْتَهْجِنٌ.

الفصل الحادي والعشرون

المكان هو القصر الصيفي سارسكي سيلو للقيصر ألكسندر الثاني في سانت بطرسبرغ. ساعة انطفاء جذوة شمس النهار الحادة. الهواء البارد القادم من فوق نهر نيفا وخليج فين، والرطوبة الصادرة من بعض التوابير، يوقدان شيئاً فشيئاً دار القيصر المرهقة من الحر، وبهذا من الأشجار أوراقها المتعبه. ويختبئ الأزهار التي كانت مطرقة أن ترفع رؤوسها.

توقفت العربان السريعنان أمام باب القصر: خرج من الأولى وزير القوات الحربية الروسية المسلحة سوخوزانتيتر، ومن الثانية ممثل القيصر في القفقاس سعادة المحترم أوربيليان والجنرال إفدوكيروف. ودخل الثلاثة واحداً واحداً باب القصر الذي افتح لهم.

استقبل القيصر بوجه باش ضيوفه دون أن يُدي قلبه من الخبر الذي نقلوه إليه من القفقاس، ثم سأله أوربيليان متظاهراً بأنه مهموم بالحر الشديد في سانت بطرسبرغ:

– ما أخبار الجو في نواحينا، القفقاس، إذن يا سعادة المحترم؟
– والجو حار أيضاً كما هنا يا جلاله القيصر؛ غير أن أحداثاً تجري في غرب القفقاس تُنسيك هذا الحر.

– نعرف هذه الأمور – قال القيصر وصوته ولونه يتغيران، ثم أنهى بلهجة أطف: – أسمعك أيها المحترم لأنني دعوتك إلى لنقل آرائكم في ما يجري هناك.
– تبعاً للمعلومات التي نقلها إلينا جواسيسنا فقد ألف مثلو الأعراق الثلاثة: الأبخاخ والشاسغ والوبيخ مجلس تحرير كآخر أمل لهم.

– هل اقتصر المجلس على هذه الأعراق الثلاثة التي ذكرتها؟ – أكتست عينا

القيصر زرقة على زرقة لعدم ذِكْر الساز بين من ذُكروا مع أنه سُأله كمن لا يغير أهمية لِمَا سمع. ورغم كونه مطلعاً على ما ذكره أوريليانى فقد تعمق القيصر في السؤال: - وهل الساز الذين أيدوه هم من عرق الشراكسة؟

- هؤلاء يا جلالتكم، وسامحوني على تدخلني في الحديث، من الأباطة - قال الجنرال إفدوكيروف الذي أَنْعَمَ عليه في العام الماضي بلقب الكونت متفهماً السؤال الساخر الخبيث للقيصر، - هؤلاء أقرب إلى أنجاز سوخومي منهم إلى الشراكسة.

- عندك معرفة جيدة بالأقليات القاطنة في القفقاس على ما ييدو يا من نُكِنْ له الاحترام نيكولاي إيفانوفيتش إفدوكيروف. لم تُخْطِئ في تشريفنا إياك بلقب الكونت. - مازح القيصر جنراله المدلل، وأضاف: - أنا راضٍ عنك يا جنرال، أمثالك من يوسعون حدود روسيا، ويحمونها.

- شُكراً يا جاللة القيصر على تقديرك المسيق لي، أنا أخدم روسيا! - قال إفدوكيروف بعدما نُخِضَ بقامته المسقوقة، ثم جلس.

- لا داعي لما سميتها بالتقدير المسبق أيها الجنرال؛ لو لم تنجزوا إلا أُسْرَ شامل الذي نشر الفتنة في القفقاس، وإتباعه بالنائب زعيم الأزراخ لكان خدمة عظيمة للبلاد. وسيدخل هذا الإنجاز في تاريخ روسيا، وسيذيع صيتكم في البلاد. - قطع القيصر كلماته الواثقة، وأنهى بمحنة: - مع أنك ولدت أيها الجنرال في "ناورسك" القرية القوزاقية الواقعة في شرق القفقاس عند الشيشان، فأنت تُخْطِئ في شأن الساز، الأقلية الجبلية الصغيرة القاطنة غرب القفقاس على ساحل البحر الأسود. ليس الساز - الأباطة قريين فحسب من الأنجاز، بل هما من عرق واحد. هذه هي الحال... كنت أتعجب حين يقول والدنا القيصر العظيم بطرس الأول إن أعرق القفقاس على عدد حجارة أَسْرَة أَنْهارها؛ غير أن

هذا الواقع أفضل لنا بعدما عاينته بنفسي إذ **لُخِّضُعُهُمْ** فرادى متنافرين. ولكننا لا نستطيع أنْ **نَصِّفَ** الأَبْرَاخَ الَّذِينْ عَادُ إِلَيْهِمْ وَعَيْهِمْ، وَالشَّابِسَغُ وَالوَبِيْخُ، وَالسَّازُ – الْأَبَاطِلَةُ الَّذِينْ وَقَفُوا إِلَى جَانِبِهِمْ بِهَذَا الْوَصْفِ. هُؤُلَاءِ مِهْمَا قَالُوا وَمِهْمَا فَعَلُوا فَنَحْنُ لَمْ نَسْمَعْ شَيْئًا وَلَا نَعْرِفُ. يَرْضُخُونَ لَنَا دُونَ حَاجَةٍ إِلَى كَلَامٍ. وَإِنْ لَمْ يَفْهَمُوْنَا أَفْهَمْنَاهُمْ بِالسَّلَاحِ. مِنْ هُمْ، وَمِنْ أَيِّ نَوْعٍ مِّنَ الْبَشَرِ هُمْ، كَمَا أَبْلَغَنَا الْجَنْرَالِ دِيْمَتْرِي أَلْكَسِنْدَرُوْفِيْتْشُ كُوْخَارِينِكُ، هُؤُلَاءِ الْقَادِمُونَ مِنْ تُرْكِيَا، وَالَّذِينْ يَدُورُ بَهْمِ زَانْ قَارِبَاتِر¹؟ – سَأَلَ الْقَيْصَرَ وَزَيْرَ الْقَوَافِلِ الْحَرَبِيَّةِ.

– هُؤُلَاءِ كَانُوا ثَلَاثَةِ يَا جَلَالَتَكُمْ. – قَالَ الْوَزِيرُ بِالْخَتْصَارِ، وَأَضَافَ بِسُرْعَةِ:

تُرْكِيَّانُ وَإِنْكَلِيزِيُّونُ، وَلَا نَعْرِفُ أَسْمَاءِهِمْ، وَلَا أَسْمَاءِ أَسْرِهِمْ حَالِيًّا.

– وَهَلْ أَنْتَ أَيَّهَا الْمُخْتَرِمِ مُطْلِعٌ عَلَى هَذَا الْمَوْضِعِ؟ – سَأَلَ الْقَيْصَرُ الْجَنْرَالَ الْمَعَاوِنَ أُورِبِيلِيَّانِي رَغْمَ مَعْرِفَتِهِ بِجَهَلِهِ لَهُ، وَأَضَافَ إِلَى مَا يَقُولُهُ دُونَ انتِظَارِ الْجَوابِ، وَبِصُوتِ وَاثِقٍ: – لَيْسَ لِلشَّرَكَسَةِ الَّذِينْ أَعْطَتُنَا إِلَيْهِمْ مَعَاهِدَةَ أَدْرِيَانُوبِولِ، وَلَا لِأَيِّ شَعْبٍ غَيْرِهِمْ، الْحَقُّ فِي تَأْسِيسِ دُولَةٍ فِي شَمَالِ الْقَفْقَاسِ. احْذَرُوا مِنَ الْأَبْخَازِ وَلَوْ أَنَّنَا وَاثِقُونَ مِنْهُمْ! يُعْتَبِرُونَ وَالشَّرَكَسَةَ قَدِيمًا مِنْ عَرْقٍ وَاحِدٍ... سِيُطِّلِعُكُمْ وَزَيْرُكُمْ فِي اجْتِمَاعٍ مُسْتَقْلٍ عَلَى مَا يَجِبُ أَنْ تَفْعَلُوهُ بِصَدَدٍ

¹ "...جاء مؤخرًا من القسطنطينية إلى الأديغة وفُدّ من ثلاثة أعضاء – يقول الجنرال كوكخارينك في رسالته إلى القيصر – وهؤلاء هم الكابتن في الجيش التركي الوبيخ سميل (إسماعيل)، وأفندى الشابسغ حسن، وشخص إنكليزي. والتقطوا باسم فرنسا وتركيا بالوبيخ والشابسغ والناتخواي والأبراخ. وأبلغوهم أن رئيسى هاتين الدولتين سيساعدان بالسلاح الشركسة الذين وضعتهم روسيا في مأزق. ويمكن أن يتحقق هذا حين يتحد الشركسة وبخاريونا بقوة كبيرة. وقد عُقد مؤتمر في شاجه على ساحل البحر لسماع كلمات المندوبين ولم يشارك البجدعون المتحالفون مع روسيا في هذا المؤتمر..." المؤلف.

ما عدلت من مهامات وعلى غيرها. وننهي اجتماعنااليوم عند هذا الحد.

الفصل الثاني والعشرون

لم يكن رؤساء مجموعات العمل المتبقية عن مجلس عروق الأديعة الثلاثة والتي أثارت غضب القيصر الروسي، راضين عن الأعمال التي أنجزوها، ولا مرتاحين لها. وكتب زان فارباتر المكلف بصياغة النداءات باسم مجلس التحرير والبلاد، طوال شهر كامل الرسائل الموجهة إلى روسيا وتركيا وإنكلترا. واليوم هو رئيس ووفد الأديعة المؤلف من ثلاثة أشخاص، والذى سيقابل الجنرال إفدوكييموف.

حين وصل أعضاء الوفد المؤلف من زان وتسي وبرز الابن إلى المكان الذي اتفق الطفان عليه من الأرض الخالية من الشجر، توقفوا على حافة الغابة دون أن يتجلوا. ووراءهم عدد من حراسهم الفرسان. وكما هي عادة تسي حاترياي، قال وقد فتح ساعة جييه، **محفياً** القلق على وجهه:

- لا يزال أمامنا بضع دقائق على الموعد.

- بـَكْرَنا فِي الْحَضُور... - غَمْغُم بِرْزَج إِسْلَامْبِيج بَيْنَهُ وَبَيْنَنْفُسِهِ.

- السبب في اجتماعنا بإفدوكيم جاء من ناحيتها. - قال تسي، وسائل زان: -

هل أنت واثق من هذا الذي وعدنا بالمجتمع بنا؟

– نعم واثق منه أيها الزعيم المبارك، ومع ذلك من يعرف كيف سيتصرف هؤلاء!... انظر، ها هو راصدنا يجري نحونا.

– إفدوكيم ذو العيون الثلاث قادم! – جاء الفارس بالخبر.

ـ وهل مرافقوه كثيرون؟ ـ سأـل زـان المستـطـلـعـ كـأنـه غـيـرـ عـابـيـ، وـهـينـ أـجـابـهـ
ـ عـدـدـتـ عـشـرـةـ فـرـسـانـ قـالـ لـتـسـيـ، وـقـدـ التـفـتـ إـلـيـهـ، بـنـظـرـةـ تـعـنيـ "لـمـ يـكـذـبـ
ـ عـلـيـنـاـ، وـصـلـ فـيـ الـمـوـعـدـ، وـشـدـدـ عـلـىـ حـرـسـهـ مـنـ الـفـرـسـانـ: ـ لـاـ تـجـعـلـوـاـ الـجـنـرـالـ
ـ يـكـسـبـ بـشـيـءـ مـنـ السـخـرـيـةـ مـعـتـبـرـيـنـ إـيـاهـ "ثـلـاثـ عـيـونـ".

- لما وصل الفرسان الذين يترأسهم الجنرال إفدوكيروف وتوقفوا وسط المساحة الخالية من العادة وقف الفرسان الأدبية على بعد عشر خطوات منهم تقريباً.
- ترونني يا موفدي الشراكسة جئتكم بنفسي ولو أنكم لم تتوقعوا أن ألتقي بكم. إن وافقتم فستتحادث نصف ساعة بسلام كما اتفقنا دون أن ننزل من سروج خيلنا. ولما كنتم من طلب الاجتماع فأنا أسمعكم.
- نحن نسألك اليوم أيها الجنرال باسم مجلس الحرية الأدبي المنبثق من الحكومة التي ألفها الأباخ والشاسع والوبيخ...
- سأمحوني - قال إفدوكيروف موجهاً الحديث إلى الجميع، لا إلى زان قارباتر - علىي أن أقاطع كلامكم. أسمع لأول مرة باسم الحكومة والمجلس اللذين أفتومهما.
- ليس من اليوم فحسب أيها الجنرال تقيم في أرض الأدبية، وتحارب فيها - قال زان بصوت واثق متوجهاً الإهانة التي ألحقت به. - أخبرك، على نحو خاص، بأمر الحكومة والمجلس.
- سأكرر ثانية يا موفدي الشراكسة: أنا جنرال، إن كنتم تقولون إنكم شكلتم حكومة، فلست مخولاً أن أتكلم في موضوع يتعلق بدولتين. وإن كان عندكم مطلب آخر أو قضية أخرى فأنا جاهز لأفيدهم على قدر استطاعتي.
- هذا الواقف أمامنا أيتها الجماعة - يسمع زان الجنرال بلغة روسية غير مهمتهم بفهم جماعته لها - جنرال ظالم ينفذ أوامر قيصره. سُنخبرك بمطلبنا إن كنت تريده أن تسمع أيها الجنرال ونحن نعلم سلفاً أنك لن تجحب عليه. لما كان اتصح لنا "المعروف" الذي فعلتموه للشاسع نطلب منكم ألا تقتتحموا أرض الأباخ، ولا تصعدوا إلى جبالها، ولا تؤسسوا المستوطنات القوزاقية. ولسنا بحاجة إلى طرقكم الحجرية، ولا إلى جسوركم وأسواقكم. وأنا أعرف من الآن ما ستقوله.

صدعتم رؤوسنا بوثيقة لا أساس لها في الوقت الذي تعرفون فيه أن أحداً منا لم يوقع على اتفاق أندروبول بين روسيا وتركيا.

- أكتر ثانية أنه لا علاقة لي بمطالب ليست مكتوبة. - قال إفدوكييموف وعلى وجهه آثار كظمه لنفسه بصعوبة، ثم توجه إلى زان بصوت أطف، مخاطباً إياه باسمه واسم والده: - ما علقت به على صفي جنرالاً، فأنت يا قارباتر سفريسيفيتش على حق، ولا أعتب عليك. أنفذ ما أوكله إليّ قيصري وبالادي. وأنا أؤيدكم في نيتكم أن توصلا إلى مثل القيصر في تفليس الورقة التي لم تقدموها إليّ، بعدها سمعت أخباراً من هذا القبيل. وسأتصرف معكم تبعاً لتعليماته. وإن لم يكن لكم مطلب آخر مني فلتفرق إذ انتهتى وقت لقائنا. تمنم تسي وهو يراقب ظهر إفدوكييم الذي كان يقود مجموعة الفرسان إلى خارج الفسحة:

- نخدع أنفسنا بالذئب الذي يلبس جلد خروف... أخبرنا أنه إنسان مسلم ونحن نرى السلاح إلى جانبه.

- وهل توقعت منه غير هذا أيها الزعيم المبارك؟! سأله زان قارباتر الذي غلبه استياؤه من أوجوبة إفدوكييم غير الشافية.

- أي سؤال جاف يا زان وجهته لي؟ أنا من عمر والدك! - أسرع تسي، ثم أجاب زعيم الشابسغ جواباً ساخراً: - كنت أريد من الأبراخ أن يتخدواه زعيماً مكان النائب. وأنتم أيها الشابسغ لو كان عندكم شبيهه، - أضاف: لكان له مكانه!

- يا تسي! - ارتقى زان قارباتر بحصانه، غير أنه سرعان ما رجع إلى وضعه: - ساحني يا كبير، ما كان في قلبي لك مثل هذه النية.

- كفى يا قارباتر، أسامحك. - قال تسي، ثم أكى متوجهاً إلى نفسه: -

يستطيع القلب الهائج أن يدفعك إلى الخطأ – يا رفاقنا الفرسان – ناداهم مِن خلفه – وأنتم سامحونا، رأيتم كيف عاملنا هؤلاء. ماذا ستنقل إلى مجلسنا؟! – لم يعد الجنرال إفدوكيم مسؤولاً عن قضایانا. سمعتم أن هناك في تفلیس وبطرسبورغ من يستشيرهم. سنقوم بزيارة لهم أيضاً. وسنجمد بزعماء أعلى منه مرتبة.

– وسننافر أيضاً إلى تركيا وإلى إنجلترا كما قال والدنا الحاج برج، وسنوصل إليهم نداءنا – ساهم في الحديث برج إسلامبیج الذي لم يقل شيئاً إلى الآن. – وليستا وحدهما – قال زان قارباتر مؤيداً برج – سنوصل نداءنا إلى زعماء دول الشرق والغرب. وسنُسع من يعرفنا ومن لا يعرفنا أننا نتوجه إلى قيصر روسيا، وأننا نعيش في هذا العالم ونحن نحمي حریتنا. وسنبلغ تفلیس والترك والإنجليز والفرنسيين. وقد انتهى المجلس من تبیی النداء.

الفصل الثالث والعشرون

وصل إلى تفلیس في بدايات شهر حزیران عام 1861 وقد عشش الحُر في المدينة، المندوبون الأدیغة الثلاثة: الحاج برج جراندوقه، وبرج حسن، وتحم غوشة إسماعیل. – وصلوا، ودون أن يفكروا في الاستراحة في فندقٍ ما، عرّجوا على دار مثل القیصر في القفقاس كما لو كان ينتظهم. كان سور الحجري عالياً فلا تستطيع أن ترى ما وراءه، سواء وقفت على أصابع رجليك أم كنت على حصان أو جمل. وعلى جانبي مصراعي البوابة الكبيرة حارسان مددحان بالسلاح. وعلى مدخل المشاة يقف كذلك حارسان متقابلان. والدار لا يدخل إليها أحد ولا يخرج منها.

– أَنتظركم أم أترككم؟ سألهم السائس المجرجي الذي جاء بهم. – أیكون من نفف على باحهم تخلوا عن كل إنسانية لهم؟ ألن يتحرك أحد

منهم؟ - قال أصغر الموفدين الأديعة الثلاثة تهه غوشة إسماعيل، واستشار الحاج برج : - أترى يا حاج أن أذهب وأطلب من هؤلاء الأغبياء أن يفتحوا بابكم؟

ابتسم الحاج برج :

- هذا ممكن، ولكنهم لن يسمعوا، ولن يدعوك تلحق بهم. اتبعني لنخبرهم بالجرس المعلق على الباب. اقرع يا إسماعيل، ليس بكل رجولة الشابسغ عندك! خرج ضابط طويل القامة من الباب ووراءه حارس مسلح، وسألهم:

- من أنتم؟ أستمع إليكم.

- نحن قادمون من شركيسيا. يفترض أن الجنرال إفدوكيروف أخبركم بقدومنا. أنا برج جراندوقة، وهذا اللذان في العربة زميلاي برج حسن وتهه غوشة إسماعيل.

- انتظروني، - رجع الضابط تاركاً الحارس معهم. وقال من عاد دون تأخر ليرجع: - اتبعني أنت، ولتتظر زميلاك!

لم يزر الحاج برج الكعبة وإستانبول وسوخومي مرة أو اثنتين فحسب، غير أنها المرة الأولى التي يأتي فيها إلى تفليس ويخالط الكُرج. ولم تطأها قدماه إلا في الغارات التي كانوا يشنونها على الروس والقوزاق عبر نهر بشنة.

"بالقياس إلى إستانبول - يتفحص الحاج برج الفناء - ليس تفليس التي كانوا يمتدحونها شيئاً يذكر. وأما مكتب مثل القيصر الذي جاؤوا مقابلته فلا يتنااسب مظهُرُه مع شاغله. ربما كان بارياتينسك من هواة الورود فهي كثيرة في كل مكان. ويخيل إليك أن عامة الجنود والضباط يروحون ويدعون كأنهم يؤدون مهام كبيرة. ولا ترى إلا ملامح روسية، ولا تسمع إلا أصواتهم. الكرج احتموا بحؤلاء من الفرس ولو أننا نعتب عليهم إذ استقدموا هؤلاء إلى القفقاس... أما

نحن فلا أحد يسمعنا مهما استغثنا. ولا أحد يرانا مهما لوحنا بأيدينا. نأتي إلى من ينهينا طالبين منه أن يتفهمنا لأننا بلا معين..."

خض الضابط الذي كان بانتظار برج جراندوقه حين أدخلوه إلى الغرفة، ودعاه إلى الجلوس على المبعد المقابل له. وتودد إليه وهو يرجوه الجلوس:

- أنا ضابط عند الفيلد ماريشال بارياتينسك مثل القيصر. اسم أسرتي سولولينسكي. كُلِّفْتُ باستقبالكم ولذا أسعك أيها المحترم برج.

- لاحظت من كتافياتك يا سولولينسكي أنك ضابط. - قال الحاج برج بروسية متقدنة - أعتقد من طريقة نطقك لاسمي أن مثل القيصر بارياتينسك أطلعك على سبب مجيئنا وهو قضية بلادنا. وإن لم تكن مطلعًا فاعتبري أطلعتك من خلال أسماء مرافقي برج حسن وتحه غوشة إسماعيل. وإن أتحتم لنا فرصة اللقاء من يجب أن نقابلهم دون تضييع للوقت فهذا يسرنا.

- نحن مكلفون أن ندعكم ترتحوا في فندقنا قبل أن تقابلوا مثل القيصر الفيلد ماريشال لأنكم قادمون من مكان بعيد.

- لا بد أن الجنرال إفدوكيروف أخبركم بمجيئنا إلى تفليس. شكرًا له على تنفيذ ما وعدنا به. - قال الحاج برج ما كان يخمنه - إن كان الأمر يهمكم أنجزتم أعمالكم بسرعة ودقة.

- لا علم لي بما تتكلم عليه أيها المحترم، أنفذ ما أكلّف به بصفتي ضابطًا فحسب.

- نعم، نعم فهمت. بلّغ من أوفدك ارتياحنا للاحترام الذي أبديتموه بصفتكم الضائفين. ولكن لا تنس أني أبلغتكم بضرورة عدم المماطلة في تنفيذ ما جئنا لأجله. - قال الحاج برج وهو ينظر في ساعة الجيب التي جاء بها من مكة في آخر حجة له: - إن كنا سنتوقف في مضائقكم فالوقت وقت صلاة الظهر، لن

ندعها تفوتنا.

أدى موعدو مجلس الأديعة الصلاة ولو تأخروا قليلاً. وذاقوا من المائدة التي قدموها إليهم دون إظهار شره. وشربوا الشاي مع قطعة الجبن اليابسة التي جلبوها معهم. وتكلموا على ما شاهدوه في طريقهم الطويل، وما استغربوه وما لم يعجبهم. وعلى الدار التي توقفوا عندها، حتى على العربية المستعارة التي يرکبونها. ولكن مهما تحدثوا، ومع أنهم كانوا يذيبون دولة الكرج التي يقيم فيها مثل الدولة التي تنتزع منهم أرضهم بالقوة، وتفلیس عاصمتها، فقد كانوا يعودون دائماً إلى أخبار بلاد الأديعة.

- لا تقلق يا حسن، إذا كان إفدوكيروف نفذ وعده بإبلاغ مثل القيسار رغبتنا في لقاءنا مثل القيسار هنا بإيقاف مؤقت للعمليات الحربية فلن يستأنفها ما لم تنقض جماعتنا المدنة. وقد أوصينا المكلفين بتسهيل أمور المجلس في غيابنا زان وتسی وبرز الأصغر أن يحافظوا على السلم. وألحنا على شبابنا المتحمسين ألا يُبدوا حمية ضد القرى والمستوطنات القوزاقية. ولكن ما استغربه هو عدم تكليف مُضييفنا أحداً بفقد أحوالنا. وسألنا لكم ما هو أعجب منه: يُخيّل إلى أني رأيت الضابط سيرديوكوف الذي كان يرافق إفدوكيروف حين التقينا به، أقصد من كان يرافق فيليسيسون دائماً بكتاباته اللامعة.

نظر برج حسن نحو الباب وقد شلّ في أنه يسمع صوت خطوطٍ:
- كأن أحداً يتتجسس علينا!

- ليس غريباً... - نهض تجاه غوشة الذي لم يكن يسمح لنفسه أن ينسى كونه الأصغر في الوفد. - هذه عادة تركية.

ولما سمعوا طرقاً على الباب صاح برج لأن الطريق ليس من عادات الأديعة:
- من هذا الذي لا يستطيع فتح الباب؟ تفضل! - حين ظهر على الباب

الرائد سيرديوكوف مبتهجاً رغم محاولته إخفاء فرحته أشار إليه إشارة احترام وقال له: - لم أخطئ في ظني أني رأيتك هنا أنها الرائد. كنا في سيرتك قبل لحظات؟ تفضل!؟

- شكرأً أيها المحترم. أنا مكلف بهمتي: أخبركم أن اجتماعكم تأجل إلى الساعة الحادية عشرة من صباح الغد، ولما كانت موجة الحر تفارق تفليس فيمكنكم الاستراحة بعد العشاء ساعة من الزمن عند نوافير أرض الدار. بنظرة متسائلة سريعة من الحاج بزوج لرفيقيه اتفق معهما، ثم قال لسيرديوكوف واضعاً النبرة على اسمه واسم والده:

- شكرأً يا نيكولاي بيتروفيتش. نحن قطعنا طريقاً طويلاً. إذا ثنايا بأكراً أمكننا أن نفيق غداً مرتاحين ومستعدين لاجتماع الغد. إن كان في قلبك خير نحونا يا أصحابنا القوزاقي فسيفضل الله علينا وعليكم بصبح سلم سعيد. لم يكن اليوم التالي يوم سعيد على المؤذين الأديعة. حكى بزوج جراندوفه باختصار للجنرال المعاون أوربيلياني الذي أرسله مثل القيسير بارياتينسك نائباً عنه أهداف موظدي مجلس الأديعة، ووضع أمامه النداء مخفياً شعوره بالإهانة من معاملتهم لهم:

- ما بلغناه لك أنها الجنرال المعاون مثبت في هذه الورقة. هذا ليس مجرد نداء، أكرر: هذا قرار مجلس حرية الأديعة، تغلب عليه مطالبنا أكثر من الحاجة. تصفح الجنرال المعاون أوربيلياني الورقة سريعاً على نحو ينم عن احترام، وحسم الموضوع:

- لا معنى لهذا النداء الذي تتحدثون عنه.

- ليس هذا نداءنا أنها المحترم - أجابه بزوج، - هذا نداء الحكومة التي ألفتها الأعراق الأديعية الثلاثة.

- ليس عندنا في شمال القفقاس مثلُ هذه الحكومة. — جزم أوريليلياني مرة أخرى.

- على ما يبدو أيها الجنرال — أجر كلام الجنرال حسن على القول — ما قاله لنا إفدوكييموف حين اجتمعنا به وما تقوله أنت اليوم جواب واحد.

- الجنرال الشهير إفدوكييموف وأنا في خدمة دولة روسيا. ولذا حلووا مجلسكم، وضعوا سلاحكم، وعيشوا سلام. هذا آخر كلام كُلِّفتُ بإبلاغه إياكم¹.

- إذا كان هذا آخر كلام لكم فستوجه إلى قيصركم في سانت بطرسبورغ، ونوصل إليه مطالبنا العادلة. ولن نتوقف عند هذا الحد بل سنзор ترکيا وإنكلترا وفرنسا. وإن سمحتم أعيدهوا لنا الأسلحة التي جردتمونا منها عند الباب لنركب طريقنا. ونترك لكم نسخة من نداء مجلس الحرية² ولو كنا عاتبين عليكم لأننا لم

¹ استقبل الجنرال ي.ك. أوريليلياني ببرود موظفي المجلس الذي تألف في "شاجه"، "الاجتماع الكبير للحرية" الذين قدموا إلى تفلisis. — في كتاب ف. ن. ريباسيف "المأساة الشركية. أولبياد 2014 والسياسة الجورجية في القفقاس". يكتب: — حين اجتمع هؤلاء بالجنرال إفدوكييموف ولم يلتفت لهم مطلبهم جاؤوا إلى القائد الأعلى لجيوش القفقاس باريابينسك عسى أن يستشيروه في قضايا السلام ووقف سفك الدماء. ولكن لما كان الجنرال غائباً توجب على معاونه ي.ك. أوريليلياني أن يتحدث إليهم. ضرب أوريليلياني بحديث موظفي المجلس عرض الحائط. و"طمأنهم" أن القيصر ألكسندر الثاني الذي سيزور شمال غرب القفقاس قريباً سيدرس مطالبهم. المؤلف.

² نقول باسم مجلس الحرية الخاص بالأبخاز والشاسع والوبيخ: لم نكن نسعى جاهدين لنحكم أنفسنا بأنفسنا. كنا نعيش وهدفنا السلام والتفاهم، ولأجلهما ألقنا حكومة. وقد كتبنا للجنرال إفدوكييموف أن يعقد معنا اجتماعاً نتكلم فيه على الأرض والدين وقضايانا الأخرى. غير أنه اقتحم أرضنا بعد هذا الكتاب بقوة عسكرية هائلة. وقد رجوناه أن يضبط نفسه، ولا ينهب قرانا، ولا يستأصل غاباتنا، ولا يشق طرقاً عسكرية، ولا يؤسس

نجد عندكم الصدق.

الفصل الرابع والعشرون

- ما أخبارك يا أخي الصغير؟ - سأله محمد أفندي قبل أن يجد الأخير الوقت للترجل من حصانه، ثم لامه: - لا تترك الحصان في الطريق؛ أدخله إلى الدار!

- أنا مستعجل، لا أزال على الطريق يا بكر. كنت متوجهاً مع برج وتسى إلى نواحي البحر فلم أستطع تجاوز القرية دون أن أعرّج عليكم. ما أخبارك أنت ونات - نات، والعروس؟¹ نعم، صبح كلامه بسرعة - ونفست أيضاً لم أرها خلال الأشهر التي أسست فيها أسرة. وفي هذا الربع حين جاؤوا بنا إليها، كنت، كما تعرفون، في إسطنبول لقضايا دينية. ولما كان براعنه إسلام يلتقي بنا في قضايا المختار فأنا أسأله عن كتّيه، وأفرح حين يصرح لي بأن أسرة حميها راضية عنها.

- وكيف تراها والنار مشتعلة في ذنب حصانك دائماً فلا تهدأ في مكان...

التحصينات، ولا يوطّن القوزاق في أراضينا. وقد وعدنا إن سمحت له (ل الجنرال إفديوكيموف) أن يتحقق لنا هذه المطلب.

وكان للجنرال فيليبيسون اتفاق سلام مع الأتراك. وحين تشاوزن اعتماداً على هذا الاتفاق فهمنا أن أعداءنا نقضوا الاتفاق. ولأننا لا نعرف التفاقي، ونرباً بزعماء بلادنا أن يتخلقوا بالكذب نرجوكم ألا يكون بيننا وبين الروس مستقبلاً أي خيانة ولا اتحام، وألا يدخلوا قواتهم أرضنا، ولا يؤسسوا المربع عليها، ولا يسمحوا للقوزاق أن يستوطنوها. فإن أنشئوا قرى قوزاقية على أرضنا فسينتقض ما بيننا. ونرسل إليكم مندوبيانا وكلنا أملٌ أن تُبقي على أراضينا. ونحن واثقون من رعايتكم لمطالينا. ونرجوكم، بالإضافة إلى ما سيطرحه موظفونا شفهياً أن توصل النداء إلى القيسير. وننتظر معروف الله ومعروفكم. المؤلف.

¹ يقصد بالعروس زوجة أخيه لأنه لا يستحسن أن يناديها بصفتها سلفها باسمها الحقيقي.

نحن راضون عن الصبية لولا أنها أنا وكتتك بقينا وحدنا في البيت، ولكنني أنا أيضاً لم أرها منذ شهرين. كل من تسأل عنهم بخير يا أخي الصغير. غير أن كتتك، ابنة آل تازه، تعرف الأخبار أفضل مني فأسأها.

صاحت جانشر التي فتحت البوابة الكبيرة للدار:

- أيها المسافر ادخل الدار ولا تبق في الرقاد. وادع رفاك للترجل عندنا. عندنا ما نقدمه لهم بفضل الله. وستساعدني ربات البيوت الجارات، سنقدم لهم الضيافة.

- حياك الله يا كنّتنا. رفافي، وهم أكثر من خمسين فارساً، يتناولون فطورهم في فسحة الغابة. ما يشغل بالي الآن هو ما لا يستطيع أخي بكر أن يقوله بصدق ابتننا.

- لا داعي للقلق من جهة نفست. - قالت جانشر التي كانت تجهز مائدة الفطور، ثم سردت التفصيات: - هو فرح، لا حزن. ابتننا حامل ولذا، وأنت تعرف العادة، تخجل أن يراها والدها في هذه الحالة.

- لينطق فمك بالخير دائماً يا كنّة! هذا خبر سار - أخرج محمد أفندي من حافظة نقوده المطلية بالذهب قطعة نقدية فضية ووضعها على المائدة. - هذا حلوانك. أستغرب كيف لم يأت إسلام على مثل هذا الخبر المفرح... - مرّ من أمام عيني محمد أفندي فجأة خيال مزبور دون أن يعرف من أين أتى، فأضاف متناسياً ذلك الخيال:

- قرّينا إسلام، كما أنت يا بكر، تحكمه العادات الأديغية وشرفها، وهي قدوة حياته. ترك لنا أجدادنا ذوق الأفواه المباركة من العادات الأديغية الحكيمية ما ينير طريقك في كل مناسبة؛ غير أنها لا نستطيع استغلالها كما نشاء... - والآن مرة أخرى امتنعت صورة مزبور لعيني محمد أفندي، ثم غابت. - هذا هو

الموضوع يا بكر، يا أخي الأكبر، نتحلى بطبع أديعي عظيم، ومع ذلك لم نستطع أن نصبح مثل الأتراك الذين كنت عندهم.

– يا أخي الأصغر، يا محمد يا أفندي الأباخا! – غضب بكر لما سمعه، وحين رأى الباب المفتوح نادى من خلاله: –أغلقي الباب يا ابنة آل تازه – وحين بقي الأخوان وحدهما في الغرفة أضاف بكر إلى كلامه بنبرة الاستياء نفسها: – كم مرة قلت لك يا أخي الأصغر أن تنزع تركيا من قلبك. سأقول لك الحقيقة، لا أعتبر على كل الأتراك، هؤلاء أناسٌ مثلنا، يريدون أن يعيشوا بسلام، ويؤسسوا أسرًا وينشئوا أطفالاً، من أعتبر عليه هو قريينا البعيد، ابن ابنتنا، سلطان الترك الذي لا شأن له بنا، والذي عقد صلحًا مع روسيا في موضوع الأديعة. هل سمعتهم يقولون "لم يتعلم وإن درس". أنا لم أتعلم، غير أن ما شهدته في حياتي وتعلمنه يكفي.

– لست المقصود بقولهم ذاك يا بكر، أنت مخطئ – قال محمد أفندي حذراً.

– لست وحدك المقصود به، كلنا مقصودون به – لا يكفي كم ضللنا الزعماء الغرباء في وطننا! هات ارو لنا ما جاءنا به موفدونا من تفليس!

– ألم يخبركم قريينا براغنه المختار في اجتماع القرية؟

– أريدك أن تُطلعني أنت شخصياً.

الكلمات القاسية القليلة التي وصلت إلى جانشر من حديث الأخوين وإن لم يرتفع صوتها نتيجة الخلاف، جعلتها تدخل الغرفة. وقالت لهما وهي تبحث عن ذريعة لدخولها:

– سأبدل الشاي إن كان برد.

– لا بأس أن تبدلية... – ثم وجد لأخيه الأصغر مسوغًا، متفهمًا ما أقلقها – ولكن مجموعة الرجال تنتظره.

- لن يتعدوا كثيراً، سألحق بهم.
- أن تنتظركم أفضل من أن ينتظروك. وهذا جزء من الطبع الأدبي، وهذا ما أنشأنا عليه بجُدنا ومسنونا - اسمعي يا ابنة آل تازه: لتعلق لحم الحروف الذي شويته أمس على سرج ابن حميك. لا يجوز أن نعيده إلى أصحابه الكثرين خالي الوفاض.
- انتهيت من تحضيره، وأرفقته بالجبنية المحففة والخبز.
- حياك الله يا كنّة! كان السبب الأهم لقدمي إليكم هو رؤية نفست، ولكن إن كانت تختبئ من أيها فستستحيي مني أيضاً. سأتيها بغضاء رأس جميل وقطعة قماش تخيطها ثوباً لأننا ذاهبون إلى اجتماع المجلس على الشاطئ.
- ولا تنس الغليون الذي رجوتكم من أجله - أضاف بكر أيضاً إلى كلام أخيه الأصغر.
- سأتيك به إن لم يكن عندك اعتراض على كونه تركياً.
- لا تصدع رأسي؛ لم أطلب منك الطريوش الذي كان يرتدي منه النائب ومرزبج! والأخير اختطف أحدهم روحه فاسترخنا.
- وهذا صحيح - تغير لون محمد أفندي - من حظي وحظك أننا استرخنا من رؤية ذلك الظالم عديم الشرف.
- ولماذا نحن الاثنين محظوظان بمقتله أكثر من غيرنا؟
- كذا، لا أعرف. مجرد كلام خطر لي... - كاد يعترف بالسر الذي يخفيه من العام الماضي ولذا شوش محمد أفندي الموضوع، غير أن بكر الذي لاحظ أن أخاه مهموم بأمر ما لم ينشأ أن يسأله صراحة.
- داهم فلق مفاجئ بكرًا حين ركب أخيه:
- انتظر لحظة. سأرافقك إلى تخوم الغابة - نادى بكر أخاه من ورائه، وقد

سبق حصاته الكمال للحمرة: - سنزلك الطريق العابر للجانب الكثيف من الغابة حتى لا يتبعنا الناس بنظرائهم. وبعدما سار الفارسان مسافة رأيا ددai الذي كان يجمع الحطب اليابس في المنطقة الكثيفة من الغابة - تعال، تعال، لا نريد أن نتجنب الجار فيشك في أمرنا.

استقبلهما ددai معلقاً يد فأسه بزناه، كاتماً شعوره بالإهانة من أن نفست ابنة آل مرزحوي تجاوزت ابنه وتزوجت من أسرة براوغنه:

- ما أسعدي أن رأيتكما أيها الأخوان، يا من جعل الله يومهما مئة، وإن كنت لا أراكما في القرية. ألتقي بيكر أحياناً، ولكن مرحباً بك من جديد يا محمد أفندي. نسمع أخبارك الطيبة؛ ألسست ابن قرية تامي حبله، نفرح لأخبارك. ما أخبار زعماء الأبزاخ وإن لم يكن يتحقق لهم شيء منهم؟ يسريني يا محمد أفندي تأليفكم المجلس ولو أن مندوبيه رجعوا قبل زمن قريب بخفي حنين مما تسمونه تفليس. يا ربي أعتقد أن هذا سيفيدنا نحن الفلاحين عامة الشعب؟

- وهل يعقل ألا يفيدكم يا ددai يا من أدعوا الله له أن يشمله برحمته! قال محمد أمين مسروراً لذكر إسهامه في تأليف المجلس. - من أجلكم أتمن الفناه، لا راحة لنا.

- وأنا لي علاقة ما بجدا الموضوع يا محمد أفندي.
- وكيف؟

- بين الأشخاص الخمسة الذين على قريتنا تقديمهم للجيش الذي أفتتموه من خمسة عشر ألف فارس كان من نصيب سميك محمد بن ددai أن يكون في عدادهم. - قال بيكر المستعجل على مغادرة أخيه وصحبه قبل أن يختد مزاج ددai الذي هم في معرض امتداحه.

- أهنتك يا ددai، ليس كل من يردد اسمه يقبل.

- هنّي صهر أخيك الأكابر على عدم قبوله في صفوفهم – أسرع ددai بالرد وعيناه تقدحان شرّاً.
- لا تقلق يا ددai، سينضم صهراً سريعاً إليهم. وسأخبرك شيئاً آخر: حين يقتضي الأمر ستنضم كلانا، أنت وأنا، إليهم.
- هكذا يا بكر؟ – سأله، ثم أضاف وكأنه لم يغضب قطّ: – إذن اعتبرني لم أقل لك شيئاً أيها الكبير – وبعد قليل صاح في إثر محمد أفندي: – أبقي سعيك يا محمد أفندي تحت رعايتك!
- قال بكر بعدما سار الأخوان اللذان لم يهُنْ عليهما ما جرى لهما في الغابة:
- ألمّنا بحق المسكين ددai ونحن نتكلّم على الموضوع.
- ألم يظهر في القرية فارسٌ غير ابنه الوحيد؟ – تنهى محمد أمين، ثم قوّم موقفه سريعاً: – نعم يا بكر، هكذا كتب الله الذي يبتله إلينه الناس ولا يبتله إلى أحد، ولذا لن نبحث عن البريء والمذنب. وهكذا نُتّبلى في دنيانا العارية. إذا كان الله يعرف سرك، فأنت ترغب في أن ترويه لأقرب الناس إليك لأن السر يصبح يوماً ما علناً... أنت يا بكر الوحيد الذي لي في دنيانا العارية... لا أعرف إن كان ما سأقول لك ثواباً أم إثماً.
- أسمعك يا أخي – لم يجر بكر حصانه – ستحمل معّاً ما كتبه الله علينا.
- أنا يا بكر من أزهق روح مرزق... ولو لم أفعل هذا لما جعلنا نفرح بعرس نات – نات... كان وعد ضابطاً كافراً أن يسرقها ويحملها إليه... قفر الأخوان من حصانيهما، وتعانقاً عناقًاً لم يفعلا مثله في حياهما.

الفصل الخامس والعشرون

السماء التي ليس فيها إلا شمس ظهيرة الصيف الحارقة نظيفة. والسماء البيضاء من وراء الغابات المتعددة الألوان التي ترتفع التلال وتتنزل، تظهر من بعيد ملتفة حول شاطئ البحر. والأحصنة التي أرهقتها الحر تنخر على طريق طوابسه. وبعض الفرسان ينعشون أحياناً. وتحوم في السماء بعض الجوارح الكبيرة التي لا تتكلّل ولا تمل.

— لا يعجبني يومنا القائظ الباعث على الضيق يا برج، يلهينا عن مهمتنا — قال تسي، ونظر إلى أفعى وراءه — غنّ لنا يا مرتوقه شيئاً من أغاني أجدادنا. أُجبر البرق والرعد المفاجئان الفُرسانَ على حني رؤوسهم. وكان الصدى ما يزال يتكسر على الجبل حين بدأ البرد ينتشر مع حبات المطر.

— تجتمعوا مسكين بأعنة خيولكم! — غطى تسي الذي قفز إلى الأرض رأس حصانه بفروته، ودلّف إلى تحته. وبالطريقة نفسها تجتمع الفرسان الآخرون.

— لندع الله أن يرأف بنا لأننا في هذه اللحظة موضع ابتلاء منه! — يصرخ محمد أفندي من تحت فروته — أدعوا إلى الله أن يتفهم صدقكم في متابعة مهمات الأديعة لأن الله يختبر إخلاصنا لها. ومتى سمعنا قطع عنا مطره وبردّه. هو أملنا الوحيد ومقصودنا، قولوا: الله أكبر!

— الله أكبر! — وافق الفرسان المترجلون أفنديهم وقد بدأ البرد على فرواتهم وعلى ظهور خيلهم يخفت.

قال برج الذي كان يتقبل أقوال محمد أفندي لنفسه: "لم نخطئ في المهمة التي أسندناها إلى محمد أفندي ولو أننا سمعنا انتقادات كثيرة بحقه. يفيدنا حين نقع في أصعب المواقف قبل أن نطلب منه. ولكن لا أعرف إن كان يبالغ في المسائل الدينية... يجب أن نتكلّم معه في وقت آخر بهذا الشأن..."

استغل محمد أفندي التوقف المفاجئ للمطر والبرد المرافقين للبرق والرعد:

– الله سمعنا فاستجاب لنا ورحمنا. أتاح لنا، نحن الأبراخ، رؤية سمائه وأرضه ثانية. والآن سنتابع طريقنا بعلمه. ونستأنف أعمالنا في خدمة الأديمة التي يختبرنا فيها.

– نعم يا أفندي، نعم. – وافقه برج – الله سمعنا، ورحمنا.

انتهى الفرسان من الصلاة ومن الغداء المرتجل من نوع وحيد من الإدام. واتخذوا طريقهم غير القصير معلقين فراءهم نصف الجافة بأسربحة خيولهم. وبعدهما مشوا قرابة نصف ساعة فهموا أن المطر – البرد المفاجئ كان متنقلًا، وأنه فارقهم: غبار الطريق يتناثر من تحت حوافر الخيل، والبخار يتتصاعد من فرائهما، والأوراق الصفراء التي نامت تحت الهواء الحار كأنها بلا روح. وما يُشعرك بأنه

ما زال في الدنيا بقية بُرُد منعش هو قمم الجبال البيضاء التي تلوح من بعيد.

حين يشق الناس بك ويقدمونك عليهم تعترضك مهمات مجهلة غير متوقعة. وليس الموضوع أن برج حسن جاهل بقضايا الأبراخ ولا رأي له فيها؛ إذ أنه مهموم منذ زمن بعيد بالقضايا القومية، ولكنه عاش في عهد محمد أمين النائب أكثر من عشر سنين وعقله ورجولته متلازمان، والناس يذكروننه بالاسم وقت الحاجة وإن كان لا يُبرِّز نفسه من بين زملائه. وفي السنوات الخمس الأخيرة لم يبق لبرج إلا الاسم من جمعية مخاتير الأبراخ التي استولى عليها النائب. ومع أنه كان يحدث كثيراً أن يختلف هو وتسى الذي لم يكن يقبل بهذا الوضع فإن الأخير كان أول من صوت له في آخر اجتماع لاختيار القيادات. ولما كان ألمع مرتوقوه هو الوحيد بين المخاتير الذي يمكن أن ينافسه فقد حمله تسى على انتخاب برج حسن ناظراً في عينيه مهدداً إيهما. ولكن لما كان الاثنين من ينسيان المعروف سريعاً ظلت الخلافات تتشابه بينهما باستمرار. من السهل

معاشرة الإنسان حين تفهم طبيعته. وإذا كان تسي نرق الطبع فإن رجولته واستقامته وسلامة طويته تعوض نقاشه.

وماذا عن محمد أفندي الذي عينه برج حسن قائماً بالشؤون الدينية للأبزاخ؟ حين سأله برج حسن الزعيم الأبزاخى نفسه في شأن محمد أفندي قال: "مهما كان أصغر منا سنًا أنا وتسى فهو مختلف عنا. إنه ذكي بل ذكي أكثر مما يجب ولو أنه لم يعاني ما عانيناه نحن. ما أعجب أن هذا الذي لم يتجاوز في دراسته مدرسة القرية، والذي يتصور أن أحداً غيره لم يبحّ، يفرض علينا ممارسة الدين ونحن نعرف أنه يخدعنا! من هو؟ أيمكن أن يفرض علينا نفسه نائباً من أجل أن يقنعنا بأنه موعد من الله؟!... تذكر برج أن محمد أفندي كان مع الأفندي عبد الله الذي جاءهم من تركيا، والذي اكتشف الأبزاخ أنه ضابط جاسوس فقتلوه، مقتنعاً بأنه موعد الله منفذًا كل أوامره — كم كان عمره في ذلك العهد؟.. كان شاباً جداً، ربما لم يتجاوز العشرين. وما العمل إذن؟ عليك حين تكون خادماً من العامة أن تنفذ أوامر مسؤوليك... و حتى إن كنت تقول هذا يا برج أفالاً تذكر ما قاله ددابي لعبد الله الأفندي المزيف في اجتماع قرية تامبي جبله؟ ومحمد ودادي من عمر واحد، ومن قرية واحدة،..."

- كيف حالك أيها الزعيم المبارك مع هذا النهار المثير للضيق؟ - سأله محمد أفندي وكأنه يُحس أن أفكار برج تدور حوله.

- لا يؤذيني، ولكن كنت أفضلاً لو كان الجو ألطف قليلاً.

- الله الذي تأثر دنيانا العارية بأوامره هو من يستطيع أن يرسل إلينا هذا الجو اللطيف الذي تستهيه أيها الزعيم المبارك. ستحلى بالصبر، وستبتهل إليه. ولن نتخطى أوامره، وسنعادي من يعاديه. ولن نسمح للكفار أن يعيشوا في دنيانا.

- وأنت، كيف حالك مع هذا الجو؟ - سأله برج الأفندي قائلاً في نفسه:

"سمع ما يقول هذا الرجل مكرراً كلمات النائب!"

- وأنا إلى أين أذهب هاجراً الأياخ؟! حملهم حملني، وقلّفهم قلقي، وفرحهم فرحي. - أوصل محمد أفندي جواب السؤال إلى ما يريد هو ماطلاً في الإجابة. - غير أن ما أتميز به من أبناء قومي أمر واحد: - يُلْغِكم الله العلي الذي يتولّ إليه الجميع ولا يحتاج هو إلى أحد أنه واثق مني فيحميك من الخطأ.

- نحن دفعنا إلى الخطأ مرات كثيرة، والآن أظننا ندفع أنفسنا إلى الخطأ لأننا لا نراجع أنفسنا... - خف برج حسن من سرعة حسانه كمن يحدّث نفسه.

- أستغفر الله... - قال محمد أفندي بصوت ناعم، وأضاف بصوت أعلى بعد ما انتظر الفرسان الذين وراءه حتى تجاوزوه كما فعل برج - أدعوا الله ألا يسمع كلماتك المبطنة أيها الزعيم المبارك، واعتبرني أنا أيضاً لم أسمعها.

- إن كنت تظن أنك سمعت مني ما لا يجوز بحق الله فأنت مخطئ أيها الأفندي

- أجاب برج متساءً من طريقة ردّ الأفندي عليه، حاسماً الموضوع - أنا لا أتكلّم في ما أجهله. وسأقول لك أمراً آخر: منذ زمن بعيد ثبتت هذه الكلمات أذني... وهل كان عبدالله الأفندي، الضابط الجاسوس التركي، والإمام شامل الذي حنث بوعوده، وموفده النائب محمد أمين قوموق، والإنجليز الذين كانوا يكذبون علينا قبل هؤلاء، والبولنديون، موظفي الله؟!

- لي رأي آخر أيها الزعيم المبارك في ما سألت عنه - كان محمد أفندي جاهزاً منذ وقت طويل للإجابة على ما يمكن أن يُطرح عليه من أسئلة فأجاب بسرعة - لن نتدخل في ما قاله وفعله سابقي، ولن أكون شاهداً على أحد أو وكيله لأن الله وحده هو من يعرف صدقهم وكذبهم. الله يرى الجميع ويعرفهم، ويرى الجميع. ولكن سأكشف لك ما أفهمني إياه ولفت نظري إليه لأنه لا

يمكن إخفاء شيء عنه. يجب أن يكون من يقوم على أمر المسلمين الذين يمارسون دينهم من جنسهم، ولغتهم لغتهم. نعم يا كبارنا، يا زعيمينا المبارك لا تستغرب كلامي، ليست هذه من أفكاري. الله أنزل على دينه قائلاً: أفهمه لأبناء أمتك - أمري. هذا سبب إخفاق الثلاثة الذين جاؤونا من الداغستان، ومن جاءنا من تركيا، مع الأديغة، دعك من الإنجليز والبولنديين الذي ليسوا من ديننا... ولأني أعرف يا كبير ما ستسأل عنه فلن أترك دون جواب. - لم يترك فرصة ليرج حسن ليتكلم - كل لغات العالم، بما فيها لغات الكفار، هي لغة الله. إنه خالق الكون، هو إله الأحياء والجمادات. نعم يا كبير، أيها الرعيم المبارك، ما سأقوله لك لم أكأشف به أحداً. أتكلم معك من أعماق قلبي لأنني أعرف أن الله الذي يمنعني المعرفة واثق منك. الله يقودني في دنياي العارية منذ صغرى، ودون أن يعرف أخي الأكبر بكر بالموضوع، مانحاً إياي عطفه. وإن أردت معرفة الحقيقة فالله العلي العظيم هو من حماي من الأفندى الجاسوس التركي الخبيث عبد الله، ومن النائب الداغستانى، ومن غيرهم من لا يضمرون لي الخير، وهو من جاء بي إلى حضرتك. أتذكرة كيف نصبتني مفتياً على مشايخ الأباخ حين جئنا إليك، أنا والمرحوم الضال في دنياه مرزيج، فاستقبلتني بعين الرضا، غير واثق من كان رفيقي؟

- وكيف لا أتذكرة - قال برج المنفعت بتأثير كلمات الأفندى - أليس منذ الخريف الماضي أُسندت إليك مهمة المفتى، وتوجّب علينا أن نأثم بحق مرزيج؟ - أتحمّل نفسك أيها الرعيم المبارك وزر المرحوم مرزيج؟ - من يعرف إن كنت أنا أم غيري؟ كل الأباخ يعرفون أنه انتشل من نهر شحه غواشه.

- والكافر يعرفون أيضاً أنه انتشل من شحه غواشه... لم يتجاوز مرزيج

الساذج سريع الانقياد ما كتبه الله عليه... ولكن من يعرف؟ ربما لاحقه النائب؟ كيف لنا أن نعرف ميّة مربّع الكبير؟ يا رب وهذا واحد من عبادك الصالين الأديعة.

– لم يكن مربّع المسكين محروماً من الرجلة... رافقنا سبقونا يا محمد أفندي فلنلتحق بهم! – أسرع برج بحصانه قليلاً ثم سأله على يساره، قائلاً لنفسه "هذا الذي معه يمكنه أن يجعلك مطواعاً له، وأن يدفعك إلى الخطأ، يجب التعامل معه بحذر ومراقبته":

– أتصدق يا محمد أفندي أنك موقد من الله؟ – ودون انتظار الجواب قال له وهو يسرع بحصانه: – هيا أيها الفتى، لا تزال أمامنا أيام أخرى. وعندك وقت لتفكير في الجواب.

الفصل السادس والعشرون

– هل أنت نائم يا أفندي؟ – سأله مربّع الشابسغ، وهو مرتاحان في فراشيهما، الحاج خوشت مفتى الشابسغ، وأضاف: – أظن الطريق أرهقكم يا كبير.

– لا يا أفندي. طريقنا لا شيء بالقياس إلى الطريق الطويل المرهق الشقيل الذي قطعتموه. الكفار يدفعوننا كل يوم إلى البحر بحجّة ترميم طرقنا. لا أقول إننا لا نقاومهم، وإننا فقدنا رجولتنا، ولكن من الصعب هزّعهم لأن الجيش الذي يحشده الكفار حولنا لا يحيط به الحصر. يحاصرون قرانا بالمدافع، يحرقون كل شيء. والويل لمن بقي معهم والسعد لمن نجا منهم. والله وحده هو أملنا. وننتظر أن يقول لنا في وقت ما: يكفي ما اخترتم به في دنياه الفانية.

– لا، لا يا أفندي. لا تدعنا نقول إن الله الذي يتوصل إليه الناس ولا يتوصل هو إلى أحد نسيانا ولو أنه ما يزال يختبرنا في دنياه الفانية. إنه رحيم بالصالين

وغير الضالين. لا يأس مadam قيوماً علينا، ولا نخرج عن تعاليمه. لم ينسنا ولذلك سيسمح للمجلس الذي سنشارك في أعماله أن يعتقد غداً. – أضاف مرزخوي ما يهمه وهو راض عن أقواله: – على ما أراك يا كبير لست مفتى الشابسغ منذ زمن بعيد.

– عرفت، عرفت – أجاب الحاج خوشت بسرعة كأنه فرخ بالسؤال. – في العام الماضي حين قتل الكفار "جَدَهُ أَيُوب" على صفة نهر أبنه بالرماح رشحني زان قارباتر مكانه. ومن يدري ماذا بانتظارنا نحن أيضاً؟

– سبحان الله، سبحان الله، لا إله إلا الله¹، الله وحده هو من يعرف ما يتضررنا. – قال محمد أفندي بنيرة من يدين نفسه ومن يبرئها، ثم أضاف: – وكيف لا أعرف جَدَهُ أَيُوب؟ التقيت به في حجتي الثالثة في الكعبة.

– هل حججت ثلاثة مرات كاملة؟ – سأله الحاج خوشت مستغرباً ما سمع، وأضاف: – أنا لم أحج إلا مرة واحدة.

– ولماذا تستغرب هذا؟ – سأله مرزخوي أفندي الحاج خوشت، ثم شرح الموضوع: – على كل مسلم أن يحج ولو مرة واحدة. وإن استطعت حجج كل عام. وسيكون الله تعالى راضياً عنك في هذا. لا أنسى إلى الآن ما حدث لجده أَيُوب... الأفندي موفدو الله يحميهم. أَيُوب الجن دفعوا هذا البائس إلى ارتكاب الإثم؟! ليس مستغرباً. لا يُستبعد أن يكونوا حرفوه عن طريقه في شيخوخته... لا، لا يا أفندي. ليس من شأننا نحن أن نفسر ما يقول الله وما يفعل. يحجز في نفسي يا كبير أنك لم تحج إلا مرة واحدة. غير أن من الممكن تدارك هذا الأمر؛ فالحاج برج وعدي أن يوصي بي المجلس لمنصب المعاون

¹ كل العبارات بالعربية.

للشئون الدينية وبرج حسن وتسى من الأبراخ، وزان من الشابسغ موافقون على هذا، فمتي أسندوا إلى المنصب أدرجت اسمك في أول قائمة حجاج من عندنا. وإن استشاروك يا أفندي بشأني فأنت تعرف بم ستجيب: - من المؤكد أنك لن تنساني في ما لله العلي العظيم علم به ورأي فيه.

- لا، يا محمد أفندي. لا يخطر لك مثل هذا. أنا سمعت بسيرتك الطيبة ولو أنها نلتقي لأول مرة. وكان سلفي المرحوم ذكر لي أخبارك بالخير أكثر من مرة، ثم إنك مقرئ ممتاز. سأوفق الحاج برج الرجل الكبير متى رشحك لتكون معاونه للشئون الدينية. ما كتبه الله لك موضوع منته بالنسبة لك ولي.

ابتداً أعضاء المجلس الخمسة عشر اجتماعهم بتأدبة صلاة الصبح. ولما وقف الحاج برج أمامهم ناداه فأوقفه وراءه، ثم أوقف أفندي الشابسغ والوبيخ والساز الأباطة إلى يساره، ففهم محمد أفندي مزاحوي أن الحاج برج لن يفي بوعده. ولكن هذا الموضوع لم يكن الأول على جدول أعمال المجلس بل الأخير.

القاعة المستقلة شبه المظلمة التي سيعقد فيها المندوبيون الضيوف من الأبراخ والشابسغ والوبيخ والساز الأباطة اجتماعهم ليست كبيرة ولا صغيرة. - تتسع نحو مئة شخص. والفناء المرصوف بالبلاط المزخرف فسيح. وعلى امتداد الجدارين اللذين في كلٍّ منهما نافذتان ضيقتان مقاعدٌ ناعمةً منخفضة. وعلى الجدار الرابع مقعد الرئيس المنتخب لخمس سنوات ومعاونيه الاثنين. وعلى يسار هؤلاء وعيينهم طاولتان على كلٍّ منهما مصحف.

- أعضاء المجلس، الضيوف الكرام يا من أدعوه لهم أن يغمرهم الله بعطفه، ويُظَلَّهم بمعرفه، - افتح برج جراندوشه الجلسة بكلمة افتتاحية. - نجتمع اليوم منذ أنسينا مجلسنا للمرة الثالثة. أطلعنكم على الموضوع الذي دعوناكم من أجله، فإن كنتم موافقين تابعنا جلستنا. سنستمع إلى الخبر الذي نقله إلينا

برج حسن معاونُ رئيس المجلس، ورئيسُ الوفد الذي زار تفليس مقابلة الجنرال إفدوكيروف.

– حياك الله يا جراندوقه، الزعيم المبارك للمجلس. إن كان هذارأيك سرداً عليكم نتائج المهمة التي كُلِّفنا بها دون إطالة. – وكما في كل مناسبة قال برج يغلبه حذره ولطافته. وإن أنس شيئاً استدركه تسي وتحه غوشة اللذان كانا معه.

– لن نضيف شيئاً إلى ما تقول – قال تسي ناظراً إلى رفيقه تحه غوشة مع ابتسامة. يكفي أن تقول إن من زرناهم أهانونا.

– حتى لو كان الكلام المختصر كالعصا يا تسي – قال برج – فله طرفان. أي الطرفين أحسن؟ هذا ما يجب أن نفكّر فيه الآن.

– وصلنا إلى حافة النهاية ونحن نردد هذا الكلام... – تتمم تسي مُسِّماً الجميع ولو أنه تظاهر بأن مقاله موجّه إلى شخصه نفسه.

– من أجل هذا جمعوا المجلس! – عارض أحد أعضاء المجلس من الساز الأباذة كلام تسي.

– كان علينا منذ زمن بعيد أن نعرف هذا – قال عضو آخر من الشابسغ.

– حسنٌ أنتا صحونا أخيراً... – رد تسي على من يجلسون وراءه بلا مبالاة كاملة. وافقه بعضهم، وعارضه آخرون.

– كل المديح للحاج جراندوقه! – هتف شابٌ من الوبيخ.

– أيتها الجماعة التي أدعوا الله لأجلها – قال برج بصوت جازم – تخلوا بالصبر! صحيح أنهم يقولون: رأسان خيرٌ من رأس واحد، ولكن لا تجعلونا نخوّل مجلسنا المجتمع تواً إلى ساحة جدال. نسمعك يا حسن. لا تبق واقفاً، يمكنك الكلام جالساً.

- لن أستطيع أن أفعل هذا أمام الحشد يا زعيم الخير - قال حسن، ثم أكمل وهو ينظر نحو تسي: - في كلام الزعيم تسي، ليجعل الله يومه مئة، نصيب من الصحة. إن سألكمونا هل أهانكم من زرقوهم فالجواب نعم. هؤلاء وإن كانوا خبثاء فقد استقبلونا بالترحيب اللائق بالضيف: فتحوا لنا باب مضافتهم، وكان طعامهم وفيراً. ولم يضللوна عن مواعيد صلواتنا. غير أن جوabهم على ما سافرنا لأجله كان جاهزاً: أبلغونا ضرورة أن نعيش بسلام معهم، ننفذ أوامرهم بصفتنا رعاياهم، ولم يهتموا بما يشغل بال المجلس.

بدأ أعضاء المجلس وغير أعضائه يصيرون من هنا وهناك:

- أهي عيب هذا!

- لا شأن لهم بنا فيربتوا أمرنا.

- حين أهانكم أيها الكبير ألم تكونوا مسلحين؟ - شارك أحد الشباب المتجمهرين قرب الباب.

- لا يستوي طرُح السؤال والإجابة عنه أيتها الجماعة التي أدعوا لها بالخير. سأحني يا جراندوقه، يا زعيم مجلسنا على أنني أساهم بكلامي في غير دوري. - عرف محمد أفندي إلى الحضور نفسه بصوت لطيف، وقد ازداد وساماً بعمامته البيضاء على طريوشة الأحمر الذي بدا تحته وجهه المتطاول. - دعونا نستمع بقلوب ملأى بالود واللطف، أمام الله العلي العظيم الذي له شأن في كل أحوالنا إلى برج حسن الذي عانى مشقات عظيمة؛ أليس كلامي صحيحاً يا أفندي؟ - تظاهر بأنه يستشير خوشت أفندي الشابسغ الجالس إلى جواره، ونظر بطرف عينه إلى أفندي الأباطة.

- نعم يا محمد أفندي، نعم، الصبر هو الكلمة الأولى لله - وافقه أيضاً الأفندي خوشت، وهز أفندي الأباطة رأسه بما يعني موافقته.

- السلاح سهلٌ إشهاره غير أن إعادته إلى غمده صعب يا ولدي. - أضاف برج حسن وهو ينظر من فوق عمامة أفندي الأبراخ الضخمة، بعدها كانوا قاطعوا كلامه - كل المؤذنين يطلب منهم، حسب القوانين السائدة، قبل دخولهم غرفة الاجتماعات أن يضعوا عنهم أسلحتهم. ولا يعني عدم مجئنا بأخبار طيبة من حيث كنا أنت لم تأت بما يبعث على الأمل. أخبرونا أنهم سيعملون على عقد لقاء لنا مع قيصر روسيا الذي من المقرر أن يزور شمال القوقاز في الخريف القادم، وأن نحمل إليه نداءنا. هذا ما نعرفه اليوم، أنا وتسى وتحه غوشة، لنخبركم به. لا تؤاخذونا بما لم نستطع تحقيقه، لم نأُل جهداً.

خرق الحاج برج الضيق الشديد الذي هيمن على القاعة المظلمة:

- حياكم الله يا برج وتسى وتحه غوشة، لم تدعروا جهداً لإنجاح مهمتكم. قطعتم كل هذه الأرض ذهاباً وإياباً، ولكنكم لم تعودوا حالين من الأمل. إن لم يتحقق هدفك في تفليس فبارياتينسك النفّاج كان غائباً، واستهان بكم ميليونين المنصوبي على أفكاره، وليس أوريليان الهاوي لل مهمات بالجنرال الذي تشق بكلامه، وأما إفدوكيروف ذو العيون الثلاث فقد خدتنا مرة أخرى. وما جئت به من خبر زيارة القيصر خبرٌ فيه شيء من الأمل، اهدؤوا قليلاً - نظر برج عينيه الثقيلتين في أوساط الشباب وأحاب على ما سمع باختصار: - القيصر الروسي الذي تتحدثون عنه، لن نصفه بالعدو ولا بالصديق وإن لم يكن يريدنا - ثم استدار نحو زان وقال: - لا يزال أمامنا ما يكفي من الوقت يا قارباتر. راجعوا ثانية البيان الذي صُغناه قبل أيام للقيصر؛ سعرضه على جلسة المجلس في الشهر القادم. وإن رأوه مناسباً تبنياه. وأنتما يا برج وتسى أطليعا وجهاء الأبراخ عليه كما أطلعنَا نحن الوبيخ والساز الأباطة. ولا تنسيا الحاج محمد أفندي، سيفيدكم إذ أرى عنده بصيرة نافذة. والآن، وقد انتهينا

من اجتماع الظهيرية، سنذوق مما أنعم الله به علينا. ثم ننهي أعمالنا اليوم مع صلاة العصر.

الموضوع الذي بحثه اجتماع المجلس عصرًا هو تحصيل الضريبة التي ستمول الخمسة عشر ألف مقاتل المقرر تجنيدهم. ولو سار النقاش كما اقترح برج، ولم يعترض تسيي، لأنهما الموضوع مع صلاة العصر.

- لا بأس بسير الأمور في شأن تحصيل الضريبة التي ستمول بها الجيش – وافق تسيي المساهمين في النقاش – مخاتير القرى يعملون جيداً، والأسر التي ساهمت مشكورة لم تقصر، غير أنها لن تحمي البلاد بخمسة عشر ألف مقاتل. أرى أنها تحتاج إلى عدة أضعاف لهذا العدد. وسأجيب من يتساءلون عن إمكانية تمويلهم: نعم نحن قادرون! أليس كل من الأباخ والشاسغ والوبيخ قادرين على أن تجند كل قبيلة خمسة عشر ألفاً؟

- ولا تنس الأباطحة يا زعيم الخير! قال أفندي الأباطحة تمه سف.

- وأنت يا أفندي تستطيعون، حسب تعدادكم، تجنيد عشرة آلاف. – أجاب تسيي، وتابع كلامه: – وإلا يا جراندوقه فلن نستطيع حماية شرف أجدادنا وأبائنا وأطفالنا ونسائنا.

- حياك الله، ورضي عنك! – قال الحاج برج لتسبي – أعتقد أنك عبرت عمما في قلبي وما في قلوب أعضاء المجلس والضيف، ولذا سعرف حقيقة الاقتراح الذي قدمته، وسنطرحه في الاجتماع القادم للمجلس. نعم، نعم، أفهم ضرورة عدم المماطلة في هذا الموضوع. ولكن لما كان المجلس هو من يتتخذ القرار في أي موضوع، لن نستطيع تجاوزه. والآن، إذ نختتم اجتماعنا، سأرجوكم، إن وافقتموني: أقترح اسم مرزخوي محمد الأفندي لأننا محتاجون إلى من يصلني بنا ويتلو علينا من القرآن. فإن رأيتموه مناسباً فالشكر لكم، وأدعوا الله أن نجتمع

على الخير، وأن نفترق عليه. رفقتكم السلامة أيها الزعماء المباركون. وأنتم يا شبابنا، معقد آماننا.

الفصل السابع والعشرون

الخريف، وإن يكن في بلاد الأبراخ صاحياً دائماً جميلاً، فالناس لا يتذكرون منذ زمن بعيد خريفاً ملوناً كالأيام الأولى من أيلول عام 1861. فأينما سرحت بنظرك رأيت الغابات الجبلية اكتست بأوراق الأشجار المتعددة الألوان. من جهة يمتد المنظر متغللاً في السماء إلى قمم الجبال البيضاء، ومن الجهات الأخرى يمتد نحو الشرق والغرب، والغابة الفسيحة التي يحول فيها نهر قُجبس وشحنه غواشه تجري باتجاه نهر لابا ونهر بشنة دون أن تلتفت إلى الوراء. وغابات قمم الجبال تنظر إليك بعيون مختلفة. وبعض كتل الغيوم البيضاء، وبعض ثُنفها، تعبر بلاد الأبراخ غير عابئة بشيء.

برج حسن جالسٌ تحت شجرة البلوط الكبيرة المطلة على الساقية التي تنشر مياهها الفضية وراء البيت. ولا يمر يوم على برج لا يطل فيه على ساقيته الفضية ويحييها، سواء كان قلبه يطأوه بالخير أم لا يفعل، وسواء يجد وقتاً أم لا يجد، إلا أن يكون غائباً في مهمة. وأعجب ما في الأمر أن تلك الساقية الفضية لا يتجمد ماؤها في الشتاء، ولا يخفت صوتها. وفي خلال حياته التي تجاوزت الستين لا يذكر أنها تحمدت وكفت عن الجريان، ولم يسمع من والده ومن جده، ومن أجدادهما مثل هذا.

"كم سنة يمكن أن يكون عمر الأمواج الفضية المتلقاطعة ولو أنها تعيش بانتظار أن تلتقي بنهر قُجبس؟" - سأله برج حسن السؤال الذي قفز إلى خاطره، ثم أسرع إلى وعيه بوجه مذعور: - لن يعرف أحدٌ جواب هذا السؤال إلا الله خالق الكون! أغفر لي يا إلهي. كنت أود أن أعرف ما لا أعرفه. وأنا أفكر في

نفسي لأن هذا لا يجري دون علمك. يخلي إليّ أن هذه الساقية كانت لنا في عهد تعدد آلهتنا حتى لو لم توجد شجرة البلوط قبل أن تُبلغنا الإسلام... التوبة، التوبة يا إلهي لا أحد غيرك يسمعني. أنت سندنا، وأنت أملنا. ولكن تخطر لي أسئلة سيئة بحقك، ليس لأنني ضال عنك بل لأنني مهموم بما سيحدث لنا بصفتي من عبادك بوأتنى زعامة أمتك الأباخ. كيف ستحمي تلك الساقية التي تركها لنا أجدادنا، وشجرة البلوط، وجنتك ريف الأباخ، وحصتنا من السماء، حتى الجوارح التي تحوم فيها؟ ليس السبب أن الرجلة هجرتنا، وأن قلوبنا صارت هشة، وهانت علينا حرمتنا يا إلهي، بل لأننا حاولنا تجنب الحرب الدامية. كيف سنفهم هذا للقيصر الذي سيُقدم إلى نواحينا؟ إن لم نتوصل، نحن الطرفين، إلى اتفاق، فنحن إما أن نموت وإما أن نموت، مدركون أن نهايتنا على يد هذه الدولة العظمى التي تهاجمنا. فلا أمل لنا غيرك يا الله. — قرفص برج حسن إلى ضفة الساقية وسأل نفسه ثانية وهو يرشق وجهه بالماء: — أيمكن أن يكون لنا حل آخر؟..

تراكتضت أفكار برج حسن القرية والبعيدة ريشما نشف وجهه، وفيما هو يتأمل الساقية التي تقفز فوق حصاها، منذ طفولته التي يعيها، إلى آخر مجلس شهداته. وخلال هذا الزمن كله لا يتذكر، باستثناء طور الطفولة القصير، عهداً غلبت فيه السعادة على حياته. يتذكر جيداً أن القوزاق قتلوا أباه في سهل نهر لابا، وجيء به على صهوة الحصان. وبعد أقل من سنة قضى عمه الأصغر وأخوه هو الأكبر، وعدد من أبناء القرية، على أيدي هؤلاء. سأله برج نفسه من جديد: "أي مصيبة لا نهاية لها نعيشها خلال سنواتي الستين؟" وأجاب نفسه بنفسه: — نحن مهمومون بمصيرنا، وما يتنتظر أولادنا، ومستقبل الأباخ — الأديمة. ستعيش هذه الجبال، والغابات، والأنهار، والجوارح المدومة في السماء،

وهذه الساقية، حتى بعد مماتنا. ولكن هل تستطيع أن تعيش دون أن تسمع لعنتنا الأدبية وأغانيها وأصوات ضحكتنا، وأحزاننا؟ لا أعرف، لا أعرف... ولما كانت الحكومة التي ألقنها باسم الأعراق الثلاثة هي آخر ما نستطيع فعله فنحن نقابل باسم المجلس من يقصدنا، ونخدع أنفسنا بحجج أننا يجب أن نتصالح ونتعايش في الوقت الذي يوطّنون فيه القوّاق في أراضينا. سمحنا، نحن الأبرار، للأعداء أن ينهبوا أرض الشابسغ مخدوعين بإعلانهم لنا أنهم صالحونا، وسمحنا لهم أن يحصروهم على ساحل البحر. والآن، وقد دخل قيصر الدولة التي تحاربنا أرضنا من غير أن ندعوه إلينا. ننتظر قدمه؛ ماذا سنقول له، وماذا سيقول لنا؟ نعرف ما سنقوله له وإن لم نكن نعرف ما سيقوله لنا. أتحاججه أم نتوسل إليه؟ وإن حدثت حرب بعد الجدال؟ ولكن ألا نتحارب في كل الأحوال! يقال إن الكلام الحلو يُخرج الحياة من وكرها. أيسمعك من يستضعفك حتى لو كان الكلام الحلو على لسانك؟ ولكن مع ذلك أليست الكف الممدودة خيراً من القبضة المهدّدة؟ وهل يقبل جماعة تسي هذا الرأي؟..."

النفت برج على أثر الصوت الذي سمعه، وقال له مولى الذي اقترب منه:

– على مربط خيل دارك عدد من الفرسان.

– إن كانت نواياهم خيراً فهذا حسنٌ – قال حسن دون أن يسأل عن هُويّتهم، وارتدى قبعته على عجل. – تعال يا جار ندعوهم إلى البيت.

– أظن أن جماعة براوغه ومرزخوي لا ينونون الدخول. غير أنهم لم يستطعوا تجاوز القرية دون أن يروك ويسلّموا عليك.

– من حظ الإنسان أن لا يتتجنّبه الناس يا مولى – قابل برج حسن الفرسان المتجمّهرين أمام باب داره منادياً بأسماء المسنين منهم: – تفضلوا يا بكر، وأنت

يا إسلام، لا، لا، هذا ليس تصرُّف الأديغة. ادخلوا إلى الفناء وإن كنتم لن تدخلوا الغرفة. انزلوا عند فيء الشجرة، نرى بعضنا على الأقل. اسمع — ينادي نحو المطبخ — نكتفي بالباء البارد لضيوفنا.

— لأجل هذا يا بكر كت قلت لك: لا نزيد إزعاج حسن — برأ براعنـه إسلام نفسه، ثم عاد وصحح موقفه: — لا نستطيع حسب عاداتنا الأديغية، تجاهـل رغبةـكـبـيرـنـا.

— حسناً فعلـتـ يا بـكـرـ، حـيـاـكـ اللهـ — ولكنـ يا إـسـلـامـ ليسـ السـبـبـ وـحـدهـ كـوـنـ بـكـرـ هوـ الأـسـنـ؟ـ — مـازـحـ بـرـجـ بـرـأـعـنـهـ.

— هذا صحيح. — قال بـرـأـعـنـهـ وقدـ فـهـ مـاـ لـمـ يـقـصـحـ عـنـهـ المـضـيـفـ — "الـقـرـيـبـ لـاـ يـنـتـنـعـ مـنـ أـعـلـىـ الـعـوـدـ" اللهـ جـعـلـ مـنـ أـسـرـتـيـنـاـ أـقـرـبـاءـ خـيـرـ. اـبـنـةـ آـلـ مـرـزـخـوـيـ كـتـنـتـا رـزـقـتـنـاـ صـبـيـاـ وـبـنـتـاـ فـنـمـتـ أـسـرـتـنـاـ.

— هذا خـبـرـ سـارـ!ـ — اـنـتـفـضـ بـرـجـ بـرـأـسـهـ — لـيـكـونـاـ خـيـرـاـ عـلـىـ الـأـسـرـتـيـنـ وـعـلـىـ الـأـبـرـاخـ!ـ وـمـقـىـ حـدـثـ هـذـاـ؟ـ

— مضـىـ عـلـىـ هـذـاـ نـصـفـ عـامـ، عـجـيـبـ أـنـ مـحـمـدـاـ لـمـ يـخـبـرـكـ...ـ وـالـلـهـ أـخـيـ الأـصـغـرـ هـذـاـ رـجـلـ صـالـحـ...ـ — قال بـكـرـ لـنـفـسـهـ، ثمـ اـخـتـمـ مـُسـمـيـعـاـ الـجـمـيـعـ:ـ — يـتـدـخـلـ فـيـ مـاـ لـيـسـ مـنـ شـائـنـهـ، وـيـنـسـيـ أـمـورـ أـسـرـتـهـ.

— لاـ تـلـمـ ياـ بـكـرـ أـخـاـكـ الأـصـغـرـ مـحـمـدـ أـفـنـيـ، إـنـهـ يـحـمـلـ عـبـءـ كـثـيـرـ مـنـ قـضـاـيـاـ الـبـلـادـ الـدـيـنـيـةـ.

— سـاـمـيـونـيـ يـاـ كـبـارـ عـلـىـ تـدـحـلـيـ فـيـ الـحـدـيـثـ — قال ُعـمـشـتـ مـوـلـيـ مـسـتـعـداـ لـخـدـمـةـ الـرـجـالـ الـثـلـاثـةـ — لـوـ لـمـ يـكـنـ إـلـاـ الـمـهـمـةـ الـكـبـيـرـةـ الـتـيـ أـسـنـدـهـاـ الـمـجـلـسـ لـأـخـيـكـ مـحـمـدـ أـفـنـيـ...ـ

— نـعـمـ يـاـ جـارـيـ، نـعـمـ...ـ — عـشـرـ بـكـرـ عـلـىـ مـهـمـةـ لـلـجـارـ دـوـنـ أـنـ يـكـمـلـ كـلـامـهـ:

- يا مولى، لا تواخذني يا أخي الأصغر، بلّغ من فاحت من جهتهن رائحة الريت أن يستعجلن - وحين ابتعد مولى أكمل حسن كلامه - قلت لك يا بكر: لا تلم أخاك محمد أفندي، ولكن في كلامك نصيّباً من الصحة. أظنه يبالغ في قضيّاه الدينيّة، لا أعرف ماذا قيل له في الشام وإستانبول ومكة. يحدّث أن لا يستشيرنا في ما سيفعل. مهمّة معاون رئيس المجلس - المقرئ التي أوكلها إليه الحاج برج لا نعرفها، لا أنا ولا تسي. وأما هو، فمع أنه وصلنا توسله إلى الحاج برج، وطريقة فرض نفسه عليه، وتوسله إلى أفندي الشابسغ، يروي لنا أنه لم يكن له علم بالموضوع كله وأن منصبه أتاه من الله. وأعجب ما في الأمر أنه صدّق هو نفسه مزاعمه ويقنع المصلين الذين في قلوبهم الله.

- كنت توجّست من أن يتصرف معكم هكذا... - سوّغ بكر قطعة "الشلامه" التي لم تكن تنزل إلى معدته بجرعة ماء، واختتم: - هذا يجب أن يُعاد يوماً ما إلى وعيه، ثقتكم... - حين رأى بكر عُمشت مولى الذي أوصل مائدة الشلامه إلى الفرسان الشباب الواقفين خارج أرض الدار، توقف عن الكلام - رأيناكم بخير يا حسن، وذقنا من طعامك، والآن نستأنف طريقنا.

- ضيوفك الصابحيون أيها الرعيم المبارك - لم يستطع عُمشت أن يصبر على الخبر الذي اطلع عليه - يتوجهون إلى سهل "مامرقوه" هناك يجتمع تسي وأفمّعت موقدي جنود الأباخ. وأنا أفكّر أن أذهب معهم إذ أني لن أجد بعدهم مجموعة كبيرة كهذه.

مع أن برج حسن لم يكن على علم بالخبر الذي سمعه، فقد شهد عليه كاتماً انزعاجه:

- نعم، نعم، تسي وأنا تكلمنا قبل أيام في هذا الموضوع. سمعنا أن قيصر روسيا سيتوقف في سهل مامرقوه، ولذا سيفهمكم بشكل أكثر تفصيلاً كيف

تستقبلونه هناك، وأين ستقفون. لا يا بكر، لا. لا يخطر لك سوءٌ من جهته. لن ننسى كيف يستقبل الأديعة ضيوفهم وإن لم تستقبله استقبال الملوك. وستتصرف كما يملئه علينا.

حين اتخذت جماعة مرزخوي طريقها ظل برج حسن يذرع أرض الدار لا يجد راحة من تصرف تسي المهيمن له. دخل الغرفة وخرج منها. "مهما قلنا لتسي ومهما عاتبناه فهو لا يتقبل. ربما رفع الكلفة بينه وبيني كلياً لأنني بقيت أحترمه بصفته الأكبر سنًا. لا يسأل ولا يستشير أحداً. يفعل ما يريد، ويعيش كما يريد. ليس من اليوم فحسب بل كان يسلك هذا المسلك من عهد النائب. عليك حين تكون معاوناً لزعيم الأبراخ أن تستشير أحياناً على مبدأ: رأسان خيرٌ من رأس واحد. متى أبعدت الجميع عنك ولم تجد من تستشيره فضع قبعتك أمامك وأسألها، بل اسأل حصانك والسوط الذي تستعمله معه. هذا ما تجلبه لنا فرقة الأديعة... إذا جمعنا مندوبي المجلس بعد غد هنا فستتكلّم مرة أخرى على قضايا الأديعة — الروس لأن أمامنا أربعة أيام على وصول القيسنر".

الفصل الثامن والعشرون

اليوم مضت ستة أعوام على تبؤ القيسنر ألكسندر الثاني الحكم: كانت حرب القرم في أوجها حين استلم الحكم. وهو مسرور بأنه استطاع حتى لو لم ينتصر على الدول التي شنت عليه الحرب: تركيا وإنكلترا وفرنسا المتحالفه، عبر المحادثات مع تلك الدول التي جاهاه ولاسيما تركيا، مساوماً إياهم على موضوعات أخرى، عاصداً موقفه بما تخلّه إياه معاهدة أندرهوبول، فانتزع رغم كل الصعوبات شمال غرب القفقاس مع سواحل البحر الأسود. واليوم، وهو يرى النتائج رأي العين، يعده ما أنجزه ذكاءً كبيراً منه.

"قولوا ما تريدون وافعلوا — يقول القيسنر لنفسه معتبراً ما جرى فرحةً ومصدراً

ثقة. — جنَّةُ الأرضِ هذِه لَنَا. كَيْفَمَا تَصْرُفُ الشَّرَاكِسَةُ الَّذِينَ سَأَلْتُنِي بِهِمِ الْيَوْمِ قَابِلُنَاهُمْ وَفِي قُلُوبِنَا غَيْرُ مَا عَلَى أَسْتَنْتَنَا لَأَنَّا نَعْرُفُ مَا سَيَعْرُضُونَهُ عَلَيْنَا. إِنْ تَحْدِثُوا مَعْنَا بِلُغَةِ مَا عَرَفَ أَنَّ الْحَرْبَ وَصَلَّتْ إِلَى خَوَاتِيمِهَا فَهُمْ مُحْظَوْظُونَ. وَإِنْ قَالُوا لَا وَلَمْ يَفْهَمُونَا فَسَيَرْضُخُونَ بِقُوَّةِ السَّلَاحِ، وَسَتَكُونُ تُرْكِيَا الَّتِي مُنْحَتَكُمْ لَنَا جَنَّةً دُنْيَاكُمْ. — وَهُلْ سَتَنْتَقْلُونَ مَعَكُمُ الْجَبَالَ وَالْأَنْهَارَ وَالْغَابَاتِ؛ سَنَقُولُ لَهُمْ: سَنَعِدُكُمْ إِلَى تُرْكِيَا الَّتِي مُنْحَتَكُمْ لَنَا. لَيْسَ فِي الْوَرْقَةِ الَّتِي أَوْصَلَهَا إِلَيْيَّ قَائِدُ جَيْوَشِ الْقَفْقَاسِ بَارِيَاتِنِسْكَ مَا لَا يَمْكُنُ قَبُولَهُ¹ — وَالآنَ مَرَّةً أُخْرَى أَلْقَى الْقِيَصَرُ ذُو الْعَيْنَيْنِ الْزَّرْقَاوِينِ وَالْجَبَنِيْنِ الْعَرِيْضِ وَاللَّحِيَّةِ وَالشَّوَارِبِ الرَّقِيقَةِ الْمُتَبَاعِدَةِ

¹ تَبَعًا لِلْخَبَرِ الَّذِي أَبْلَغَنَا إِيَاهُ الْجَنْرَالُ أُورِبِيلِيَّانِي يَا سَعَادَةِ الْإِمْپَرَاطُورِ — يَكْتُبُ رَئِيسُ أَرْكَانِ الْقَوَافِلِ الْرُّوسِيَّةِ فِي الْقَفْقَاسِ مِيلِيُّوتِينْ — تُعْلِمُكُمْ بِمَجِيَّءِ مُثْلِيِ الشَّابِسُخِ وَالْأَبَرَاخِ وَالْوَبِيَّخِ الَّذِينَ لَمْ يَصَالِحُوْنَا وَالَّذِينَ تَحَالَّفُوْنَا إِلَى تَفْلِيسِ مَلَوَاضِنَنَا، وَبِرَغْبَتِهِمْ فِي مَقَابِلَتِكُمْ. وَنَحْنُ نَعْرُفُ مِنْذَ زَمْنٍ بَعِيدٍ عَدَمَ جَدَوْيَ أَمْثَالِ هَذِهِ الْلَّقَاءَتِ وَخَدَاعِ الْجَبَلِيْنِ لَنَا.

اَخْتَبَرْنَا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ضَرُورَةَ عَدَمِ عَقْدِ أَيِّ اِتْفَاقٍ مَعْ شَرَاكِسَةَ غَرْبِ الْقَفْقَاسِ، وَعَدَمِ الثَّقَةِ بِهِمْ. وَلَنْ تَسْتَطِعَ الْأَعْرَاقُ الْثَّلَاثَةُ الَّتِي عَاشَتْ حَرَةَ مُنْفَصَلَةٍ عَنْ بَعْضِهَا، وَالْمُعْتَادَةُ عَلَى التَّصْرِفَاتِ الْفَرْدِيَّةِ الْحَرَةِ، وَغَيْرِ الْخَبِيرَةِ بِتَنْظِيمِ شَؤُونِ الدُّولَةِ، أَنْ تَتَعَايَشَ أَوْ أَنْ تَعِيشَ مَعْنَا فِي سَلَامٍ. وَبِنَاءً عَلَى هَذِهِ الْمَعْطِيَّاتِ، فَرَأَيْنَا الْحَاجَةَ أَنْ مِنْ الصَّعُوبَ الْحُصُولَ عَلَى تَعْهِدَاتِ مِنْ مُوْفِدِي الْأَعْرَاقِ الْثَّلَاثَةِ. وَرَبِّما يَنْتَوُونَ الْعُودَةَ إِلَى وَعِيهِمْ وَاستِعْدَادِ قَوَافِلِهِمْ وَالْتَّحَالَفِ مَعَ أَعْدَادِنَا الْخَارِجِيَّنِ وَالْدَّاخِلِيَّنِ بِانتِظَارِ أَنْ تَشَنَّ أُورِبَا حَرِيَا لِأَنَّهُمْ فَهُمْ وَاَنْ لَا مُخْرَجٌ لَهُمْ بِسَبِبِ الْمُسْتَوْطِنَاتِ الْقَوْزَاقِيَّةِ الَّتِي أَحْطَنَاهُمْ بِهَا، وَالَّتِي هِيَ وَسِيلَةُ ضُغْطِهِمْ. وَانْطَلَاقًا مِنْ هَذِهِ الْمَعَيْرَاتِ يَمْكُنُ الْحُكْمُ بِأَنْ مُوْفِدِي الْأَدِيْغَةِ لَا يَفْكُرُونَ فِي السَّلَامِ حَقًا، وَأَنْ عَلَيْنَا مَتَابِعَةُ قَضَبِيَّانَا فِي غَرْبِ الْقَفْقَاسِ. وَنَحْنُ إِنْ طَرَدْنَا الشَّرَاكِسَةَ مِنَ الْجَبَالِ وَوَطَنَ الْقَوْزَاقِ مَكَانَهُمْ بِكُلِّ جَهْدِنَا حَقَّنَا السَّلَامَ فِي ذَلِكَ الْإِقْلِيمِ. وَإِنْ فَعَلْنَا هَذَا اَنْتَهَى أَيِّ اِحْتِمَالٍ بِخَرْجِ الْقَفْقَاسِ مِنْ يَدِنَا فِي حَالِ اِتْقَاصِ السَّلَامِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الدُّولَ الْسَّاحِلِيَّةِ" الْمُؤْلِفُ.

نظرة على الورقة، وأعادها. – يجب أن يكون الجنرال إفدوكيروف مطلعاً على هذه، أو اشتراكوا في كتابتها. كان أبلغني هذه المعلومات في ما يقواب. نعم يا الجنرال، سنرى ما يحدث، وستتصرف كما نريد وإن لم يكن هناك تراجع!" في السابع عشر من أيلول عام 1861، أفاق سهل مامرقوه على صباح خريفي ناعم حلو. ولو لا الحرب الدامية في أرض الأبخاز لكان كل ما تقع عليه العين في هدوء. وكلما هب المقاتلون الروس على صيحة النصر "هورا" تساقطت من الأشجار أوراق صفراء – حمراء، وسكنت الأصداء الممزقة في غابات الجبال.

– أتساءل ما الذي جرى هؤلاء؟! – يقول أحد الفلاحين غير متحمل ما يرى وما يسمع.

– وأين مندوبونا إذن؟

– ينتظرون أن يشير إليهم قيسار الكفار فيركضوا.

– لا أرى بينهم زعيم الشابسغ – الناخواي قارباتر!

– لم يقبل أن يأتي معهم، يسبح وحده في تيار معاكس.

تشرق شمس الخريف التي يستوي عندها الجميع من حافة الجبل. ولا يطيق تسي حاترباي صبراً:

– أتساءل: هل سجلس مكتوب الأيدي تستمع إلى طبول هؤلاء؟! هيأ نسمعهم مبارزات السيوف على ظهور الخيل، وثِرِهم ألعابنا على صهواحنا! سنذكّر ثانية من رأوها سابقاً. وغتنّ من لم يروها.

تجابه على أرض المرعى من جهة الأديعة خمسون فارساً من كل جانب كما درّهم تسي. وبأمرٍ واحدٍ استلوا سيفهم، وتعاركوا في هرج ومرج. الخيل تصهل وتتقافز، وتنيطح، والسيوف الفولاذية تصل، وعيون حماة القيسار الروسي مشدوهة بالنظر. وتفترق السيوف قبل أن تجد الفرصة لترها. وبعد هؤلاء تبدأ

ألعاب الفروسية الفردية.

ولحظة ابتداء مبارزات المشاة بالسيوف القصيرة تظهر مجموعة من الفرسان والقيصر ألكسندر الثاني بينهم. والموقدون الأديعة العشرة يتجاوزون صفوف الحرس الروسي الثلاثة.

على يمين الحصان الإنكليزي الضخم للقيصر ألكسندر الثاني وعلى يساره الجنرالات لوريس - ميليكوف، إفدوكيروف، وعلى يساره المقدم قيلان عادل جري المترجم. ووراءهم، غير بعيد، الضباط والجنرالات المشاة. اقترب القيصر قرابة عشر خطوات من الأديعة وترجل. وفعل مثله الفرسان الأديعة الثلاثة: برج جراندوف، برج حسن، وتسى حاترباي. فتألقت حلقة مستديرة كبيرة. تقدم القيصر بضع خطوات إلى وسط الحلقة، وقال:

- تخيلي أيها الأبراج!

- بارك الله فيكم. - أجاب موقدو الأديعة.

- أنا لم آت إليكم بصفة عدوٍ - قال القيصر - بل بصفة صديق نواياء حسنة. أريد من الشراكسة المتعدد الأعرق أن يعيشوا معنا بسلام وصداقة (انتبه القيصر في هذه اللحظة إلى هياج إفدوكيروف من الدم الذي هجم على وجهه)¹. روسيا دولة عظمى وأمامها مهمة تاريخية كبيرة عليها إنجازها. علينا تحصين حدود بلادنا وامتلاك بحار نعبر منها إلى غير بلادنا. ولن نستطيع الحياة من دون البحر الأسود. وعلى شق طريق يؤدي إلى طوابسه وبزامن وأنابه. وسنعواض القرى التي سُرّفال من أجل افتتاح هذا الطريق. وأنتم أريدكم أن تصبحوا من رعايا الدولة الروسية. ولا أعني بهذا فقدان هويتكم القومية:

¹ الأقواس من المؤلف.

ستعيشون وفق عاداتكم وتقالييدكم، ولن نقف في وجه مهاماتكم القومية. وأنتم من تنتخبون زعاماتكم. تختارون منذ عشرات السنين برجولة فائقة. وبهلك في هذه الحرب أبناء قومكم، وأنتم عاجزون عن الانتصار على جيشي بعده وعُدّته. فإن ألقitem السلاح كان خيراً لكم من أن تفزوا. جعل كلام القيصر الذي يترجمه لهم قبلان عادل جري الموفدين الأديعة يتداولون النظارات.

- هل يترجم هذا الضابط النغو¹ على نحو أمين ما يقوله القيصر؟ سأله تسي حاتر باي براغنه إسلام الواقف وراءه.
- إلى الآن يترجم بأمانة.
- انتبه، أخبرنا حال خيانته للنص.
- تبيّن أن الحرب وصلت إلى نهايتها - كلما مر الوقت ظهر التصميم على كلام القيصر - لا شك أن القفقاس ستتصير أرضاً روسية. ستبقى أقوامكم قائمة. وستحميكم دولة روسيا. وستندمل جراحكم. وسيتوقف العداء. وستنسون الإهانة والعار. وستعيشون حياة مواطنين في دولة. وافهموا قوله في الساعة التي ستتصير فيها القفقاس أرضاً روسية. وإن لم تفهموا هذا الأمر أو لم تقبلوه فسأوكد على جنرالاتي أن يستمروا في الحرب إلى نهايتها مهما كلفت من ضحايا. وسينفذون أوامرني. ولكن هذا سيجلب نهاية مأساوية لقومكم. فكروا!!.. كلام القيصر كلام حازم، أقول لكم إنه كلام صادق ولا تراجع عنه.

¹ النغو فرع من التتار كانوا يعيشون في شبه جزيرة القرم. وكان يعيش في القرم أيضاً مجموعة من الأديعة عاد قسم منها، وفيهم أسرة خان جري الذي كتب المؤلف نفسه رواية باسمه، إلى موطن الأديعة على نهر بشنة. ولكن الأديعة الذين عادت أسرة خان جري إليهم لم يتقبلوهم وظلوا يلقبونهم بهذا اللقب النغو.

— حين أُنْهِي القيصر كلامه خِيَّم صمتٌ ثقيل على رؤوس الأدِيغة. وكان الطرف الآخر يُحْسِن بهذا الثقل. ونقض الأمير حجمُقوه النظرات الصامتة المتبادلة:

— اسمحوا لي ببعض الكلمات. حبي لوطنِي الأدِيغة كبير. ومهما كان ثمن هذا الحب فأنا أريد أن أحميَه لأولادنا. أجدادنا حافظوا لنا عليه وهم يحاربون لأجله عشرات السنين. غير أننا نرى الآن رأي العين أننا لم نعد قادرين على حمايته بالسلاح. الروس تعدادهم كبير، ونحن قليلون. ليس بيننا تكافؤ في القوة. إن أطعتموني فلنقبل عرْضَ قيصر روسيا. ولن يعاقبنا الله على هذا القرار. لا تدعونا نخطئ؛ ولنفِّذْ!

ومرة أخرى امْتَعَنَ وجه القيصر من الأصوات التي صدرت من جانب الأدِيغة. وقال لقبيلان بعدهما ترجمَه له:

— ما قاله حجمُقوه صحيح غير أن كلامه لم يُعِجب أصحابه... خرج تسي حاترياي من بين جماعته، وقال لبراغنه إسلام متوجهًا إلى القيصر: — اسمع يا براغنه: ترجم كل ما أقول حرفياً ليعرف القيصر الذي يتَوَسَّلُ إليه حجمُقوه أن في طرفاً أيضاً شخصاً روسيًا غيره. سمعتم شروط القيصر الروسي ومطالبه منا، وأوصله إلينا. كل إنسان يولد مرة واحدة. ويشيخ حاملاً اسم قومه، ويفارق الحياة وعلى لسانه اللغة التي وضعها أمه وأبوه. ولا يعيش كأي إنسان أكثر من مئة سنة، أما الأمة فتعيش آلاف السنين. وليس تحت السماء حياة أبدية. القيصر الروسي أُعِجب بأرض القفقاس، وحارب عشرات السنين للاستيلاء عليها. ونحن نحب أرضنا، ونحميها قدرَ استطاعتنا. ونسفك دمنا، ونضحي بأرواحنا. ولكننا نفضل الموت على أن يستعبدنا الغريب. القيصر يعذُّنا بلسان معسول أن يُبْقِي على عاداتنا وتقالييدنا ولغتنا وديننا، ولكن هذا

مستحيل! — تفحص تسي الأديغة، وتأمل في عيون القريبين منه والبعيدين. ثم توجه إلى القيصر وقد أكتسب قوة من أيدوه. — لا شك أننا سنذوب بين هؤلاء، أعني الروس، كما تذوب حفنة ملح في خزان الماء! حين تُنهي حربنا لأجل حربتنا تكون أهمنا شِرعتنا الأديغية¹. وإذا سقطنا في سبيل إيماننا بمجلس حكومتنا الجديدة، وفي سبيل الحفاظ على شرفنا، فلن يعيّب علينا أحد. يتظاهر القيصر الروسي بأنه يُضمر لنا الخير؛ ما أصعب أن نصدق كلامه في حين من يقوله يسفك دمنا، ويدمر حياتنا! ستعيش أرضنا الأديغية، لن نتنازل عنها لأحد. ستكون مهداً للأبدى، أو تحول إلى قبرنا. لن تُهين بطولات أجدادنا، إما أن نموت وإما أن نموت! مهما كان نُطق الصدق المُرّ صعباً فليسمع القيصر ما في قلباً لأنّه لا يُضمر هو أيضاً لنا خيراً.

— صدقت يا حاترياي، صدقت! وافق بعضهم تسي.

— إذا كان القيصر الروسي يقول إنه أتى لزيارتنا — أكمل تسي كلامه — فلن نتخلّى عن أديغيتنا — همس تسي في أذن الحاج برج وهو ينظر حيث يقف حجمقوه، وأنهى كلامه — إن كان القيصر لن يضيف شيئاً إلى أقواله فنحن أيضاً ننهي كلامنا هنا.

— القيصر لا يكرر كلامه — حسم القيصر الموضوع، ثم التفت وهو يركب إلى الحاج برج، وقال: — لم تقل شيئاً يا برج؟!

— ما سأقوله قاله تسي. وكل ما قلناه باسم مجلس حرية الأديغة نصدق عليه بهذه الورقة التي فيها: "هذه الأرض لنا. ونحن نحاريكم منذ عشرات السنين لأن حماية أرضنا هي مهمتنا. ونتيجة لهذه المهمة اتبّعنا سبيل تأسيس دولة —

¹ ترجمنا بكلمة شرعة "أديغة خابزة" باعتبارها دستوراً للحياة والعلاقات الاجتماعية.

ونحن ندير شؤون دولتنا دون أن نؤذى أحداً، وبإنسانية وعدالة. ومن عادة الدول العظمى أن تحترم أمثال هذه الدول ذات النوايا الحسنة. وأنتم ترعمون أنكم تؤيدون من يناضلون في سبيل حريةهم. فلماذا تتصرفون معنا بهذا الأسلوب؟

نفعل كل ما بُوسعنا من أجل تنفيذ المهام التي التزمنا بها لتنفيذ مقررات حكومتنا بكل عدالة. ونحن جاهدون لحماية ممتلكات أبناء قومنا، وممتلكات من جاؤوا من بلاد غريبة. وأي نوايا تضمّنها لنا دولة عظمى كدولتكم؟ أهي مساعدتنا على إبادة قوميتنا الصغيرة أم مساعدتنا على إجراء التغييرات التي تُبغيها؟ قررنا أن نطرح قضيائنا بكل استقامة وصدق، ليس أمامكم فحسب بل أمام القوى العظمى.

كونوا عادلين بحقنا ولا تنهبوا أملاكنا ، ولا تدمروا مساجدنا ، ولا تسفكوا دمنا ! من العار على دولة عظمى أن تسرق من الناس الأبراء مقومات حياتهم. إن أسرّ الأطفال والنساء في حرب غير عادلة لا يتناسب ومفهوم الرجولة. أشعتم في العالم كله أننا متمردون. وبهذه الذريعة تشنون الحرب علينا. غير أننا نحن أيضاً أناس مثلّكم، ستحمي أرضنا مادام في عروقنا دم، ومادام في أجسادنا روح".

الفصل التاسع والعشرون

– من حظ والدي ووالدك يا بكر أنتما لم يشهدوا الأحداث الكثيرة التي جرت خلال هذه السنوات في أرض الأباخ. – قال برأّنه إسلام وهم خارجون من سهل مامرقوه، يلتلفون حول قمة الجبل. – لو لم يكن إلا ما حدث لنا وما

شهدناهاليوم... قيصر الموجيك¹ كما قال تسي، كلّمنا بلسان معسول، ثم هددنا.

- أهم الجشعون من عندنا ومن عندهم المشغولون بالبيع والشراء؟ قال ددai مؤيّداً جاره، ثم استدار وقال لفرسان قريته الأحدث سنّاً من ورائهم: - هيا ياشباب اسقونا، لستم أحسن منا بكثير.

- تشقّقى يا ددai بلا جدوى من الشباب الذين لا ذنب لهم. - لام بكر ددai وهو ينظر إلى الشباب الذين سبقوهم بحركة نشيطة. وأضاف إلى ما قاله إسلام: - نعم يا براعنّه فهمتاليوم أننا بلا أمل. غير أني أرى كلام حجمقوه أصحّ. ها هم العجدوغ والقيرتاي والبسلي صالحوا الروس.

- القوزاق الذين سقط على أيديهم والدي وكثيرون غيره - أسرع ددai قائلاً في نفسه: أعرف لماذا تقول هذا - لا يجوز أن ترفع الكلفة معهم.

- والقوزاق جزء من رعايا روسيا - قال براعنّه إسلام باسماً، وأضاف: - هؤلاء، كما كان المرحوم والدي يقول، يعتبرون أنفسهم، دون أن يكلفهم أحد، مرتدّين زي الأديغة واللباس العسكري، حماة روسيا.

- هذا صحيح، - فرح ددai لما سمعه وقوى موقفه، - ثم إن هؤلاء كما قال حجمقوه يريد بكر أن يصالحهم... أفهم، أفهم...

تبادل القرييان النظارات وقد فهمما ما لم يستطع ددai الإفصاح عنه. ولكن بعدما مشيا قليلاً، ودون أن يُيدي أيّ منهما انفعالاً، سأّل مرزخوي بكر:

- ما الذي فهمته يا ددai؟

- لا أعرف يا بكر... - قال ددai كمن يبرئ نفسه، ثم أردف حذراً: - ربما

¹ أي الفلاحين الفقراء، والمقصود به هنا وفي ما سيليه الروس عموماً.

لأنك صرت على علاقة ولو محدودة بهم... سامي أيها الكبير – أصلح ددai موقفه بسرعة، – يرون أن والدي كان يقول: ربما جعلتني الإهانة أبدأ إلى أي شيء – وأنت أيضاً يا إسلام سامي!

– إن كنت يا ددai فهمت أن من لا يقبل الإهانة يفني بسرعة فتحن نسامحك. – أجاب مرزخوي بكر جواباً حاسماً مدرجاً فيه إسلام. – ولكن أن نختتم بما يمكن أن يحدث غداً خيراً من أن نختتم بمن "له طرف قرابة أو ليس له". أنا، إن أردت الحقيقة، لست من قرية حجمقوه، ولست فلاحاً عنده، ولكني توقعت أن يؤيده الأباخ الذين سيوفهم مسلولة دائماً لأنه تكلم من زاوية نظر بعيدة ومن حكمة عميقة... وعلى ما يبدو أن تسي عبر عمما في أعماقهم. وشهد الحاج برج على صحة أقواله بالورقة التي قدمها إلى القيسير.

– نعم، نعم. – وافق ددai أقوال بكر – كلام الأمير حجمقوه في مكانه، ولكن لا أعرف إذا كانوا ترجموه ترجمة صحيحة للقيصر.

– أنا استمعت إلى لغة قبلان الروسية جيداً. – شهد برأته على صحة ترجمة المقدم قبلان. ولم ينس أن يمدح نفسه أيضاً – ترجم للقيصر دون أن ينسى كلمة واحدة. وأنا اعتبرت بكلام تسي.

– هل يعني أنك كنت تضيف إلى كلامه ما لم يقله – انفضض بكر برأسه الضخم.

– وهل يمكن أن أفعل مثل هذا يابكر؟! – اهتاج إسلام مما سمع. – أكيد لن تفعل! – وجزم بكر.

– لن يفعله أبداً! – وافق ددai مرة أخرى بكر، وأنهى بما كان يهتم – ما لم أفهمه هو سلوك برج... وقف في حضرة القيسير أصم... حقاً يا بكر وأنت قلت هذا مرة، ليس برج حسن إنساناً سياناً ولكنني أظن أنه يسمح لتسلي

حاتر باي أن يطغى عليه.

- اليوم يمكن أن تحكم بالحكم نفسه على برج جراندوه. أكتفى بأن أعطى للقيصر كتاب مجلس الحرية، ولم يقل له شيئاً ذا بال. على ما أفهم فقد نفذ الثلاثة برج وتسى وبرج مهمتهم. وقد سمعنا ما في قلب الأمير حجمقوه ولو أن الأبراخ لم يتقبلوه.

- إن كان كلام حجمقوه أعجبك يا بكر، وترى أننا سنؤول إليه يوماً، وقد أكون مخطئاً، فأنا لا أوفقه - الآن أدلّى براعنه إسلام برأيه في الأمير حجمقوه. - إذا لوح لنا من سفك دم الأديغة سنوات طويلة بيده بدلاً من السلاح؛ فهل يعني أن نخلع له قبعتنا؟.. لا أعرف كيف تفعل هذا في حضرة الشهداء والأموات والأحياء... أيعني هذا كما كان يقول تغوطقوه قازيج أننا تخلينا عن رجولتنا الأديغية وعن طلب الثأر؟! سيسخر منا كل من يسمع، سواء كان صديقاً أم عدواً.

- انظروا إلى قمة الجبل ذاك! - قال مرزخوي الذي لم يكن راضياً عن كلمات براعنه العنيفة. - أي مواجهة فرسان كثيرين تبدو؟ كأن القوزاق والأبراخ مشتبكون... تعالوا حالاً، أسرعوا!

لم يكن مرزخوي ورفاقه وحدهم من يسرعون إلى ذلك المكان: بعض الفرسان أحاد، وبعضهم مثنى، وجماعات كاملة. وغيرهم يبرزون من هنا ومن هناك. ولم يكونوا قلائل من يتفرقون غير عابئين بما يحدث في الجبل، ومن يرقبون ما سيجري.

الشمس تفارق كبد السماء كأنها تقول اشکروني إذ جلبت لكم الدفء والحياة. وبعض الجوارح الماهرة في الصيد بعيونها الحادة تدوم تحتها غير عابئة. والسواني القلقة تتعثر في الجبل. وأصوات حوافر جماعة بكر تتناثر من فوق

الطريق الجبلي.

وصل مرزخوي بكر وصحبه إلى الفرسان المتجاهلين: من جهة بلاخوه مزحب وبرسر زيوال وكوبا هارون. ومن ورائهم ُعمشت مولى الذي يستطيع بصعوبة أن ينظر من خلهم. وفلاحون أبزاخ آخرون. ومن جهة حجمقوه وعدد من حرس الأمير، ينقض أحدهم ما يقول الآخر.

- أيها الحرس — نادى الأمير حجمقوه حراسه — ابتعدوا عنى ودعونى أتكلم إلى الفلاحين الأبزاخ الذين يزعمون أني أهنتهم.

- يا حجمقوه، ألا يكفي أنك تكلمت من قلب القيصر؛ ماذا تريد أن تقول بعد؟

- يا برسر — لم يقبل أحد أتباع الأمير — اسحب كلامك المُغرض حالاً أمام الأمير.

- اصبر! — أكد حجمقوه بصوت هادئ على تابعه، وسأل بصوت أطفى: ما المشكلة في أن لا يعجب كلامي إلى القيصر برسر فيعبر هو عن رأيه؟ ما سمعتموه لا يخص شخصي فقط. لا أندم على ما قلت، وإن شئتم كررته عليكم.

- أنت ُهيننا يا حجمقوه! — حين استل بلاخوه مزحب سيفه القصير، فعل الطفان مثله.

- ُكفوا أيها الأبزاخ! — أسرع مرزخوي بكر إلى الساحة على حصانه. أي عيب تفعلونه لأن رأي حجمقوه لم يعجبكم؟! الأمير حجمقوه على أرض للأبزاخ. لا تنسوا أنه ضيف على الأبزاخ، هذا التصرف ليس منطبع الأدبي.

- لسنا مُضييفيه، بل القيصر الروسي والقوزاق! — قال كوبا هارون، ولفت

أنظار الواقفين: - انظروا، ها هم جماعة برج...
- ماذا جرى لكم أنها الأبراج شاهرين سيوفكم؟ - سأله تسيي الذي وصل
قبل برج، وكأنه لا يرى جماعة حجمقوه، ثم ألحّ عليهم: - أعيدوا أسلحتكم إلى
أغمادها!

- ما تقوله يا حاتريبي صحيح، صحيح، أيها الزعيم المبارك - أسمع غمشت
مولى الذي كان يؤيد كل من يتكلم وما يسمع، الزعيم تسيي، واختتم بكلمة
خيارٍ أخرى: - دعونا نسمع ما سيقول لنا زعيمنا برج حسن بي المبارك، وموفد
الله الأحد محمد أفندي - وأحباب أحد الفلاحين الذي نهره من خلفه: - إن
كنت ستعلمني الواجب أيها الأخ الصغير فأنا أسمعك، ولن أقول أكثر من
هذا.

- حتى لو لم تتفق وجهات نظر الأمير حجمقوه والزعيم النافذ تسيي، - قال
برج حسن دون أن يدع المتجاهلين ينتظرونه - فإن ما تتضمنه وثيقة مجلس
حرية الأديعة قريب من كلام حاتريبي. ونحن أوصلنا الورقة إلى القيسير الروسي.
وأنتم رأيتم كيف تصرف معنا. وسمعتم كلماته الختامية. ولكن لا تسمحوا
للكفار أن يقولوا إن الأديعة لم يحققوا اليوم ما يريدون فاقتتلوا. نقول لك: مع
السلامة أيها الأمير حجمقوه. لترجع بالخير إلى من فارقتهم.

- اسمعوا يا جماعة، لحظة - قال محمد أفندي واقفاً في ركاب حصانه حتى لا
يدعهم ينسوا أن اسمه ذُكر على لسان أحدهم - لتقبلوا ما أنطق به الله الذي
يبيه إلى الجميع ولا يبيه هو لأحد زعماءنا إذ لا يحدث شيء في الدنيا
العارية من دون علمه. ولتعودوا إلى أسرّكم وأنتم مرتاحون قلباً وروحاً. آمين يا
إلهي! وأنت أيها المحترم ليلين الله قلبك. ولويوقق الله بين كل من يعودون إلى
رشدهم!

– ماذا يقول هؤلاء الأ Ezra الأجلاف؟.. – تسأله الأمير حجمقوه وقلبه يتآلم
– ألم يفهموا أننا على جسر الفناء الأبدى؟ ليس بالبطولة وحدها يحيى الناس.
الدنيا مركبة من الحكمة والدهاء أيضاً، ومن اللين والظلم، ومن الصدق
والكذب، وما نعرف وما لا نعرف... لا يخاطب السلطان مغلوبيه بالصراحة
المطلقة... وإذا كان الأديعة تفارقاً يهدد بعضهم بعضاً بدلاً من أن يتعلموا
من الحكمة التي تركها لنا أجدادنا "الكلام الحلو يخرج الحياة من وكرها" فأنا من
كانوا يودعونه بالسهام. ما العمل؟ هذه طبعتنا نحن الأديعة...: – تآلم قلب
حجمقوه مرة أخرى وهو ينظر إلى الجهة التي يعود إليها الأ Ezra.

حين ارتقى الفرسان الأ Ezra الكثيرون المرتفع سأله تسبي وإن كان يعرف جواب
سؤاله باحثاً عن ذريعة للخروج من أفكاره المتلاطمة:

– أ يكون جراندوقة يتظارنا في القرية يا حسن؟ ورطنا حجمقوه متظاهراً
بالفطنة، متلاعباً بلسانه فلم يترك لنا فرصة للتحدث إلى زعيم المجلس برج.
– ليست هذه مشكلةً. سنجد الوقت للتحدث معه يا حاترباي... غير أن
سلوك القيصر الروسي معنا وأقواله لا تفارق ذهني.

– وأنا سأقول ما يشغلني: حجمقوه الذي بقي حياً بفضل تقالييدنا الأديعة.
– وربما في ما قاله حجمقوه فيه ما يدعو إلى التفكير...
– يا برج! – انفض تسبي لما سمع.

– ما الأمر يا تسبي؟! – استدار برج واعتراض برأس حصانه صاحب النداء.
– مهلاً، مهلاً يا برج – غير تسبي موقفه على غير عادته البتة حين رأى رأسي
كتيفي معترضه – لأنني رفعت صوتي قليلاً تقابلني بهذه النظرة القاسية؟! هذا لا
يجوز يا صاحبي... هل تسمع الاحتفال في الجانب الروسي؟ إنه يوم عيد كبير!
غمغم برأغنه إسلام عندما مشوا مسافة متظاهرين أن أصوات صيحات النصر

"هورا" يطلقها الجنود، وموسيقى المختلفين لا تصل إلى مسامع جماعة بكر:

- الجيش الروسي الذي لا يعرف أن اللعب آخره القتال يجتفي بقيصره.
- لا أعرف يا إسلام ما سيكون رأيك غير أني أعتقد أن الصلح كان خيراً للطرفين... يا صاحبي نحن، في جميع الأحوال، عُمرنا عمراً كافياً، ورأينا من حياتنا شيئاً. ولكن ماذا ينتظر أطفالنا غداً، وماذا سيكون مصيرهم؟ - أسرع مرزخوي بكر بحصانه حين امتنع حفيدها لابنته أمام عينيه ناسياً قريبه براعنده.

الفصل الثالثون

كان بكر قلباً وروحاً في تامبي حبله وإن لم يكن ما رأه في سهل مامرقوه يفارق مخيلته، وما سمعه من خطابات متناقضة لا يزال في أذنيه، والقيسر الذي يغلب عليه الفرح والاعتداد بالنفس ماثل أمام عينيه.

ليست هذه أول مرة يخرج فيها بكر من القرية ويعود إليها، ولا أول مرة يركب فيها طريقاً خطيراً ويعود منه. ولكنه لا يتذكر قلقاً كالذى عاينهاليوم. وحين دخل داره مرهق الجسم والقلب سأله المرأة التي كانت ترفع الغسيل عن الحبل:

- عجبأ، أراك وحيدة يا ابنة آل تازه!

- وكيف أكون وحيدة والله الكبير وأنت في قلبي! - استقبلت جانشر زوجها.

- حسن أن يكون الله في قلبك، ليغمرك بإحسانه! ولكن سلفك محمد أمين لن يقبل منك أن تُرْقِيَني بالله - منزح بكر مع زوجته. ثم سألهما: - أين صغيرانا؟

- وأين سيكونان؟ هما عند آل براعندهما أهلهما. ليس هذا مهم؟ ماذا جرى حيث كنتم؟

- ماذا تقولين! - ارفع صوت بكر - ما المهم إن لم يكن موضوعهما مهم؟ أتكونين مللت منهما؟!

- أملٌ منهمما!...

- من يعرف؟ أنا راغب في رؤية ابنتنا بعضاً النظر عنهم. - قال بكر الآن بصوت لطف، وأجاب على ما سُئل عنه، شاعراً بثقل السؤال والجواب: - لا خيرَ حيثْ كنا يا ابنة آل تازه. ولكن كان الأفضل أن تصالح. ولا أظن نداء المجلس الذي سُلِّم إلى القيسير سيؤدي إلى نتيجة.

- والحياة الصفراء يجدون وسيلة يدّجّونها بها... لو أنّ في رجال الأبراخ شيئاً من الحكمة... .

- يا ابنة آل تازه - نهر بكر زوجته جانشر ولم يدعها تكمل كلامها. - ليست تربية رجال الأبراخ من مهامك! دعكِ من هذا وهاتي لي شيئاً أكله! بعدما تناول بكر بعض لقمِ لفت انتباهه أصواتُ أطفال قادمة من جهة المدخل المنسقوف للبيت.

- ها هما من كنت تنتظّرها قد وصلا - قالت جانشر. دخلت نفست إلى الغرفة ومعها التوأمان اللذان في عمر سنة ونصف: الصبي يتقدمها والصبية على صدرها. وحين ركض "كولس" نحو جده انتزعت "لاشين" نفسها من صدر أمها ولحقت بأخيها.

- هل رجعتم إلىّ يا صغيري! - وأنا اشتقت إليّكما. - ضم بكر الطفلين إلى صدره كلاً بيد، وقبل رأسيهما - والآن اجلسا على ركبتي - المهرين، سنطوف أرجاء بلاد الأبراخ.

- عدت للتو يا والدنا من السفر، لا تُتعب نفسك من أجلهما - قالت نفست لطفيّلها قلقة على والدها: - هيا يا لاشين وأنت يا كولس، عانقا جدتكما أيضاً. ستقدم لكما من الحلوي.

- ألا تحبانني أكثر مما تحبان جدتكما يا صغيري؟ - سأّل بكر حفيديه وأصلح

كلامه بسرعة: - لا، لا، وتحبان جدتكم. - ولم يطق بكر إلا أن يتكلم على الموضوع الذي كان يتفادى الحديث فيه: - أظنك تعرفين يا ابنتي أننا لم نحمل أخباراً سارة... ولكن، أتسمعنان، كلتاكم، لا داعي لليلأس! مصير الأبراخ مصيرنا.

- نعم، هذا هو يا بكر، مصيرنا هو مصير غيرنا - وافتقت جانشر زوجها وأخافت قلقها على ابنتها وحفيدتها. - ألن يعود الطرفان يوماً إلى وعيهما؟! - يجب أن يعود من هاجمونا وأقلقونا إلى الوعي أولاً! - أسرعت نفست التي كانت ترفع مائدة والدها.

- كفى، ليست أمور البلاد من مهماتنا! - لامت جانشر ابنتها وهي تنظر بطرف عينها إلى الرجل، ثم مزحت معها: - إن كنت لا تريدين أن يطلقك من أنت كنّتهم، آل براعنّه، فعودي إليهم، الليل محلّ.

- لن أدع آل براعنّه يصلون إلى هذا الحد يا نان، ولن أدعّهم يعتباون عليكم مزحت نفست مع أمها، ثم أبدت رأيها في "شؤون البلاد" آملةً أن يؤيدها والدها: - ورأيي في الموضوع الآخر هو: لا يجوز أن نسمح للموجيّك أن يفعلوا في بلاد الأبراخ ما يريدون ونحن مكتوفو الأيدي.

- حسبي كلامك يا ابنتي - قال بكر مخفياً ارتعابه الشديد - أنت مع الرجال.

- لست وحدي من معهم، حمّي، وجارتاي العجوزان وكناًهما. ونان معنا بقلبها ولو أنها لا تستطيع البوج. نعم يا نان، نعم، لا تتراجع عن موقفك حياء وخوفاً من والدنا. كنت توافقيننا قبل أيام.

- لا، لا. لا تخافي على من هذه الناحية يا ابنتي. لا أندم على ما قلت. ولا أزال معك إن صدقْتَ في موقعي. وستتفهم نساء آخر موقفنا.

– اسمع يا كولس، اسمع ما تقول هاتان، هاتان اللتان تلبسان غطاء الرأس! –
قال وهو ينظر نحو الحصان الخشبي وراء الجدار، وكان يُجليس عليه حفيده حين
يأتونه به – تعال يا ولدي، سأركيك الحصان... – وحين تعلقت لاشين بيده
جدها وكأنها تقول "وأنا أيضاً" لاطفها: – وأنت يا حلوتي إن كنت ستتصبحين
رفقة جيدة، ولكن هاتين، والدتك وجدتك ستعتباً عليك... تعالى، تعالى،
يقال "قائمة البقرة لا تقتل عجلًا"، افرحي إن قبلوك في جمعية الأمهات التي
أسسَتَها والدتك... .

– جمعية الأمهات يا والدنا، ما أحسن ما ذكرتَنا بها. وأنتِ يا نان، ستتضمين
منذ اليوم إليها دون انتظار أن تكبر لاشين، – قالت نفست لوالدتها ونادت
ولديها مؤكدة لأمهات: – وأنتما يا آل براغنة لنعد إلى البيت، كما يقول جدكما
"كلٌّ بيته قائمة بقرة، ونحن بيتنا من ذهب" ¹

– مهلاً، مهلاً – نحضرت جانشر بنشاط – هل تُعيدك إلى أهل زوجك فارغة
اليدين؟ حضرت لك من الجبن والقشطة والخبز الطازج.

– يا نان، أليس عند آل براغنة مما عدديت؟
– عندهم يا ابنتي؛ أيمكن لأسرة كادحين ألا يكون عندهم؟ ولكن كما كانت
حاتي، ليرزقها الله الجنة، تقول: يجب أن يكون بين الناس "هات وخذ" .

– نعم يا ابنتي، جدتك التي لم تُدركها كانت امرأة حكيمة. افعلي ما تقول لك
أمك، واحفظيه في قلبك، لأنه لا يتعلق كل شيء بالملك. – وافق بكر امرأته
وكأنه يعيد ترتيب الأقوال المتعلقة بالملك. واختتم بما يُرضي – عندنا، بفضل
الله، ما نأخذ منه وما نضيف إليه.

¹ عبارة ثقال عند افتراق زملاء اللعب.

حين انصرفت نات — نفست إلى أهل زوجها آل براغنه جلس بكر لأنّه يتفحص البيت الذي خلا من أصوات الأطفال، ثم توجه إلى النافذة مهموماً بتأخر المرأة التي شيعت ابنتها وحفيدتها: الشمس التي لونت سماء الخريف بالأحمر القاني تغرب محركاً أعلى أشجار الغابة. وجانشر ونفست تتحادثان عند الباب وبيد كلٍّ منها طفل. وصوت الأذان، وكان يدوى وسط القرية، يتبدّل في نار السماء التي تنطفئ شيئاً فشيئاً.

"قلت يا ابنتي إن على من هاجمونا وأقلقو حياتنا أن يعودوا إلى وعيهم — عصر الألم قلب بكر — ولكن من قابلناهم اليوم ليس عندهم مثل هذه النيّة. هؤلاء لهم ما ليس لهم. سيجعلونك ترضخ مقدّماً لهم ما انتزعوه منك. بل سيُفهمونك أنّهم صاروا مُضييفيك، وأنت ضيف عليهم. القيصر الذي قال دون أن تطرف عينيه "ستكون القفقاس أرضاً روسية" هل يمكن أن يتنازل عما قال؟ إذن كيف نجسّد كلام تسي الذي قال "لن نتنازل عن قفقاسنا لأحد، ستكون مهدنا الأبدى أو قيراً لنا، إما أن نموت وإما أن نموت"؟ الجيش الذي أسسه المجلس من خمسة عشر ألفاً، ولنُضِف إليهم مثلهم أو مثلهم، كيف سيتصدى لجيش من مئة ألف بالإضافة إلى السفن المرتبطة على سواحلنا؟ على ما يبدو نحن نهددهم... لا، لا أرى نفسي معدوم الرجولة، وعند الحاجة أضحى بروحي من أجل هؤلاء الذين على الباب. لا أظن أبواب الحل مقفلة تماماً أمام قضيتنا... وإن حدث أن صالحناهم دون أن نرفع راية الاستسلام؟ لا أعرف ماذا تقول يا مرزخوي. — ضحك بكر من نفسه نتيجة السؤال المفاجئ. — كيف نصالحهم دون رفع الأيدي؟.. إذن كان علىي أن أقف إلى جانب حجمقوه حين تكلم، لا مع تسي. حين تصدى شباب الأباخ على المرتفع لحجمقوه همّيناه، تسي وبرج وأنا، باسم شرعة الأديمة والشرف، وإلا فقد عبر عما في قلبي بما لم يغفروه

له، وما لم أستطع أن أقوله... أقوال تسيي الصريحة صحيحة، سندوب فيهم كما تندوب حفنة ملح في خزان ماء خشبي... أليس برأغنه قريئنا من جهة ابنتنا مثلاً لنا؟ - ارتعب بكر في هذه اللحظة، فجعله مشهد نات - نفست وحفيديه الذي انتصب أمام عينيه يتسمى في مكانه. ثم عاد وجلس على المبعد الذي رفعه عنه قلقه بعدهما سمع وقع خطوات زوجته.

- طال تشبيعك يا ابنة آل تازه - لام جانشر التي دخلت الغرفة.

- حفيديانا، وأنت تعرف، تخلصت منها بصعوبة. وأما ابنتنا فلن تشبع منها أبداً... - قالت جانشر لزوجها وجلسه لا تعجبها: - لماذا جلوشك، رجال القرية في طريقهم إلى الصلاة في الجامع، وهذا هو ماء وضوئك كانت نفست حضرته لك. تصلي هناك وتروح عن نفسك.

- إن كان هذا رأيك يا ابنة آل تازه فسأنفذ كلامك - نمض بكر مخفياً عن زوجته شعوره بالثقل من قامته الشخينة المستوية، وتوضأ، ثم استجوب جانشر: - ماذا لاحظت على حتى تطليبي مني الترويجه عن النفس؟ أرأيت في شيئاً جديداً عن ذي قبل؟

- لا، لا. لا سمح الله يا بكر. كل شيء بخير باستثناء عودتكم من حيث كنتم يائسين. أسرتنا في سلام، وأطفالنا ينشئون. وكما يقول سلفي أخوك الأصغر الأفendi: الله سيفهمنا وسينظر إلينا بعين العطف.

- إن كان كل شيء بخير يا ابنة آل تازه، ولا شيء يدعو للقلق فسأذهب إلى صلاتي مطمئناً - قال بكر وهو يخرج ثم غمغم لنفسه: "أخي الأفendi يقول الكثير، ويدفعنا أيضاً إلى القول. ولكن لا أحد يسمعنا أو يفهمنا... حان الوقت لنتكاشف أنا وهو في مكنونات قلبينا... يا ربى أيمكن لمن سيسافرون إلى إنكلترا أن يأتونا بأخبار طيبة؟"

عصر الألم قلب جانشر وهي تتبع بعينيها الرجل الذي كان يخترق بداية الظلام
بكثفيه العريضتين وقامته المخيبة قليلاً.

فرح بكر لما رأى حسان أخيه بين أحصنة الفرسان المجتمعين أمام الجامع مع أنه
لم يمض إلا بضع ساعات على لقاء الأخوين مرزخوي في سهل مامرقوه، غير
أنه استاء من عدم نزوله في الدار التي ولد فيها بل أمام الجامع، وفي هذا الوقت
قابل محمد بن ددای فقال له:

– يا محمد، لن تفوتك الصلاة، خذ حسان سبّيك الأفندى إلى بيتنا.
احتشد في الجامع كثير من المصلين، ربما لأن محمد أفندي زار القرية. ويبحث
بكر عن أخيه ولكن لا يراه. وفيما هو يقول لنفسه "سأحسّبه دون اعتبار
عمامته" التفت إلى من ناداه وقد تعرّف صوته:

– رأيتك ورأيّتني يا بكر في سهل مامرقوه اليوم، غير أننا لم نستطع أن نلتقي.
حين نعود إلى البيت بعد أداء الصلاة إلى الله الأحد مقصودنا سنجتمع وعندنا
مزيد من الوقت، ونتحدث. هيا يا إخوتي الذين وصلتهم دروسُ معرفة الله
لتنفضّل إلى بيت الله – حين دخل محمد أفندي إلى الجامع والمصلون وراءه
وقف أمامهم، ثم أضاف: ارتحوا على سجادات الصلاة لأنّي سأبلغكم أوامر
زعماء الأرباح القصيرة، واسمعوا. يا جماعة، قيصر الكفار الذي انتظرناه عاماً
كاماً، لم نستطع التفاهم معه هذا اليوم. ولما لم يقبل ما اقتربناه عليه لم
نتراجع. وشهد موFDA قريتنا براغنه إسلام ومرخوي بكر رأي العين ما حدث.
وتوزع على القرى من طرف الأرباح برج وتسى، ومن طرف الوبيخ برج، ومن
طرف الشابسغ زان، وغيرهم من الرجال الحكماء مثلّي ليبلغوهم ما جرى. وأنا
أبدأ درس الموعظ الأول في قرية تامبي حبله: قيصر البلاد الكافرة التي نهبتنا
قرابة مئة سنة طلب منا بعين لا تعرف الخجل إلقاء سلاحنا، والخروج من

الجبال إلى أماكن تحدها روسيا لنا، فإن لم تقبلوا بهذه الشروط فأمامكم طريق تركيا بلا رجعة.

- أئي تركيا التي لا يمل القوزاق من تكرارها! - لم يُطق ددai صبراً.

- وجواب هذا سيكون قصيراً. يا من أدعوا الله أن يُحسن إليه، يا ددai، يعنون أن نستقر بين أتباع ديننا الترك لأنهم، أقصد الروس، كفار.

- نحن لسنا أتراكاً! - ارتفع صوت آخر.

- نعم لسنا أتراكاً. - قال محمد أفندي، وأضاف بعد قليل: - ولكن الحق أننا وإياهم على دين واحد. لا تنسوا أن كل من قبلوا الإسلام ديناً إخوة. في هذا اليوم الذي علينا أن نتحلى بالوحدة والرجلولة إما أن نموت وإما أن نموت، كما كان يقول أجدادنا الشجعان.

- ألم يبق يا أفندي أي أمل؟ - سأل فلاخ أيضاً.

- من يحرمهم الله من الأمل هم الكفار يا أخي. نحن أملنا في رجولة الأديعة التي يمجدونها في الدنيا. وأملنا في الدول التي سيرسل إليها مجلسنا نداءه. ونأمل أن تفهمنا إنجلترا التي يسافر إليها موقدونا غداً. لسنا وحدنا نحن الأبرار، الله العلي معنا. نحن تحت راية الإسلام. والآن قفوا ورائي يا جماعة وادعوا معى أن يصل إلى دعاؤنا، وينظر إلينا بعين العطف، ويساندنا. الله أكبر!

بعدما رجع الأخوان مرزخوي معاً من الجامع، وتناولوا العشاء دون أن يتبادلا حديثاً ذا بال، انتظر بكر ريشما رفعت جانشر المائدة، ثم سأله أخي الأصغر باسماً:

- أنت مقتنع بما قلته في الجامع يا أخي؟

- يا بكر، أعيش راضياً بالله وبكل ما نفعله بأمره. ما الأمر يا أخي الأكبر؟ أوجدت ما لا يجوز في الموعظة التي أنزلها الله علينا ونقلتها إليكم؟

- أبعد عني يا مرزخوي رباءك الديني! - تفجّر غضب بكر من كلام أخيه وأسئلته له - لو كان الناس يعرفونك كما أعرفك ... ألا تفهم أنك أنت وأمثالك من الأفندية من لم يصبحوا أفندية بعد إلا بشراحتهم على المائد، أوصلتمونا إلى معبر الأموات وأنتم ترددون هذه الكلمات! إذا سمعت أنك قلت مثل هذه الأقوال بحضوري أم بغierre فسأفضحك أمام الناس. وسأكشف أسرارك.

- ما الذي أثارك إلى هذا الحد يا بكر! ألا تخاف من الله العلي العظيم الذي نحن أمهته؟ أنت تسيء إلى.

- كفاك كلاماً! - نهر بكر ثانية أخاه الأصغر، ثم خاطبه بلهجة ألطف: - لنتوضأ ولنمض إلى صلاة العشاء في الجامع.

- والله لا أعرف بعد كل ما قلته بحقي كيف تدخل بي إلى جموع المصلين وأنت لا تثق بي؟

- ستقف إلى جانبي كسائر المصلين، وتترك إمام القرية يصلي بنا. نظرت جانشر التي انتظرت فراغ زوجها من الوضوء ساهمة في وجه زوجها: - يا مصيبي يا بكر، ماذا حدث بينكمما أنت وأخوك؟ حضر أخوك أشياءه وركب.

- سلفك الأفndي يا ابنة آل تازه - قال بكر كمن لم يحدث شيء البتة - ييدو أنه لم يفهم ما قلناه له. إن كان ركب فليركب! هل أفندية هذه الأيام أحسن من النائب الذي خدعنا؟ هذا هو مثالم... خفف عني أخي صلاة العشاء. لن أذهب إلى الجامع، سأصلي هنا في البيت.

الفصل الحادي والثلاثون

كان الطريق على الموفدين إلى إنكلترا صعباً عليهم من البحر الأسود وحتى إستانبول. لم يكن السبب الوحيد هياج البحر المعتمد في الخريف، استغلوا سواد الليل وسرعة المركب التركي فتجنبوا بصعوبة مراكب الرصد الروسية.

ما إن خرج زيا بش إسماعيل وخوشت حسن الحاج من المركب حتى استقبلهم "التاجر" الإنكليزي الذي عاش مع الأديغة قبل عشرين عاماً جيمس بيل¹. ولما كان الثلاثة جمعتهم منذ زمن بعيد قضايا الأديغة فقد تبادلوا العناق الحار.

- الآن إن شاء الله - قال جيمس بيل بكلمات أديغية منمقة - لا خوف عليكم. متى ما خرجنا من تركيا، ووصلنا إلى فرنسا، وركبنا المركب على بحر المانش ، فاعتبرنا نفسيكما وصلتما إلى إنكلترا. وأنا سأعتبر نفسي دخلت بيتي الذي تركته منذ زمن طويل.

- هذا بيتك أنت... - ابتسם خوشت الحاج - ونحن؟

- كأنك ارتعبت يا حاج! - سأله زيا بش بطريقة لا تعرف أهو جاذب أم يمرح.

- لا شيء من هذا القبيل بفضل الله يا إسماعيل. هؤلاء الأتراك أصحاب الطراييش الحمراء الذين نخالطهم الآن، والإإنكليز الذين سبّح إليهم، أين يذهبون متّجاوزين مضيقنا جيمس؟ هؤلاء أناس مثلنا حتى لو لم يتكلموا لغتنا. أليس كذلك يا زعيم الخير؟

أفكار زيا بش إسماعيل في هذه اللحظة في إنكلترا، عند صديق سابق لزان

¹ الأهلة حول صفة جيمس بيل من الكاتب، والسبب هو أن جيمس بيل الإنكليزي دخل القفقاس عبر البحر الأسود بصفة تاجر عام 1837 وأقام فيها أكثر من ستين، وكتب يوميات مفصلة جداً في جزأين. وُرُجِّحَت إلى الفرنسية، وُتُشَرِّطَت مسبوقة بمدخل مهم للمترجم فيفيان يلّحص فيه كافة الزيارات الاستكشافية إلى القفقاس.

سفربي ومعرفةٍ عنده هو وركفارت ديفيد. ويظير بقلبه نحو الأماكن التي نسيها، والتي هي أمامه، ولا تفارق مخيلته كأنه يعرف إنكلترا منذ زمن بعيد. إن سمحوا له أن يلقي كلمة في مجلسهم النيابي، فبدايتها وخاتمتها جاهزتان تماماً. ولا مشكلة في ما بينهما. ما سيأتي على ذكره هو مأساة الأديغة التي ترتبط بها حياته. وسيعبر عمما في قلبه حقيقة تبعاً لحسن استمعاهم إليه. وسيطّل عليهم على ما فعلوا بالأديغة، ويُسمع مأساتهم للعلم. "لن أتسلّل ولن أدعهم يرون دموعي. ولن أسمعهم صوتي المتهدرج. ولن أحيد عن هويتي الأديغية..."

- هل قلت شيئاً يا حاج؟ - صاحا زيابش إسماعيل فخرج من أفكاره.

- والله يا إسماعيل لم أقل شيئاً ذا بال... أستغرب هذا العالم الذي جئنا إليه وإن رأيت الكثير في حياتي. ما أكثر المساجد التي بنوها في إسطنبول، والتي تُطأول ما ذُكر السماء خلال السنوات القليلة التي غبتها عنها... أرجوكم باسم الله - أنت يا جيمس لا شأن لك بالرجاء باعتبارك غير مسلم وإن كنت تعرف الأديغية جيداً - أن نصلي في أحدها.

- لا تلهف يا حاج. - قال زيابش دون مبالاة - سنلتحق بها.

- ستتوقفون عند الفندق القريب من بيت السفير الإنجليزي - طمان بيل الحاج خوشت - وهذا قريب من أكبر مسجد في إسطنبول يؤمنه آلاف المصلين، سنصلّي فيه.

- سبحان الله ما أكبّره! - أضاف خوشت حسن وهو يكرر التعجب - لا أساوي شيئاً بالحجر الأسود في مكة، ولكن لا أظن في القاهرة ولا في الشام مثله...

- في القاهرة ودمشق مساجد كبيرة بناها الملاليك - أجاب جيمس بيل على

الحاج – المسجد الذي في دمشق يتسع لحوالي اثنى عشر ألف مصلٍ¹.

– سبحان الله، سبحان الله! – لا يزال خوشت يستغرب – وهل هذا مما بناه المماليك الشراكسة؟

– لا، هذا بُني قبل المماليك الشراكسة. كان معبدًا في عهد بيزنطة الشرقية فغيره العرب المسلمون إلى جامع.

– سبحان الله، تحدث في العالم أمور كثيرة لا تعرفها.

– كفى يا حسن، – قاطع زبابش إسماعيل الحاج الذي هو أصغر منه. – تعلق بالكثير على ما رأيت وما لم تر مثل محمد أفندي الأباخ. لم تأت إلى تركيا للصلوة، بل نحن على طريق إنكلترا. علينا التفكير في ما ينتظرا.

– تمام يا إسماعيل، تمام² ...

أفكار إسماعيل تجري هاربة منه دون أن تتمثل لعينيه شوارع إستانبول وحال الدنيا بعد الظهر: "ليست هينة المهمة التي التزمنا بها والتي رأونا أهلاً لها. يا رب هل سيسقطنا القادة الإنكليز الذين وضعنا أملنا فيهم كغيرهم من يشرون إلىينا متى أدرنا ظهورنا إشارات مجانية بأصابعهم؟ هل سنعود بخفي حنين ومن يسمعنا يسخر منا؟ ارحمنا يا إلهي وانظر إلىينا بعين العطف. وافهمنا، واحسنا! الإنجليز مناط أملنا اليوم أكثر من تركيا. اجعلهم يسمعون كلامنا، ويساندوننا".

– لا اعتراض لي يا حاج على الصلاة التي تتكلّم عليها – أفاق زبابش من أفكاره، وصرّح بما يُهمه – ولكن ما إن يشيع خبر سفرنا إلى إنكلترا في مهمة تتعلق بالأدبيّة حتى تمنّعنا تركيا وروسيا من الوصول إليها.

– نعم، نعم – وافقه جيمس – من يتّجسّسُ هنا أكثر من يستمع. أنا لن

¹ يقصد الجامع الأموي.

² تمام بالعربية في الأصل.

أوصلكم إلى الفندق، وانتبهوا إلى ما ستقولون وما ستفعلون. غداً سنركب مع موعد شرب الشاي الباخرة المتجهة إلى مرسيليا في فرنسا. وأنا مسافر معكم ولكن بصفة تاجر وبيننا معرفة قديمة.

- ونحن نذهب إلى الكعبة، على طريق الحج. - أضاف زيا بش. حين ركب الموفدون الأديغة في اليوم التالي، وفي الموعد المحدد، السفينة، سأل

زيا بشُ بيل بش به لا مبلاة:

- ما أخبار المكان الذي نقصده، وماذا ينتظرنا، ومن سنقابل؟

- نحن أحرار في مقابلة الجميع باستثناء الملك.

- هذا صحيح وحسنٌ إن لم يفعلوا بنا ما فعلوه بـ "أجبه جمِيرس" ... - قال زيا بش ونظر نحو الحاج خوشت.

كان أجبه جمِيرس قد سافر باسم الوبيخ والساز - الأباطحة إلى إنجلترا. ورجع إلى من أوفدوه دون أن يقابل الكثير. ومنذ ذلك الوقت فقد الوبيخ ثقتهما، ولكنهم بسبب الضرورة لم يستطعوا إلا السفر إلى هذا المكان البعيد بناء على قرار المجلس.

- صحيح - أجاب زيا بش نفسه على سؤاله - ليس العهد الذي زار فيه جمِيرس إنكلترا مثل هذا العهد. بل إن زماننا هو الزمان الذي يختلف فيه كل يوم عن سابقه. لا داعي لللِّيأس. ما حملنا الله حملُنا. ماذا يساوي هذا بالقياس إلى الْبُؤس الذي يعاني منه الأديغى المسكين!

- هذا كلام عادل. - يوافقه الحاج خوشت، ويضيف إليه وجهة نظره - سافرنا وفي قلوبنا الخير، ستفعل ما بُؤسِعْنا، ولن يلومنا أحدٌ على ما لا نقدر عليه.

- صحيح يا حاج. ولكن الأفضل ألا نعود دون تحقيق شيء. الحق لو باعونا

في السفينة بعض البارود والذخيرة مع بضعة مدافع لرضاينا.

– إذن اعتبر يا إسماعيل أن هدفك من الزيارة تحقق – ضحك جيمس – يمكنني حتى بدون دولتنا أن أحقق لكم هذا. وقد فكرنا نحن – داعمي الشراكسة – بمثل هذه المساعدات. حاربوا الروس ولا تسمحوا لهم بالاقتراب من الساحل نأتكم بأكثر مما نأتي به الآن. وتركيا التي لا تضمرون لها الود ستساعدكم خفيةً. والفرنسيون لم ينسوكم. وسأخبركم بخبر سارٍ آخر: الحرب التي ستشنها أوروبا على روسيا لم تعد بعيدة. فلا تتراجعوا! متى ما مرق الأوروبيون روسيا النهاية عدم إلى أرضكم الجنة، وارتحتم.

– لتنطق دائماً بالخير يا جيمس! وإذا كانت إنكلترا التي أوفدتكم تقول هذا فشكراً لكم. – قال زيا بش إسماعيل، وأضاف ووجهه يُمتعّ: – ومع ذلك أعتقد أن إيماع العالم صوت الأديعة أثمن من السلاح وأشدّ أثراً منه. لو عرفت أني قادر، وأنكم سيسمعونني لنصبت سلماً إلى السماء وأذعّ من هناك على الأرض كلها مأساة الأديعة. ولكنني أفهم أن إنكلترا لن تعطينا السلاح والذخيرة والمدافع دون مقابل؛ أليس كذلك يا جيمس؟

كان جيمس بيل رؤيتان للنقاش الذي دار بين موافي الأديعة. في البداية ضحك في قلبه من الرأي القائل إن أحداً لا يعطيك شيئاً دون مقابل. "لا تظلووا أن الأقوام الأخرى تعيش كالأديعة بمضافات وموائد مفتوحة" إطعام الضيوف بلا مقابل لم يبق من يفعله غيركم وغير قليل من الأقوام تعيش على الطرقات. وأنا جربت هذا خلال سنوات طويلة. هل هذا حسن؟ حسنٌ لمن يأتي إليكم، ولكن لكم؟ أنتم تغدوون عليهم ما تملكون فتبذرون أموالكم. أهذا رباء؟ لا، هذا لا ينطبق عليكم. ما هو إذن؟ عندي أنا جواب قاطع ولكنكم لستم جاهزين بعد لإعطاء جواب حاسم. حسنٌ يا إلهي أن يكون هؤلاء

هكذا. أنت من يُنيل الإنسان جزاء معروفة ومن يسلبه منه. لتمدّ يا ربّ في عمر الأديعة دون أن تضرّهم رجولتهم وبراءتهم. الأديعة الذين يقاسموني لقامتهم ماذا أقول لكم؟ لست من سعوا بمساتكم شفافاً. بل رأيتها رأي العين، والجراح التي أصبت بها في حروبكم شهودي. المهمة التي كلفوني بها وأنا لا أريدها من قلبي أنفذها خجلاً منها. لا تهمني أسرار إنكلترا ولا أسرار تركيا. أأقول الحقيقة لهذين الموفدين اللذين جئت بهما إلى هذا الطريق الذي لا وضوح فيه، وأعود معهما؟.. أتوسل إليك يا ربّ، مع أني أعرف أن مهمتهما فاشلة، أن تُنجحها، وترق قلوب من سيقابلانهم. هؤلاء ناس صادقون سليمو الطوية، عشاق حرية، أصحاب رجولة، يستحقون أي شيء تقدمه لهم. لو كنت سلطاناً جعلت العالم كله يقف إلى جانبهم!.."

الموفدان الأديعيان على الطريق إلى إنجلترا منذ أكثر من أربعين يوماً. وحين وصلا إلى لندن واستقرا في الفندق نسيا متاعب الطريق. وما لم يستطعوا تفسيره هو الضباب الكثيف في سماء المدينة. أصوات الشوارع والبيوت مضاءة حتى وقت الظهرة. وداخل عربات النقل تضاء المصايبح. والراكب على نهر التايمز تتلامع.

- أتساءل ألا يملك هؤلاء شمساً؟ - ينظر الحاج خوشت من خلال النافذة - المدينة تائهة في الضباب. سبحانه الله، لن يصدق الشابسغ إن وصفت لهم الطبيعة التي نحن فيها... ما أدعى طبيعة العالم الذي جئنا إليه إلى اليأس بالقياس إلى نواحينا! لا أظن أن ليلهم ونمارهم يختلفان. نحن في أمان الله يا إسماعيل.

- لا داعي لل Yas، لا يحدث شيء في الدنيا دون علمه يا حاج. الضباب سينقشع بين اليوم والغد، أما أهم المهمات فهي ما كُلِّفنا بها. وليس الأمر أني

لا أثق في وركفارت الذي استقبلنا هذه الغاية، ولا أن كلامه غير نافذ. حين كان هذا الأخير يؤدي عمله في السفارة الإنكليزية في إسطنبول أفادنا كثيراً في قضيائنا الأدبية. وركفارت هذا، إن كنت تذكر، هو من أرسل الكاتب لونغفورد برفقة جيمس بيل إلى نواحينا. وحين أعيد إلى إنكلترا لم ينس مشكوراً قضيائنا الأدبية.

- وركفارت رجل وقور. رأي فيه أنه رجل لا يختلف قوله عن فعله. - وافق الحاج خوشت زيا بش ، وأنهى بعد وقفة قصيرة - سنبتهل يا إسماعيل إلى ربنا الرحيم، وقد صلينا المغرب، ولن نفوّت صلاة العشاء، رغم تعينا، أن تشرق علينا شمس من نحن ضيوفهم، وأن يكون خارانا القادم خيراً علينا.

حين نظر زيا بش إسماعيل الذي استيقظ أولاً في الصباح رأى أول ما رأى شمس الخريف الحمراء الكبيرة تشرق من جهة النافذة. انتظر قليلاً أن يفique رفيقه الحاج على نور الشمس، فلما لم يُفِق ناداه:

- يا حاج، يفوتك منظر شمس الإنكليز، وصلاة الصبح.

- هكذا! - جلس الحاج خوشت في الفراش. - لا يجوز تفويت صلاة الصبح، يا ربى، هل شمس هؤلاء مثل شمسنا؟ لا أعرف ماذا أقول! - نهر نفسه - الله الذي خلق العالم، نعم، العالم الكبير، هيئاً لنا شمساً واحدة، وقمراً واحداً.

- ونجوم السماء أيضاً - أضاف زيا بش إلى الحاج. وذكره موعد صلاة الصبح. في الأيام الأولى لم يهدا زيا بش وصاحبته. ولم يظهر بين من أتاها للمندوبيين الأدبيين مقابلتهم من يجهل القضية الأدبية. ووعدوهما بالأسلحة التي سافرا من أجلها. ووعدوهما بتزويدهما، ليس بياخرة واحدة، بل باثنتين أو ثلاث. وفرح الاثنان لأن أحداً فهمهما. ولكن أشدّ ما سرعهما هو الترحيب الذي كان

مثل زوجة الملك يستقبلهما به، وما كان يقول لهما. الرجل التحيف الطويل القامة الذي استقبلهما أعجب زيا بش وال الحاج خوشت. أجلس الضيوفين مقابلة، وجيئس مترجمهما، ووكفارات صامت، وتكلما بعض الوقت. ومهمما قالوا فما فهمه زيا بش بالتحديد أمر واحد: هذا يفهم القضية الأدبية على نحو أعمق من الذين قابلاهم، رجل حكيم، دقيق الملاحظة.

– في هذه الأيام – قال السير دوغلاس – نحن نعرف ما قلتما وما قالوا لكم من قايلتماهم. نراقب وضعكم منذ عدة سنوات. ونحن معكم بقلوبنا لأنكم تحبون حريتكم. ونحن نشئن رجولتكم التي تمارسونها أمام العالم كله، ونساعدكم سرًا أو علناً ولن ننتقص مساعداتنا في المستقبل. علينا أن نوقف روسيا العديدة التي تزيد احتلال أوروبا كلها. نحن معكم، نساندكم، غير أننا مقيدون باتفاقية القرم¹ فلا نريد أن يعرف العالم كله بمساعداتنا.

"لا نزيد أن يعرف العالم كله بمساعداتنا" أغلقت كلمات السير دوغلاس زيا بش. "على ما ييدو – قال لنفسه – لن يدعونا نتكلم في مجلسهم باسم مجلسنا، يحسبون حساب روسيا فلا يسمحون لنا أن نتكلم صراحة في مجلس تركيا. يتلفتون حواليهم متمنين ألا يراهم أحد أو يعرفهم. يربتون على ظهورنا سرًا... أتكون هذه نية هؤلاء أيضًا؟ سأقول له قبل أن يفتأتني"

– لنا رجاء عندك أيها السير دوغلاس. كان بودنا أن نذيع كلمة الأديعة من منبر مجلسكم.

– إذا كنت تزيد أن تتكلم في البرلمان فالأمر محسوم. قل ما تزيد بشرط ألا تأتي

¹ وقعت في باريس عام 1856 بعد حرب استمرت ثلاثة سنوات بين روسيا من جهة والدولة العثمانية وحلفائها الغربيين من جهة أخرى، وانتهت لغير مصلحة الروس عموماً. ولكنها رسمت الخارطة السياسية لأوروبا في القرن التاسع عشر.

على ذِكرِ مساعدتنا القادمة لكم بالسلاح، ولا تذكر ملكتنا بسوء، وتمُرُ علينا في حديثك. لا قيود على الكلام في بلادنا.

- لسنا من يغتابون مضيفهم. غير أننا لن نقصّر في حق قيصر روسيا. وأسأكون حاضراً متى طلبتموني.

- حسناً - وافق دوغلاس بسرعة - سنتفق على الساعة الحادية عشرة من الغد. وأنا لي رجاء عندك. لا يجوز أن تتجاوز كلمتك ست دقائق. أعضاء البرلمان يحق لهم خمس دقائق. وأنت بصفتك ضيفاً لك دقيقة إضافية.

- ما في القلب كثير، غير أننا لن نتخطى القواعد.

استقبل الموفدان الأديغيان في البرلمان في الموعد المحدد. صفق أعضاء البرلمان حين تكلم رئيسهم على موضوع الأديغة، وعلى حرمهم من أجل حماية حرمتهم، وعلى قدوة الموفدين من مجلسهم. وما دعى زيابش للكلام نحضر معه مترجمه جيمس بيل.

- أيها الرعيم الخير للمجلس الذي أُكِّن له كل تقدير واحترام، أيها النواب - الحكماء الممثلون للشعب الإنكليزي - بدأ زيابش إسماعيل خطابه القصير - وصلنا إليكم قاطعين مسافات شاسعة باسم مجلس الحكومة التي أفنيناها حديثاً. وبلغكم تحيات الأديغة التواقين إلى الحرية. للأديغة هذا القول المؤثر: "حين تشتري بيتاً إشتِرِ معه جاراً. وقبل أن تقتني أرضاً إقتنِ جاراً" نحن لم نختر روسيا جارة لنا. ولا هي اختارتنا. ولكن الله جاور أطراف حقولنا. أعطتنا تركيا التي لم نكن يوماً من رعاياها للروس فدخلت روسيا التي ما كان عليها أن تقبل ما ليس لها إلى أرضنا تقاتلنا. وتوسّس فيها نظامها. وحين جابناها قائلين: ليس هذا عدلاً، ألقت علينا حم رصاصها. وأحرقت قرانا ومراعي مواشينا. واحتراق في نارها أطفالنا ونساؤنا ومسنونا. ومن الجانبيين يسيل دم الأبرياء. ليست

عذاباتنا من سنة أو سنتين بل منذ أكثر من خمسين سنة. وفي بلادنا تغلب المآتم على الأعراس. ولكن هذا لا يعني أن الأديعة عدمو الأعراس وحفلاتهما، وعدمو الأطفال. عندنا ما عند كل الأعراق البشرية، غير أن ما نفتقر إليه اليوم هو الأمان. لا تنبينا الدنيا بشمسها العظيمة من أجل أن تصفع الشعوب الكبيرة الشعوب الأقل تعداداً، وتستولي عليها. ولا أقول هذه الكلمات من رعبنا، ولم نأت إليكم لهذا السبب، بل لأنه لا كبارنا ولا صغارنا يقبلون الرضوخ للظلم، ولن نقبل به ولو كانت نحاتنا على يديه. جئنا إليكم لطلعكم على هذا الظلم الذي يُمارس ضدنا، ونطلع العالم كله. لا تواخذوني: من يكشف عن مأساته فهو مضطر. إن لم يعد قيصر الروس إلى وعيه فستفني أقوام كثيرة على يديه. نحن الأديعة رأينا واحد: إما أن نموت وإما أن نموت! لا قرار آخر لنا الآن. اغفرو لي إن كنت مبالغأ في صراحتي. لتحيوا والشمس الدافعة تشرق عليكم، ولا هوم لديكم، وما تمنناه قلوبكم تصل إليه أيديكم، وببلادكم تنعم بالسلام، وأنت أيها الرئيس الحترم — قال زيابش إسماعيل لرئيس البرلтан متوجهاً إليه، محياً إياه ويده اليمني على صدره الأيسر: مَدَ الله في عمرك زعيماً، ونترك لكم النداء الذي أرسله مجلسنا إلى مجلسكم¹.

¹ في يوم الجمعة الأولى من شهر حزيران عام 1861، دُعي ممثلو الأديعة الأبراخ والشابسخ والوبيخ إلى الجلسة المخصصة لتوحيد الدولة، وإحياء مطلب الحرية. وقد أصدر المجتمعون بالإجماع قراراً بحماية النظام القائم في البلاد، ومعاقبة من ينقضه. وعقدوا المجلس في الأرض التي تحت سيطرة الشراكسة، ونسبوا إليه خمسة عشر عضواً. وسموا المجلس "المؤتمر العام". وبأمر المجلس جعوا أقاليم البلاد الأخرى عشر. وعينوا مُفتين وقضاةً ومحاتير لكل منطقة. ورؤساء مكلفوون بتنفيذ أوامر المجلس. ولا يخالفون مقررات الهيئة العامة. وعلى كل مئة أسرة

حين انتهى زيابش إسماعيل من كلمته نحضر الجميع مصففين، وأوصلوه إلى مكانه مع شارات الاحترام.

وفي اليوم التالي جاء جيمس بيل إلى الفندق ومعه أعداد كثيرة من الصحف. - ها هي يا إسماعيل - قال وهو يُرِيه الصحف - كلمتك في البرلان، لم تبق جريدة في لندن لم تأت على ذكرها. واللجنة الشركية المجتمعة في إنجلترا تؤيدكم، وتعدادها يزيد. رئيس هؤلاء أدمون بيلز الحامي العام يريد مقابلتكم إن شئتم.

أن تقيم خمسة جنود. وترشح مختاراً واحداً. وهؤلاء المخاتير ملزمون بجباية الضرائب. ويتبعون التغييرات والتطورات الأخرى.

وفيمما تسير الأمور في هذا المنحى أرسلت إلينا روسيا الجنرال إفديوكيموف لاحتلال أرضنا. وقد حاصر الأخير أرضنا بمدف إبادتنا فاضطر المجلس إلى تجهيز ألف وخمسمئة فارس من النخبة لمحاجة هذا الجنرال. وقد أطلقتنا المجلس على أن الشراكسة يحمون حريتهم بدمهم، وأنهم قانعون بما عندهم، وأنهم لا يسيرون إلى أحد، وأن سلوكهم يتماشى مع مطلب الحرية لكل البشر. والدول العظمى تساعد أمثالنا، ولذا باعتبار قيصر روسيا على رأس دولة، نعد له عدم التعرض بالأذى ملئ عندهم دُول، ومن يحمون حريتهم، ورعايتها الدائمة لكل من يقوم بواجباته، مفخرة له لأنه يمثل هو أيضاً نظاماً. وبتعبير آخر، ليس له نية احتلال أرضنا. وقد قدم العون إلى الكثيرين. وإن كان بينما نوع جفاء في الماضي فقد كان هذا نتيجة ضعفنا. والآن إذ نتوجه إلى روسيا باعتبارها قوة عظمى، وأقرب الجيران إلينا فإننا نتوسل إليها أن تعيد الوضع إلى سابقه ولا تتعرض إلى حريتنا.

نقول للقيصر "اسحب جوشك، ولا تسفك الدم، كل الدول العظمى تعيش الآن في سلام، وتوطد فيما بينها العدالة" وأبلغنا الورقة التي فيها كل هذه المطالب إلى الجنرال إفديوكيموف، وأرسلنا مثلي المجلس إلى تفليس. ونحن صرنا أحراً في إبلاغ مطالبنا إلى إنجلترا الدولة العظمى التي من شيمها فعل المعروف والمساعدة، والتي تأمل منها مساندتنا. ونأمل أن تبلغ ما في هذه الورقة إلى من يحب إليها الرئيس المجل". المؤلف.

- إن كان يؤيدنا في قضيائنا الأدبية فلماذا لا نجتمع به؟ - قال زيابش،
وسأل: - من هو؟

- هذا من محامي لندن المعروفين، مهمتم بقضاياكم القومية. وهو الوحيد الذي
لا يوافق اللورد بالمرستون في بلادنا. اللورد لا يقبل اقتراحه بإرسال سفن
أسلحةتنا علناً إلى شواطئكم.

- هذا المحامي إذن رجل حقيقي يا جيمس. متى ستقابلنا به؟

- بعد الظهر في حدود الخامسة إن كان الوقت مناسباً، والآن تعالاً أريكما
المدينة. ونهر التايمز، ومضي بعض الوقت في مكان استراحة.

داروا أرجاء المدينة، وحين دخلوا الهايد بارك، رأى الحاج خوشت رجلاً يتكلم
على مسمع من بضعة أشخاص من منبر، فسأل جيمس:

- ماذا يقول هذا الواقف على منبر؟

- تعال نستمع إليه - اقتربوا منه، وببدأ جمهور المستمعين يزداد - هذا المكان
صصموه ليعبر كل إنسان عما في قلبه. وسيرتقي بعد هذا المتكلم غيره.
وسيتكلّم، متدرجاً على الكلام، حتى لو لم يسمعه أحد. وهذا المتكلم الآن ينتقد
عمل بولنائه، يقول إن اللورد بالمرستون مقصّر في عمله، ولا يعرف كيف يدير
الأعمال، وجبان، ويدمر مستقبل البلاد التي يترأسها. لا يهتم بأمور الطبقة
العاملة. ولا ينفذ إلا أعماله الشخصية.

وصعد إلى المنبر غيره. وببدأ كلامه بمحدوء بقامة مشوقة طويلة ينظر من فوق
رؤوس الجمهور. وكلما امتد الزمن ارتفع صوته، وبيديه طرفا المنبر.

- يتكلّم على سير الأمور في العالم - يفسّر القضايا التي يديرها الإنكليز في
العالم. غادر أوروبا، ووصل إلى أميركا. وتوجه إلى الشرق القريب. هذا المتكلم،
تبعاً لطريقة كلامه، أذنه سيصل إليكم. نعم، يتكلّم في موضوعكم. يقول إن

روسيا تفعل بالشراكسة في القفقاس ما تفعله أميركا بالمنود الحمر. تسلبهم بلادهم وتحاربهم. نحن هنا نكتفي بتأسيس اللجنة الشركسيّة، ولا نجرؤ أن نقول ملن ينقض مبادئ العدالة والحرية إن سلوككم غير صحيح، بل معيب. نحن قاعدون مكتوفي الأيدي ننخدع بأقوال بولمرستون المُعْسولة. كل الصدق والنصر للأقوام التي تحمي حريتها وشرفها!

- وأنت يا حاج قل شيئاً — قال زيابش — لن نفارق الناس الذين يذكروننا دون أن نقول لهم شيئاً ونعرفهم على حالنا.

- ولماذا لا أقول ما دام متاحاً. تعال يا جيمس إن كنت تعتقد أنه ممكن، وترجم لهم كلامي — ارتقى الأفندي خوت المنبر راضياً في داخله: — نحاركم سعيد أيها الحضور، يا من أدعوه لهم أن يعيشوا يومهم مئة يوم. أدعوه أن يتحقق لكم كل خير. نحن أديغة، وموفو بلاد الأديغة. تكلّمنا في بريطانيا أمس. وأتت جرائدكم على موضوعنا. — صفق الحاضرون حين سمعوا صوتاً أديغياً. وصرخ أحدهم: "عاشت حرية الشراكسة!"، ووافقه غيره: "ارفعوا أيديكم عن الشراكسة!". حياهم خوشت حسن بوضع يده اليمنى على قلبه، وقال: — نقول لكم شكراً على ثقتكم بنا، وعلى تفهمكم إيانا. مع أن الأديغة يتداولون القول المأثور "القليل ضعيف" فتحن لا نعد أنفسنا ضعفاء. وإن قلنا "من يهمن بجد وقتاً للثار" فلا تؤاخذونا على إلقاءكم لأن الإهانة التي يُلحقونها بنا جاءت بنا إلى هنا عاجزين عن دفعها. سدّت على الأديغة طرق الحياة روسيا الدولة العظمى التي تتسع على حساب الدول الصغيرة التي تتحاولها. تسلبنا بلادنا وحريتنا. السلطة القيصرية فقدت صوابها تُفنينا ونُفّني أبناء شعبها. نحن نحّمي أنفسنا بقدر ما نستطيع غير أننا عاجزون عن مجاهدة الجيوش الجرارة

والأسلحة الفتاكـة. نتلقـى وعـودـاً من تركـيا وفرـنسـا وإنـكلـترا ولـكنـها عندـ التـنـفـيـذـ تـبـتـلـعـ وـعـودـهاـ. يـعـيـشـونـناـ عـلـىـ الـكـلـامـ. وـلـكـنـ ماـ يـجـبـ أـنـ تـصـدـقـوـهـ أـمـرـ وـاحـدـ: لـنـ تـنـتـازـلـ عـنـ حـرـيـتـنـاـ لـأـحـدـ!ـ حـيـنـ أـنـهـ الحاجـ خـوـشـتـ كـلـامـهـ وـهـمـ بـالـانـصـارـ اـنـتـظـرـ حـتـىـ هـذـاـ التـصـفـيقـ،ـ ثـمـ قـالـ:ـ مـنـ عـادـةـ الـأـدـيـغـةـ إـذـاـ حـلـّـواـ ضـيـوـفـاـ عـلـىـ أـحـدـ أـنـ يـحـمـلـواـ هـدـيـةـ،ـ وـمـعـ أـنـاـ جـتـنـاـ غـيـرـ مـسـتـعـدـينـ لـلـأـمـرـ فـهـذـاـ حـلـوـانـ لـلـمـلـكـةـ الـتـيـ رـزـقـتـ الـيـوـمـ بـصـبـيـةـ،ـ أـخـرـجـ مـنـ جـيـبـهـ حـفـنـةـ مـنـ الـنـقـودـ الـذـهـبـيـةـ وـالـفـضـيـةـ وـنـشـرـهـ عـلـيـهـمـ.

الفصل الثاني والثلاثون

رـغـمـ مـضـيـ شـهـرـ عـلـىـ عـودـةـ الـقـيـصـرـ إـلـىـ سـانـتـ بـطـرـسـبـورـغـ رـاضـيـاـ عـمـاـ تـحـقـقـ لـهـ فـيـ سـهـلـ مـاـمـرـقـوـهـ،ـ مـنـ جـهـةـ جـنـرـالـاتـهـ،ـ وـمـنـ جـهـةـ مـحـارـبـيـهـ،ـ وـمـنـ جـهـةـ الـقـوـزـاقـ الـذـيـنـ اـجـتـمـعـ بـهـمـ وـاـمـتـدـحـهـمـ،ـ فـإـنـهـ يـعـيـشـ مـوـدـعـاـ قـلـبـهـ فـيـ قـمـمـ الـجـبـالـ الـبـيـضـاءـ فـيـ عـالـمـ الـأـدـيـغـةـ،ـ وـفـيـ غـابـاتـهـ الـمـنـاسـنـةـ،ـ وـأـنـهـارـهـ السـرـيـعـةـ،ـ وـبـرـارـيـهـاـ الـوـاسـعـةـ،ـ وـلـيـالـيـهـاـ الـمـقـرـمـةـ،ـ وـخـارـاـهـ الـصـاحـيـةـ.

وـمـاـ فـيـ قـلـبـ الـجـنـرـالـ إـفـدـوكـيـمـوـفـ الـذـيـ اـعـتـادـ عـيـنـاهـ مـنـذـ عـهـدـ طـوـيلـ عـلـىـ هـذـهـ الـمـنـاظـرـ فـلـاـ تـمـثـلـ لـهـمـ شـيـءـ آخـرـ:ـ أـيـجـوـزـ أـنـ تـسـمـحـ لـلـشـرـاكـسـةـ أـنـ يـعـيـشـوـاـ فـيـ هـذـهـ الـطـبـيـعـةـ الـجـمـيـلـةـ!ـ ثـمـ إـنـ هـؤـلـاءـ يـقـولـونـ:ـ "أـشـعـتـمـ فـيـ عـالـمـ أـنـاـ أـنـاسـ مـتـمـرـدـونـ،ـ وـبـهـذـهـ الـحـجـةـ أـعـلـنـتـ الـحـرـبـ عـلـيـنـاـ،ـ وـلـكـنـاـ نـحـنـ أـيـضـاـ بـشـرـ مـثـلـكـمـ،ـ سـنـحـمـيـ أـرـضـنـاـ مـاـ دـامـ فـيـ أـعـنـاقـنـاـ دـمـ،ـ وـفـيـ أـجـسـادـنـاـ رـوـحـ،ـ "أـيـ بـلـادـ سـتـحـمـوـنـهـ،ـ وـلـمـاـ أـنـتـمـ قـاعـدـوـنـ إـذـنـ،ـ وـمـاـذـاـ تـنـتـظـرـوـنـ؟ـ أـنـتـظـرـوـنـ مـنـ أـرـسـلـتـمـوـهـ إـلـىـ تـرـكـياـ وـفـرـنسـاـ وـإـنـكـلـتـرـاـ؟ـ قـدـ تـكـوـنـوـنـ شـجـعـانـاـ وـلـكـنـكـمـ لـسـتـمـ أـذـكـيـاءـ...ـ"ـ اـقـتـرـبـ بـلـامـبـالـاـهـ سـاخـرـاـ مـنـ وـرـقـةـ بـلـجـسـ حـرـيـةـ الـأـدـيـغـةـ الـتـيـ فـيـهـاـ نـدـأـهـاـ،ـ وـالـتـيـ سـقـطـتـ مـنـهـ،ـ وـاتـجـهـ نـحـوـ النـافـذـةـ الـمـتـجـهـةـ نـحـوـ طـوـاـيـسـهـ.

الجبل الحمرّ الذي يعرّفك أنّ شمس صباح الخريف تشرق مطمئنة، يظهر من خلال أغصان الأشجار العارية بعدما سقطت من يديها أوراقها، متلهّاً كلّما تقدّم الوقت. فتح إفدوكيروف النافذة على مصراعيها مع أنه كان يتخيّل أن بعض الأخطار تختبئ وراء الأشجار. ثمّ خرج من الغرفة بعدما استنشق هواء الأيزاخ النقي معتقداً أنه يحرّم نفسه من الصباح الجميل. وحين ارتقى المنحدر راداً بِإيامه من رأسه على تجية حراس الباب والأبواب الذي شدوا قاماً لهم لمقدمه. امتنل لعينيه سهل مامرقوه غير قريب وغير بعيد. وفي اللحظة نفسها انتصبت أمام مخيّلته مشاهد اليوم الذي التقى فيه موعدو الأديعة بالقىصر. وتذكّر ما كتبه إليه هو وبرياتينسك في التاسع والعشرين من كانون الأول من العام الماضي 1860¹. "حقّ قيصرنا ما وعدنا به" — عبر إفدوكيروف لنفسه

¹ لا يزال يعيش في الشمال الغربي من القفقاس الشراكسة الذين يعادوننا. — يكتب في 29 كانون الأول عام 1861 بارياتينسك الذي فُرضوا بأمّور القفقاس إلى القيسار ألكسندر الثاني — يُخيّل من أن يتصل موعدو الدول الأجنبية بالشراكسة القاطنين على سواحل البحر الأسود، ويُشّعّ عليهم بكراهيتنا. لم يخطر لأعدائنا في الحرب السابقة أن يجنّدوا هؤلاء الشراكسة القاطنين في هذه المنطقة، ويستغلّهم لصالحهم، ولكن لا يجوز أن نتوقع ارتکابهم للخطأ نفسه ثانية. يكفي كي لا يرفع الشراكسة رؤوسهم حشداً مئة ألف جندي على ساحل البحر الأسود. والسلاح الجيد الذي يمكن لأعدائنا الاستفادة منه هو تحيّب المسلمين المتعصّبين. وبإمكان نداء الحرب الجهادية أن يصل إلى شرق القفقاس قبل أن نشق الطرق في المنطقة الواسعة التي امتلكناها، ليس من زمّن بعيد، ونؤسس التحصينات فيها.

ولهذا السبب فالأمل الوحيد في توطيد سيادتنا على غرب القفقاس هو تمكن قوازقنا المسلمين من امتلاك الجبال وسفوحها، وتجهيز الطرق لجيوشنا.

ولتحقيق هذا الهدف لا شكّ أنّ من الضروري إنشاء مستوطّنات قوزاقية بدءاً من أعلى أحmar لابا وشحّه غواشه وبشك، مروراً بجاني الجبل، وصولاً إلى ساحل البحر. وعلينا تأسيس تحصينات لحماية مستوطّنات القوزاق ريشما ننهي المهمّة السابقة في وقت محدد. وأول مكان يجب تأسيس المستوطّنات

عن رضاه عن القيصر. وأرسل سراً في إحدى الليالي العقيد المسلم عبد الرحمنوف القريب منه، ودون أن يكون هو في الصورة، إلى بلاد الأبخاز. واعتبر تهبيجه له "تسى حاتري" ضد القيصر ذكاءً منه، إذ يمكن للقيصر أن يعطي وعداً بالكلام. حين تكون قيصراً تقود بلاداً كبيرة لن يكن الجميع الوَدَ لك. من يعيك حاضرون ولو لم تفعل روسيا إلا إلغاء القنانة هذا العام. ولكن إن لم أقل في حضرة سلطاننا العظيم إلا المديح فلا يجوز أن أقول في غيابه ما يعيي. وأن يصدر عني مثل هذا الكلام، وأن أعادني نفسي سِيَّان. مع أني قلقت حين

فيه هو ضفاف نهر شحنة غواشه. وعليها أن تأخذ بعين الاعتبار أن الأئمَّار التي ترفل نهر بشره تقصُّر كلما تقدمنا نحو الشرق. وهذا سيُسْقِل مهمَّة الحراس. (تتمة الحاشية في الصفحة التالية)
"لا يجوز الشك في أن إفدوكيروف وضابطه عبد الرحمنوف ليس عندهم ثقة في أعضاء المجلس. - يكتب المحرر المعاصر في جريدة "صوت الأديغة" لُحْقُوه سمير. - وربما كانت تجري بعض أعمال التجسس. ولكن هؤلاء لم يكونوا قادرين على الحجِّيء من طرف الجنرال المسعور إفدوكيروف، ويعاقبُونا بوجهة نظر صعبة التصديق دون اعتبار لوجهة نظر القيصر في مثل هذه المقاربة. ما أوامر القيصر ألكسندر الثاني في شأن طرد الشراكسة من أرضهم؟"
في الأول من نيسان عام 1861 أمر بارياتيسيك الجيش بإنشاء مستوطنات على الضفة اليسرى لنهر بشزنة.

والواضح للعيان هو الالإنسانية المطلقة التي تصرفوا بما مع الشراكسة، ومساهمة القيصر وأخيه الأصغر الأمير الكبير. في يناير عام 1861 لم يكن بقى على موعد زيارة القيصر إلى بلاد الأبخاز، واجتماعه بزعماء مجلسهم إلا سبعة أشهر حين كان هؤلاء يقتربون هذه المظالم. وقد أصدر قبل موعد الزيارة بثلاثة أشهر أمراً بطرد الشراكسة من أرضهم، وضمّ بلادهم إلى بلاده. وفي 24 حزيران من عام 1861 كتب القيصر إلى إفدوكيروف: "... لا نقاش في ضرورة توسيع حدودنا. لن تكون مهمَّة صعبة على المخلصين حماية حدود بلادنا العظيم، وستكون هذه تضحية منهم، ومهمة القوزاق حماية حدودنا واستيطان أراضي أعدائنا. ولم يبق على الاستيلاء الكامل على القفقاس مدة طويلة معونة الله. وسنطرد الشراكسة خلال سنوات من أراضيهم الخصبة. (تتمة الحاشية في الصفحة التالية)

بدأ قيصرنا يمنح وعوًداً لموفي الأديعة في كلامه فقد غطى بسرعة كلماته التي تخرج من فمه، لا من قلبه: "لا شك أن القفقاس ستتصير أرضاً روسية. وإن لم تفهموا هذا الأمر أو لم تقبلوه فسأوكد على جنرالاتي أن يستمروا في الحرب إلى نهايتها. وسينفذون أوامرني. وعرفت من كلماته الحازمة أن لا تراجع عنده..." التفت إفدوكيروف للصوت الذي وصل إلى مسامعه. رد على تحية العقيد غايمان والمقدم فانيوكوف، وقال لهما:

- تفعلان خيراً يا سادة إذ لا تحرمان نفسكم من مثل هذا الهواء النقي. - وسائلهما فوراً: - أم تُراكم مللتكم؟
- لم نخل من هواء الجبل. يا سعادتكم - قال غايمان ضاحكاً من خلال شاربيه ولحيته الشقراء - نحن والمقاتلون متبعون من العطالة. الأبراخ يتسلحون ضدنا.

في العاشر من شهر أيار عام 1862، أصدر الكسندر الثاني أمراً بـ"توطين قوزاق نهر بشزه في القفقاس العربي" وفي هذا الأمر خِدِّدت الأراضي المخصصة للشراكة: 1 - من أجل إخضاع الشراكة الذين لا يزالون أعداء تحت المستوطنات القوزاقية الأرضي الواقعة غرب جبال القفقاس. 2 - والأماكن المخصصة لمؤلفاء: المرتفع القفقاسي الواقع بين الجنوب والغرب، بدءاً من أعلى لابا الصغرى إلى منبع نهر بشه شه. ثم نهر مقويس الذي ينبع من ساحل البحر الأسود انتهاء بمصب نهر بشزه من جهة الشمال. - والأراضي المطلة على نهر بشزه ونهر أداعاً بدءاً من قلعة أداعاً وانتهاء بقلعة دميتريكوفسك، والنهر التالي له لابا الكبرى بمحاذاة المستوطنة القوزاقية رودينيكوفسك إلى الشرق - لابا الكبرى ولابا الصغرى. 3 - تبلغ مساحة الأرضي المحددة حوالي 1300000 ديسين.

(الديسجين: وحدة قياس مساحة تعادل 10925 متراً مربعاً. المترجم) وهي متاحة للمستوطنات القوزاقية..."

وما حدث حقيقة لم يرد اسم الأديعة الجبلين والسهليين في الأمر القيصري الصادر عام 1861 وـ"حالة البلاد" الذي علق عليه عام 1862. لم يبق للأديعة حق في الأرضي التي كانت لهم منذ الأزل. وقد طردو بالقوة من أراضيهم، ويكتب الضباط الذين عاشوا تلك الأحداث في مذكراتهم ما عاناه هؤلاء المطرودون الذين فرّوا عليهم المجرة إلى تركيا. (تممة الحاشية في الصفحة التالية)

- بأي نوع من الأسلحة؟ - مع أن إفدوكيروف كان يعرف جيداً ما سأله عنه فقد بدا من سؤاله عن السلاح سخريته.
- ربما السيوف والسيوف القصيرة يا سيادتكم - قال فانيوكوف متخيلاً نفسه في قلب الجنرال.
- ربما ينتظر الآسيويون ردًّا من القيصر على ما قالوه له: "اسحبوا جيوشكم، وأخلوا مستوطنات قوزاكم من أرضنا، ودعونا نعيش دولة مستقلة". - قال العقيد غايمان الذي لم يتأخر عن المقدم فانيوكوف، متطلعاً إلى الأبعد، متذاكراً، وأنهى: - ولكن لن يتحقق شيء للشراكسة المتمردين الحقدودين قليلاً العقل.
- مهلاً مهلاً يا ضباطنا الشجعان، لا تُفرِّغا حقدكما على الشراكسة بهذه

الوحيد الذي كان يعارض طرد الجبلين الشراكسة من أرضهم وتصرف بطريقة مستغرية وبإصرار هو غ. ي فيليسيون. وقد سُرّج من منصبه في قيادة الجيش في إقليم نهر بشزه، خلال الاجتماع الذي جرى في 29 آب عام 1860. ولم يكتم موقفه في ذلك الاجتماع أمام بارياتينسك وإفدوكيروف وميليوبتين وغيرهم من الجنرالات. يتذكر ميليوبتين رأي فيليسيون: إذا عاملتهم بالمرونة يمكنك أن تعتقد مع كل الأديعة في غرب الففقاس مثل تلك الانتفاقية التي تُقدّم مع الأيزاخ. وكان يعتقد أن الطريقة التي توطّد سلطتنا في تلك المنطقة هي إنشاء بعض القلاع، وشق الطرقات، وإنشاء طرق تخترق الغابات، وتطويعهم حسب عادات السكان المحليين، وعدم الاعتزاز على العلاقات التجارية للأديعة المقيمين على ساحل البحر مع تركيا. بل مساعدكم.

وفي عام 1863 أصدر ألكسندر الثاني أمراً خاصاً إلى إفدوكيروف: "يجب أن تصل حدود روسيا على امتداد ساحل البحر الأسود إلى نهر "بزب"، وإلا ففي حال الضرورة يمكن لأعدائنا أن يستفيدوا من حرب يشنها علينا الجبلين القلائل الذين بقوا على الساحل. ومن الواضح في كتاب السلطة هذا أن القيصر كان يتبع شخصياً موضوع طرد الأديعة من أرضهم" المؤلف.

الطريقة. - لم يقبل الجنرال كلامهما - لم تسمعا كيف تكلم موافقهم تسي مع قيصرنا. ظل يردد "لو أثنا شعب صغير فنحن أيضاً أنساً مثلكم. حين نوقف حربنا لأجل حربتنا تنتهي هوينا الأدبية هناك. وإن قُتلتنا من أجل شرفنا فلا عيب يصيّبنا، لن نتنازل عن أرضنا لأحد؛ ستبقى مهدنا إلى الأبد، أو تصبح قبراً لنا" فتعالى علينا ولم يتواضع لنا.

- بالقياس إلى تسي فالشركسي الذي تكلم قبله - تلعم فانيوكوف وهو ينظر إلى غایمان - ماذا كان نسبة؟

- حجمقوه - قال إفدوكيروف بدلاً من العقيد غایمان الذي كان ينتظره بانيوكوف وقد بدا استياءه من صوته: - نحن ضباط روسيا الدولة العظمى، فلا تخطّطوا في شأن المتمردين الشراكسة الذين وصفتماهم بقليلي العقل - الحيوانات! حاربوا هؤلئك وهذه الفكرة في أذهانكم ولو لم يكونوا على هذه الدرجة من السوء. لا توفروا صغيراً أو كبيراً منهم. أنظر إليك أيها العقيد فانيوكوف فأتساءل: من صنع هذا الزي الذي تلبسه: الكساء والقبعة والجزمة والزنار والخنجر والسيف؟ ثم تسخرون من الشراكسة! - ثم غير إفدوكيروف الذي كان له هذا الرأي فجاة: - أفهم أيها الضباط... تفعلون خيراً إذ لا تخدعون بأمثال الجنرال فيليسيون، وبكتابات كتابنا الثثاراتين من أمثال بستوجيف - مارلينسك، وبوشكين، وليرمنتوف، وتولستوي، في شأن الشراكسة... هؤلاء يخربون" برؤوس الأقلام، ونحن نوسع حدود بلادنا برؤوس الرماح. إن نظرت بعيون الجوارح من وسط سماء الأبراج رأيت البحر الأسود لأنه لم يعد بعيداً. ما الأمر؟ لم يعجبكما تعريضي بكتابنا المشهورين؟ - تظاهر بالسؤال، وقرأ بعض أشعار بوشكين: - "انتظري يا قفقاس يرمولوف آتٍ"، "أنا واقف على ذروة القفقاس وهي تحتي"، أسمعتماً؟ هذه أقوال صائبة حكيمة، ولكن متى كتبها؟ -

سؤال إفدوكيروف ثانية متضاحكاً وأجاب: - كما يقول الشراكسة أنفسهم "زمن أجدادنا ونحن في عَزِّ شبابنا"، "أَمَلاَتْ بِيكَ" ، "أَسِيرُ الْقَفْقَاسِ" ، "بُورُودِينُو" ، "حَكَائِيَاتُ مِنْ سِيَاسِتِبُول" أَنْتَمَا لَا تُخْطَفَانِ إِنْ قَرَأْنَاهَا وَأَعْجَبْتُكُمَا. مهمنا الآية هي تنفيذ تعهدنا للقيصر المنير بإنهاء حرب القفقاس في وقت قصير. بقيت ثلاثة أيام على المهلة التي منحها قيصرنا الكبير للأذى، والليوم هو 13 تشرين الأول.

"ما أشد ما تحول هذا ثرثراً كأن هواء الصباح النقيِّ أَسْكَرَهُ فَلَا يَرِيمُ عَنَا!.. - قال لنفسه العقيد غايمان الذي ينتظر رتبة الجنرال، ثم امتدح جنرال القيصر المدلل: - ليس هذا مثل الجنرالات الآخرين المغوروبين الذين لم يعانون الحرب. عند الحاجة ينصبك أمام العدو بسيف مسلول، ويُمْتَدِحُكَ، ويُلَوِّمُكَ، ويُنْصَحِّلُكَ. ولكنه، وقد نسي من كان يغيّر له رُتبَهُ في وقته وفي غير وقته، يتنمر علينا، ولا يفكر في مستقبلنا. أَلْمَحَ لِه بطريقة ما؟ ولكن لماذا أَسْعَمَ القوزاقي فانيوكوف الموضوع؟ - ثم وجد لنفسه ذريعة: - إن كنت كرهت رتبة العقيد فلَمَّحَ لِه..."

- جواسيستنا قادمون - قال فانيوكوف الذي رأهم على سفح الجبل.
- أيّ خبر جاؤونا به يا ترى؟ - سأل إفدوكيروف وهو يفارق الضابطين اللذين صارا فجأة من مُحَدِّثِيهِ، ثم أخبرهما بصوت حاسم: - اجتمعنا عندي بعد ساعة.

كان عدّة ضباط مجتمعين عند إفدوكيروف في موعد الساعة الذي أبلغه لهم: غايمان، والعقيد عبد الرحمنوف، والمقدم بانيوكوف، والنقيب دوخوفسكي،

والضابط العون¹ سولنسك.

– نسمعك أيها النقيب – حين أُنْهِي إفدوكيروف افتتاحيته غير المطلولة، قال رئيس جواسيسه النقيب دوخوفسكي – ما الخبر الجديد الذي جئتم به من حيث كنتم؟

– قبل كل شيء يا سيادتكم ييدو الجو في الأبخاخ هادئاً. – مع أن وجه النقيب كان يخفي أنه مشى على الطرق الجبلية الصعبة فقد نحضر والتعب باد على جسده المتداعي – الذرة تُقطف، والكوسا، والبندق، والجوز. وبجلبون الحشيش اليابس إلى البيوت. وضفائر البصل واللفلف تعلق في الدور. وأهراوهم ملأى بالحاصليل، ولكن في المقام الثاني ما تراه وما تسمعه من خلال كل هذه الأفعال شيء آخر: لا ينقطع صوت المطرقة والسنдан في محاددهم، وتسمع أصوات الرجال ووقع حوارف الخيل في كل مكان. وهناك معلومات أخرى: تبعاً لأخبار جواسيسنا الشراكسة فهم بانتظار خمسة آلاف من الفرسان المسلمين سيأتون من الشابسغ والوبيخ بين اليوم والغد. ويقولون إن موعداً لهم إلى تركيا وإنكلترا عاداً موعدين بالسلاح. وهناك خبر عن قدوم سفيتنين محملتين بالسلاح سترسوان خلال هذين اليومين على ساحل الوبيخ من البحر الأسود.

– شكرأ يا كابتن، تفضل واجلس – امتدح إفدوكيروف النقيب مع أنه كان مطلاً على الأخبار التي نقلها. – كانت أخباركم وافية ونقدتم ما أرسلناكم لأجله. هل سيضيف الضابط العون سولنسك شيئاً إلى ما سمعنا؟

– يا سيادتكم – قفز الضابط العون – كل ما رواه النقيب دوخوفسكي صحيح. لا سلام في أرض الأبخاخ، يجهزون أنفسهم لحرينا. ولكن، بما أنك

¹ الضابط من ذوي الرتب الدنيا ، كالملازم والملازم الأول.

سألت فسأقول رأيي يا سيادتكم: من يثير الأبراخ هو مجلسهم والبلاد التي زارها موفوهم. يعذونكم بالأسلحة التي لا يتحكمون فيها، يخدعونكم.

ـ شكرأً أيها الضابط أظن رأيك وآراء الحاضرين هنا متطابقة. ـ قال إفدوكيروف باسمه، وأنهى ـ ولكن ليس من شأننا تحليل موضوع المجلس، وموضع البلاد الأجنبية. ما اجتمعنا لأجله، أكثر من تلك القضايا، هو أن ننفذ المهمة التي أوكلها إلينا قيصرنا المثير، وهو موضوع فخر لنا. اليوم، وإن كنا جاهزين لمحاربة الأبراخ، فستلتزم بمهلة الأيام الثلاثة المتبقية، سنصبر عليها، ما مضى كثيرون فسيمضي قليلاً. ننهي بهذا اجتماعنا القصير اليوم. ـ أنت يا غايامان عبد الرحمنوف فانيوكوف أبقو هنا. ـ حين بقي الأربعة في الغرفة سأل الجنرال: ـ من منكم، باستثناء العقيد عبد الرحمنوف، يعرف طريق طوابسه المختصر؟ ـ ثم قال لنفسه: نعم، العقيد غايامان أتى حديثاً من نواحي وارب، والمقدم فانيوكوف لم يمض الكثير على قدومه من بسه باي، والعقيد عبد الرحمنوف عنده معارف كثيرة في الأبراخ تحت ستار الإسلام.

ـ ولكن يا سيادتكم لا يميز السيف ديناً من دين. ـ حسم عبد الرحمنوف الموضوع كأنه كان ينتظر ما يلمحون به إليه ـ مهما كلفتمني من أمر فأنا مستعد.

ـ ليس في الأمر عدم ثقة بك أيها العقيد. ستتوجه بخيالتك مستفيداً من ساعة هبوط الظلام إلى طريق طوابسه. وإن لم تتأخر فعليكم اعتراض فرسان الوبيخ والشابسغ. هؤلاء ليس لنا معهم هدنة محددة. عِرْفُهم أنهم قادمون لحاربتنا. وأنتما يا غايامان وفانيوكوف، كونا جاهزين بفرسانكم وأفواج مشاتكم، ومتى أذِنْتُ لكم فسأكون معكم كما شخصياً.

حين نمض إفدوكيروف قفز الضابطان معاً. وحين رأياه يصل إلى الصليب البدني

من وراء كتفي الجنرال العريضتين قلداه.

– والآن أيها الضباط – استدار إفدوكيروف بوجه طلق مرتاح وقال – تابعوا أعمالكم. واهتموا بجنودكم. أفهموهم أن كل مظاهر الشجاعة التي يبدونها في حربهم ضد أعدائهم، وأعداء المسيحية، وأعداء البلاد، لن تنساها البلاد ولا القيصر وستكون موضع تقدير. سنجر، والله والقيصر الذي رضي عنه في قلوبنا، الأبراج المسلمين على مرأى من أبناء دينهم الأتراك على اللجوء إلى ساحل البحر الأسود.

توقف الجنرال إفدوكيروف الذي كان يذرع أرض الغرفة فجأة، وضحك من نفسه في قلبه: "كيف سأكون معهم شخصياً؟ أشعر في داخلي أني شاب، غير أني أتحامل على نفسي من ثقل جسدي، وجروحي تنتكئ فلا تمنعني وقتاً للراحة، ما أكثر الضباط والجنود الذين خطفتهم رصاصات الشيشان والشركات من أمامي. خسرت في الحرب شبابي وسنين عزي وصحي... ليتنا طردنا الشراكسة إلى ما وراء البحر وارتحنا قبل أن نقضى على أيديهم! وهناك تنتظري عشرة آلاف دياستين بين كيسنوفودسك وبيتاغورسك منحوني إياها. – سأحرثها وأزرعها وأري فيها الماشية وخيول القبرتاي... ولو رأي والداي المرحومان هذه الأرض لما صدقاً... – وفي هذه اللحظة أنشد بصوت عال المقطوعة التي خطرت له متصوراً أنها أنشدت له: "أنا واقف على ذروة القفقاس وحدي، والقفار تحتي". لم أكن أهتم إلا بالسلاح، ولكن بوشكين كان شاعراً ممتازاً حكيمًا..."

أخرجت الأصوات التي صدرت من وراء الباب الجنرال من أفكاره:

– جاسوس شركسي أمسك به مقاتلونا في الغابة يا سيادتكم. – أخبره الضباط الذي دخل إلى الغرفة – ورأسه حليق ويرتدى ملابس شركسية. يدعى أنه

محارب في فوج نيجيغورو دسكا القوزاقي.

- وبين القوزاقي كثيرون من نسوا الإبقاء على خصلتهم فحلقوها. ويلبسون زياً شركسياً، لولا القماش الأحمر الذي يعلو قباعهم، والشريط الأحمر على جانبي بناطيلهم... - ضحك الجنرال إفدوكيروف متذكراً أصله القوزاقي - وماذا يقول هذا؟

- يقول إنه كان في إقليم الوبيخ، وأن الحاج برج أطلق سراحه.

- هذا أمر آخر، هاتوه إلى - حين رأى إفدوكيروف الأسير المقيد اليدين والرجلين على الباب، قال جازماً لمسكيه باختصار: - حرروه!

- أنا يا سيادتكم - مد القوزاقي قامته وقال بصوت حاد - فويتنكو إيفان سافيليش، مقاتل قوزاقي في فوج نيجيغورو دسكا. ومن مستوطنة لاينسكا. كنت أسيراً منذ هذا الربع عند الحاج برج الذي قُتل قبل أكثر من عشرين عاماً الأتامان¹ فويتنينكو سافيلي أندريانش فعرفي من نسبتي، فادعى أن ما فعله بوالدي لا يزال يُعلم قلبه فأمر بإطلاق سراحي. هذه قصتي إن صدقني. ولأني مسيحي حقيقي فأنا أرسم إشارة الصليب يا سيادتكم لأضع أمامكم إخلاصي لقىصرى باسم يسوع الإله الكبير وأمه مريم، وباسم والدي الذي قُتل بسيوف المسلمين الشراسكة.

- ولماذا لا أصدق؟... - قال إفدوكيروف بعد أن رسم الصليب أيضاً - ولكن علينا اختبارك من كل النواحي لأننا في حالة حرب. وليس فقط في ناحيتنا بل في ناحية الشركس الذين كنت أسيراً لديهم. - وقال الجنرال للضابطين اللذين كانا يستمعان: - لا تصرفوا انتباهماً أيها السيدان عن

¹ الحكم المحلي عند القوزاقي.

فويتكتو القوزاقي، ولا تعامله بما لا يستحق بذرية أنه كان أسيراً عند الشركس. إن كان عاد إلينا على نية الخير فسيفهمه الله، ونحن سنعامله من هذا المبدأ. ما رأي الشركس أيها القوزاقي في إلغاء القنانة في روسيا؟

— سمعت برج وزان يتهمسان لا عِلم للعبيد الشراكسه بهذا الأمر. ونحن سمعنا بوصول مثل هذا الخبر إلى الشراكسه. — قال إفدوكيروف، واختتم بقول أديغي مأثور: ربما نسي أمرؤهم ومتندزو الأعراق أن الشراكسه أنفسهم يقولون: لا يذاع سُرُّ في الغابة. وهذا أمرٌ يمكننا الاستفادة منه. ثم قال لفويتينك بصوت ألطف: — اذهب يا إيفان سافيليش، اذهب ونُقْد ما يطلبه منك هذان الضابطان.

الفصل الثالث والثلاثون

سأء الجو في جبال الأبراخ على نحو يُنسيك البارحة الخيفية اللطيفة: السحب المثلثة بالمطر البارد نزلت إلى الأرض فلا ترى إن كنت فارساً رأس حصانك، كما يقال. وأوراق الأشجار العنيدة التي كانت تقاوم الخريف الذي يعثر أوراق الأشجار اليابسة الملونة كفت عن الخفقان. والأغصان الخضراء المشمرة عن سواعدها تبرز من خلال تلك الأوراق العنيدة. وأنهار شحه غواشه وفُجُبس وبشك وبشك قويس تتبع سيرها مبحوحة الأصوات. والجوارح التي كانت تدوم في السماء تحط على أطراف الصخور منطوية على نفسها، أو تلازم أعشاشها. ومع أن القرى المتناثرة على ضفاف الأنهر المشتتة في الجبل تبدو صامتة في الخريف الرطب فإنك تعرف من الأصوات التي تتعالى منها، من صياح الديك، والأذان، والطريق على السنديانات في المشاغل ونباح الكلاب، أن الأديعة ما يزالون على ظهر البسيطة.

— تنتهي المهلة التي حددتها لنا قيصر الكفار بعد غد؛ فما العمل يا برج؟ —

سأل تسي الذي كان يبرز بصعوبة من كسائه القصير — وجيشه الشابسغ واللوبيخ الذي انتظرناه نصف نهار تأخر... وهؤلاء غارقون في قضية سخيفة... — أئنن أديعة إن لم نكن هكذا! — قال برج باسماً، وأضاف ما كان يقلقه: — سنتظركم إلى الغد إن لم ينكثوا بوعدهم.

— هل ندمر أنفسنا إذ يعتمد كلٌّ منا على الآخر؛ أهذا ما لا تستطيع قوله يا برج؟ — عشنا نحن الأذى في جبالنا وتحصيناتنا حين لم يكن معنا الشابسغ واللوبيخ. مهما تصرف الكفار معنا فسيحتمينا سلاحنا وعشقنا للحرية، لا داعي لليلأس. كم نجحنا منذ عهد أجدادنا القدماء من الغرارة. وهؤلاء، وإن انتهى أمرهم، بقيت جبالنا وغاباتنا وأهارنا، ونحن، كما ترى، نعيش على أرضنا ونحيمها.

— إن كان المقصود هم القبجاق — النغوي فهؤلاء يا حاترياي غزونا فرساناً سائحين ثم انزاحوا عنا، ولم يكونوا كمن يحاربوننا الآن طامعين في أرضنا. يطلبون منا معادرة الجبل، ولا يعلموننا أين نذهب.

— وكيف لا يخربوننا؟ — يستغرب تسي ما يسمعه — ألا يقولون لنا: غادروا إلى تركيا!

— هذا إن لم نقبل الخروج من الجبال. — استدرك برج كلام تسي بحذر لأنه يعرف نزقه.

— ألا تتوقف مرة يا برج عن الكلام — انفجر غضبُ تسي — أتظل تصحح كلامي؟! — ثم لامه بصوت أعلم: — لم أقل ما لا تعرفه ولم تسمع به... كفى، لسنا اليوم في موقع يكيد فيه أحدهنا للآخر. أتساءل ما سبب غياب المستطلين الذين أرسلناهم في استقبال جيش الفرسان؟ هذا المطر الهاطل وغير الهاطل لا ينقطع... إذن يا حسن بي، يا زعيم الأذى، أطلعك على أمر

يشغل بالي: مهما سخينا من شركائنا في المجلس، الشابسغ والوبيخ والساز — الأباطحة فمن أي نوع من البشر نحن الأبزاخ؟ لا نتفق حتى لو كنا مربوطين إلى عربة ثيران واحدة. لا يتفق ما يفعله الأبزاخ الأعلى وما يقولونه مع الأبزاخ الأدنى. واستطعنا بصعوبة التوفيق بين الأبزاخ القاطنين في قرى نهر شحه غواشه ومضيق فجيس. ولو لا أن الخوف من الحرب مخيم على رؤوسهم لربما ما نجحنا.

— أتظن الأبزاخ وحدهم، هذا يشمل الأديغة كلهم.

— من سأشلهم؟ هل هم البجدعون والقبرتاي والجمكوي والبسلي؟ هؤلاء أكثرهم بلا رجولة ولا ثبات على موقف. اغفر لي يا إلهي إن قلت ما لا يقال. هؤلاء من عرقنا أيضاً. هلكوا من وراء التناحر وعدم التفاهم. ونحن؟ ونحن لسنا محمودين. إن شئت يا برج فسأقول لك من نشبة، نحن والوبيخ والشابسغ والساز: نحن مثل الطيور التي تطفي النار الملتهبة بماء أفواهها. من يرون النار تحرق أطراف أجنحتنا، ومن نوفد إليهم مندوبي المجلس كإنكليلز يصرفوننا متى أدرنا ظهورنا مع إشارات مهينة، ولا يعطوننا أملأ في المساعدة.

— وهذه الإشارة الخبيثة يُروّننا إياها بإصبع تقاد تظهر من فتحة الكم، خائفين من خارحهم بحيث ثُرٍ ولا ثُرٍ — وافق برج تسي — تركيا تلومونا لأننا لم نقف معها في حرب القرم، ناسية ما فعلت بنا باتفاقية أدريانوبول.¹

— أرفق بهاتين الحكومتين اللتين نأبى على ذكرِهما يا برج فرنسا التي لم تتوافق على إقامة دولة مستقلة لنا.².

¹ عُقدت عام 1829 بين روسيا القيصرية من جهة وتركيا وحلفائها الأوروبيين من جهة، و"منحت" تركيا بموجبها الأديغة لروسيا. وصارت حجة بيد روسيا لغزو القفقاس.

² جرت مناقشات حادة في المؤتمر الذي انعقد في باريس بداية ربيع عام 1856 بشأن مصير بلاد الشراكسة. من أجل الاستيلاء على شمال غرب القفقاس اقترح إإنكلترا في مواجهة

- نعم كما كان يروي زان سفري، لو أن فرنسا اللعينة وافقت تركيا وإنكلترا حين طلبتا من روسيا أن تكون لنا دولة مستقلة لما جرى لنا ما يجري الآن من مآسٍ. حين تكون سيء الحظ يعضك الكلب وأنت على ظهر الجمل. لافائدة من ملاحقة ذنب حسان الزمن الفائد... - سكت تسي لحظة ثم أضاف: - ما يُضِّحِّكِنِي هو أنه لما سمع الحاج خوشت أن ملكة بريطانيا رُزِّقت بطفل نشر حفنة النقود التي جمعناها بشق النفس على جمع من الإنكليز في أحد متزهّات لندن لكسب ودّهم إلى قضيتنا. يمكن أن تجيئني يا برج أن هذا تقليد أديعي، غير أني لم أتقبل سلوك الحاج خوشت.

روسيا إعادة النظر في اتفاقية أدريانوبول من أجل حرية الشراكسة. - يكتب ر. ريايسيف في كتابه "المأساة الشركسيّة" - ولكن فرنسا لم تتوافق وفتها على المقترن الإنكليزي. واستفادت بطرسبرغ من هذا الموقف الفرنسي للاحتفاظ بالأراضي التي احتلتها وترى نفتها. ووُجِدَت روسيا الأمل في التثبت بأراضي القفقاس التي احتلتها ولو أنها لم تكسب الحرب. ولكن هذا لم يطفئ الإصرار الإنكليزي، فعلى الأقل أرسلت ثلاثة حملات عسكرية في الأعوام 1857 و1862 و1864 - إلى سواحل البحر الأسود، من أجل مساعدة الأديعة وحملهم على الوقوف في وجه روسيا. وجّهت السفيتتان شيزابيك وسامسون بإشراف رئيس اللجنة الشركسيّة التي أُنشئت في لندن الحامي العام أ. بيلز. ووصلت الحملة هذه إلى شواطئ الوبيخ على البحر الأسود. وتركتهم لندن التي كان الأديعة يأملون مساعدتها بالجيش والسلاح وحدهم. و كان هؤلاء جزءاً من (خدمة السياسة البريطانية) وعلى سبيل المثال فقد رجع موظفو مجلس "شاجه" دون أن يُعنِّحوا أي أمل رغم أنهم استُقبلوا استقبالاً حسناً في لندن... "المؤلف".

- الحاج ينسب إلى نفسه سفيتين من السلاح بفضل سلوكه. ولكن هذا من فضل وركفارت وبيز، وشكراً لجيمس أيضاً.
- الوقت المناسب لشكر هؤلاء هو عندما ترسو سفن السلاح على شواطئنا. ولكن لو أرسلوا جيشهم يحارب معنا لكان أفضل ما يقدمونه لنا.
- هذه صارت حرباً يا حاتر باي!
- وما يمارسونه معنا أليست حرباً؟ ليرَ قيصر روسيا إن كانت الحرب خيراً...
أسأل يا برج هل سنجلس هنا طويلاً نروي الأخبار؟ خمدت نارنا، ومن ننتظركم يمتنعون أحصنة مغلولة القوائم. ولا نعرف ما يجري في ناحية سهل مامرقوه. انظر! ها هو فارس قادم من جهة نهر قُجبس — نخص تسي وهو يغطي كتفيه بكسائه القصير — هذا لا يحمل خبراً ساراً.
- وهذا هو فارس آخر من ناحية طوابسه... — قال برج حسن.
- لا أخبار حسنة أيها الزعيمان المباركان — قال غمشت مولى الذي جاء من جهة نهر قُجبس بعدما قفز من على صهوة حصان عارٍ. — الفرسان الخمسة أو الستة من القوزاق الذين يقودهم عبد الرحمنوف يأتون خباءً إلى هذه الناحية.
- وماذا ينونون؟ — سأل برج تاركاً الفارس القادم من ناحية طوابسه.
- وما يُدرِّيني؟ هؤلاء يتدافعون دون إطلاق النار.
- وهل الفرسان الذين يتبعونكم كثيرون؟
- من الصعب إحصاؤهم. يلتحق بهم الفرسان الذين يصلهم النداء فيتكاثرون.
- وهل يعلم داور بأمر الفرسان القوزاق؟
- داور هو من أرسلني. وهو كان يتوجه ليلحق بالقوزاق.
- ارجع الآن حالاً، وأخبر داور ألا يأتي بجيشه إلى مرفق مامرقوه. — أمر تسي

غمشت، وسأل مزحب القادم من جهة طوابسه: - ما أخبارك أنت؟

- الجيش الرديف آتٍ.

- الآن فهمت يا برج نوايا إفدوكيروف بواسطة الفرسان القوزاق. استقبل أبناء عرقنا وأطلاعهم على أخبارنا. وأنا سأستقبل فرساننا الذين يلاحقون القوزاق. وسأفهمهم وضعنا. لن نقض من جهتنا المهلة التي لم يبق عليها إلا يوم واحد مع أنها نعرف ما سنفعل بمن نحصرهم بيننا. وإن وافق عبد الرحمنوف، المسلم الدعوي، وكان محظوظاً، أعدناه دون أن يخسر أحداً من جنوده. وإن لم يقبل حصدنا جيشه بيننا.

كان برج حسن بقلبه وروحه في الجهة التي سيأتي منها فرسان القوزاق المتخترون مع أنه تحرك لاستقبال جيش الفرسان الذي وضع أمله فيه. وكان من يتتظرون واضحين إليه ولكن لا يعرف تفسيراً لعدم إخباره من قبل أحد الجواصيس الذين في الجانب الروسي. "إفدوكيروف مطلع على أحوالنا على ما ييدو - يفكر برج - ونحن لا معلومات عندنا عن أوضاعه. لا، ليس إفدوكيروف ذو العيون الثلاثة مطلاً تماماً على أوضاعنا: لا يعرف عدد الفرسان الآتين إلينا. أ يريدون التصدي لنا كما فعل فيليسيون في العام الماضي حين انطلقنا إلى الشابسغ، فأرسل يتصدي لنا وقد تخيل الآلاف الخمسة خمسة. ولكن كان لنا مع فيليسيون اتفاق سلام. وكيف ينقض إفدوكيروف مهلة الشهر التي حددتها القيصر ولم يبق على انتهاءها غير يوم واحد؟ يظن أنه سيغفر له مهما فعل لاعتداده بنفسه. أم يريدنا أن نقض من طرفنا تلك المهلة؟ نحن لم نشن الحرب على أحد. إن كانوا يظنوننا أغبياء فلن نسمح لهم أن يخدعونا. سنرى كيف سيتصرف عبد الرحمنوف حين تخبره أن فرسانه محاصرون. لا أعرف أحداً كره حياته إن كان روسياً أم أديغياً.

حين طلب من العقيد عبد الرحمنوف قرار برج وتسي إلقاء السلاح أجابهم وكأنه غير المعنى بالموضوع:

- أنتم أيها الأبراخ تنتصرون مهلة الشهر التي منحكم إياها قيصرنا.
- أنتن نقضتموها منذ الليلة الماضية! ردّ تسي.
- نحن لم نطلق طلقة واحدة الليلة والليلة السابقة لها. ولم نُشهر السيف على أحد. كانت مهمتنا التحدث إلى الجيش الغريب الذي استقدمتموه إلى الأبراخ.
- نسمعك، - قال أحد الفرسان الثلاثة الذي خرجوا من صفهم - أنا زان فارباتر، وعلى جانبي برج إسلامبج، ومرشنه داود، ووراءنا فرسان من الوبيخ والشابسخ والساز.
- مهمتنا أن نبلغكم أن دخولك أراضي الأبراخ التابعة لروسيا يخالف اتفاق أدريانوبول. يلّغناكم ما علينا تبليغه، وأنتم تعرفون ما تفعلون.
- نحن المسيطرون على الساحة هنا يا أبدراخمنوف! قال برج بصوت واثق - إن كنتم تريدون العودة سالمين إلى حيث انطلقتم منه فضعوا أسلحتكم أمامنا.
- نقدوا ما أمرتم به! - حين أخرج تسي المسدس وأطلق من فوق رأسه بدأ الفرسان القوزاق الواقفون مقابلة، وقد اهتاجوا، يضعون أسلحتهم. وفعل مثلهم الضباط الواقفون إلى جانب العقيد عبد الرحمنوف.

الفصل الرابع والثلاثون

في اليوم نفسه ظهر خير غير منظر في تامي حبله: فارس روسي يبدو أنيقاً بزي الضابط، ومعه فارس آخر اتخذ من ددai مضيّفاً له دون استشارة أحد. دخل محمد بن ددai إلى الضيوف لغياّب والده، وسلم عليهم دون مصافحتهم باعتباره أصغر من الضيوف الذين حضروا له:

- أهلاً بكم يا ضيوفنا الأعزاء!

- شكرأ لك يا ولدي.- قال الرجل المتن البنية الذي تعرف من موقعه في صدر المجلس أنه هو الأسن - اجلس، لا تقف عند الباب.
- وكيف أجلس في حضرة من هم من جيل والدي! يمكن أن أبقى هنا. ليس والدنا بعيداً من هنا، سيعود حالاً.
- أنظر إليك فأجدك ابن أبيك. كيف حال والدك ووالدتك؟ زوجتي الأخ الكبیر لرفيقه يدج، لا تنساهم، تأتي على ذكرهم باستمرار. حين عرفت أنا آتون إلى الأبزاخ رجتنا أن نلتقي بكم فلم نستطع إلا أن نعرّج على تامي حبله. نحن قادمان من القبرتاي، وأعرف أنه لم يبق في القرية أحد من أسرة تامي، ولا أسرة حامز، ولا أسرة داور. ما أخبار جيرانكم آل مرخوي، وآل براوغنه؟ وهؤلاء أعرف شيئاً عن أحواهم وعيشتهم: سمعت أن أخا بكر الأصغر محمد هو مفتى الأبزاخ من الشخصيات النافذة فيها. وقالوا إن إسلام بن ميشكا هو مختار قريتك.
- معلوماتك عن هؤلاء أيها الضيف صحيحة. هم في صحة جيدة، ويقومون بأعمالهم في القرية وفي البلاد. وأما مرخوي محمد ففي مكانة عالية. وهو عضو في مجلس البلاد ومقرئه.
- ما سمعته خبر عجيب، لم أعرفه... ربما لم يكن في الأبزاخ والشاسغ والوبيخ مقرئ أفضل منه... لو سمعت هذا الخبر في القبرتاي لما صدقت. - قال الضيف، واختتم وهو ينظر نحو رفيقه يدج: - والآن أخبرنا باسمك يا ولدي.
- يناديني والدي ووالدتي والقرية كلها باسم محمد.
- إذن أنت تحمل اسم النبي محمد؟
- نعم أيها الضيف، أنا لن أرقى إلى مرتبته أبداً، غير أنهم سئلوا باسمه المبارك.
- لا تقل هذا! ومن كان يعرف أن مرخوي محمد سيكون مفتياً، وعضو

مجلسكم ومقرئه؟!

- كل من هو مخلص للدين الحنيف يمكنه أن يكون مفتياً وعضو مجلس ومقرئاً، غير أن هؤلاء لن يستطيعوا أن يقارنوا بمحمد النبي العزيز. لا يجوز أن تقارن نفسك به، حرام.

- والله هذا أيضاً صحيح. والآن سعرّفك بنا وإن لم تسأل عن القبرتاي التي جئنا منها.

- اغفر لي يا كبير، أنتما ضيفان. لا يحق لي وقد شرفتم والدنا بنزولكم ضيفاً عليه، أن أسأل عن المكان الذي تقدموه منه، وعن سبب حملكم رتبة ضابط روسي، يكفيني أن تُعرّفاني بسميكما. — فرح حين رأى والده من النافذة: ها هو والدي قادم.

- أهلاً بكم يا ضيفي الحير. — قال ددai حالما دخل الغرفة، وصاحت حين رأى من أمامه: — أهذ أنت يا نفع، لا، يا جامبج¹! مضى على آخر لقاء لنا أكثر من خمسة وعشرين عاماً! — تعانق الرجالان. كتم ددai استياءه من أن الرجل الذي شاركه أفراحه وأحزانه، والذي كان يسمى نفع، ثم جامبج، وتبين أن نسبة هو أرجان، يحمل رتبة ضابط روسي، وتفحصه ثانية. وما إن مدد يده ليصافح رفيقه حتى صرخ ثانية: — أنت يا يدج من لم تعرفك! هيا يا ولد آخر والدتك أن أرجان جامبج، ويدج، الأخ الأصغر لزوجته أسلانكوز، ضيفانا، وفريجها. ولتأت بمائدة مستعجلة ريشما يجهز الخروف.

- لا يا ددai، لا تشغلو أنفسكم. لم نأت لنجلس طويلاً. عرّجنا على تامي حبله لنبلغكم سلام زوجتي، ونتشرف ببرؤيتكم. يجب أن نعود إلى سهل مامرقوه

¹ الاسم الأول نفع لُمْرُ، أي تحفير، يعني الأعشى ضعيف الرؤية. واللمز ظاهره في الأوساط الشعبية من قرى ومدن.

بعد الظهر. لا تواخذونا على الرتب الروسية. الآن كل ساعة بل كل يوم، دُغْك من السنين، تتغير أحوال الدنيا. شامل غادر الداغستان، والنائب تخلّى عن إمامتكم. وانتهى الناس من سيرة "زاس" سفّاح الأديعة.

- رعما بسبب قيام إفدوكيروف ذي العيون الثلاث في بلاد الأبراخ بدلاً منه في الأبراخ... - لم يستطع ددai، مع أنه استرد لباقته الأديعية مع الضيوف إلا أن يقول، ثم أضاف بسرعة: - ولكن ليس من شأننا أن نقيّم اتجاه كل إنسان، بل من شأن الله وحده. إنه يعلم كل شيء ويرى. أتذكرة يا جامباج أنه كلما أمر الأمير بتقييد المسكين تورناو بالأغلال، كنا نتلهّل إلى الله أن يلطف قلبه ويعله بالخير؟

- وكيف لا أتذكرة! بل كلما تذكرة آلمي قلبي من جديد.

- وهل تذكرة كيف كنا نعلم فيدور - فيدور اللغة الأديعية، ويعلمنا هو الروسية؟

- ثم لمّح إليه مازحًا إيه أنه غير راض عنه في سيرته: - أظنه نفعك إذ علمك لغة من تحمل رتبهم. - ثم خجل سريعاً من تلميحة: - ألا يزال هذا المسكين حيًا يا ترى؟

- سألت عنه قبل أعوام ضابطاً كان يعرفه فأخبرني أنه ترك الخدمة العسكرية.

- من حسن حظه أنه ترك الخدمة بعد ما لاقاه هنا، حيث كان أسيراً.

سمع ضجيج في الخارج، وحين نظر ددai ورأى بضعة فرسان شباب على باب الدار طلب إلى الضيوف ألا يقلّقوا، وخرج من الغرفة. وسأل ابنه مُسِمِعاً من يقفون إزاءه:

- لماذا لا تدعو رفاقك الفرسان إلى البيت يا ولد؟

- نحن يا ددai لسنا مثل ضيوفك حاملي الرتب الروسية الذين يختمنون في مضائقك. - صرخ أحدهم - ليخرجوا إن كانوا رجالاً!

- أَيُّ عِيبٍ هَذَا الَّذِي تَقُولُهُ؟ أَلَسْتَ أَدِيغِيَاً؟ أَيْ شَاغِبُونَ عَلَى مَضَافَةِ أَدِيغِيَّةٍ؟ لَا تَجْلِبُوا لِي وَلَكُمُ الْعَارِ.

- إِنْ كُنْتَ أَدِيغِيَاً فَلَا تَسْمِحْ لِمَنْ حَارِبُونَا أَنْ يَقِيمُوا فِي مَضَافَتِكِ! حِينَ رَأَى بَكْرُ الَّذِي كَانَ مَارًّا عَلَى حَصَانِهِ الشَّابِّ الْمَهَاجِنِ عَادَ فَتَوَقَّفَ عِنْدَهُمْ:

- عَلَامْ يُلْحَّ هُؤُلَاءِ يَا دَدَايْ؟

- إِنْ كُنْتَ تَتَذَكَّرْ يَا بَكْرُ أَرْجَانَهِ جَامِبَجُ، الَّذِي كَانَ فَلَاحًّا تَابِعًّا لِآلِ تَامِيِّ. ثَارَ هُؤُلَاءِ عَلَيَّ بَحْجَةً أَنَّهُ ضَيْفِيِّ.

- أَهُو نَقْجُ؟! - سَأَلَ بَكْرُ فَرَحًّا لِمَا سَمِعَ.

- لَيْسَ هَذَا ضَيْفًا تَفَرَّحْ بِهِ يَا كَبِيرُ، إِنَّهُ ضَابِطٌ فِي جَيْشِ مَنْ نَفَى عَلَى أَيْدِيهِمْ. - قَالَ أَحَدُ الشَّابِّينَ.

- لِيَعْضُّ الْكَلْبُ أَبَاكُمْ؛ تَفَرَّقُوا حَالًا! كَائِنًا مِنْ يَكُونُ، حَتَّى لَوْ كَانَ ذَا قَرْنَيْنِ، هُوَ فِي مَضَافَةِ أَدِيغِيَّةٍ، وَهِيَ حَصْنُهُ. تَعَالِ يَا دَدَايْ سَأَسْلِمُ عَلَى مَنْ لَمْ أَرَهُ مِنْذَ سَنِينَ طَوِيلَةٍ، وَأَتَعْرِفُ أَخْبَارَهُ.

الفصل الخامس والثلاثون

تَحْمَلُ الْجَنْرَالُ إِفْدُوكِيمُوفُ الْعَارِ الَّذِي أَلْحَقَهُ بِجَيْشِ الشَّابِّسِغِ وَالْوَبِيْخِ نَهَارَهُ إِلَى الْمَسَاءِ بِصَعْوَدَةٍ. وَثَقَلَ عَلَيْهِ الْلَّيلُ أَكْثَرُ، وَظَلَّ يَقُومُ مِنَ الْفَرَاشِ وَيَعُودُ إِلَيْهِ. وَلَمْ يَكُنْ عَمُودُ الصَّبَرِ قدْ انْصَدَعَ بَعْدَ حِينَ جَمَعَ فِي بَيْتِهِ عَدَدًا مِنَ الضَّبَاطِ: عَبْدُ الرَّحْمَنُوفُ، وَغَايَمَانُ وَفَانِيُوكُوفُ وَسِيرِدِيُوكُوفُ وَدُوْخُوفِسْكُوَيِّ وَسِمُولِينِسْكُ وَأَرْجَانُ.

- أَهَانُوكُ، عَلَى مَا أُرِيَ، يَا عَقِيدَ عَبْدِ الرَّحْمَنُوفِ أَمْسِ عَلَى طَرِيقِ طَوَابِسِهِ، - قَالَ إِفْدُوكِيمُوفُ مُتَظَاهِرًا بِتَصْفُحِ الْكِتَابِ الَّذِي أَمَامَهُ، ثُمَّ ارْتَدَ عَلَى الضَّبَاطِ

الآخرين: - وأنتم ألم تفهموا أنكم أهتمتم معه؟ ييدو عليكم كأنكم لم تتأثروا البتة بما حدث. اجلس يا عبد الرحمنوف! لا أدعني أن لا ذنب لي في ما حصل. ولكن الأبراخ مارسوا ما يجب أن تتخذه مثالاً في الرجلة والتصريف السلمي: أعادوا إلينا جيشنا مجردً من السلاح دون أن يطلقوا طلقة واحدة. وعبد الرحمنوف إن كان يعرف ما يستحقه أو كنتم تعرفون ساختيره ثانية أمام من أهانوه. ليس لأنني مشفق عليه، بل لأنني واثق من الضابط الذي أبدى رجولة في الداغستان والشيشان.

- حياك الله يا جنرال! - نحضر عبد الرحمنوف مجدداً.

- أما أنا فالخدمة التي سأقول لك من أجلها شكرأ يا عقيد هي حين تأتيني بوحد من برج أو تسي على حارك الحصان. - انتظر إفدوكيروف قليلاً ثم سألهما واحداً واحداً بنظرة خاصة إلى كل واحد منهم عن استعدادهم للجبهة التي هم متوجهون إليها، والضباط يقابلون أسئلة الجنرال بالهوض جيغاً، ويجيرون إجابات قصيرة، مظهرين بأصواتهم الحادة أئم لا يخوضون حرباً للمرة الأولى. وقال لهم وهو يتظرون آخر أمر سيُصدره جنرالهم إليهم: - الآن أيها الضباط، والمهمة التي لجأتم جنودنا تنتهي اليوم، سيكون أمرى مختصرأ: أظهروا رجولتكم على جبال الأبراخ والله والقيصر في قلوبكم! وحين تنتظرون من الجبل الآخر إلى ما وراءه لن يكون البحر الأسود بعيداً. مع السلامة. وحظاً سعيداً. أما أنت أيها الضابط أرجان فتوقف، أريدك.

- أسمعك يا جنرال! - وقف جامبيج أمام الجنرال باستعداد.

قال إفدوكيروف بوجه طلق لأرجان وقد اقترب منه ولمس رأسه كتفيه:

- استرح أيها النقيب، أسمح لك. نحن الاثنين، نتكلّم بشقة متبادلة بغضّ النظر عن تفاوت رتبتنا وعرقينا وديانتنا.

- شكرأً لك يا سعادتكم على ثقتك بي - مع أنه لم يكن يريد أن يُظهر امتعاضه من الإهانة التي يوجهها إليه الجنرال، ويكتب مشاعره فقد لمح إلى الجنرال بما لا يعجبه: - ولكن رتبتي تشهد على ثقة القيسن في منذ زمن بعيد. - هذا مداعاة للفخر يا كابتن، على أنك لم تحكِ ما في قلبك بكلمات أخرى. - ضحك إفدوكيروف في سره منمقًاً كلماته. أجلس الجنرال الضابط الروسي الذي يتأنبه أمامه، وامتدحه: - نعرف رجولتك وصراحتك وصدقك. ليست رتبتك وحدها ما شرفك به قيسننا، بل ما على صدرك. ولكن، إن كنت من رعائنا، فوجودنا معاً في حرب الشراكسة يجعلني أعتبر من الضروري أن نتكلّم معاً بصراحة، متبادلين الثقة.

- فهمت يا سعادتكم مصدر عدم ثقتك... قال أرجان تامبج كاباجاً مشاعره الغاضبة، وأضاف: - لهذا السبب كانت ماريا تيمريوكوفنا زوجة القيسن إيفان غروزني غير موثوقة.

- من قلت؟ - سأّل إفدوكيروف عن المرأة الشركسيّة التي سمع باسمها، ثم أصلح كلامه بسرعة: - أقصد الزوجة الثانية لإيفان غروزني؟ أليس حدث هذا قبل زمن بعيد؟ لماذا نبنيّ التاريخ بعيد الذي لا نعرفه؛ ألم يكن العقيد سلطان خان - جري الذي يستحق الشكر حارس القيسن نيقولاى الأول والد

قييسننا. صحيح، إن لم أخطئ يقال إنه كان من تatar القرم¹.

- لم تخطئ. يا سعادتكم - ابتسم أرجان في سره. - والجنرال زاس حارب من

¹ الحق أنه لم يكن من التتار، بل من البجدوغ الذين كانوا يسكنون شبه جزيرة القرم. وتولى منصب معاون قائد السرية الجبلية الفلقايسية لحماية القيسن، ثم استلم قيادتها. وكتب عنه إسحاق ماشباش رواية تحمل اسم خان جري. ترجمت إلى العربية من مترجم هذه الرواية وصدرت في مايكوب عام 2016.

أجل روسيا متناسياً أنه ألماني.

- نعم، نعم. كان عندنا جنرالات من جنسيات أخرى ألمان وغيرهم حاربوا شامل سنوات طويلة، وإن لم ينتصروا عليه. الإمام شامل الذي هیج القفقاس، وأبناءُ قومك الشراكسة في مقدمتهم، لا أزعم أنه أُنیر بفضلي وحدي فأنسى رفاقي الضباط والجنود، ولكن الحق لا يموت مهما حاولت فلن يلومني أحد إن قلت لك الحقيقة. أنا من حالفه الحظ بأسره. وليس هذا وحده يا كابتن. أكدوا عليّ وعليك أن نهبي حرب القفقاس في أرضكم. ولكن وجب إخضاع الأبخاز والشاسغ والوبيخ بالسلاح لأنهم لا يرخصون. وأنت، مع علمك بهذا، جئت من القبرتاي بالفرسان من القوات الridgeة الذين كلفوك بقيادتهم.

- نعم يا سيادتكم، جئت من القبرتاي بالفرسان المئة والخمسين الذين كُلِّفت بهم — مد أرجان قامته من جديد ناظراً في وجه إفدوكييموف، معتمداً بما سمعه منه: - نحن جاهزون من هذه اللحظة لتنفيذ ما تأمرنا به.

- اجلس، اجلس! استبقتك للحديث وحدنا في الموضوع الذي طال قليلاً كلامنا فيه. أتسمع الطلاقة الأولى لمدافع وبنادق جنودنا الذين انتشروا في جبال الأبخاز؟ وسأقول لك سبب عدم إرسالي جنودك معهم، ولو كان يزعجك: لم يحن دوركم بعد.

- يا سيادة الجنرال! — جعلت الإهانة أرجان ينهض من جديد رغم كونه في حضرة قائد الجيوش الروسية في إقليم بشزه التي تعد ثلاثة ألف.

- اجلس يا كابتن أرجان! — قال إفدوكييموف بصوت هادئ حازم، وأضاف: - نَقِدْ ما أُمِرْتَ به — ثم أنهى بصوت أنعم: - ليس الأمر أني لا أثق شخصياً بك، ولا أني لا أعرف البطولات التي اجترحتها في الشيشان. وأتعجب لم تترفع إلى الآن. ولكننا من بيده الترفع الآن يا أرجان مرادوفيتش. تعاملوا معك

في تامي حبله، على ما سمعت، بما لا يتناسب مع درجتك الاجتماعية "لورق"¹. وأنت من أمضى طفولته هنا، وسيبوا لك المتابع.

- هذا صحيح يا سيادتكم ولكن لم يعد في تامي حبله الآن من لم يفهمني من آل تامي، ومن آل حمزقوه. ويقال إن بعض من بقي منهم رحلوا إلى جهة لابا العليا... - واختتم أرجان وأحزانه القديمة تنقل عليه: - هذا حصل قبل أكثر من ثلاثين سنة. وبقينا أحياء من بعدهم ومن بعد حرب الشيشان. والآن لا أريد أن أجلب لنفسي العار بالمهمة التي كلفوني بها.

- لا أظن أن هناك أحداً لا يحب أرضه وبلاده... - قال إفدوكيروف بطريقة لا تعرف منها أهو جاد أم غير جاد، ثم سأله نفسه باسمه: "ولم لا يوجد، وهذا الجالس أمامي، بم يختلف هذا عن الذين تحولوا إلى روس من أمثال زاس وكلوغيناو وأوريليني وتورناو..." - نعم يا جامبيج مرادوفيتش، نعم. الإنسان بعض النظر عن قوميته مركب بطريقة سهلة الفهم وصعبته. وعلى سبيل المثال ففي تامي حبله حيث احتجزنا أنت والنقيب الركن تورناو يعيش القوزاقي براعنه الذي تحول إلى شركسي، وأولاده، وأحفاده.

"ما الذي لا يستطيع الجنرال أن يقوله إلى الآن؟ بعدما صارحني مباشرة بما يريد أن يقوله، وأنا من جهتي لم أكتمه ما في قلبي، وأخلص له، والقرية تامي حبله التي كنت فيها، والمكان الذي حاربت فيه، الشيشان، انتهاءً بتواضع رتبتي وعلوها؟ تبين من عدم زجّه فوجنا من القوات الرديفة في الحرب أنه لا يثق بي من جهة الأرباح أبناء قومي... لماذا إذن جاؤوا بنا إلى هنا بناء على أوامر من تفليس ويجعلون الأرباح يختقروننا؟... - امتنلت أمام عيني أرجان هبة الشبان

¹ طبقة النبلاء في بعض الأعراق الأدبية.

على باب دار ددای. ومع أن مرزخوي بكر كانت نيته خيّرة فقد سأله نفسه ثانية وهو يتذكر سؤال الأخير عن ابنته: - هذا يدين آل براوغنه ولكنه يتناسى أن كنّتهم امرأة روسية؟ أیكون لا يعرف بالأمر؟ لا يحدث شيء في القفقاس الشمالي لا يعرف به إفدوكيروف ذو العيون الثلاث؛ أَسأله إذن؟ لا، سأصبر، وسأعرف ما في قلبه نحو حقيقة..."

- سمعتُ أنك كنت قبل أيام في تامبي حبله يا كابتن ... - خرج أرجان من أفكاره حين قال إفدوكيروف كمن لا يعبأ بسؤاله.

- ما سمعته صحيح يا سعادتكم - أجاب أرجان بسرعة على السؤال المفاجئ وكأنه كان يتتظره. ولم يدافع عن نفسه في الموضوع الذي سأله عنه - زرت المكان الذي عشتُ فيه شبابي.

- وكيف استقبلوك فيها؟ أقصد رتبتك الروسية.

- من يدخل إلى المضافة الأديغية، وربما أنتم تعرفون هذا يا سعادتكم، يستقبله أيُّ مضيف.

- إذن بعد أن يقوموا بواجبات الضيافة، ويودعوه إلى خارج القرية؟.. - سأله إفدوكيروف بشيء من الرياء، مُشيراً إيه بأن عنده بعض الاطلاع على عادات وتقالييد الأديغة.

- لن ندعك تخطئ في عادات الأديغة ولو كان عندك بعض المعلومات عنها يا سعادتكم. بعد أن يودع المضيف ضيفه إلى ظاهر القرية تنتهي واجباته هنا. فإن كان عدواً أو تصرف معه تصرفًا شريراً حقاً للمضيف أن يقول للضييف الذي ذاق من طعام الأول: الآن أخرج سلاحك. ولكنني أهل تامبي حبله قاموا بواجبهم قبل توديعي إلى خارج القرية - قال جامبج لنفسه: "سأصارح هذا الرجل بنفسي دون أن أتركه يسألني عما يعرف"، ثم أضاف إلى كلامه

باختصار — كان بعض الشبان هاجموا باب المضافة مستائين من رتبتي الروسية. ولو لا مرزخوي بكر كانوا آدوي.

— من هذا الذي ذكرت اسمه يا كابتن؟ — سأل إفدوكيروف مع أنه كان يسمع أخبار مرزخوي بكر، وأخيه محمد الأفندى، وقربيهم براعن، ثم تظاهر بأنه يتراجع: — أهو الذي تبى الفتاة الروسية ابنة له، وزوجها من آل براعن ذوي الأصل الروسي؟

— نعم يا سيادتكم، صحيح. عشنا في القرية نفسها أنا وآل مرزخوي وآل براعن ومن كنتُ بضع ساعات في ضيافته ددai. وتوسّطنا للنقيب الركن تورناو كي يُطلقوا سراحه.

— لا يمكن ادعاء أن محمد أفندي الذي يحتقر الروس له فضل على روسي... — غمم الجنرال إفدوكيروف، ثم خصص كلامه بصوت أحزم: — لا تفارق فمه كلمة "غروة" ضدنا. أصحح أن موقفي الأفندى وأخيه بكر من الدين مختلفان؟

— على ما أخبرني ددai يا سيادتكم فيبين الأخوين مثل هذا الاختلاف.

— حين نحضر إفدوكيروف مرتاحاً لما سمع فز أرجان من مقعده بقامة مشوقة. وقال له الجنرال ذو القامة المتينة الممتلئة في اللفة الثانية من ذرعه أرض الغرفة: — عُد إلى مجلسك يا كابتن — بعدهما تصفح الخريطة العسكرية المعلقة بالجدار قليلاً، ورجع بقامته القوية إلى مجلسه أضاف إلى كلامه: — على ما يبدو شهدت على صحة الأخبار التي نقلها جواسيسنا. إن أردت الحق، يا جامباج مرادوفيتش، ما كنت أريد أن أسفك دماء قومك الأبخاخ وأعقابهم بما لا يستحقون. وقيصرنا العظيم جاء إلى هنا تاركاً مشاغله من أجل أن يقابلهم ويتحدث إليهم. ولكن أمثال تسي، مستغلين نداء المجلس الذي لن ينفع في

شيء، دمروا حياة الأبراخ فلم يفهمونا. في دولة روسيا تعيش أقوام كثيرة متباعدة، ولكن القيسير لا يذهب يتسلل إلى كل قوم يعارضونه. ولا يعتب علينا أحد الآن لأنه لا يكرر كلامه إلى من لم يقبلوا دعوته إلى السلام. وسأقول لك شيئاً آخر يا كابتن ما دمت بدأت الموضوع: لم يبق في الأبراخ يا كابتن منطقة، حتى جبال توبا البعيدة، لم يتعرف عليها جواسيسنا ولم يختبروها. والدول التي كان الأبراخ يتأملون مساعدتها تركيا وإنكلترا وفرنسا، زارها موعدو قيسارنا. وقد أصبحنا أحراً في ما نقول ونفعل لأنهم أفهموا الوضع من لم يفهمونا. أنا أشفق على الناس الأبراء من الأبراخ الذين يضللهم أمثال تسي وبرج والأفندى مزخوى الذي يدور في فلكهم، والذين سيهلكون على أيدي المدافع التي لا تعرف وجع الإنسان، والبنادق، والسيوف، والخناجر. وأنتم رغم أنكم من قومهم جاء بكم من القبرتاي عقولكم فوقتم إلى جانبنا فوجاً كاملاً. وأنا مسror لهذا، ورفعتم الروح المعنوية لمقاتلينا.

- أنا ضابط لروسيا، وفي خدمتها! - قفز أرجان جامباج من مجلسه وقال.

- هذه مفخرة يا كابتن، مفخرة - مرة أخرى طلب الجنرال من الضابط الجلوس وهو يتندحه، وقال لنفسه "أيكون هذا الضابط متشدداً أكثر مما ينبغي بحيث يجعلك تشك فيه؟" وأضاف له في اللحظة نفسها: - تحدثنا جيداً ناسين أن قواتنا هجمت. هؤلاء، وإن لم نكن معهم في هذه اللحظة يا كابتن، سأعتبر أننا كنا معهم، ولكنني واثق أننا سنعيد الكلام في الموضوع نفسه قبل مرور الكثير من الوقت. والآن، وقد ألغيت القنانة في روسيا¹، ستفكر في طريقة لإطلاع الأبراخ على الموضوع الذي يخفيه زعماً لهم عن مقاتليهم لأنني رأيت

¹ عام 1860

فيك قناعة متينة وفطنة واضحة.

- لا يمكن أيها الجنرال اتخاذ العبودية ممسكاً في الأبراخ – جزم أرجان جامباج بسرعة.

- لأن الأبراخ يعدون أنفسهم ليسوا من رعايا روسيا؟ – سأل إفدوكيروف عما كان يشغل باله.

- هذا سبب، ولكن الأبراخ، كبارهم وصغارهم، يفخرون بأنهم دون عبيد، وبأن جبال بلادهم وغاباتها وأنهارها وطرقها السرية مِنْعَ لهم.

- القائد سوفوروف احتل في أوروبا تحصينات أقوى مما لدى الأبراخ. – قال الجنرال إفدوكيروف باسمه – وبعده بقرن وضع المغاربة الروس الأشواوس الذين هزمو نابليون وأعادوه من حيث أتى، أقدامهم في باريس. وقوزاق بلا توقف رقصوا على أبواب بيوت المدينة. ومن أين للمرتدين الأبراخ أن يعرفوا هذه المعلومات؟.. ولكن، ومع ذلك، يجب أن نستفيد من الخلافات التي بين قيادتهم لأن الطرفين لا يريدان سفك الدماء.

- مع أن الأعراق الأدبية سهل تحطيمها واحداً واحداً يا سيادتكم – أسرع أرجان بالقول دون أن تعرف فهو معتمد بما يقول أم لا – فحين يتوجهون إلى ساحة الحرب ينسى كل عينيه التي كانت تنظر شرزاً إلى الآخرين. ولكن كوننا لا نعرف التراجع يمدي بالقوة في ما أقول وما أفعل لأنني أعرف كيف هي الرجولة الأدبية الأنiqueة.

- إن كنت تخلص لما تقول فهذه مفخرة يا كابتن، مفخرة – مرة أخرى قال إفدوكيروف باسمه في نفسه لمن نمض له – ستقود فوجك حالاً إلى جهة داخل وحامشك، حيث يحارب العقيدان غامان ودوخوفسكي. أعطيك كل الصالحيات لتفعل ما يستطيعه فوجك.

– أسمعك يا سيادتك – قال أرجان جامباج الذي كانوا ينادونه في تامبي حبله: "نَجَّ" ، والفخور الآن برتبته الروسية، بصوت جهوري تظهر فيه قسوته، واختفى بسرعة من بين مصراعي باب الجنرال.

الفصل السادس والثلاثون

الجيش الروسي الذي احتل مضيق فارزه كاملاً يتصف بمدافعه الجبال – الغابات التي يتحرك فيها فرسانُ عدوه ومشائطه. وحين يحاول الجيش عبور النهر من بعض معابرها الضيقة يغير عليهم مجموعات الأَبَرَاخَ المسلحون العارفون جيداً بنقاط الضعف، فيصدونهم ملحقين بهم الخسائر.

وليس الجانب الأَبَرَاخَي دون خسائر – يُخلون القتلى والجرحى الخطرين على ظهور الخيل وبالعربات. والجرحى الذين على أرجلهم لا يزالون في ساحة الحرب. وفي قرى أَبَرَاخَية كثيرة، وصولاً إلى توبا البعيدة، تقام المآتم. ويسمع في كل مكان صيحة طلب النجدة "مارج" التي يهرب لها من نبت شارباه ولحيته ومن لم ينبت. والجوارح التي شمت رائحة اللحم، والتي تستنشق رائحة البارود تختوم في السماء، وتصرخ من على حوافِ الصخور في الجبال، ووحوشُ الغابات تختبئ فزعة.

الناس الذين لم يستطعوا مواجهة العدو يرحلون بصغارهم ومسننיהם تاركين وراءهم بيوقهم ومتاعهم ومواشيهم إلى عمق الغابة الجبلية. وإذا التفتوا رأوا بيوقهم التي أشعل العدو النار فيها وإسفلاتهم ومساجدهم تحرق. والكلاب تبع والأبقار تختور... وقرى داخا وحامشك وغوزه ريل وملجان وغيرها عمتها نيران العدو.

أَكَدَ العقيد دوخوفسكي على النقيب أرجان قائد وحدة قاذفي اللهب:

– لا تتعرضوا إلى المخصوصات الحديثة، ولا إلى أكواخ الحشيش اليابس المصفوفة؛ ستحتاجها.

- هل سمعت أيها الجندي داور أوامر العقيدة؟ سأله أرجان بالروسية أخا زوجته الأصغر، ونهره: - كم قلت لك ألا تتكلم بالأديغية؛ اذهب ونقد مهمتك!
- في ذاك البيت يا كابتن - يقول الآن داور لأرجان - عجوز مسنّ مريض.
- وإن كان فيه! نحن لم نأت إلى هنا للشفقة - حين دفع جامباج الباب برجله رأى في الفراش العجوز يلوح له بالخنجر.

- أشهر على خنجرك إن كنت رجلاً أيها الكافر عديم الإيمان! - جلس العجوز المتور الرجلين في الفراش.

ابعد أرجان عن الباب وصرخ على داور:

- لماذا أنت واقف؟ هات - انتزع منه الجمرة المتلظية، ورمها على سطح غرفة العجوز.

الناس الذين أحرقت قراهم يلجؤون إلى القرى المجاورة لهم، أو المواجهة. والجيش الروسي الذي يتعقب هؤلاء يتصدى له رجال الأبراخ. وهم يؤخرون تقدمه ريشما يبتعد الراحلون التعباء. وحين يستطيعون بقوتهم صد المهاجمين فما يروننه في كل اتجاه مأساة: نار ودخان ورماد وأناس قضوا ببرؤوس الحراب.

القرى التي انتكبت بلهيب النيران ليست واحدة أو اثنتين أو ثلاثة.

- مهلاً يا إسلام، أسمع أصوات حديث بالأديغية... - أوقف مرزخوي بكر حصانه.

- كيف لا تسمع أصوات حديث بالأديغية ونحن على أرض أديغية؟! - قال براغنه إسلام، ونظر نحو ددائي.

- أعطني جام حصانك يا ددائي، واعرف على مهلك ما لا يستطيعون تفسيره. - قال بكر لددائي وهو ينصلت إلى الاتجاه الذي يمكن أن تصدر منه أصوات قاسية.

- سأستطلع غير أني أظني عرفت من هذه الأصوات... - تسلل ددai إلى الغابة الكثيفة، ورأى في فسحة خالية من الشجر أرجان جامبج وداور يدج المتاجهين برأسى حصانيهما.

يقول داور لأرجان:

- ما تفعله في أرض الأبراخ عيب.

- وماذا تrepid أنت أن تفعل؟

- أفضل أن أحارب بالسلاح على أن أرمي النار.

- وإن جرحت فأبأي عينٍ أنظر إلى أختك؟

- لا أظنه مدعوة للخجل أكثر مما فعلت بالعجز العاقد الذي كان يلوح بخنجره.

- يا داور إن تجاوزت هذا الحد فلن أوفّر عليك حياتك!

- أيها الصهر أعرف أنه لا شيء يردعك عما تقرر أن تفعل. ولكن لا تغتر بكتافياتك الذهبية. ستكون نهايتك عليها. - ارفع داور يدج على الركابين برجليه وردد على أرجان.

- وهل كتافياتك أنت مما يمكن أن تعتدّ بما؟

- وعلى كتافياتي القماشية، كما على كتافياتك الذهبية، رماد قريتنا.

- يا يدج، أفهم ما لا تستطيع تحمله - قال جامبج وقد لان قليلاً، وأضاف بعد وقفة قصيرة - ولا تظنّ أني عديم الإحساس... ولكن نتيجة الرجلة ونتيجة الإحساس المرهف مختلفتان. لا تتوقع الرحمة من شهرت عليه السيف. تعال، أمامنا الكثير مما نفكّر فيه؛ لنلتحق بفرساننا!

نظر ددai بعض الوقت في إثر الفارسين الأدعيين اللذين تجادلا، غير عارف سبب الجدال. ثم قال لرفيقه حين عاد إليه:

- لم يُخطئ، ما سمعناه كان أصواتاً أديعية... أرجانه جامبج وداور يدج اللذان نعرفهما بدا لي أنهما مختلفان؛ أليس عجيباً؟
- لا تختتم كثيراً بالأمر! - قاطع براوغنه إسلام كلام ددائي.
- توقّعت أن يكون الأديعيان اللذان شهراً السلاح في وجهنا على وفاق... هذان لم يبتعدا. لنطاردهما ولنقبض عليهما... ولكنهما ليسا وحدهما.
- إذن لن نلحق بمجموعة من الفرسان لن نقدر على مجاهاتها ونحن ثلاثة. قال بكر - عدم اتفاق الأديعيين اللذين جاءانا بالسلاح خبر حسنٌ لنا. ثم فَكَرْ قليلاً وأنهى: - ما كان ليخطر لي أبداً أن "نقح" ويدج سيجاهاهنا يوماً بالسلاح. وكما كان والدنا يقول: ربما كتب الله أن يحدث هذا. لا يأس ونحن على أرض الأَبْرَاج، نتنفس هواءها ونُظُلُّنا سماؤها. سنمضي إلى الاجتماع الذي دُعينا إليه.

الحرب التي شنّها إفدوكيروف لم تكن كتلك التي كانت تحرى أيام الجنرال فيليسيون والنائب محمد أمين التي تخللها فترات من الصلح. أرض الأَبْرَاج تحاصرها جيوش القيسير من جهات ثلاثة، فلا يبقى إلا اتجاه طوابسه التي يمكن أن تأتي منها مساعدات من جهة الشابسغ والوابيخ. وحالياً كان جيش المشاة - الفرسان الذي جاء به سيرديوكوف وفانيوكوف من جهة مايقواب وشتحاله أخطر الاتجاهات. وتحت تصرف هؤلاء مدافع ليس للأَبْرَاج منها، يمكنهم أن يقصفوا بما أَي موقع. أما الجيش المجهز في الشيشان والداغستان فكان يتصدى له الأَبْرَاج الذين يعرفون موقعه، فيكبدونه خسائر فادحة. ولكن أكثر ما كان يُؤلم الأَبْرَاج ويُشعّرهم بالإهانة هو قدوم الفوج الرديف من القبرتاي إليهم محارباً.

- أراك لا تقول شيئاً يا كبيرنا؟ - سأل ددائي بكر، وصورة الذين قاسمهم

مشقات الحياة في شبابه والآن يطاردوهم بالحرب لا تفارق خياله.

- وماذا أقول؟ أليس ما يشغل بالي هو ما يشغلك أيضاً؟ سيأتي غداً يوم مثل يومنا هذا. وقد يكون أثقل من البارحة، وستشرق الشمس، وتتساقط أوراق الأشجار، ويسقط بعضاً في الحرب، ولكن النهار القادم لا يتوقف على هذه الأحداث. - وبعد وقفة قصيرة أنهى بكر كلامه: - والقوات الridge من القبرتاي التي حملتك على السؤال أيضاً يا ددai. سيهلك هؤلاء عاجلاً أم آجلاً بحربة ما جنوه على عرقهم البريء.

- الجفاء الذي لاحظته بين أرجان ودارور لا أظنه يستمر طويلاً... - قال ددai لنفسه وسأل برأغنه: - وما رأيك أنت يا إسلام؟

- أجيبي بالقول الأديعي المؤثر: الحجر الذي ترميه أمامك تعثر به.

- لن تقول أصدق من هذا يا إسلام... ما العمل؟ هذا ما يختبرنا به إلينا في دنيانا الفانية... أبناء العرق الواحد يتحاربون - لا يمكن أن تكون هذه طريقة اختبار... أليس صحيحاً يا برأغنه، أنت أدرى بجداً؟

- أنت يا ددai يجري على لسانك الكثير... - قال بكر بلا مبالاة إلى ددai وراءه.

- لا أعرف إن كنت أبالغ، وهذا ما يشغل بالي... نعم يا بكر فهمت... لا يُفضّل سرّ في الغابة ولا في الظلام.

قال أحد الفارسين اللذين خرجا من الغابة فجأة وسارا أمامهم:

- سلامنا لكم يا إخواننا الأبرار. نحن هربنا من الفوج الرديف وتوجهنا إليكم. سلاحنا سلاحكم، وسلاحكم سلاحنا. أسمى قانشاوبي، ورفيقي برسبي.

- هذه بطولة تفتيان بها شرفكم. إن كنتما ستنتصريان تحت لواء حرية الأديعة - أجاب بكر حذراً - تفضل!

- كان أفضل شيء - لم يُطق ددai صبراً - لو جئتما بـ "نفع" على حارك الحصان.

- ومن هو نفع يا أخي؟ سأله قانشاوي.

- من ندعوه في قريتنا باسم نفع هو أرجان جامبج.

- هل تقصد الكابتن أرجان؟ - سأله قانشاوي، وحدد بسرعة: - لن يسمح أخو زوجته الذي لا تفارقه عيناه راكباً أو راجلاً أن تصل إليه.

- أیكون داور يدج من هذا النوع من الناس؟ - سأله ددai الآن، وشرح سبب السؤال: - وهذا أيضاً من قريتنا وولد في حيّنا.

- لماذا تستغرب يا ددai الأمر؟ - قال براوغنه إسلام - زماننا زمان انعدام الثقة وانعدام الرحمة... من كان يدرى أن هذين الرجلين من قومنا سيعودان إلى وعيهما ويصفان معنا؟ الله يرى كل شيء وكل شيء بيده.

- نعم، صحيح يا أخي - ساهم الآن برسبي الذي كان ي يريد منذ وقت أن يقول شيئاً ولا يتكون له الفرصة - إن كانوا أخطؤوا فليُعِدَ الله الرشد إليهم، ولليشملهم برعايته!

- حسنٌ أن يكون الله في قلوبكم، ولكنهم يتظروننا هنالك في برج حبله. - خرج مرزخوي بكر من أفكاره، وقاد المجموعة التي زادت فارسين في طريق جبلي ضيق عبر الغابة.

الفرسان الخمسة أفكارهم مختلفة كاختلاف لباسهم وخيلهم وأشخاصهم. ولكنهم، وإن كانوا يختلفون قليلاً أو كثيراً، فما كانوا يُؤولون إليهم مرهقين مهمومين هو الحرب الدموية الدائرة في الأبراج. يقول بكر: "أي مأساة جرت لنا، أي إبادة لعرقنا يشنونها علينا؟..." ويدين براوغنه إسلام نفسه بهذا المعنى وإن كان من خلال فكرة أخرى: "ما أشد ظلم أبناء قومنا من جهة الوالد!"

وهما مهمومان بمصير قانشاوبي وبسري وإن كانوا راضيين عما فعل، يقول ددai قلقاً: "هذان الأدعيان اللذان عادا إلى رشدهما أهما جديران بالثقة؟" يتمنى أن يهمس به لبكر ولكنه لا يجد الوقت المناسب.

- يا بكر، يا كبير، إن سمحت لي أريد أن أسألك - لم يُطِق ددai صبراً.

- أسمعك يا ددai - أجابه بكر دون أن يلتفت إليه.

- ماذا تفضّل أن تفعل بملابس هذين اللذين انضما إلينا من الفوج الرديف القبرتاي؟

- أترى عليهما كتافيات؟

- لا، تخلّصا منها.

- وماذا إذن؟

- وكيف لي أن أعرف!

تبادر قانشاوبي وبسري النظرات بسبب الحديث الذي سمعاه عن عدم الثقة بهما. ونظر إسلام إلى ددai نظرة سخط. وأسع بكر بمحضه دون أن يجيب.

الفصل السابع والثلاثون

لم يتقدم جيش القيصر في بلاد الأبراخ من جهة حمشك إلا بضعة فيرستات خلال ثلاثة أيام. وفي خلال هذه الأيام حولوا قرى الناس الذين رحلوا بأرواحهم إلى رماد. ولكن الضباب الذي غطى الأرض لاحقاً والثلج الذي فاجأ الجيش أوقفا تقدمه. ووجد الأبراخ المقاومون للمشاة الروس الذين كانوا يهجمون بعد قصف مدافعهم الوقت ليعدوا تجهيز أنفسهم.

لم يكن برج وتسى اللذان كانوا ينتقلان من ساحة معركة إلى أخرى يهدآن. وكالعادة كان يرافقهما مرزخوي محمد الأفندى، لا يُنسى محاربى الأبراخ صلوات الابتهاج إلى الله. ويجلس معهم إلى نيرانهم، يدعوا إلى الله من أجلهم،

ويعتدحهم، وينشد معهم الأذكار، ويقاسمهم لقمة الطعام.

إن نظرت إلى الأسفل من مرتفع حجج ظهرت موقع الجيش المعادي غير متقاربة ولا متباude لا تصل إليها طلقات المدافع والبنادق. وأحياناً تسمع أصوات طلقات بنادق متفرقة تمزق سكون الطبيعة البيضاء القلقة، وتسقط أصداها تُتفَّل الثلج الناعم من أعلى الأشجار، ثم تصمت وتحتفي تحت سفوح المرتفعات وأسفل الأشجار كأن شيئاً لم يحدث. وتلتقي أدخنة نيران الطرفين المتجابحين في السماء فتحتد. وشمئ الشتاء المبكر، غير العابث بما يجري على الأرض، تخترق في الظهيرة المتجمدة.

بلاخوه باتر الذي كان يقلب بيساره البندقية القديمة الثقيلة كأنها لعبة أطفال، فيتفقدها، يلوم ابنه مزحب:

– بندقية جدك ليست لعبة يا ولد. ستصل إليك نار العدو وأنت تحاول إطلاق النار منها. ستكون هذه أسهل استعمالاً لك.

– وأنت يا تات؟ أتركك دون بندقية؟

– أنا ألا يمكن أن أحصل على شيء مما يرسله إلينا الوبيخ ريثما تُشفى يدي المخروحة؟

– ويدك يا كبير ستُشفى – يقول عُمشت راضياً بأنه سُعل – وسيصلك شيء من سلاح الوبيخ الذي طال انتظارنا له. – أجعلنا موضع ثقتك، لن نسمح للعدو أن يصل إليك؛ أليس صحيحاً يا هارون؟

– وهل يحتاج هذا إلى سؤال! لن نضعف يا عُمشت. – يعيّر كوبا هارون عن رجولته في حين يتثبت القبعة على رأسه – وأنت يا برسر أراك لا تقول شيئاً!

– ليت مدفعاً كالذى ييد الكفار كان تحت يدي! كنت أريشك ما أفعل بكم أكثر مما أقول لكم. – لم يدع برسر زوال نفسه يفارق صحبه.

- إن كان الأمر هكذا يا زوال، لأنني أسمُّ منكم ليس قليلاً، فلن أسمح لكم أن تسبقوني. - مازح بلاخوه باتر أفرانه - بندقية أول جندي معادٍ أشهر عليه سيفي بيسماري ستكون لي... لا تضحكوا، لا تضحكوا، ليس هذا الكلام دعابة!

اقرب برج يرافقه تسيي ومحمد أفندي من المجموعة التي كانت تتضاحك، وسأل بلاخوه الذي رُبطت يده اليمنى إلى صدره:

- ما الأمر يا باتر، هل ترفع معنوياتِ الشباب الأصغر منا؟
- أنا لا أرى، يا زعيم الأبراخ، إلى الآن بين هؤلاء من غلبه اليأس. - رد بلاخوه باتر على برج حسن بزحة، وأضاف: - لنترك الأمر إلى الغد. لا أعرف كيف ستتجلى رجولة هؤلاء. ومع ذلك أنا واثق منهم.

وفي هذه اللحظة اجتهدت عيون الجميع إلى سهل حجُّن الذي صدرت منه طلقات بندق. ورأوا على ظهر المرتفع فارساً أَبْرَاخِياً يتعقبونه بالطلقات. وعدها من الفرسان انطلقوا لاستقباله.

تعرف محمد أفندي على الفارس الذي وقف أمام برج حسن:
- هذا أنت يا يدج! - وقال للآخرين بسرعة: - هذا الفارس من قريتنا تامبي

حبله، ابن داور المُجْرِي، ومن على حارك حصانك؟
- هل عرفته يا أفندي؟ هو "نجع"... أنتم أحرار في ما ستقررونه بشأن صهري أرجان جامبج. وأنا أضع نفسي تحت تصرفكم.

حين أُنْزِلُوا نجع أرجان جامبج المقيد اليدين والرجلين، العاري تماماً، من حارك الحصان، وأجلسوه أمام المجموعة، قال برج باختصار:

- فُكُّوا قيده، وغطُوا ظهره بما يدفعه!
- أي رحمة وأي دفء يا برج بدلاً من أن نسفك دم الخائن الأدِيغي؟! - قال

تسى لا يستطيع صبراً، ووافقه آخرون بأصوات متباينة.

– لا يا جماعة، لا تدعونا نتصرف من منطق النزق والخمية! – رفع برج يده ونصحهم – سنتصرف معه بما يستحق، ولكن ليس الآن. سُنُخضه إلى حماكة.

لم يطل الأمر بالمحكمة حتى أصدرت حكمها: أبلغ المنادون في الأ Ezraخ أنه أُلقي به من الجدار الصخري في اليوم الثالث من صدور الحكم بحقه.

الفصل الثامن والثلاثون

الأيام الدافئة من بداية الربيع بعدما انقضى شتاء عام 1862 البارد التي ستحتبر مزيداً من عذابات الأ Ezraخ مزقتها مدافع القيسار. يُنثَلَ إِلَيْكَ أَنَّ الصدى المتأثر للبرق والرعد المخيمين فوق الجبال يصدر من كُلِّ اتجاه. لم يبق في الأ Ezraخ من لا يعرف أنَّ هذه الأصوات، ولو أنَّ الموسم موسم البروق والرعود، ليست إلا أصوات المدافع الحاملة للأساة. ولم يبق في القرى من يستطيع حمل السلاح، اللهم إلا بعض المسنين والأطفال. ولم يعد يُسمع فيها إلا النواح على الضحايا. وتوقفت حفلات "الجابشه"¹ التي تخفف عن ذوي الحروق العميقه آلامهم.

وإن أخذت تامبي حبله، القرية الصغيرة مثلاً، فقد استقبلت خلال أسبوع ستة شهداء وأحد عشر جريحاً. وفي حيٍ براغنه وحده ثلاثة جرحى: بكر ودادي وابنه محمد. ومع أنَّ كتف مرزخوي بكر أصيّبت بجراح عميق فلا يخلو يوم من

¹ نوع من حفلات السمر أو المنوعات كان يقام كما يقول الكاتب للترويح عن ذوي الكسور أو الجروح المؤلمة، يشارك فيها شباب القرية وبناها، وشباب القرى المجاورة، تستمر حتى الساعات الأولى من الصباح، ويقدم فيها نوع من المعجنات قاسٍ يسمى "أباوه" أي شيء يُصدَم بالفم، ثم يوزع قطعاً صغيرة يتهادها الشباب والبنات.

زيارتین أو ثلاثٍ لجاريه ددای وابنه محمد الرائقین في الفراش. وفي هذه اللحظة، وفيما يجهز بكر نفسه لعيادة جاريه جاءت نفست لزيارة والدها الذي كان يغطي كفيفه بكساء صوفي قصير، ولا يزال على رجليه، عانقته وسألته مرتاحه لتحسين حاله:

- كيف كان حالك الليلة تات؟
- كما ترينني يا ابنتي، جرجي يلتهم. ولم يعد يؤلمني. وهل أنا مشكلة؟ بل ددای. كان وضعه خطيراً ليلة البارحة. أفكّر أن أعوده الآن.
- وكيف لا يكون في وضع حرج والرصاصه في بطنه... - قالت جانشر، وأنفحت والألم يعصر قلبها: - هذا المسكين لم يبق من عمره الكثير.
- أين عصا والدنا، لا أجدها؟ - أهنى بكر كلامه مغمماً مع أنه تجاهل كلام زوجته - لا أظن ددای وصل إلى هذه المرحلة. لا تقولوا ما لستم متأنكدين منه... ها هي عصا الفارس معلقة على الجدار.
- ما الأمر تات أينقل عليك تمشيك؟ سالت نفست تحاول أن تُنسى والدها ما لم يعجبه، وسحبت العصا من الجدار - هذه عصا متينة جيدة.
- نعم يا ابنتي، كانت لجتك. الآن لن تجدي مثلها. نحن في عصر كفت الناس فيه عن الاتفاف بشيء. ستفيد هذه محمد بن ددای الذي جرحت رجله. ابقيا أنتما الأم وابتها. - وقال وهو يخرج من الغرفة: - لا تدعها تُطيل بقاءها عندك والأطفال ينتظرونها. ولا تُخرجها فارغة اليدين.
- هل سمعت ما قال والدك وكأنه خائف أن يطلّقك آل براوغنه؟ - نظرت جانشر إلى ابتها ضاحكة، وقالت للرجل الذي تخطى الباب ولو أنه لن يسمع كلامها - لن أدعها جالسة والأطفال متشوقون إليها. ولكن لِتُعْد فارغة اليدين كما أنت.

- لا أتذكر وقتاً تراجعت فيه صحة تات مثل هذا العام - نهضت نفست دون أن تختم بآقوال أمها وتوجهت إلى النافذة المتوجهة إلى باب الدار. وتعقبت بنظراتها والدها المتأبط عصا إلى الجيران، مشفقة عليه.

- نعم، نعم، يا صغيرتي. لو لم يكن إلا ما عانينا... لِيَلِلُ اللَّهُ مَنْ جَرَحَ وَالدَّكَ كَائِنًا مِنْ كَانَ بِالْكُولِيرَا! كَادَ يَخْرُبُ بَيْتَنَا كَلِّ آلِ مَرْزُخُوي - وَقَفَتْ جَانِشَرْ وَرَاءَ ابْنَتِهَا وَتَابَعَتْ زَوْجَهَا بِنَظَرَاتِهَا - يُكَابِرُ عَلَى أَلْمِهِ وَلَكِنْ هَا هُوَ الْجَرْحُ يَمْيلُ بِكَتْفِهِ الْيُسْرَى. وَيَصْعُبُ عَلَيْهِ رُفْعُ يَدِهِ... وَمَعَ ذَلِكَ يَجْهَزُ نَفْسَهُ لِلْعُودَةِ إِلَى حِيثُ تَرَكَ رَفَاقَهُ يَحْارِبُونَ. كَلَامُكَ يَؤْثِرُ فِي وَالدَّكَ أَكْثَرَ مِنْ كَلَامِي، كَلْمَيْهِ يَا ابْنَتِي، وَانْصَحِيهِ!

- يا أمي لن أستطيع أن أقول لوالدي: لا شأن لك بالمكان الذي فيه رجال قريتك. ألا تعرفين طبيعتنا نحن آل مરزخوي؟ بل إني سأقف إلى جانب والدي ووالد زوجي ووالد طفلتي ومن تُحْمَلُ إِلَيْهِ الْعَصَا مُحَمَّدُ بْنُ دَدَيِّي، وعند الضرورة كل من في صدره قلبٌ أديعي. ألا تفهمين يا أمي ضرورة أن نحمي أنفسنا؟

- لا أعرف ماذا تقولين - ضمت جانشر ابنتها كما لو كانوا يسلبونها منها. - هذه مسائل ليست من شأن النساء. والدك المسكين مهموم لأنه لم يستطع أن يفي بندره الذي ندره من أجلك.

- يا أمي - انتزعت نفسها من ذراعي أمها ثم رجعت وعانتها. - نعم يا صغيرتي، نعم. إن سمعتِ كلامي فلن أسمح لك أن تقولي مثل هذا. الله سيفهمنا ويرحمنا. اذهبِي واستئذني حماتك وهاتي لي صغيريك. سيعثان الأمل في قلبي. وأدعوا الله من أجلك... - ومع أن جانشر كانت تفكير في جدتهاما الراقدة تحت شجرة بلوط في فرزه فإنها لم تستطع أن تذكرها لها صراحة.

- كفى يا أمي، لم يمض وقت طويل على زيارتهما لك.

- وهل عجيب إن كانوا هنا قبل أيام، والآن أحب أن أراهما.

- حسناً يا أمي سأتي بهما حالاً.

"يا إلهي، إن قلت ما لا يجوز فافهمني، واغفر لي" – ارتعبت جانشر حين بقيت وحدها مع أفكارها المتضاربة، وابتهلت إلى الله من أجلها هي. – "أنا وبكر والصبية التي أوكلتك تربيتها إلينا بعلمك نعيش في الدنيا الفانية تائهيـنـ. وما ذنب الأب والأم اللذين خرجـتـ من بينهما ابنتـناـ؟ قد يكون والدهـاـ حـيـاـ وفي صـفـوفـ من يـقـاتـلـونـناـ وإن وـجـدـتـ الأمـ التيـ لاـ نـعـرـفـ اسمـهاـ ولاـ نـسـبـهاـ قـبـراـ فيـ أـرـضـناـ،ـ وـلـكـنـ لـنـ يـعـرـفـ سـرـنـاـ أـبـداـ.ـ وـرـبـماـ لـمـ يـعـدـ حـيـاـ...ـ لـيـسـ الـرـوـسـ وـحـدـهـمـ منـ يـحـارـبـونـنـاـ بـلـ بـيـنـهـمـ أـدـيـغـةـ مـنـاـ.ـ مـاـذـاـ يـنـتـظـرـنـاـ غـدـاـ وـبـعـدـ غـدـ،ـ وـفـيـ الـأـيـامـ التـالـيـةـ؟ـ نـحـنـ عـشـنـاـ عـمـرـنـاـ وـلـكـنـ مـاـ ذـنـبـ أـوـلـادـنـاـ.ـ لـمـاـ غـضـبـتـ عـلـيـنـاـ يـاـ اللهـ؟ـ لـاـ،ـ لـاـ،ـ اـغـفـرـ لـيـ.ـ اـفـهـمـنـيـ،ـ هـذـهـ خـرـجـتـ مـنـ لـسـانـيـ عـفـوـاـ،ـ لـاـ مـنـ قـلـبـيـ.ـ اـحـمـنـاـ،ـ اـحـمـ كـلـ مـنـ فـيـ قـلـبـهـ الـخـيـرـ مـنـ الـطـرـفـيـنـ.ـ وـأـحـيـنـيـ لـأـرـىـ فـرـحـةـ حـفـيـدـيـ.ـ وـأـظـلـنـاـ بـسـمـائـاـ وـشـمـسـنـاـ.ـ وـاجـلـنـاـ نـجـدـ السـلـامـ عـلـىـ أـرـضـنـاـ...ـ"ـ أـخـرـ صـوـتـ الـطـفـلـيـنـ الـقـادـمـيـنـ مـنـ جـهـةـ الـبـابـ جـانـشـرـ مـنـ أـفـكـارـهـ.

حين رأى محمد الواقفُ مستندًا على أحد عمودي الردهة جاره العجوز قادماً أـسـقـطـ مـنـ يـدـهـ خـفـيـةـ غـلـيـونـهـ،ـ وـاسـتـقـبـلـهـ باـشـاـ وـعـرـجـهـ بـاـدـ عـلـيـهـ:

ـ تـفـضـلـ يـاـ بـكـرـ،ـ تـفـضـلـ،ـ سـأـلـ عـنـكـ وـالـدـنـاـ مـنـذـ لـحظـاتـ.

ـ كـيـفـ حـالـ وـالـدـكـ إـنـ شـاءـ اللهـ؟ـ

ـ لـاـ بـأـسـ بـهـ الـيـوـمـ بـالـقـيـاسـ إـلـىـ الـبـارـحةـ.ـ أـكـلـ،ـ وـيـرـيدـ أـنـ تـحـقـقـ لـهـ لـحـيـتـهـ وـشـارـبـيـهـ.

ـ هـذـهـ هـيـ الـحـالـ؟ـ سـأـلـ بـكـرـ مـرـتـاحـاـ لـمـاـ سـمـعـ،ـ وـأـضـافـ مـرـتـاحـاـ أـكـثـرـ:ـ

هذا خبر سار يا محمد، سرئني. وأنت كيف حالك؟ أراك واقفاً على رجليك.
وهذه العصا ستتفعل. أعدها إليّ متى شفيت لأنها من تراث والدي. — وحين
دخل الغرفة امتدح ددai الذي كان في الفراش محاطاً بأسرته: — عفارم يا
دادai، عفارم¹!

— كنت أستحق الـ "عفارم" لو كنت أنا وأنت وذاك الولد، في المكان الذي
تقصص فيه المدافع الروسية... يا رب ما أخبار ذلك المكان يا ثرى؟ ماذا
ستقول النساء اللواتي يأتين لعيادي؟! لم يبق في القرية لابسو قبعات إلا
الأطفال الصغار... لو صادفت يدج ابن داور المجري جارنا السابق لهناته على
تمكنه من عديم الإيمان نقع، وأثبتت على شجاعته. ولكن متى يمكنني أن
أقابله... من يعرف؟ بلغوه رضاي عنه إن رأيتموه قبلي. نعم يا بكر، نعم يا
نفع، ما حدث لنا مأساة... أيمكن يا بكر أن تخفف لي لحيتي وشاربي! أسرع
يا ولد وأعطيه عدّة الحلاقة...

في ظهيرة اليوم التالي رحل ددai على نحوٍ مفاجئ.

الفصل التاسع والثلاثون

في تمام الساعة الثامنة، وصل الضابط العون سولنسك، المستدعى من مثل
القيصر في تفليس رومانوف، قلقاً من استدعائه، وحالما وصل إلى بوابة المختبر
الكبير نمض العقيد الذي كان أعلى بكثير في رتبته وفي مهمته، وقال له:
— لا يزال أمامك خمس دقائق على الموعد، تفضل واجلس.

كان مساءً صيفياً. والغرفة التي ليس فيها إلا العقيد تضيئها الشمس، وعلى
الجدار ذي اللون الذهبي — الفضي صورة كبيرة لألكسندر الثاني وكأنه يقول

¹ عبارة تشجيع تركية تقابل في العربية: أحسنت، وفي الفرنسية: براقو!

لَكَ: أَلَا تَرَى مَا أَكْبَرِي وَمَا أَعْظَمْ قَدْرِي. وَفِي نَاحِيَةِ الْجَدَارِ الْآخَرِ تَطْوِي
السَّاعَةُ الْجَدَارِيَّةُ الْكَبِيرَةُ الْأَيَّامَ وَالشَّهُورَ وَالْقَرْوَنَ صَامِتَةً.

حِينَ بَقِيَتْ عَلَى الْمَوْعِدِ الْمَحْدُودِ لَهُ دِقْيَقَةٌ وَاحِدَةٌ نَخْضُعُ لِعَقِيدَتِنَا. وَمَا سَمِعَ الدِّقَّةُ
الْأُولَى لِلْسَّاعَةِ فَتَحَ الْبَابُ وَأَدْخَلَ الضَّابِطَ الْعُوَنَ سَمُولِينِسْكَ إِلَى قَاعَةِ الْقِيَصَرِ.
اسْتَدَارَ مَعَاوِنُ الْقِيَصَرِ لِشَؤُونِ الْقَفْقَاسِ الَّذِي كَانَ يَتَمَشَّى عَلَى أَرْضِ الْقَاعَةِ
الْكَبِيرَةِ، وَتَأْمَلَ بَعِينِينِ زَرْقَاوِينِ حَادِتِينِ الضَّابِطَ الَّذِي تَسْمَّرَ أَمَامَهُ وَهُوَ يَحْيِيهِ ،
وَقَالَ لَهُ بِالْخَتْصَارِ :

- لَنْ أَقْلِقَ بِشَأْنِ الْمَهْمَةِ الَّتِي أَوْكَلْتُهَا إِلَيْكَ أَيْهَا النَّقِيبُ لَأَنِّي أَتَقُ بِكَ. سَتَوْصِلُ
هَذَا الْكِتَابَ حَالًا إِلَى كُوتَاهِيَّ، وَتَسْلِمُهُ بِالْيَدِ إِلَى الْجَنَّرَالِ الْحَاكِمِ
كُولُوْبِيَاكِينَ. وَسَتَنْفَذُ مَعَهُ الْمَهْمَةُ الَّتِي أَوْكَلْتُهَا إِلَيْهِ بِاسْمِهِ. مَعَ السَّلَامَةِ أَيْهَا
الرَّائِدُ نَعَمُ، نَعَمُ ابْتِدَاءً مِنِ الْيَوْمِ أَنْتَ رَائِدُ، وَعَرْبَتُكَ وَحْرَاسَكَ بِالْأَنْتَارَكِ.

يَكْتُبُ الضَّابِطُ الْعُونُ سَمُولِينِسْكُ الَّذِي سَاهَمَ فِي إِحْرَاقِ الْمَجْلِسِ الْأَدِيْغِيِّ،
وَالَّذِي رَفَعَهُ نَائِبُ الْقِيَصَرِ فِي الْقَفْقَاسِ إِلَى رَتْبَةِ رَائِدٍ، ذَكْرِيَاتِهِ عَلَى النَّحْوِ
الْتَّالِي¹ :

"... كَانَ مَقَاتِلُو الْكَوْنُتِ إِفْدُوكِيُّمُوفُ الَّذِينَ يَحْارِبُونَ فِي الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ مِنْ
جَبَالِ الْقَفْقَاسِ يَشْقَّوْنَ الطَّرِيقَ إِلَى الْبَحْرِ الْأَسْوَدِ بِرَؤُوسِ الْحَرَابِ وَالْفَؤُوسِ.
فِي أَوَاسِطِ تَمُوزِ عَامِ 1862 جَاءَ الْجَنَّرَالُ الْحَاكِمُ التَّابِعُ لِكُوتَاهِيَّ ن. ب.
كُولُوْبِيَاكِينَ إِلَى سُوكُومِي. وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي لِوُصُولِهِ لُوْحِظَ عَلَى قَادِتِنَا حَرَكَةً
نَاشِطَةً قَلْقَةً خَلَافًا لِلْعَادَةِ. وَكَنَا نَخْمَنُ نَحْنُ أَيْضًا أَنَّهُمْ يَتَحَضِّرُونَ سَرًا لِمَهْمَةِ مَا،
وَلَكِنْ لَمْ يُطْلِعُونَا عَلَى حَقِيقَةِ الْأَمْرِ .

¹ س. سَمُولِينِسْكِي. "مَذَكَّرَاتُ الْجَمْعَوَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ تِي 105. رَقْمُ 10، 1875. الْمُؤْلِفُ.

كانت السفن جاهزة للإبحار، والماريون يركبون مراكب كبيرة تسير بالمجاذيف. وما إن ركينا نحن حتى رفعوا المرساة. ورفف العلم فوق المركب. وانطلقنا. بدأ عمود الصبح ينبلج، والجبال تبدو شاحبة محمرة. ونحن نسير دون أن نصدر صوتاً قدر الإمكان. وأبلغ الماريون أن يركب كلّ منهم في طريق العودة مركبه الذي أتى فيه، والمعروف من علمه، إذ أن لكل مركب علمًا خاصًا. اقتربت المراكب كلها في وقت واحد من ساحل "شاجا" وتوقفت. وحين قفز الماريون منها ووطئوا الرمل تراجعت المراكب وألقت مراسيها.

الشاطئ الرملي الممزوج بالحصى والذي يبلغ عرضه ثلاثة خطوه يصل إلى الريف العمودي المشجر. وعلى الجانب الأيسر من البحر غابة كثيفة تلتقي حوله. والطريق الضيق المنطلق من الساحل يمر عبر هذه الغابة. ثم يمر على يسار الريف متعرجاً بشكل غير محسوس عبر الأشجار الضخمة، ثم يرتفع. وطول هذا الطريق الضيق سبعون خطوه تقريباً. وبعده تجد نفسك في البرية التي تتناثر عليها غابة استولت على السهل، تخللها شجيرات الياسمين البري. وإن سهوت فخرجت عن الطريق صعب عليك الرجوع إليه. وفيما نحن سائرون على الطريق رأينا ثلاثة بيوت في المساحة المقتلة من الغابة، سقوفها قطع من شرائح الخشب، وهذه البيوت الثلاثة كانت تضم مجلس حرية الأديعة. وبين هذه البيوت بالإضافة إلى مقر اجتماع البرمان مضافة ومسجد.

الوقت لا يزال مبكراً، وربما لا يزال حراس المجلس نائمين. انتبهوا إلينا حين دخلنا المرعى فحسب. ومع ذلك لم يجدوا الفرصة لإغلاق أبواب البيوت. ووراء مجلس الشراكسة بريه متناسقة مرتفعة. وهذه البرية تلتقي حول منخفض يتفرع إلى فرعين. وفي هذه الأماكن المنفرجة تعيش قرى كثيرة. وملتقى الطرق الخارجة منها يقودك إلى الأبراخ والناتخواي وغيرها.

ومن أجل أن تصل إلى الساحل المقابل للبيوت عليك أن تنحدر من مرتفع شبه عمودي مليء بنشار الأحجار الجبلية يجعل المشي عليه صعباً. تسلق المحاربون الجبل فحاصروا بيوت المجلس وبدؤوا يقذفونها باللهب. وبعدها فقط بدأ يُسمع صراخ وإطلاق نار بنادق. وكان المحاربون يرمون اللهب في البيوت دون أن يكتثوا لهذه الأصوات.

- ارم النار على هذا البيت - كان جندياً يأمر غيره - النار وصلت إلى جانب واحد فقط. أنا سأفتح الأبواب وسأستطلع إن كان في أحدها شركسي حليق الرأس.

وريثما ألقى المأمور النار في البيت انحمر الآخر في تحطيم الأبواب، غير أنه تبين أنها متينة. وحين لم يستطع فتحها نقب سطح البيت الذي لم تصله النار بعد، ودخله.

- ما الذي تنظر إليه يا سوسويك؟ - سأله الجندي الذي يشعل النار في البيت المجاور.

- أرى بعض الوسائل، أظن أن الشراكسة يقيمون هنا.

- لم نسمح للمساكين أن يناموا في أعذب ساعات النوم - كان سوسويك يمزح وهو ينزل من السطح.

استولت النار على البيوت كلها، وكانت سحب الدخان الأسود المعققة فوقها تصاعد إلى السماء.

كان اشتباك البنادق يشتد، والشراكسة يجرون نازلين من حيث ترتفع النار. وكان صراخهم يقطع نيات القلب.

- أتري هؤلاء الذين لعنهم الله كيف يتجمعون بسرعة كأنهم بأجنبية. كان الجندي يسخر منهم وهو يطلق النار باتجاه مصدر الصوت.

- لا تُطلق جزافاً - قال الضابط العون المتقدم في السن للجندي - ستُشبع من إطلاق النار حين نعود إلى ساحل البحر.

البيوت تحرق. ونحن نزلنا من المرتفع عَدُواً، حتى أصبحنا في الشريط الضيق. والجنود الذين يُحرقون بيوت المجلس ينحدرون وراءنا. ولم يتبق إلا سرية من الكتيبة 33 المواجهة للشراكسة. كان الشراكسة يتجمعون على الطرق المؤدية إلى البحر وعلى جانبي المنخفض، ولاسيما على الجانب الأيسر، وجنودنا يردون على الشراكسة الذين يطلقون النار من وراء الأشجار القرية من منحدر سفح المرتفع. ومن وقت لآخر ترتفع وتيرة إطلاق البنادق، ولكن لم يكن في المستطاع أن نركب مراكبنا قبل أن يعود الجنود الذين صاروا الآن على الشاطئ. الشراكسة يطلقون من وراء كل حجر من أحجار الطريق إن صحّ التعبير. ولا نراهم ولو لم يكن بيننا إلا أربعون خطوة إلى ستين. وجنودنا يُخلون الجرحى من وراء الأشجار القديمة التي نختمي بها إلى المراكب التي اقتربت من اليابسة. وبعد الجرحى يُخلون القتلى.

كانت السريتان تطلقان النار بكثافة بانتظار السرية الثالثة. وكان التحرك مستحيلاً في ذلك الوقت إذ كل من يتحرك يُسقطونه في مكانه. وأكثر من يُقتلون كانوا من يُخلون الجرحى والقتلى. ولذا كنا نختفي في الرمل، ونطلق النار من وراء أرومات الأشجار على الجبلين. وفي ذلك الوقت كان وراءنا الكابتن باراخوفيتش قائد قوات الإنزال يعطينا التعليمات مخاطراً بنفسه أمام الطلقات.

كان الشراكسة يُهرون إلى الأماكن التي يجري فيها القتال فيتصاعد منها الصياح والضجيج. وطوال تلك المدة جابتهم السرية الثالثة فلم تسمح لهم بالاقتراب من البيوت التي كانت تحرق.

أُمرنا بالتراجع. وبالتزامن مع الأمر نزلت السرية الثالثة من يمين المرتفع. ومن

حسن حظها أنها وجدت هذا الطريق وإلا لو نزلت من حيث تسلقنا لتكتبنا خسائر فادحة. وكان عليك أن تشق طريقك بالسيوف إن أردت اختراق الشراکسة الذين احتلوا الطرق الأخرى.

الشراکسة يأتون من جهة شاجا وفاردان مشاةً وركباناً إلى النار. ومدفع السفن تطلق النار عليهم كي توقف اندفاعهم. ولكن الشراکسة يأتون من طرق أخرى.

وجنودنا ما يزالون ينفذون واجبهم ولو أن إطلاق النار عليهم يشتد، وخسائرهم تتزايد.

- هل ترى كثرة هؤلاء المحتشدين كأن الجن يلاحقهم؟! يقول أحدهنا.

- أسئلة من أين يأتي كل هؤلاء بهذه السرعة؟ يجيبه الآخر.

حين نزلت السرية الثالثة من المرتفع بدأت السريتان الأخريان تمتطيان المراكب. وتوقفنا نحن مرة أخرى من أجل لجم الشراکسة الذين يلاحقوننا بعدما نزلنا من المرتفع. وحين كانت السريتان الأخريان تركبان المراكب أمطّرّهم مدفع مراكبنا فلم تسمح للأعداء أن يهاجمونا بالسيوف.

لم يكن مسماً للسريتين الابتعاد بعيداً وإن امتننا المراكب؛ وإن كان الشراکسة الذين هاجموا السرية الثالثة قطّعوهم بالسيوف.

ما إن وصلت السرية الثالثة إلى الشاطئ حتى بدأت السفن تطلق نيران المدفع على الأعداء في المرتفع. وأكثر ما نفعت في هذه اللحظة هي السفينة "طوابسه" التي اقتربت من اليابسة. وكانت السفينة "رس" توزع نيرانها على الجانبيين.

ولم يقتصر الجنود الذين في المراكب، ولم يخلوا بالذخيرة. وحفرت طلقات المدفع الساحل: كانت تفصل التراب عن الحجر، وتدمّر الغابة، ولم يكفّ

الشراكسة عن إطلاق النار رغم أن الدخان غطى الموقع كله. كنا نستطيع طوال وجودنا على الشاطئ الاختباء وراء الأحجار وغيرها. والآن نحن في المراكب مرصوصين. واستفاد الشراكسة من هذا الوضع فأوقعوا بنا خسائر كبيرة. وكان القتلى أكثر من الجرحى. ولم نتوقف نحن عن إطلاق النار ريشما ابتعد المركب الكبير الذي نستقله عن الشاطئ. وكانوا هم يرموننا أيضاً. وأصيب الجندي الذي على يسارِي في جبينه فقضى دون أن ينبع بيته شفة. وبعده سقط جندي آخر على رجلي. وأن الجندي الشاب الذي على يميني، ثم تحالك. كان قائداً لقوات الإنزال في مركبنا، وما يزال، يُصدر أوامره الضرورية إلى السرية التي ما تزال على الشاطئ. ولهذا السبب لم نكن نحن قادرين على الابتعاد في عرض البحر في حين كانت المراكب الأخرى ابتعدت.

لا أتذكر إن كنت جالساً وظاهري إلى العدو، ولكن حين أتذكر ما جرى تخطر لي رغماً عني مثل هذه الأفكار: "مرعب أن تنظر في عين من يسلّم الروح". وأنا كنت في مثل هذا الموقف ولا أعرف السبب. غير أنني لم أكن أريد أن تصيبني الطلقة في جبيني أو في صدري. لابد أنني كنت أفكّر في ذلك الوقت فائلاً في نفسي: "إن كان لابد أن تصيبني الطلقة فلتُصِبِّني في مؤخرة رأسي أو في ظاهري، سيكون هذا أسهل علىي".

كانت الطلقات تقع في الماء من أمامي ومن ورائي ومن الجانبين مصفرة. وتشقّب جانب المركب الأيسر بالرصاص. ولحظة الموت حاضرة تأتي من كل مكان. والجنود يقعون في أسفل المركب وهم يعنون.

أحدهم يقول لي:
- ازحف إلى جهتي.

وهو طيب وحدتنا. لا أستطيع الحركة دعك من الزحف. الجثث تغطي

جسدي.

كان الشراكسة يركزون رميهم على المراكب البيضاء فكانت خسائرها أكثر. وحين قُتل موجّه الدفة حلّ محلّه الفني الآخر بيريتينك. وُجُح موجّه مركب آخر هو وريادكين. وحين شرع كوزلينك بعد وريادكين بقيادة المركب جُرحت يده أيضاً. ولو لا أن الزورق البخاري الذي يُقلّ البخاراة اقترب وساعد الجنود، حين قُتل جميع قادة أحد المراكب الكبيرة، لكان صعباً التبنّى بما سيحدث لهم.

كان الشراكسة يرون المراكب تسير قريباً من الساحل فيجرون. وأحياناً كانت السفن تقصف هؤلاء بالمدافع. ولكننا لم نرها صرعت أكثر من فارسين. كان عدد الفرسان الذين يطاردوننا من على الساحل في حدود خمسة.

من جهتنا خسرنا سبعين جندياً. ومن بين هؤلاء كان الضباط الكبار الثلاثة. وخسر الشراكسة خمسين بين قتيل وجريح. ومع أن خسائرنا كانت أكبر فقد كان لنا ما يرفع من معنوياتنا. انطلقنا من الجهة التي لم يتوقعها الشراكسة مما وفاجأناهم بالهجوم. ولو عرف هؤلاء نوايانا قبل يوم لربما لما عاد أحد من السرايا الثلاث سالماً.

بعد الظهر، وفي تمام الساعة الرابعة، وصلنا إلى غاغرا. وهناك دفنا قتلامنا، وأودعنا الجرجى المشفى. وتوجهت سفينة الشحن أليروس دون تأخير إلى سوخومي. ووصلت في الصباح التالي إليها. وأنا ركبت في الحادية عشرة ليلاً إلى طوابسه. ولم أنم لأنّه وجب عليّ قضاء الليل مع الضباط الجرجى. وفي الثانية عشرة من اليوم التالي وصلنا إلى سوخومي..."

يمكن أن تعلق على هذه الأحداث؟ أنحن من عليه تفسيرها؟ وهناك تاريخ عادل؟..

الفصل الأربعون

مع أن الإهانة التي لحقت بالأبراخ والشابسخ والوبيخ في شأن مجلسهم صعبة التحمل فقد جاءه هؤلاء جيش القيسير المكون من ثلاثة ألف جندي مدججين بالسلاح¹، قائلين وهم يتراجعون نحو البحر الأسود يائسين دون معين، والدول التي كانت تؤليهم تخلت عنهم، وموتاهم وجرحاهم يشقولون عليهم، وقرابهم تحرق على مرأى منهم: "لَمَّا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَوْتَانٌ فَلَمْ يَمْلِمْ إِلَيْهِمْ، وَقَرَابُهُمْ تُحْرَقُ عَلَى مَرْأَى مِنْهُمْ: إِنَّمَا أَنْ مَوْتٌ وَإِنَّمَا أَنْ نَمُوتْ".

- إلى أين تذهب يا بكر قبل طلوع الفجر؟ - سالت جانشر الرجل الذي كان يُسرج حصانه، وأضافت بمحنة: - وجرحك لم يشف تماماً.

- وهل بقي الآن قبل الفجر، وبعد الفجر... - غمم بكر، وردد على المرأة: ألا تسمعين قصف المدافع؟ أتريديني أن أقيم في القرية وحيداً بين النساء؟.. وهما هو جارنا محمد لم يتأخر. - ثم أضاف بصوت أطفالي: - مصيرنا مصير رجال القرية. وبيت براغنه لم يبق فيه رجل. انتبهوا إلى أنفسكم. وحفيدانا الصغاران عانقيهما نيابة عنـي... - ثألم قلب بكر لأنـه لم يستطع الوفاء بنـدره

¹ "... حشدنـا في غرب القفقـاس جيشاً يـمكـنه أن يـحتـلـ العالم من مصر إلى اليـابـانـ، قـوـامـهـ 280 ألف جـنـديـ مدـجـجـينـ بـالـسـلاحـ. - يـكـتبـ لـاحـقاًـ الجنـزـرـ رـ.ـ أـ.ـ فـادـيفـ فيـ كـتـابـهـ "ـحـرـبـ الـقـفـقـاسـ"ـ -ـ كـانـ عـلـيـنـاـ منـ أـجـلـ اـمـتـلـاكـ الـبـحـرـ الـأـسـوـدـ إـخـضـاعـ الشـرـاكـسـةـ فـرـادـيـ بـالـقـوـةـ.ـ كـانـ مـنـ الـوـاجـبـ لـيـصـبـحـ السـاحـلـ الـشـرـقـيـ لـلـبـحـرـ الـأـسـوـدـ أـرـضاـ رـوـسـيـةـ إـخـلـاءـ الـمـنـطـقـةـ مـنـ الشـرـاكـسـةـ.ـ وـلـابـدـ أـنـ يـلـقـىـ مـنـ عـنـدـهـ مـثـلـ هـذـاـ الـهـدـفـ مـجـاـمـةـ.ـ وـلـذـلـكـ حـارـبـنـاـ مـضـاعـفـينـ قـوـاتـنـاـ مـنـ أـجـلـ إـخـلـاءـ الـمـنـطـقـةـ مـنـ الشـرـاكـسـةـ.ـ كـانـ الـكـوـنـتـ إـفـدـوـكـيـمـوـفـ قـدـ قـالـ وـهـوـ يـلـتـزمـ بـهـذـهـ الـمـهـمـةـ:ـ أـعـدـ نـفـسـيـ لـأـمـلـكـ الـحـرـيـةـ فـيـ تـنـفـيـذـ مـاـ يـرـيدـهـ أـيـ جـبـلـيـ قـبـلـ أـنـ أـحـقـ لـرـوـسـيـاـ آـخـرـ هـدـفـ"ـ وـهـذـاـ مـاـ حـدـثـ...ـ"ـ الـمـؤـلـفـ.

أن يصاحب نفست إلى قبر جدة هذين الحفيددين. وعاهد نفسه أن يتحقق ندره متى عاد.

- سأحقق لك هذا يا بكر، فلا تقلق. ونحن مصيرنا مصير القرية. - أمسكت جانشر بلجام الحصان ليتمكن زوجها من الركوب مع أنها ارتعبت لما سمعته. لم يلتقي بكر وجماعته وهم خارجون من القرية بأي رجل بل بأي امرأة. بدت القرية مهجورة بلا أنس لولا أن الوقت مبكر جداً. ومن سيؤذن لصلة الصبح؟ والكلاب والماشى؟ لم تكن أصوات هذه أيضاً تُسمع. ونهر "فُجُبُس"¹ الذي كان يأتي بالإجاص يجري بين ضفتيه صامتاً. والسماء التي لا تدوم فيها الجوارح الجافلة تزحف فيها الآن بضع سحب بيضاء بلا مبالاة. وتحب ريح تصدر منها رائحة حريق الحرب فوق قمم الجبال.

- ما وضع رجلك يا محمد؟ - سأله بكر الفارس الذي على يساره عسى أن يرفع من روحه المعنوية.

- لم أعد في حاجة إلى عصا والدك فأرسلتها إليك قبل أيام. - أجاب محمد العجوز كأنه غير عابئ بحال رجله، وسأله بدوره: وأنت يا بكر، ما حالك؟ - سأقول لك حالياً يا جار متى عرفت أيّ كتفٍ من كتفي متهدلاً - منز بكر مع رفيقه الشاب، ولم يستطع أن يكتم ما يزعجه: - نحن لسنا مشكلة، نعرف لماذا ركبنا وأين نذهب، المشكلة هي من تركناهم في القرية من مسنين ونساء وأطفال لا يعرفون ما ينتظرون.

لحظة ارتقاء بكر وصاحبه مرتفع "فُجُبُس" سمع وقُعْ حوافر خيل. تَدَافَعَ قرابةً مئة فارس أبزاخي إلى مخرج الغابة التي في المنخفض، والتتحققوا بالجماعة. وبعدما

¹ اسم النهر يعني ماء الإجاص.

جرأوا مدة سأله بكرُّ الفارس الشاب الذي حاذاه:

- سلاحك سلاحي يا ولدي، أين نحن ماضون؟

- جيش العدو يتوجه إلى مرتفعنا.

- أتسمع يا محمد؟ اتبعني يا ولدي! - قال بكر إلى من وراءه وحثّ حصانه. وحين صاروا على ظهر المرتفع الواسع رأوا عليه قرابة خمسين فارساً قوزاقياً لم يُجاهموا الأَبْزَاخ الشاهرين سيفهم بل التجأوا إلى مخرج الغابة. والأَبْزَاخ توقفوا ولم يحاولوا مطاردتهم. ولكن المدافع الروسية بدأت فجأة تتصفهم. والفرسان الأَبْزَاخ قبل أن يجدوا الوقت ليعودوا إلى رشدهم هاجمهم الفرسان القوزاق من الأجناب والخلف. وهجم جيش المشاة المعادي.

- أيها الأَبْزَاخ! الله معنا، لا تيأسوا! - أصدر بلاخوه مزحباً أمراً قصيراً إلى مرؤوسيه الفرسان: - انقسموا إلى ثلاثة مجموعات، وجاهموا الكفار. الأَبْزَاخ ليس جباناً!

- بدلاً من جيش المشاة دعونا نشتت فرسان القوزاق كأننا مرتعبون، سيكون أمرهم سهلاً. حين جرى مرزخوي بكر ناقضاً أمراً بلاخوه بدأ فرسان القوزاق الذين لم يفهموا ما حصل، والذين تفرقوا يُجاهمون الأَبْزَاخ فردياً. ووجب على الطرفين التراجع متkickدين الخسائر.

اقترب مزحباً وبيده السرج وللجانم اللذان انتزعهما من الحصان الصريح من بكر، وصارحه غير قادر على ضبط نفسه:

- يا مرزخوي، ألقيت في جيشي الخيل الرعب فبدّدته!

- يا ولد - قال بكر دون أن يرفع عينيه عن الجثث الثلاثة أمامه - احذر ما تقول! لأنك تستقل هؤلاء الثلاثة القتلى؟ - الرصاص يستوي عنده السيف الفولاذي والشجاعة والجبن. هيا لا تدينوا بلاخوه - قال لمن هم أصغر منه

والمحيطون به — اجثوا له عن حصان قوزاقي... وجلت القوزاق اتركتوها لأصحابها يجدوها بعضاً النظر عن كونهم كفاراً... يا حسرتي يا محمد التعيس يا ولدي. — يمسح بكر بيده على من عُطّي بكساء أسود قصير — أي مصيبة حلت بنا؟ لم يجفَّ تراب قبر أخيك ددائي المسكين بعد... بأي وجه سأحملك إلى أمك التعيسة؟!

— إن سمحت لي يا مزحبي يا قائد فرساننا — قال عُمشت مولى بلاخوه — لن نجعل الأخ الأكبر محمد أفندي يذهب وحيداً بالجثمان إلى القرية. سأشيعه، وسنخبر القرى المجاورة لأن من صارت أرضه قبراً له لم يكن محروماً من الرجولة. — وبعدما مشت جماعة بكر التي كانت تنقل الجثمان على التابوت الخاص بالحصان إلى تامي حبله قليلاً لم يستطع عُمشت إلا أن يبوح بما كان يشتعل عليه: — لا تلم بلاخوه مزحبي الذي جاهمك متناسياً تقدّمك في السن يا بكر. ونحن لم نعد نستطيع لجمه بعدما قتل الكفار والده.

— وهل فارق باتر الحياة؟ ومتى حدث هذا؟

— قبل أسبوع على الأكثر... مزقته قذيفة مدفع في سهل "بفاف" فأعدنا تجميع جثمانه بصعوبة.

— ليجعله الله من أهل الجنة! باتر رجل أبزاخي حقيقي! لو عرفت لعزيز مزحبي. ماذا بإمكاننا أن نقدم له وأنا لم أخالط الناس في الشهرين الماضيين... — كنت سمعت من أخيك الأصغر محمد أفندي أنك تعاني من حرج بلغ يا كبير... هذا هو الأمر يا بكر، الكفار لم يتذكروا بيدنا شيئاً. ما فعلوه بنا قبل أيام لا يجوز أن نغفره لهم أبداً. هاجمونا من جهة البحر، وأحرقوا مجلسنا، أملنا الوحيد.

أوقف مزخوي بكر الحصان بحكمـة اللجام وكأنه يدين أخاه بالخـير المأسـوي

الذي سمعه. وضربه بعقبيه فقفز الحصان.

- أئُ يوم منحوس يومي هذا! - قال وقد بلغ الحزن أعمقه، وسأل عُمشتَ مولى وكأنه زعيم الأٌبْرَاخ: - ماذا سنفعل الآن يا مولى؟

- لا داعي لليلأس يا بكر كما يقول أخوك الأصغر محمد أمين، الله الأَحَد سندنا، وهو سيحمينا. لن نسمح للكفار أن يرتفعوا مرتفع قجبس والله معنا. على ما أرى، لم تقابل أخاك منذ زمن طويل.

- منذ أن عاد بي إلى البيت جريحاً.

- وهل تعرف أين هو الآن؟

- ربما كان يحارب حيث رجال الأٌبْرَاخ.

- لا يا بكر، لا. - قال عُمشت بصوت أكثر خفاءً - وكيف يكون موقد الله الأَحَد في ساحة الحرب! لن أخفى عنك، أليس أخاك، لأنّي من بضعة الأشخاص المطلعين على أخباره: ذهب إلى الموفِّد الأول لله، سلطان الأتراك.

- من أجل أن يجعلهم يلومون من أحرق المجلس!

- من أجل أن يساعدونا بالجيش والأسلحة.

- أئُ أنس زعيم الأٌبْرَاخ! هل عقولهم ساهية عما يحدث؟ - اشتعل بكر غضباً على الزعماء، شاملاً فيهم عُمشت الذي يوافقهم: ما الفائدة من أن تتسلل إلى سلطان الذي يحجزون سفنه في البحر؟!

- يا بكر - ارتعب عُمشت لما سمع، - لم تقل شيئاً يتعلّق بزعمائنا، ولا أنا سمعت... وهم في الأصل ليسوا أصحاباً وإن كتموا... يا بكر، نحن أملنا بعد الله في هذه اللحظة، هو أخوك الأصغر أفندي الأٌبْرَاخ. أندم على أنني لم أستجب له حين طلب مني مرفاقته إلى تركيا. لا يا كبير، لا. أنا أتأمل أخباراً سارة من محمد الرجل الليبي الذي حبب الله إليه الإسلام. ولست وحدي...

– كفى يا عُمشت! – صرخ بكر بصوت عالٍ على المرأي الذي لا يحبه قائلاً في نفسه "وهل تعرف أخي أفضل مما أعرفه؟" ثم لاطفه: – ساحني، ليس من عادتي أن أُخْرِي في حضرة جثمان – وحين سأله عن الجثمانين المحمولين في عربةقادمة على الطريق ووراءها ثلاثة فرسان، أُجبر الأسمان اللذان سمعهما بكر على الترجل: كانوا برأْعْنَه إسلام، وصهره برأْعْنَه عُجُبُس.

الفصل الحادي والأربعون

الأَبْرَاخ تبدو كخلية نحل مكسورة. في كل مكان تصرف الطلقات في الهواء. وتصلّ السيوف. وتتصف المدافع. والإنسان الظالم ليس عليه لجام: يصرع من يصل إليه، ويقتلعه، ويتركه بلا روح.

لا تميز السحاب من الدخان على قمم الجبال. والقرى التي لم يستطع رجال الأَبْرَاخ حمايتها، بعدما تعهدوا بها، تتحرق. وُمُسِنُو هذه القرى، ونساؤها وأطفالُهُنَّ بآيديهن أو على صدورهن، هجروها وبيحثون عن مأمون لأرواحهم. الجيش الروسي الذي اكتسب الخبرة في حروب الداغستان والشيشان والقبرناتي، يحارب الآن في الأَبْرَاخ ومهما تهطل عليه الوصول إلى البحر الأسود غير عابئ بالخسائر التي يتكبدها.

ولم يكن أخو ألكسندر الثاني ميخائيل رومانوف الذي وضع القفقاس في يده، وأوكلت إليه قيادة كل الجيوش الروسية فيها، يسمح لهذه الجيوش أن تشكّ في أن عليها إنجاء حرب القفقاس. ولم يكن أمثال الجنرال إفودوكيموف والأدميرال لازاريف يأولون جهداً في البر والبحر لتقريب هذه النهاية. ونداء المجلس وإن لم يُسمع في أنحاء الدنيا، وبعد إحراقه، وعلى مبدأ إن كانت يدك مُدْهِنَة فامسح بها رأسك، يعني لا أحد غيرك ينفعك، وجب على الأَبْرَاخ أن يسموا أرضهم وحربيتهم برجولتهم التي لن تنفعهم. ومع ذلك فإنهم يأملون،

يعيشون على الأمل الذي لا نهاية له، قائلين ألا يمكن لأحد بعد الله أن يحمنا، ألا يفهمنا، يمدّ يده إلينا، غير مدركين أن نهايتهم في البحر الذي يدفعونهم إليه، وأنهم سيملحوون ماء هذا البحر بدموعهم، وأن عظامهم ستتحول إلى حصى فيه.

- ألم تعد تلوح الآن أي بارقة أمل؟ - سأله بلاخوه مزحبي الذي كان يجفف ساعديه وساقيه بعد الوضوء على شمس الشتاء المبكر.

- ولم لا؟ - قال كوبا هارون - أملنا في الله الذي سنقف في حضرته نصلي الظهر، وبعده برج وتسني ومرخوي محمد أملنا.

- نعم، نعم. - وافق عُمشت مولى كوبا هارون الذي امتدح زعماء الأبراخ. - زعماؤنا، بعد الله الأَحَد، معقد أملنا، أنت تفكّر جيداً يا جار، لا تسمح لنفسك بالخطأ.

- إن تمدح زعماءنا - ابتسם بلاخوه مزحبي ذو اللحية والشوارب السوداء - فاعتبر نفسك أخطئات يا مولى.

- لا يا بلاخوه، لم يسمعك أحدٌ غير الله - قال عُمشت من خارج قلبه كأنه ارتعب من الفكرة، ووَجَد لنفسه ذريعة - لا تدعونا نتكلّم بسوء على زعاماتنا في الوقت الذي سنمثل فيه أمام الله بقلوب صافية... سمعت أن محمد أفندي جاء من تركيا بأخبار طيبة.

- وهذا الذي تأقى على ذكره لا أريد البتة أن أسمع اسمه - تتمم بلاخوه - لم نر جديداً عليه بعدها غاب شهراً كاماً في تركيا إلا الطريوش المغربي الأحمر اللامع على رأسه.

- لا، لا يا مزحبي - لم يغيّر عُمشت رأيه - سمعته بأذني يتكلّم على سفينة السلاح التي سيرسلونها من هناك.

- وأي سلاح؟ - سأله بلا اهتمام كوبا هارون الذي كان يفرش كسامه القصير سجادة صلاة.
- وماذا سيكون؟ ألم أقل إنه سلاح، سلاح نرفعه في وجه الكفار.
- إن كان مثل البارود والسلاح الصدئ المرسل إلينا قبل أعوام فسأعيده إليهم، ليهمنوا به! - قال بلاخوه، ثم أضاف: - حاجتنا إلى أمثال المدافع الروسية.
- ألا يمكن أن يكون ما سيأتوننا به كمدافع الكفار...
- بقينا نتوقع هذا حتى صرنا كمن اثكبا بكلبهم... - غغم كوبا.
- مهلاً يا مزحبي ويا هارون لا تخطئا، لا تأثروا ولا تحلبا لنفسكم الذنب - اسعنجل ُعمشت لما رأى دون أن يعبأ بما قيل - ليس مندوباً أن تقفا أمام الله والسلاح إلى جنبيكم!
- أيعقل أن يُكره أداء الصلاة بالسلاح وأنت في حرب؟! حسناً لن نقف أمام الله العزيز مسلحين - حين خلع بلاخوه مزحبي الخنجر والسيف والزنار، ووضعها على مسافة من يده اليمني عند الضرورة فعل رفيقاه ما فعل. وحين انتهوا من صلامتهم حمل عدم الثقة بلاخوه الذي مُرّغ القوزاق شفتيه بلحمة الخنزير مرة وهو أسير عندهم على القول: - عجيب أن الكفار لم ينقضوا صلاتنا هذه المرة أيضاً. يتظاهرون بأنهم يتناسون ظلمهم فيتحلّون بشيء من الإنسانية... هذه هي الحسنة الوحيدة التي أسدّها إلينا الجنرال إوداكيم¹ ولكن لو قابلته في ساحة الحرب ومعه من أحرق مجلسنا، أليس نسبه قَلْبِيَاكْرِي، لما رحّمته كرمي لهذه الحسنة.
- والجنرال فيليسيسون؟ - سأله أحد الذين كانوا يعيدون السلاح إلى أجنبهم.

¹ النطق الأديغى لاسم إفدوكييموف.

- ولم يكن هذا بشاربيه المتهالكين إنساناً صالحاً، كان خبيثاً ولكنه لم يكن عديم الرحمة.

- ورغم خبيثه استطاع النائب أن يجعله يتصرف كما يريد... - قال غيره.

- أستمع إليكم أيها الأبراخ، ساحوني، فأرانا جميعنا، والله، عديمي الملاحظة.

- قال عُمشت وهو يلبس قبعته المدببة ويخلعها - من كان يقود كل من ذكرتم أسماءهم من الجنرالات وغيرهم والنائب، ومن يقودهم الآن، هو من يريد إخضاعنا بالسلاح، القيسر وأخوه.

- اسمع ماذا يقول هذا، وإلى أين يصل عقله - قال بلاخوه بين السخرية والمزاح، ثم امتدحه مغطياً مبالغته: - لو كان صديقنا الأصيل عُمشت مولى معاوناً لبرج، أقول الحق، بدلاً من تسي لكان نَعَنَا أكثر منه.

- المهمة التي أوكلتها إليَّ وأنت تمرح مهمة صعبة. ولكن هل قليل ما رافقتك وجهاءنا؟ وهل قليل ما كنتُ موضع ثقتهم؟ وهل اكتسبت الحكمَة من جماعة برج دون فائدة؟... ونحن يمكننا أن نخل موضعَ ما يا بلاخوه، وتنفع فيه رجولتنا. ولكن لا أريد أن يسمع تسي حاترِبَاي ما نقوله.

- ما أكثر ما تردد يا عُمشت "رافقتهم" و"كنت موضع ثقتهم"... هل قذفك علينا ليتخلصوا منك؟ - سأَل بلاخوه وسخرية أشدَّ وضوحاً الآن.

- لا يا مزحِب، لا. - أجاب عُمشت مخفياً اعتباره تلميَّحَهم إهانةً: - لم يحدث بيننا مثلُ هذا الجفاء. ولكن نار جفاء الزعيمين تحرقك ولو كنت بعيداً عنهم، فكيف إذا كنت بينهما... وإن شئتم الحقيقة يا أبناء قريتي فأنا لا أدين أيًّا منهما.

- أتسع خلية النحل لجماعتين؟

- أليس هذا يا مزحِب ما أقول؟!

- قل إن كان الوضع هكذا! - تحدى تسي الأمير حجمقوه والقيصر، ثم حملنا
نحن الأ Ezraخ عاقبة إساءته لهما. أين هو الآن؟

- وأين سيكون؟ هناك في تلك الربوة - أطلقت المدافع معًا من جهة الرابية
التي أشار إليها عُمشت. ثم امتدح بعدها أفاق من سبوا له هذا الذعر: -
عفام أيها الكفار، سمحتم لنا أن نصل إلى صلاة الظهر في سكينة.

لم يتحرك مشاة الروس على عادتهم بعد كل تهديد مدفعي وإن قصفوا أماكن
متعددة. والأ Ezraخ الذين يقلون كثيراً عن العدو مقيمون على المرتفع، يتراجعون
دون قلق زائد، جاهزين للانتقال إلى مكان آخر. يتطلعون إلى السماء، ليس
إلى جهة العدو: ينتظرون الشتاء الذي سيكبح جيش العدو شهرين أو ثلاثة،
يتظرون الثلوج إن لم يسقط الليلة فغداً أو بعد غد.

- وبعد الشتاء؟ ما مصيرنا؟ - لا يتوقف عُمشت الذي قلب في القرية عن
السؤال.

- ألن يفك رعائنا إلى وقتها في مخرج لنا؟ - يسأل كوبا هارون متوجساً مما
يقول.

- أمن بعد ما فوتنا من أيدينا رأس حصان السلام نحاول الإمساك بذنبه الذي
سيصفقنا به؟! يتسنم بسر زوال ساخراً مما سمع.

- إذن - تدخل في الحديث كوبا هارون يريد أن يعرف إن كان ما يشغل باله
 حقيقياً - سأتكمل على موضوع سمعت به، ولا أعرفه: هل قال الجنرال إودكيم

حين ذهب برج يتسلل السلام منه: اترکوا البلاد وهاجروا إلى تركيا؟

- أيها الأ Ezraخ - غضب بلاخوه مزحباً: - لا تدعونا نقول ما لا يليق بنا ولا
فائدة فيه! - ثم أنهى بعد سكتة بصوت أطفى: - منذ زمن بعيد يقترح
إودكيم طريق البحر. ولكني أشهد على أن برج حسن لن يتصرف هذا التصرف

المهين. — وأضاف لنفسه: " وإن قلت هذا فما يُدرِّبني ما سيتصرف هؤلاء؟ " ثم نهر نفسه مُسِمِّعاً الآخرين: — أكيد هذا لن يحدث! من المعيب أن تُشَيِّع عن هذا الرجل الممتاز مثل هذا. ندمر أنفسنا بأنفسنا مرددين مثل هذا الكلام، متآمرين أحدهما على الآخر... ماذا قلت يا عُمِّشت؟ هل قلت: هذا ليس مستحلاً؟

— لم أقل شيئاً يا مزحِّب... ما أشد ما تعلقت بكلامي اليوم!
— هكذا؟ إذن دعونا نغنى من أغاني الأجداد أغنية تُشعر فيها القوزاق أننا لم نفقد الأمل.

— وهل يمكن أن تكون " ذِكْرًا "؟ — أسرع عُمِّشت بما يتقنه هو.
— ويمكن أن يكون أحد الأدكار التي أنزلها الله علينا، ولكن أليس الأفضل أن يكون بلغتنا الأَبْرَاجَ من أجل أن ننعش أرواحنا قليلاً؟ هات يا برس أغنية " فوجه بردقه مُحَمَّت ". ونحن سردد معك موقعين الرعب في قلوب المدفعين القوزاق.

— الرعد يدوي في طوابسه — بدأ برس الأغنية، وردد معه الآخرون بعض الوقت، ولكن القوزاق كمن كانوا يتظرونها بدؤوا يرددون أغنية قوزاقية، فتصدع صدى الأغنتين غير المتجانستين، المتنافرتين جبال الأَبْرَاجَ . وبلاخوه وبرس وركوا يطلقون النار من مسدساتهم في الهواء، وفي اللحظة نفسها يجذب الآخرون بمثلها.

لا هي حرب، ولا هي تسليه...
— أسرع يا مُرْثِقَ إِلَيْهِم — يقول تسي الماشي وراء العربية المحملة بالجثة لأفعُّت
— ليتوقف الأَبْرَاجَ عن الغناء! عيب أن تغنى على روح هذا المُرْحُوم الذي نعود بجثمانه.

- أيها الأباخ - قال ألمت للأباخ المجتمعين الذين تعرف عليهم - نعود إلى قريتكم برج مات قبل أوانه... هو أزشت ابن برج حسن. صرعته قذيفة مدفع.

- ما ألم خبر هذه المصيبة الذي أسمعه! - قفز عُمشت وأسع لاستقبال العربية، وهو يبكي منكباً على الجثمان المغطى بسترة قصيرة سوداء: - أي مأساة أن ترحل عنا في هذه السن! وكيف سيعيش والدك التعيس بعد هذه المأساة؟ يا أزشت ما هذه الحرب المنحوسة التي تسبينا لأنفسنا فيها... لا يبقى في الأباخ من يرتدى قبعات. وأنت لحقت بهم يا أزشت!

- أبعدوا هذا عن الجثمان... - غمغم تسي لا يعجبه ما يسمع، وعنفه: - أي مناحة هذه يا عُمشت على رأس المرحوم؟ تخل بشيء من الرجلة... مصير برج هو مصير الأباخ. أسرعوا وأخربوا أسرة المرحوم. واستندعوا برج حسن الذي يحارب في جهة قجبس.

ركب بلاخوه مزحب حالاً إلى الجهة التي حددتها تسي. ووجد برج حسن، الذي سأله حالما سمع اسم ابنه:

- أجريح هو أم ميت؟

- جثمان ابنك في بيتك يا حسن بي...

قعد برج حسن على جذع شجرة، وقال بعد سكتة:

- لم نشهد فرح ابنتنا، مثله مثل العديد من شباب الأباخ... وأصحابي كلهم مثلني. لا يؤاخذني كبار آل برج! ليدفونوا الولد، وليس عندي غير هذا أقوله يا مزحب.

الفصل الثاني والأربعون

— لا يجوز أن يعرف ما أقوله غيري وغيرك لأنني سأسافر غداً أو بعد غد —
أكّد الجنرال إفدوكيروف على المقدم سيرديوكوف — على طريق مايقواب حتى
بيتاغورسك، من يعرف، قد يقتضينا المتمردون الشراكسة، أرسلوا مجموعات
الفرسان القوزاق إلى كل فيرست كأنهم يتمشون. وأكرر كلامي: ليكن القوزاق
منتشرين هكذا كييفما اتفق على الطريق.

ثم قال بعد قليل لنفسه والعتاب يغله "أنا أنتظر من الممثل الجديد للقيصر في
تفليس أن يدعوني، وأطّلّعه على سير أعمالنا، وهو آخر دعوته إلى أسوأ وقت
في هذه الناحية من حيث نُدرة الطرق، والوحى يغطيها. كان الأنسُب أن يأتي،
وهو قائد المنطقة، وقد ترّفع إلى رتبة أعلى، إلى حيث المعارك الطاحنة...
القياصرة يبدؤون الحروب، ثم يلقون عيّتها علينا. تُجْحَى فيها وتنُفَقَّلُ، ينسبون
مفاخر النصر إلى أنفسهم، ويدينوننا على الأخطاء والتواقص. الحق أن هذا
الكلام لا ينطبق على قيصرنا: لم ينسني، رفع رتبتي، وأهداني هدايا قيمة،
وشرّفني، أنا القوزاقي العامي، بلقب الكونت النادر. وقد أتى إلى هنا، قاطعاً
كل هذه المسافة، من أجل الاطّلاع على أحوالنا، ومقابلة الشراكسة... ولكنه
رأّس علينا من لا شأن له بنا، ومن يحمل أعلى الرتب، ليقاسمنا وإن لم يستحق،
انتصارنا. ما العمل؟ هكذا تجري الأمور دائمًا: تزرع الشجرة، وتنميها بعنایتك،
ومن سيأكل ثمارها حين تنضج جاهزون... حسناً، ليس بـأيّ كان المدح
لنفسه، ولكن ليتنا ننتهي من حرب القفقاس التي أصابتنا بالعمى والصمم،
ونستريح..."

مع أن إفدوكيروف كان يفكّر بهذه الطريقة فإن المستوطنات تدشّن في كل
مكان، والعمال المدّينين الذين يشغّلونكم منتشرون في الغابات، على مرأى من

عينيه. ولكن ما كان يشغل باله أكثر من غيره أمر آخر: كيف سيستقبله مثل القيصر في القفقاس؟ ماذا سيقول له، وما المهمات التي سيكلفه بها؟ أيمكن أن يقول له، كما يفعل كل من يستلم منصباً جديداً، كفاك واقعد في بيتك، ويجعل أحد الجنرالات المقربين منه محله؟" يمكنه أن يفعل مثل هذا ما دمنا أوصلنا حرب القفقاس التي استنزفت قواي إلى خواتيمها. ها هو يرمولوف الذي أخضع القبرتاي، دعك من زميله كاسريف، من يتذكرها الآن؟ ولا يتذكر أحد خلفه بارياتينسك إن كان ما يزال حياً... والآخر زاس، فيليامينوف، وفيليبيسون، الجنرالات كذلك... أيمكن أن يفعل بي هذا؟ إن فعل بي هذا فلن يقبل منه أخوه الأكبر القيصر الذي ثمن انتصارتي. ومع ذلك لا يمكن التنبؤ بما يدبره لك من أنت في خدمتهم... لا تسمح للخواطر المزعجة يا جنرال أن تغزو رأسك. هم ما زالوا محتاجين إلي إلى أن أسوق الشراكسة إلى ساحل البحر. ماذا نقول؟ "لا بُدَّلُ الأحصنة على المخاضة".

حين ترك إفدوكيروف وراءه حوالي مئة فيrist متجاوزاً إلى يساره قرية إرملي حبله، واستدارت عربته بسرعة، خرج من أفكاره. لا شتاء في هذه المنطقة بالقياس إلى مناطق الأبراخ إلا الرياح الشديدة. ويدلك على أنها أثبتت كتل الثلوج المتجمد هنا وهناك على جانبي طريق عربته. قمم الجبال البيضاء في الناحية التي يأتي منها مقابلة، وفي بيتاغورسك التي سيقضي ليله فيها ييدو جبل أوشحه مافه¹. الهواء البارد ينشر وقع حوافر القوزاق أمام العربية ووراءها.

¹ تعني الجبال المبارك أو جبل الخير، وهو المعروف خارج القفقاس باسم "أليروس" عاصي جبال العالم وثاني جبال أوروبا ارتفاعاً 5642 متراً. ويرتبط اسمه ببعض الأساطير اليونانية كاسم بروميثيوس سارق النار المقيد إليه. يقابلها في أساطير النار: نسُنْ جاكه، أي نسرن الملحبي.

والجنرال الذي يغطي رأسه باللباد ورجله بجزمة دافئة لا يحس بالبرد. وما يُقلّقه أكثر مما يريجه. ولكنه لن يتکاسل بمحنة الشتاء في الأذى وصعوبة السير في جبالها. — العام المُقبل 1864 سيكون ربيعه آخر ربيع للحرب في القفقاس. وهذا ما سيقوله الجنرال إفدوکيموف لممثل القيصر حين يقابله.

استقبل ممثل القيصر في تفليس مرحًا الجنرال إفدوکيموف على غير ما توقعه الأخير. وحين سُأله عن مسائله الحرية أجاب باختصار:

— في ربيع هذا العام يا سيادكم سنتهي من حرب القفقاس.
— لو تحقق هذا لكان حسناً يا نيكولاي إيفانوفيتش. هذا أملنا فيك، قيصرنا المبكر وأنا. قل إن كنت تزيد شيئاً. نحن جاهزون لأي مساعدة.
— زيدوا عدد السفن التي ستُنقل الشراكسة إلى تركيا — مرة أخرى لا يزال كلام إفدوکيموف مختصرًا.

الفصل الثالث والأربعون

خاتمة حرب القفقاس الدائرة في الشمال الغربي منها بدت للعيان، كما قال إفدوکيموف، في شتاء عام 1864. وفي كتاب الضابط دوخوفسكي "جيش دوخوفسكي جنوب جبال القفقاس" يكتب كما يلي: "كان جيش دوخوفسكي جاهزاً للدخول في الحرب في 19 شباط عام 1864. وفي هذا الموعد ساهمت السرية الثالثة من الكتيبة القفقاسية الثانية، وسرية المشاة الخامسة، والكتائب الأولى والثانية والثالثة من جيش سيفاستوبولسكا، وسرية المشاة الخامسة. والكتيبة الأولى من جيش كوبان، والكتيبيتان الثالثة والحادية والعشرون من المشاة، والكتيبيتان الأولى والثانية من جيش البحر الأسود، والكتيبيتان الأولى والثانية من جيش باكينسك، وجيشه المدفعية التاسع عشر. وكتيبة القيرتاي المشاة، والقسم الثالث من جيش فرسان تفيرسكي، وجيشه

القبرتاي الرديف المؤلف من مئتي فارس.

الشراكسة الذين يرون جيشنا يرتعبون. يقولون إنه لا حصر لجيش قيصر الروس. وإذا نظرت من قمة الجبل رأيت من مسافة بضعة فيستات الجيوش الروسية المتتابعة التي تقصد البحر الأسود.

كلما ارتقينا الجبل زاد عدد من يعتضوننا. وببدأ الفجر يحمل الثلج الريط. والأديغي الراسد فوق شجرة كبيرة على الطريق الضيق تحمد من البرد، وتدلّي رأسه الخليق على صدره، وقمعته أسفل الشجرة. والكساء الممزق ملفوف على الجسد المتجمد، وهو حافي القدمين. لابد أنه من المستطاعين الذين يتبعوننا. وفي يوم واحد أحرقنا عشرات القرى الشركسيّة.

جاء وفد من الشابسغ برئاسة شاوه قاسبولت الذي هو من أشد الناس مداعاة للاحترام عندهم. كانوا يحاولون إثناء الحرب بالسلام لأنهم فهموا جيداً أن الحاكم الشابسغ غير قادرٍ على مجاھتنا بالسلاح. وأوضح هذا اعتبارهم أراضيهم السابقة الممتدة حتى الشابسغ من أملاك القيصر، وتعهّدُهم بعدم المطالبة بها . وما يترجونه هو أن يرحلوا إلى تركيا مع أملاكهم الخفيفة دون اعتراض منا... ".

بعد إحراق المجلس لم يستطع الأباخ والشابسغ والوبيخ مهما فعلوا أن يتماسكوا. وظهر من الاجتماعات الثلاثة التي عقدوها تباعد المكونات الأديغية الثلاثة، وعدم تطابق آرائهم، وانعدام الثقة فيما بينهم.

ارتسم من جديد أمام عيني زان قارباتر الاجتماع الأخير الذي عقدوه في المرعى الذي يضم رماد المجلس. لم يحس والده سفري، وهو الذي عاش حياته متأملاً إقامة المجلس، ساعياً وراء وحدة الأمة الأديغية، بالخلافات العرقية داخل الأديغة. وظلوا يستثنون نزع الأعراق من مسألة الأكبر عمرًا والأصغر حتى

تصارعوا في الاجتماع. وقيموا برج وتسي وهو نفسه على مستوى واحد في المهمة التي كلفهم الناس بها. واستطاع برج بصمته تجاوز مسألة الصلح التي طرحتها قارباتر، وصار كل ما فعله يجمع المجلس بلا معنى. ومع أن قارباتر لا يعرف معنى الجبن فقد ركب اليوم غير قادر على البقاء في البيت بعدما أحس بالفزع.

ورغم أن طريق إيكاتزودار وأبنه خاليان اليوم فالمدافع التي لم يحصل عليها الأديعة قطّرها الروس عليهم أمس. ومشت عليهما جيوش المشاة والفرسان. والرسالة التي أرسلها بنفسه منذ شهرين إلى القيسير بقيت بلا جواب. قال قارباتر في نفسه: "يصبح ثرثاراً معنا إن أراد، ويضم أذنيه إن أراد، وإن كانت مصلحته في نقض كلامه نقضه. يتهمون الجنرال إفدوكييموف بما جنى وما لم يجني ولكنه لم يتصرف نحو الأبراخ بما ليس للقيصر علم به. وجانبنا نحن؟ علام يتكتم هؤلاء معاً؟ ولست بريئاً من الموضوع، ألسن من أملهم بالصلح مخفياً المسألة عن أبناء قومنا الشابسغ؟ يجري في هذه المسألة شيء لا أعرفه... ما العمل، وماذا نأمل؟ بإمكاننا مقاومة الغزو شهرين أو ثلاثة أيضاً، نلجمهم على حساب ضحايانا... وماذا بعد؟..."

لم يستطع قارباتر أن يتجاوز مقبرة قُمات التي تضم والده ووالدته. وقف بين القبرين وحمل إليهما الأسئلة نفسها. ولكنه خرج منها أيضاً دون جواب، اللهم إلا أنه نفس عن ضيقه.

في المساء حين بقيت الأسرة وحدها سألت المرأة السؤال نفسه وكأنها عرفت ما يعتلي في قلب زوجها:

- بإمكانكم يا قارباتر أن تتصدوا للروس الآن مرة أخرى، وتلجموا اندفاعهم مقابل خسائر بشرية كبيرة... وبعدها؟

- وأيُّ "بعدها" — أعاد قارباتر السؤال وكأن ما سأله عنه لم يكن في ذهنه، مخفياً فرعه من السؤال. — وما هو "بعدها"؟

- ثم ماذا سيجري لنا نحن الأديغة؟ هل ما سيقى لنا هو الهجرة إلى تركيا؟ الناس يهربون إلى الساحل ليلاً ونهاراً.

- لو عرفت ما ينتظر أسرتنا، دعك من الأديغة... — قابل قارباتر الزوجة بنظرة لا تحمل جواباً.

- لو اتفقتم على مصالحة الروس، لو وافقتم الأمير حجمقوه، لسلم عرق الأديغة، لا أسرتنا وحدها. وكان الطرفان شكرآكم...

- تحطئين إن كنتِ تتأملين أن يشكرك الروس الذين كنا، والدي وأنا، ضابطين في جيشهم. — غضب قارباتر مما قيل له، — حتى لو صالح هؤلاء خادماً الأديغة، ولو عيشوني في الجنة، لن أسمح لهم أن يأخذوني إلى بطرسبورغ كما فعل الشيخ شامل فيسخر الناس مني. أفضل الموت أو الهجرة إلى تركيا على هذا الحال.

نظرت المرأة في وجه زوجها فرحة.

واليوم ركب قارباتر إلى نواحي قرية باستك لا يستطيع النوم. لم يبق في الشابسخ طريق كبير أو صغير لا يصل إلى البحر الأسود. حقاً إن الإنسان المرتعب يجد في نفسه قوة لم تكن عنده. الشابسخ الذين تجاوزوا مصادر عيشهم وحدود إنسانيتهم لا يعرفون توقفاً ولا التفاتاً إلى الوراء. كل الناس، من يستطيع ومن لا يستطيع، صاروا على طريق تركيا. ومن لا يعرفون إن كانت تركيا قرية أم بعيدة، وهل سيصلون إليها أم لا، أكثر من يعرفون. ولما كان الله على علم بما جرى لهم فسيرجمهم وسيجدون في البلاد التي توجهوا إليها، وإن لم يعرفوا لغة أهلها وطبائعهم وعاداتهم، الراحة والأمان؛ أليسوا من دين واحد؟!

وماذا عن الأرض التي حماها أصحابها قروناً، والآن عاجزون عنها؟ هذه الجبال، والغابات، والحقول، والمراعي، والأراضي الملتقطة حول المرتفعات، والقرى المبنية في السهول الضيقية، والمقابر؟ يتلو السؤال سؤال. ماذا ينتظر النازحين المهاجرين اضطراراً إلى بلاد غريبة؟ وإن قرر شخص أو أسرة الرحيل فالقرار مشكلة؛ في حال الضرورة إذا كنت فرداً أمكنك أن تخفي نفسك في أي زاوية. وقد تجد من يُشفق عليك. ولكنكم من الرحمة تحتاج البلاد الغربية لستقبال مئات الآلاف من المهاجرين! في مثل هذه الحالة حين يصبح هُم كلّ واحد نفسه فحسب تتحول النوايا الطيبة إلى القسوة.

"ما كانت تمناه روسيا تحقق لها تماماً" – قال قارباتر لنفسه – قال القيصر للأديغة يوماً: "إن كنتم لن تسمعوا أوامرني فارحلوا إلى تركيا" كيف يمكن أن تقول مثل هذا الكلام القاطع أمام العالم؟ كيف تقول هذا على بلاد ليست لك، ولا عِلْمَ لها بما تقول؟ هذا يبين بوضوح وجود اتفاق سري بين روسيا وتركيا¹. ويشهد على ذلك إمدادهم بالسفن.

¹ يكتب د. س. نوفيكوف القائم بالأعمال الروسي في تركيا إلى كارسيف قائد مركز تأديب الجيش القفقاسي في 5 كانون الأول عام 1863 بشأن نهاية الاتفاق الذي كان لروسيا مع الحكومة التركية بشأن تحرير الأديغة إلى تركيا:

"... تحدث الوزراء الأتراك في مجلسهم في هذا الموضوع. وقد أبلغني وزير الشؤون الخارجية التركي علي باشا القرار الذي صدر عن المجلس. وافتتحت تركيا على استقبال الجبلين القفقاسيين. ولكنه يلمح إلى أنه إذا كان عدد هؤلاء كثيراً جداً فإن النفقات ستزيد. ثم يجب أن تكون تركيا هي من ستحتار الأماكن التي سيتجهون إليها.

وستُجبر على ترك أرضك ولو لم ترغب. يقال إن العقاب إن رفف كثيراً انكسر جناحه. كلفنا أنفسنا سنواتٍ طويلةً شاقةً من الجهد في مهمة لسنا قادرین عليها، مأخوذین بالمدح، خائفین أن تهان رجولتنا. دمرنا أنفسنا بأنفسنا ونحن نتجادل ونتعاتب. لم يظهر بیننا من يقول مل رکبوا طريق تركیا: ما تفعلونه عیب، لا تخدعوا أنفسکم . وأنا لم يعد لي ولا سرتی طريق غیر تركیا"

ما رآه قارباتر على طريق باستوك يبحث القلب. لن تتحمل ولو كان قلبك من حجر؛ سينفجر. الجنامين التي لم تُدفن، والخيول والماشی الأخرى النافقة على جنبات الطرق. والریح تنشر رواحها الواخزة. الناس الذين أفقدهم جیشُ الأعداء الجرمُ ومشاقُ الطريق الشفقةَ لم يبق لهم ما يفكرون فيه إلا النجاة بأنفسهم: يتنازعون طريق الجبل الضيق، ومن تخرب عربته يُدحرجونها إلى الهاوية، ويتشاجرون، ويتجادلون. لن تعرف أن هؤلاء هم من كانوا يجاهدون العدو بالأمس.

"أيّ مأساة أصابتنا نحن الأديعة؟" – عصر الألم قلب زان قارباتر، فانحرف عن طريق عربات الثيران غير قادر على رؤية منظر المتسابقين إلى البحر، ورجع من طريق الفرسان الأقصر إلى البيت. وحين وصل مساء إلى البيت قال لامرأته: – لا يجوز أن تتأخر أكثر مما تأخرنا. سرحل إلى تركیا! مصيرنا مصيرُ غيرنا.

أريد أن أضيف ثانيةً أني لم أجد جواباً حين سألني علي باشا عن عدد المهاجرين. الحق أني لم أعرف بمَ أرد عليه. ولكنه ارتعب حين قلت له، من أجل طمأنته، إنهم خمسون ألفاً. لن أكتفي أن تركیا غير مرغبة للأمر الذي أصدرقوه بترحيل الأديعة إلى هذه البلاد. ولذا لا شک في أن تعجل المحادثات التي بدأناها مع تركیا بشأن هذا الموضوع قبل أن تغير رأيها أو تراجع سیكون مفیداً..." المؤلف.

في اليوم التالي ركب زان قارباتر مع أسرته في السفينة "تيرغ" وغادر بلا رجعة أرض الأديغة.

الفصل الرابع والأربعون

كما يُدان الرعماء في كل مرة تتدهر فيها أحوال البلاد، تجددت، رغم مضي سنتين، أقوال تسي وحربه الكلامية مع القيصر ومع الأمير حجمقوه والأراء المتناقضة: ومن يديونه يزيدون كل يوم، وهم أكثر من يساندونه. وزاد على هذه الضجة الجفاءُ بين زعيمي الأبخاخ برج وتسى.

صارت إعاقة الجيش القيصري الذي استطاع الأبخاخ إعاقةه عبر طرق بداية الربيع الرديعة أصعب الآن في الصيف – بداية الخريف. ومع ذلك وظف الأبخاخ كل رجولتهم من أجل منع الجيش الروسي من التقدم. غير أن من الصعب أن تجاهله بالرجلة وحدها جيشاً أكثر عدداً وأحسن تجهيزاً. الطرق إلى أماكن العيش التي يهاجمها جيش العدو يليلُ عنها المنادون، والناس الذين سيجاهون الغزاة يستغروهم. يكضون فرساناً ومشاة من جهة ضفة نهر بشك، ومضيق فُجُبُس إلى طوابسه. ويخشدون المدافع القليلة المتبقية لهم، مودعين أملهم فيها، إلى حيث الحالة حرجة.

– هذا ما يدلّك على أن قيصر الروس لا علم له... – يشير تسي إلى الواقع التي تصدر منها أصوات دوي المدافع، والقرى التي تُحرق – وهذا لا يصلح أن يكون قيصراً.

– لم يخطر أَن يحدث هذا لنا... – غمغم برج مدركاً لماذا يقول هذا، عارفاً إلى من يلمّح به، دون أن يذكر اسمه.

– يا برج! – احتدّ تسي لما سمع. – أنت تردد هذا الكلام باستمرار، من تدين به؟ أنا؟

- أنت وأنا وبرزج. — كلنا مذنبون.
- أخن مذنبون إذ نحمي قومنا؟ — التمعت عيناً تسي كجمري لهب.
- لحماية القوم أسليب كثيرة.
- إن كنت حكيمًا هكذا يا برج فما هذه الأسليب؟
- لم نطبع الأمير حجمقوه — أجاب برج كاظماً غضبه بصعوبة.
- اسمع بم يعيّرنا هذا الآن! — ابتسم تسي كأنه ليس في قلبه حقد، وأضاف متهمًا إيه: — لم أفهم طبعتك يا حسن بي منذ أن عرفتك. لماذا بقيت ساكتًا كمن فمه مسدود إذا كنت تؤيد حجمقوه؟!
- وهل أعطينا الفرصة لنتكلم؟ — أجاب برج بسرعة، ثم اختتم شاملًا نفسه بما يقول: — كفى، ليس موقفنا الآن مما يسمح بتمييز البريء من المذنب.
- قال الفارس أفعّلت مرتفوهو الذي وصل مسرعاً إليهما، معتبراً تسي أقرب إلى الرعامة كما كان يفعل دائمًا:
- جاءنا سبعمئة فارس من ناحية توبا يا حاتر باي. وأتى حوالي مئتي راجل من ناحية بشك.
- لم يحيث جيراننا أهل توبة بوعدهم لنا. — قال تسي مرتاحاً، وأكثر ارتياحاً لرفع شأنه هو، ولكنه سأله ثانية غير راضٍ عن عدم معرفة الفارس بعدد المشاة.
- مئة وتسعة وثمانون يا حاتر باي.
- تعلم أن تتكلم هكذا يا أفعّلت! عد الناس، حتى الخراف تعدد. حسناً، أرسلوا أربعين مائة فارس من سبع المئة إلى ساحل بشك، ناحية طوابسه. وليريقف الآخرون رديفاً وراء المحاربين في قحبس. ما الأخبار يا مرتفوه حيث أرسلتك، في نواحي الشابسغ والوبيخ؟
- وليس في تلك الأنهاء ما يسرّ. الجيش الروسي احتل الشابسغ، ويتجه الآن

إلى الوبيخ.

- استنفر القيصر رجولته ضدنا إذن ، أليس كذلك؟ هذا إذن ما حدث... حاصرونا من كل الجهات... وزان قارباتر ما أخباره؟

- أراك أرفع من أن آتي لك على ذكر من سألت عنه يا حاتر باي! هاجر إلى تركيا ونجا بجلده. وحين قالوا له: ما تفعله عيب، هذه خيانة، أجابهم: لا أريد أن أتكلم على خيانتكم أنتم، ولا أن أشهدها ثانية.

- وآل زان؟ - صرخ تسي لما سمع وعيشه السوداون تهربان منه - وهل نسي آل زان خيانتهم؟ أليس جدُّ زان قارباتر من باع أرض أنانبه إلى تركيا؟ ووالده سفري وقارباتر ألم يكونا ضابطين في الجيش الروسي؟ أليس آل زان من بعث الفوضى في إقليم الأديغة؟ والآن يغسلون وجوههم أمام الأديغة؟! اسمعوا: أكتموا عن الأديغة خبر نزوح زان إلى تركيا... الآن فهمت لماذا لم يكن ي يريد مقابلة القيصر الروسي... تصرف من ورائنا تصرفًا سخيفًا. وما أخبار الحاج برج؟

- يقال إن الحاج برج يجول في أرجاء الوبيخ لا يترجل عن صهوة حصانه. غير أن هناك من يقول إنه لا يزال في زيارة إلى تركيا. - أضاف أفعمعت الآن بمزيد من الحذر.

كان برج الذي يعرف طبيعة تسي يكفي بالإنចاتات إليه ولا ينافق أقواله. وبرج نفسه لم يكن مرتاحاً. كان أماته اليوم وغداً ما يجب أن يفكر فيه وما يجب أن يحل من أمور أكثر من أمور البارحة.

- أراك لا تقول شيئاً يا برج؟

- وماذا أقول يا حاتر باي؟ أفكر في ما قلت حتى لو كانت الحال كأننا قلنا ما يجب وانتهينا.

- كل ما نقوله نحن الاثنين ما يتعلق بشخصينا يبقى بيننا. — لجم تسي حاتر باي الحصان على المرتفع الذي رقي إليه، وقال لبرج دون أن يسمع رفاقه — ولكن لا يجوز أن نزرع اليأس في قلوب من يتأملون أن تكون سندهم. على طريق الجبل رأوا أيضاً كثيراً من الناس. وكذا في المضيق. المشاة والثيران والخراف والأبقار... والوضع ماثل في ظاهر بشك. ابتعدوا عن عرض الطريق كي لا يعرقلوا سير المهاجرين. تعرف الناس على الرعماء. ومن يتحملون مأساتهم دون أن يُعنوا النظر إليهم. وبينهم من يهددونهم بقبضاتهم، ومن يعنفونهم. وليسوا قليلين من ينظرون إليهم دون أن تعرف ما في قلوبهم. وفي عربات الشiran جرحى حالتهم خطيرة وجثامين لم يجدوا الفرصة لدفنها. وأكثر موجات النازحين من النساء والطفال والمسنين، وصبيان لا يزالون عاجزين عن حمل السلاح.

- أيها الرعماء الذين أمننا فيهم بعد الله ماذا ينتظرون؟ — سأله عجوز يأكله المهم، وهزّ رأس عصاه بالاتجاه الذي يأتون منه: — الجيش الذي أدعوه الله أن يرسل إليه الكوليرا ينهينا. نحن نحمله، يلحقنا الخراب والدمار. أستخلفكم بالله أن تقولوا لنا كلاماً ينفّس عن أحزاننا.

— وماذا نقول لكم... — لو ضمن تسي حاتر باي ألا يسمع هذا الكلام الذي قيل له لما فضل عليه شيئاً. — نجابة العدو بقدر ما نستطيع. الله شاهدي على أننا لن نسمح له أن يتجاوز مضيق قُجس.

— ليس اليوم نسمع هذا — صاح من وراء المتجمهرين عجوز آخر.

— نعم يا كبير، ليس اليوم فحسبُ تجري حربٌ في إقليم الأديعة. — قال تسي مقتنعاً بذنبه — ليس من اليوم نلجم العدو في إقليم الأبناخ... خسرت في الحرب أخي الأصغرين، والولد الوحيد المتبقى لبرج حسن بي... ونحن أيضاً

من يعرف ما كتب على جبيننا؟... نفهم مأساتكم... توزعوا في قرى الجبل!
قررتنا أن يقاسمونكم أسطبلاتكم وطعامهم ومنازلهم.

- مهلاً، مهلاً يا تسي، وأنت أيضاً يا برج! - أقبلت العجوز التي كانت تمسك قرون الثورين تحت العربية - الآن اسمعني أنا. بقيت ترددون هذا الكلام وتعللوننا بالألماني حتى فقدت عجوزي وأولادي الثلاثة في الحرب. وقتل ابن أكبر الأولاد، وقد صاحت جثمانه لأنهم لم يدعونا ندفنه. وهذا الصبي من إرثه... أي عذاب جلبتناه لنا!.. لماذا لم تصاحوا السلطان الذي لن تستطعوا هزيمته.

غطى الدم عيني تسي مما سمع من كلام العجوز، وأجاب وهو يكظم غضبه بصعوبة:

- أفهم يا أختي ما منق أعمق قلبك: مأساتك، مصيبيتك. الله يفهمك. وهل يقبل القيصر الروسي الصلح؟ ولو صالحناه ماذا كان سيقول لنا زوجك الراحل؟ وكذلك الآلاف من شهداء الأديعة؟

- هؤلاء كان الوحيد الذي بآيديهم أرواحهم فدفعوها. لسنا اليوم في وضع يسمح لنا بالتشدد. البجدعون والجمكوي والمخوش والبسلي لم يأكلهم سلطان الروس. ولو صالحتموه لما أكلنا نحن أيضاً.

- ليس هناك ما يستدعي أن نركع أمام العدو! - لم يعد تسي يتحمل المزيد.
- أفضل أن نركع على أرضنا أمام العدو على أن يفني الأديعة.

- هيا يا عجوز آل تابش - خرج عجوز من بين من كانت معهم، وواسها - اصبرى، كلامك فيه نصيب من الصحة. ولكن هؤلاء لا يسمعون مهما قلت لهم... سدّت الرجولة الفارغة آذائم. هيا لندفن الجثامين التي في العربات...
تسى حاتر يا رجل عاش حياته من أجل الرجولة والاستقامة. ظل يقول إن

من ينتصر في الحرب هو من يكون رابط الملاش ومتثبت بأرضه. ولم تكن هذه المبادئ عنده مجرد كلام. لم يكن ليقف شيء أمامه من أجل حرية قومه وحماية أرضه ، دون أن يعني هذا أنه عاش دون أن يخضع أحياناً، ودون أن يُسيئ إلى غيره، ودون أن ينتمي على ما فعل أحياناً أخرى.

ما الذي جرى لتسى اليوم؟ ليس السبب الكلمات التي انتقدته بها عجوز آل تابش ، دون أن يعني هذا أنه لم يتأثر بها، بل ما جرح شرف حاترياي هو كلمات الرجل العجوز: "هؤلاء لن يسمعونك، سدّت الرجولة الفارغة آذائم". ثم إنه ليس للمرة الأولى يسمع هذا الكلام. بل من كل من نجا بجلده من الأذى. ويتهمنوه بما يجري الآن من فناء القوم. يقول لنفسه: هذا ما يجعلهم يقولون: "معروفي انقلب علىّ نحساً وجاري صار عدوّي". – وإن اعتقدت أنك قادر على حماية الرجولة بحد السيف وحده فأنت على خطأ. يجب أن تخطو خطوة أخرى غير الرجولة ولكنها مؤلمة. ولكن هل حقاً عشت بـ "رجولة كاذبة"؟ لماذا لا أزال حياً إذن؟ الأذى يموتون بسببي. ومن عشت لأجلهم يديونني..."

حملت الإهانة التي تفجرت حاتري على أن يبحث حصانه بعقب رجله، فأسرع الحصان. وحين لحق به ألمعّت ودارور أشار إليهما ألا يتبعاه، وقفز وهو على ظهر حصانه من الضفة العمودية، فكانت فيها نهايته.

الفصل الخامس والأربعون

حزن برج حسن لما فعل زان قاريابر بنفسه أكثر مما حزن لانتحار تسى حاترياي.

– لم أتوجس البتة أن يفعل بنا ابن زان سفريي ما فعله... – قال برج حسن وهو يهز رأسه مع قلبه الحزين، وأشهد على كلامه قولًا أديغياً مأثوراً: – لم يكن

قد فهم لماذا قال قدماؤنا الحكماء: "لا تهجر طريق والدك القديم، ولا قريبه القديم"... كيف تتجاوز المهمة التي ناضل والدك من أجلها حتى سقط من على سرجه، وتنزح إلى بلاد غريبة على ظهر سفينه؟ على ما يبدو فقد أخذ معه أصلاً انتهى، وعظاماً بلا لحم. ونحن هنا ندين تسيي الذي أحرقه الإهانة، ودفع ثمن رجولته.

- نعم يا كبير، نعم يا زعيم الأبراج - قال محمد أفندي الذي كان جالساً كأن فمه مسدود بالرماد - صحيح ما يقال إن الأب كالجوزة والأم كالعين. أوقفك على ما قلت عن زان قارباتر. تركنا في غمرة ضياعنا ونفذ بجلده. ولكنني لا أوقفك في ما قلت عن تسيي يا حسن بي الذي ستحمييه حكمته ورجولته. هو لن يقبل طريقة موت تسيي ولو ركع لله على ركبتيه. وأنا أيضاً لا أوقف على هذا. حين أحس تسيي أن أمروره لن تنجح وهو يقاسمك الزعامة التي لم يره الناس أهلاً لها، ألقى بنفسه في الوهدة دون أن يعرف أين وكيف.

- مهلاً. اسكت قليلاً يا أفندي. - قال برج حسن كأنه خجل أن يرفع رأسه المطرق. - لا أسمح لك أن تقول هذا على من استشهد، نعم من استشهد.

- هذا ليس شهيداً، بل انتحر - ارتفع صوت مرزخوي محمد رغمًّا عنه مع حرصه الدائم على ما يقول، ولم يتوقف عند ما قال، وهو يكاد يبكي: - كان الأفضل لو ضحى بروحه، مثل أبناء الأخوين براعن، ومثل أخيه بكر، أمام جيش العدو... أين هم، ومن أين نأتي بمثل أبنائهم الذين التجأوا إلى الجبل؟ يا إلهي احمنا، افهمنا في ما نقول وما نفعل. - وخلافاً لعاداته، مدّ محمد أفندي يده إلى عينه، ثم ركض إلى إحدى الصخور واحتفى وراءها.

- لا تقولوا له شيئاً، دعوه يستريح... - قال برج حسن وقد طفا على السطح ابنه الذي قضى في الحرب العام الماضي، وأمه التي لم تتحمل هذا - وهذا

المسكين عنده من يبكيه ومن يشفق عليه.

الفصل السادس والأربعون

الربيع الذي أتى يسلب العيون لم يكن كالشتاء الذي أعطى الأبراخ شيئاً من الأمل. ولكنهم لم يعودوا في وضع يسمح لهم بتأمله والإحساس بحمله بقلوبهم وعيونهم. دخان النيران أعمى عيونهم، ودوي المدافع أصم آذانهم. كان يُسمع صوت هفة الناس في كل مكان. وجناحُهم غائرة، ووجوهُهم ذابلة.

الجيش القيصري يتوجه إلى ساحل البحر حيث الجو دافئ، وإلى المكان الذي ستنتهي فيه الحرب التي سيفن فيها عرق الأديغة. والآن لم يبق عند الأبراخ ما يوقف زحف هذه الجيوش. وكل الناس باستثناء برج يبحثون عن خلاصهم، كلٌّ وحده. عالم الأبراخ مما يقال فيه "الشمس تشرق وهي تبصق دماً".
بالقياس إلى ما قبل أيام فمحمد أفندي الذي رجع إلى وعيه يقول للناس بملء فمه:

- أيها المسلمون، يا من أدعوا الله أن يُحسن إليهم. أسرعوا إلى الشاطئ. السفن التي ستنقلكم إلى تركيا بانتظاركم. في تركيا، جنة الله على الأرض، ستنتسون ما يجري لكم. أسرعوا إلى حيث يمضي بكم الله، وأنتم احفظوه في قلوبكم.
الناس الذين يتقبلون مواعظ محمد أفندي ينظرون إليه بعين الأمل ولو أن طريق تركيا الذي يسرون فيه ثقيل عليهم. ومن لا يصدقونه ينظرون إليه بعيون غاضبة. وغيرهم لا يسمح لهم عذابهم أن يسمعوا شيئاً. ومن في قلوبهم شُكُوك تكون رهبة من الله الذي بعثه إليهم.

- لم تقع عيني على برج خلال هذا الأسبوع. أيمكن أن يكون فعل بنفسه حين رأى أمره خاسرة ما فعله عديم الإيمان تسي؟ - سأله محمد أفندي عُمشت مولى حين خرج فيض الأبراخ من مضيق خدرج متوجهـاً أنهم صاروا في عهدهـه

الآن، ودون انتظار جوابه أضاف له: - لأجل هذا كنت أقول لهم: احفظوا الله في قلوبكم. لا تنسوه، ولا تخالفوا أوامره، واسألوني أحياناً أحكم من الزلل... لم يدعهم الله يفلحون لأنهم كانوا يفعلون ما يريدون، متظاهرين أنهم يسألونني ويطيعونني. ونحن يعاقبنا بقدر ما نستحق. إن كنت ستستطيعي ولن تتجاوزي أمري فسأعبر بك يا عُمشت، وأنت لا أهل لك ولا أسرة، إلى تركيا.

- صحيح، يا موفد الله المبارك محمد أفندي، أعتقد ان الله كتب لي أن أعيش أبتر... ولكن لا أستطيع أن أترك عالم الأبزاخ الذي كرمني الله فأطعني عليه، سالحني يا أفندي، فانتقل في وقت شدتهم إلى عالم غريب لا أعرف عنه شيئاً. ألن يبقى هنا بعض البؤساء من أمثالي؟ سيكون مصيري كمصيرهم. ماذا نقول، نحن الأبزاخ، "خير" لك أن تعيش فقيراً طاهر القلب من أن تعيش على فعل الشر"

ابتسم محمد أفندي مخفياً سخطه لما سمع، قائلاً في نفسه: "اسمع ما يقول هذا الفقير المعدم حليق الشاربين...", ثم رد ملطفاً إياه:

- هيا يا عُمشت! ولماذا أسطط عليك؟ إن صار طرف ردائك بيدها لك فأنا أحوّله من أجلك إلى مخزن للحبوب.

"مع أن برج وتسى أوكلا إليك منصب أفندي المجلس الذي كنت تطمح إليه فأنت لم تتحقق شيئاً أكثر مما حققت. وحين ساء وضعك لم تجد غيري تعرض عليه اصطحابه إلى تركيا - ابتسم عُمشت في سره - وأنت واحد من أوقع الأبزاخ في مأساة لا نهاية لها عن طريق الخداع. وإن كنت تسخر مني فلن أدركك في حياتي في تركيا وقد اشتھيتك ما في طرف ردائي، ولكن سترى نفسك في هذا الموقف..."

"لماذا أصحب معي هذا وهو لا يوافق آرائي بل يعارضها؟.. ما حاجتي إليك

حتى تعبّر معي، كانت كلمةً عابرةً مني" - لحظةً لام مزخوي محمد نفسه وقد صار الفارسان اللذان يتوافقان قولاً ويتبااغضان قلباً، رأيا الناس على طريق البحر الأسود فقال محمد أفندي وقد خرج من أفكاره بسرعة:

- تعال، نبتعد عن هؤلاء بأن نسلك الطريق الموازي لطرف الغابة، ولا نؤم قلوبهم ولا قلوبنا. ولكننا لن نسمح لليلأس والضعف أن يستوليا علينا. لا، لا. لا تفكّر في الطريق الواسع إلى جهنّم، نحن سنجد أنفسنا في تركيا، جنة الله على الأرض. وسيعوضنا الله بعض متابعينا.

- لو تحقق هذا لكان خيراً. غير أن بعض الشكوك تساورني.

- لا تسمح لها! - غضب الأفندي الذي يرفع رأسه عظمتي كتفيه. وأضاف دون أن يوقف حصانه على الطريق الضيق: - هذه من وساوس الشيطان والجحود الأرديةاء، لا تسمح لهم أن يخدعوك، الله أكبر!

- نعم، الله أكبر، إنه كبير، رحيم، سيفتهمنا.

- إنه لا ينسى أمته، غير أنه لا يغفر لمن يجحد عن دينه القوم.

- ومن يتبعه ويعد إليه؟

- أي سؤال هذا يا غُمشت؟ - التهّب محمد أفندي غضباً، ولكنه عض على غضبه فأعاد السؤال: - لا يُسأل موقد الله مثل هذا السؤال بذرعة أنك تعرفه شخصياً. ومع ذلك لن أدعك يا مولى بلا جواب. الله يغفر لمن يندم ويعود عن الخطأ. إنه يعلم كل شيء ويرى، ويسمع. وأنت ترؤ في ما تقول وتفعل. وصلاح الظاهر قريبة، سُنّق في حضرته. سندّعو إليه أن يُحسّن إلى من سُلّبت منهم أرضهم، ولا يحرّمهم من وجهه ورحمته، وأن يرسل الكوليرا على الأعداء الكفار. لن تتجزّد من أسلحتنا فمن يعرّف في هذه الظروف الرهيبة؟.. - بعد أن فرغا من وصوّئهما وصلاحهما قال محمد أفندي ملوك: - تامي حبله لم تعد

بعيدة، وأنا عليّ أن أعرّج عليها. وأنت كتّرت ترید توديع برج حبله فاذهب إليها. سنجتمع هنا غداً بإذن الله. الله حريص على عباده فاحرص أنت أيضاً على نفسك. احرص ألا تقع في أيدي القوزاق.

تابع غُمشت بعينيه عمامة محمد أفندي البيضاء حتى تجاوز المرتفع والحدّر، وحين هم بالسير قفز إلى ذهنه سؤال: "أيُّ تامي حبله يتكلّم عليها هذا؟! منذ زمن بعيد أحرقت... ربما كان يرى إلقاء نظرة أخيرة على أطلالها... هذه هي الحال، المصيبة حين تمسّك لا تميّز فلاحاً من أفندي، من أمير، من زعيم... منذ أكثر من أسبوع لم أر برج حسن. ولما سألت عنه في طوابسه قيل لي إنه شوهد في نواحي توبا. وغيرهم - لا يمكن أن يكون كل الناس يودونك - قالوا إنه نجا بجلده، بل إنّي حين سمعت أنه استسلم لإفلوكيروف لم أصدق فقال لي محمد أفندي "هذا غير مستبعد"... هذه حال من أفل نجمة، يتهمنه بما فعل وما لم يفعل. ولكن مهما قال أي شخص عن جاري برج حسن فلن أصدق إلا أن أشهد بشخصي وأرى بعيني. ومع ذلك لا أعرف... - قال لنفسه، ثم خر نفسه بصوت جعل الحصان ينصب أذنيه: - ما الذي تقوله يا غُمشت؟ أي عيب هذا؟!"

بعدما سار قرابة نصف ساعة وارتقى المساحة الحالية من الشجر رأى بعض عربات ثيران يركبها بعض الناس ويتبّعها آخرون، ويسبقها فرسان. ولما كان برسر زوال المتروخ رأسه ويده اليسرى بين من هرع لاستقبالهم فقد سأله الأخير:

- ما الأخبار على الساحل الذي أنت آتٍ منه؟
- لا خير في المكان الذي وجهتم إليه رؤوس ثيرانكم.
- ما أملنا، وأنت لا خير حيث وجهت رأس حصانك. العدو قادم من ورائنا

حرقاً قراناً.

- ومع ذلك فالأفضل ألا تبتعدوا.

- لا أعرف كيف ستفهم هذا الأمر... يقودنا الأمل في النجاة بأشخاصنا، أم تظننا نتصرف بإرادتنا؟ - سأله برسر زوال دون أن يعبأ من يتحدث إليه الفارسان، والتحق برفاقه، وقال لعُمشت وراءه دون أن ينتظر الجواب: - إن كنت راجعاً إلى برج حبله يا عُمشت فالأرجح ألا تراها ثانية.

لم يهدأ قلب عُمشت الذي كان يُخيل إليه أن قريته تحترق فيما يرتفقي مرتفعاً وينحدر من غيره إلى أن رأها. لما رأى برج حبله المستند إلى المرتفع القريب هادئاً أسرع بمحصانه. لم ير أي أبزاخى في طريقه حتى وصل إلى الساحة التي تتوسط القرية، ثم إلى الحي الذي يقيم فيه هو وبرج، اللهم إلا بعض الفرسان القوزاق الذين لم يتعرضوا له. ترجل أمام عقید يظنه قريباً منه ويتأمل منه الخير، وقال شاملاً بمحديه بضعة القوزاق الراصدين له:

- تحية لكم، أيها القوزاق، أنا عُمشت مولى من برج حبله، أسمعكم إن كنتم تريدون شيئاً.

- نحن وجدنا ما نريد، وبانتظاره. - قال العقید سيرديوكوف، ونظر نحو ساقية "تجن" التي يصلى بجنبها الرعيم برج حسن.

- هل استسلم لكم برج؛ فهو أسيركم؟

- لن نأسره إلى أن ينتهي من صلاته.

- مهلاً إذن، لحظة، لا أريد أن تفوتني صلاة العصر. وقف عُمشت مولى، بلا وضوء، إلى يسار برج حسن قائلاً في نفسه: من لم يفهمنا إلى الآن لا يفهمنا بعد الآن إن شاء، وهمس في أذنه كمن يتلو دعاء: أنا معك، لداعي لليلأس.

حين أُنْهَى برج صلاته، رد على عُمشت همساً في أذنه:

– حياك الله، إن كان سلاحي سلاحك فلا مخرج لنا غيره – خض برج حسن متمهلاً وقال لسيرديوكوف: – تحلىت بالرجلولة إذ سمحت لنا أن نكمل صلاتنا. والآن استل سيفك إن كنت رجلاً! – استل برج حسن سيفه وتوجه إلى سيرديوكوف الذي كان ضاماً أن الزعيم الأباخى صار أسيره. واستل الحرس القوزاق سيفهم. وغمشت الذي تصدى لهؤلاء دون أي صوت جاءته ضربة من الخلف صرعته قبل أن يجد الوقت ليستعمل سيفه. ولم يستطع برج حسن مواجهة القوزاق العديدين فاستشهد مثل كل الذين دفعوا حياتهم في بلاد الأباخ.

الفصل السابع والأربعون

لم يقم مرزخوي محمد أفندي بزيارته التي كان قررها إلى تامي حبله. ماذا يفعل في القرية التي صارت رماداً فيؤلم قلبه؟ الآن كلّ ونفسه. وأين تذهب ولا مال لك؟ وإن ذهبت فمن يسأل عنك؟ نحن، وجهاء الأباخ، ننجو بأنفسنا كي لا نقع أسرى بيد الكفار، ولكن ماذا يأمل هؤلاء البوسائ القانطون؟ أنا، في حال الضرورة، بصفتي رجل دين، يمكن أن أعمل في أحد مساجدهم مقرئاً، بل مؤذناً ولو لم أتقن التركية تماماً.

حين وصل محمد أفندي إلى مخرج الغابة وجّه حصانه إلى الصخرة التي دفن تحتها كيس نقوده الذهبية والفضية.

"إذا كان تسي فارق الحياة، وزان هجر أرضه، وبرج اختباً في الغابة، وبرز مشغول بقضايا الشخصية، – نصح محمد أفندي نفسه – ففيما يجتاجني من كنت أحثّهم على الإيمان بك يا إلهي... نعم، نعم، لا تدع عيون الأباخ المائجين الذين لا يلّعون على شيء الآن تقع عليك. هؤلاء مهما قلت لهم، ومهما عاتبتهم، ومهما نصحتهم، لم يعودوا يعرفون إن كنت أنت أو أنا موجوداً"

يا إلهي... اغفر لي وافهمني وارحمني. أنت في قلبي لا تفارقني، ولن تفارقني. الكيس الذي دفنته تحت هذا الحجر الأصم الأعمى لا يعرف به غيرك وغيري؛ أأجده يا ثُرى؟ - بعدما قفز محمد أفندي من على صهوة الحصان ملهوفاً قلباً ووجهأً، ونقب أسفل الصخرة برأس خنجره بعض الوقت أخرج الكيس الصغير. ثم ركب بعدما حشره في ثنايا ثوبه، ناظراً في كل اتجاه، قائلاً: "لا يزال على رباطه"، "لا يزال مليئاً، سينفعني ما خلفه لي المسكين غش مزبوج وقد أصبحت في وضع صعب. سأدعوه له، ولو أنه قضى على يدي، وأنا أبلغه رضاي عنده، أن يجد راحته حيث أرسلته ، ولو أنه لن يكون من أهل الجنة" - توجه محمد أفندي إلى البحر عبر طريق سري كي لا يلتقي بقوافل النازحين. كل طريق سري يُفضي إلى الطريق العريض. لما سار محمد أفندي طوال الليل وصل مع الفجر إلى مثل هذا الطريق، فانعطف إليه وهو يرى البحر من بعيد. أوقفته المأساة التي يراها في فجر الربيع المتأخر: الجثث على جانبي الطريق وعلى امتداده. وفي مكان آخر تحت الأشجار القرية البعيدة. والعربات المهجورة على ظهر المرفع. وفي السهل. وعلى بقايا نيران الحطب شبه المنظفة يجلس الناس المرهقون. وعلى صدور الأمهات أطفالهن المرضى. ومن كل مكان تسمع أصوات النساء يندبن موتاهن. ومن الساحل أصوات أناس يتصايحون ويتدافعون على مداخل السفن، ولعنات تنصب من هذا على ذاك، ومن ذاك على هذا. وإطلاق نار من مسدسات. والشمس الحمراء التي يحرقها عن بكرة أبيها ما يحدث في أرض الأبراخ والشاسخ والوابع تشرق. وفيما يبحث مزخوي محمد أفندي الذي يُخَيَّل إليه أن رؤوس الأشجار تحرق، عن مكان يعطف فيه رأس حصانه دون أن يتعرفه أبناء قومه إذا بصوت نسائي يُفزعه، فيسأل وقد عرف صاحبة الصوت:

- أهذه أنت يا نفست؟ ما أحسن الصدفة التي جعلتني أُعثر عليك... لم أترك مكاناً لم أجث عنك فيه. وأين أمك والأطفال؟

- نانا وکولس يا ممت - ارقت نفست على صدر عمها، وقالت - دفناهما على حافة الطريق إلى طوابسه... ووالدنا فارق الحياة، وآل براعنه أيضاً... ولا نعرف إن دُفوا... والذين أوصلونا إلى شاطئ البحر فقدوا كل حسٍ إنساني!.. إن شاء الله يرتد ظلّمهم عليهم... ولّيقضوا في الطاعون الأسود!

- مهلاً يا نفست، اسكتي، ولا تدعني لاشين الصغيرة تبكي... - يمسح محمد أفندي على ظهر لاشين الصغيرة المتتصقة بأمهما، ويده الأخرى على ابنتهم نفست. - لا مشكلة بعدها التقينا... واطمئني على والدك وعلى آل براعنه، أنا دفنتهم. بقيت كتّتنا وکولس الصغيرة... وهاذان اعتبريهما من أهل الجنة إذ قضيا في ساحة حربٍ على الكفار... وأنت أيضاً يا أختي - يقول للعجزو التي يلتصق بها صبي في حدود الخامسة عشرة. - حسنٌ أن جئتم إلى هنا، ولم يأسركم الكفار. ها هي تركيا جنة الله على أرضه، ستصلون إليها قريباً بإذنه تعالى. وما إن نصل إلى شاطئها حتى ننسى العذابات التي ابتلينا بها على طريق جهنم. وأنت من أي أسرة يا أختي؟

- هذه سمّاي يا ممت - قالت نفست مرتاحه لإبلاغه اسم العجوز - وحفيدها عليمبعج. لولا نانا هذه لربما ما رأيناها أنا ولاشين...

- حياك الله يا أختي، ورضي عنك. لن ننسى أبداً ما عملت لأجلنا. هذا الطعام الذي خصّكم به الله - مدّ الكيس الذي فيه بضع قطع لحم مجفف، ونصف قالب من الجبن إلى سمّاي. - كلوا، أنا سأعود بعد متابعة أعمالنا. ولبيق حصاني المسرج هنا. ربما يظهر من يشتريه. سأتبعكم بعد قليل. حين اختفي محمد أفندي عن عيون الواقعين، نوع عمامته حتى لا يتعرف عليه

من كان يعرفه، وارتدى قلنسوة منفوشة تغطي رأسه ووجهه، ورشا الحراس بليرة ذهبية ليكون بين ركاب أول سفينة تبحر إلى تركيا.

الفصل الثامن والأربعون

انتكست مشاغل الحاج برج في الوبيخ على نحو لم يتوقعه: كان قد فهم من أول رسالة أرسلها إليه الجنرال غايمان أن مصيره سيرتبط بمصير الأبخاخ والشاسغ. ويكتب الضابط دوخوفسكي هذا الوضع كما يلي: "... يحيى الجنرال غايمان عرق الوبيخ. أنتم تعرفون أننا كافأنا الأبخاخ والشاسغ على تجاوؤهم معنا بالموافقة على نزوحهم إلى تركيا. والآن أنتم الوبيخ بقيتكم وحدكم. والأمر الخاص بكم هو: عليكم أنتم أيضاً المجرة إلى تركيا دون ماءلة. ولهذا عليكم أن تتجمعوا في نهر "شكه" عند فارдан، وبداية نهر شجه..."

فـكـر بـزـج جـرانـدـوقـهـ، لـيـسـ فـيـ أـجـرـةـ رـكـوبـهـ فـحـسـبـ، بلـ فـيـ أـرـبـعـمـائـةـ أـسـرـةـ منـ فـلـاحـيـهـ سـيـصـحـبـهـ مـعـهـ. وـذـهـبـ إـلـىـ الـجـنـرـالـ غـايـمـانـ بـرـفـقـةـ مـسـنـيـ الـوـبـيـخـ، وـلـوـ أـنـ الـوقـتـ قـصـيرـ، لـيـرـجـوـهـ أـنـ يـمـهـلـهـ رـيـشـماـ يـسـتـعـدـ لـلـرـحـيلـ.

وـهـذـاـ ذـكـرـ هـذـهـ الـوـاقـعـةـ فـيـ مـذـكـرـاتـ دـوـخـوـفـسـكـيـ: "ـبـعـدـ الـظـهـرـ جـاءـنـاـ خـمـسـةـ عـشـرـ مـنـ مـسـنـيـ الـوـبـيـخـ يـتـزـعـمـهـ بـزـجـ جـرانـدـوقـهـ. وـمـعـ أـنـ الـجـنـرـالـ غـايـمـانـ كـانـ يـعـرـفـ أـنـ هـؤـلـاءـ لـمـ يـأـتـوـ مـتـذـلـلـيـنـ فـقـدـ سـأـلـهـمـ بـعـنـادـ:

ـ لـمـاـ جـئـتـ إـلـيـ أـيـهـاـ الـوـبـيـخـ؟ـ أـيـنـ هـمـ مـنـ تـعـمـدـوـنـ عـلـيـهـمـ،ـ الـقـادـمـوـنـ مـنـ أـورـبـاـ لـيـسـاـعـدـوـكـمـ؟ـ وـأـيـنـ هـيـ مـدـافـعـكـمـ؟ـ لـاـ أـرـىـ أـحـدـاـ مـنـ يـسـانـدـنـكـمـ؟ـ

ـ نـحـنـ فـهـمـنـاـ ـ أـجـابـ الـحـاجـ بـرـجـ ـ أـنـ لـاـ أـحـدـ نـعـتـمـدـ عـلـيـهـ،ـ وـأـنـتـاـ بـقـيـنـاـ وـحـدـنـاـ.ـ وـلـكـنـنـاـ نـحـنـ أـيـضـاـ عـرـقـ كـامـلـ.ـ لـنـاـ الـحـرـيـةـ فـيـ أـنـ نـقـولـ وـنـنـاقـشـ مـاـ نـفـكـرـ فـيـهـ وـمـاـ فـيـهـ نـفـعـ لـنـاـ.

ـ أـلـتـمـ الـوـبـيـخـ مـنـ سـيـحـادـثـوـنـاـ؟ـ إـنـ كـنـتـمـ أـقـوـيـاءـ جـداـ وـشـجـعـانـاـ فـاغـلـبـوـنـاـ.

- مع أننا بعيدون عن التفكير في النصر فلا نزال قادرين على مجاهمنكم. ولكن عرقنا سيفنى نهائياً في هذه المواجهة. كان بودنا أن ننهي المسألة بسلام ولا نتسبب في خسائر للطرفين.

- لا ترووا لي حكايات! أعرف جيداً جداً من أنتم!.. إذا كان الوبيخ نسوا الطريق إلى البحر فليسألوا الأبزاخ والشابسغ! لا شيء أقدمه لكم ولن يكون! قال الجنرال غايمان لهم، وانصرف"

حين فهم برج جراندوقه أنه لم يبق مخرج جهز نفسه في مهلة ثلاثة أيام، واتجه مع أسره فلا حيي إلى المركب الذي حضروه لهم.

رأت نفست وسماي اللتان وعدهما محمد أفندي بالعودة إليهما الحاج برج متوجهاً إلى المركب فقالت سماي لخفيدها عليمبيج: - يا ولدي، أسرع، عِرِفْ جراندوقه عليك، ذاق يوماً من طعام جدك. وأنت أركبك على ظهره. لابد أن يساعدنا! اذهب يا صغيري واعترض طريقه قبل أن يركب السفينة. وأخبره أني معك.

قفز عليمبيج من الأمل الذي نبت فجأة، واعتراض الحاج برج:

- أيها المخترم! هل عرفتني؟ أنا عليمبيج، ونِكِراس تِيمه جدّي... أنا وجدتي سماي هنا على الشاطئ منذ أكثر من شهر. هل يمكنك أن تساعدنا؟

- من هذا الذي اعترض طريقه؟ - غضب برج كما لو أن أحد أعدائه يمنعه من الجلاء إلى تركيا. وسأل ساخراً مبتسمًا الصبي الذي فقد قوته: - أفلت لي نِكِراس؟.. والله عجيب أنك نسيت كونك بجرؤ كافر! ألا ترى يا عديم الإيمان كيف يطردنا قوم جدك الكفار من أرضنا؟

اتقد عليمبيج من الإهانة، وردد على زعيم الوبيخ دونوعي:

- ضحى جدي بحياته على أرض الأدبية، ووالدي أيضاً.

- اغرب عن وجهي يا سليل الكفار!

يا مصيبي يا عليمبج، يا ولدي الوحيد! .. ارقت سماي والريح يعصف بها
لحماية حفيدها - امض يا ولدي، امض، الذنب ذنبي! يا حسرتي ما كان علىي
أن أدعك تتسلل إلى هذا... - رمت برج بنظرة غاضبة - لن يفهمنا! لن
تجعلك جريدة هؤلاء، هؤلاء الأدبية البائسين، تُفلح. امض يا ولدي، امض!
سماي مهمومة بالعبور بعليمبج عبر المخاطر، وبحمامة من صارت رفيقة طريقها،
هي وابنتها لاشين، ولم تلتفت إلى ما وراءهم.

كانت ستري، وإن التفتت، المناظر نفسها التي تراها منذ شهر: الناس الذين
على باب السفينة يتصارعون، ويتصاحبون. يفتحون الطريق لمن لهم صولة
كالحاج برج. ويسيرون فوق الجثث فوق الناس الذين لم يبق لهم حول. لم تعد
تسمع على الشاطئ غير صياح البشر الذين أفقدتهم الظلم صوابهم، وغير بكاء
الأطفال. ومن يركب السفينة يودع هم أرضه التي يهجرها بطلقة مسدس.

ويجعل الطفل الذي لا يفهم شيئاً يقبل المسدس، ويأخذ حفنة من ترابها.
والجوارح التي شمت رائحة الجثث تحوم الآن أكثر انخفاضاً.

الفصل التاسع والأربعون

في أيام ربيع عام 1864 التي انتهت فيها الحرب الروسية - القفقاسية أرسل
ممثل القيصر في القفقاس ميخائيل رومانوف إلى سان بطرسбурغ هذا الكتاب:
"طهّرنا الإقليم الممتد من شمال غرب نهر لابا والذي يشمل طوابسه وبشّره من
أعدائنا الذين كانوا يسكنونها" وعلق القيصر ألكسندر الثاني على هذا الكتاب
بيده: "الشكر والحمد لله"

وسائلكم الآن على كتاب للجنرال غايمان أرسله إلى القيصر يشهد على الظلم الذي مورس بحق الأديعة، والهادف إلى التصفية العرقية "... في ظهيرة

الخامس والعشرين من آذار من عام 1864 احتلّنا قلعة نافاغينسك، الآن تسمى شاجه، دون طلقة بندقية. ودمّرنا آخر وكرٍ للشراكسة. هذا هو الوضع اليوم، ولكن يجب أن نذكر مع هذا إمكان تغييرهم في المستقبل. وسنشهد على الموقع الذي نحن عليه بمثابة هذا القول المأثور: "اطرق الحديد قبل أن يبرد". تعداد السفن التي ستُقلّ الشراكسة إلى تركيا قليل رغم أنهم جاهزون الآن للهجرة. والهاجرون الذين ستنتقلهم السفن متجمعون على شاطئ البحر. السفن غير الكبيرة في حركة دائمة. وإلى طوابسه تأتي السفن الكبيرة. ولكن تعدادها لا يقارن بعدد المهاجرين. بعد شهر تقريباً ستبرعم الأشجار. والآن سيلجأ الشراكسة الذين لم يعبروا البحر إلى الجبال والغابات. وفي هذه الحال سيعين علينا طردهم من جديد من هذه الأماكن، وستتحمل خسائر بشرية. أرى أن نعمل بجد من أجل إنماء موضوع طرد الشراكسة، علينا أن نزيد كثيراً عدد السفن التي ستنتقلهم عبر البحر. وأكرر مرة أخرى أن لهذا الموضوع الأولوية، وإلا ذهبت جهودنا السابقة عبثاً. لن تجد ولو بحثت أي قرية للشراكسة يعيش فيها الناس! ولكنهم لا يزالون يختبئون في الغابات الجبلية الكثيفة. علينا أن نرسل قناصين إلى كل طريق لتعقبهم، ومرة أخرى علينا تطهير أرض الشراكسة منهم..."

"...إقليم نهر بشّة الذي ضمّمناه إلى الأرض التي استولينا عليها جهزنا فيه 52 مستوطنة روسية صغيرة و 100 مستوطنة قوزاقية كبيرة. ووطناً فيه 4374 أسرة. - يكتب الجنرال إفدوكيروف إلى وزير الدفاع الروسي - الذين صادفت هجرتهم عام 1864 كان موضوعهم أسهل بكثير بالقياس إلى السنوات الأخرى.

حين كان الشراكسة يُطربدون في مارس - إبريل من الأرضي التي استولت

عليها الآن مستوطناتنا الروسية لم تتعرض لهم جيوشنا في بيوقهم ومزروعاتهم. ولذلك فعند القادمين القوزاق ما يسكنونه. ثم إن قرروا أن يبنوا لأنفسهم بيوتاً فعندهم وفرةً من المواد الأولية. والقمح الذي سيحصدونه جاهز. وقد استفاد من استقامتناهم إلى حد الكفاية من هذه الإمكانيات المقبلة. وما جمعه كثير من القوزاق من محاصيل زراعية سيكفيهم في الشتاء. وسيزيد ما يبذرونه في الموسم القادم.

منذ عام 1861 يهاجر سكان إقليم بشنة في مجموعات إلى تركيا دون انقطاع. وبسبب المستوطنات القوزاقية التي نجهزها في أمكنة سكن أولئك المهاجرين لم يكن للسكان الحق في البقاء في أراضيهم. ولذا أصدرنا أوامر حازمة إلى هؤلاء أن يرحلوا إلى تركيا خلال وقت قصير. وحل هذه القضية بذلتنا بالعرق الأخطر من الأدبيع الذي يظهر فيه زعماء جيدون، وهم الأخطر علينا ويخفون حدودنا باستمرار ويكلفوننا أفح الخسائر. ولما لم يكن من الممكن عقد اتفاقيات سلام معهم فقد حاصرتهم جيوشنا فجاهة، وطردناهم، وهم راضون، إلى تركيا.

حلّ عام 1862 الذي كان من أصعب الأعوام علينا. وقد تغيرجرى الحرب التي جرت في غرب القفقاس. وفي ذلك العام سيطرنا على الأراضي الواقعة بين إقليم نهر شحه غواشة كاملاً من جهة، ومن جهة أخرى بدءاً من شرق البحر الأسود حتى "أدوغ". وحصرنا الأبراخ بين نهري شحه غواشة وسوب. ومن الواضح أننا لم نُبِّقْ لليرقواي والمخوش والجمكوي أراضيهم، وهؤلاء طردناهم إلى تركيا..."

الفصل الخامسون

1864 أيار عام

حدد الجيش الروسي يوم انتصاره في الحرب الروسية - القفقاسية في مضيق قباد بهذا اليوم.

كان الطبيعة تعكس من عندهم عيد فالسحب التي تحجب وجه السماء تنشر على الأرض رذاذاً ناعماً. والجو في كل مكان رطب غير أن جيش القيصر لا يعبأ بهذا. الجنود الذين نجوا من الحرب يطيرون من الفرح. ورغم المطر تلمع أحذيتهم ومعاطفهم ورُتُبهم. وعلى رؤوس رماحهم تحطل قطرات من المطر كأنها دموع الأدمعة، وتصل إلى محاجرهم..

جنرالات القوات الخاصة الذين أحرزوا النصر لقيصر روسيا واقفون. وإلى جانبهم يقف من أحرز المدح بالدم الأدعي الذي سفكوه بدءاً من أراباشاي وأراكس على الساحل الأدعي للبحر الأسود حتى الجبال القفقاسية. والجيوش التي احتلت الشيشان والداغستان متجمهة في جهة أخرى. وفي هذه اللحظة تشعر الجيوش التي يقودها إفدوكييموف، من قوزاك الدون وبشزة، بالسرور لأنهم سيمرون أمام ولي العهد الذي سيلقي عليهم نظرة الرضا، وسيكيل لهم المدح. ووراءهم تقف الجيوش التي تضم السبييلدينس، والميغرييل، واليميريتين، بلباسها الجورجي.

حانت لحظة الدعاء إلى الله بمناسبة إحرازهم النصر.

ولي العهد ميخائيل رومانوف يقف على منصة محاطاً بالجنرالات. ووراء الجنرالات المقاتلون الذين أحرزوا وسام صليب جورجييف، والضباط الذين أبدوا شجاعة في الحرب.

وبعدما أكروا الدعاء، ورّشوا ألوية الحرب بماء الدعاء، طاف ولي العهد على

الجيوش ممتطيًّا حصانًا، شاكرًا إياهم. ثم وقف أمام جيش القفقاس وقال للجنود:

– نثمّن عاليًا الرجولة التي تخلّيت بها لإنهاء حرب القفقاس بالنصر، واحتلال أرض القفقاس الغربي. نهئ كافة أفراد الجيش. والحمد لله الكبير الذي رزق فيكم كل هذه القوة. أنتم الذين لم يسألوا عن أرواحهم كي تصبح القفقاس بيد روسيا، تستحقون الثناء والرضا. وسيبقى في قلوبنا إلى الأبد رفاقكم الذين دفعوا حياتهم ثمنًا للنصر ولم يعيشوا ساعة النصر هذه!

– يا ولدي ما الذي يقوله بصوت خشن هذا الذي يؤشر بيديه هناك؟ – لا تتحمل سماع الكلمات التي تصل إليها ولو أنها لا تفهم معناها. وتنظر إلى نفسك التي ليست مسؤولة لهذا الخطاب.

– يشكّر الجنود على إنجازهم الحرب. ويختفل بنصرهم. – تحبّ نفسك.

– أيشكّرهم على أنهم قتلوا الناس ووجهوهم إلى طريق جهنم، طريق العذاب! – أحيتكلون به؟

– نعم نان. ونحن أمة كُنّا سنفرج لو انتصرنا عليهم؟ أما كنا احتفلنا؟.. يسأل عليهما يُمْجِّد.

– اسكت!، إخش الله! – نحررت سماعي الصبي جافلة – جميعنا، نحن وهم، سنقف يومًا أمام الله. وسننبهل إليه أن يغفر لنا قسوتنا.

ارتفعت أصوات الطبول وصيحات النصر "هورا". ولكن عالم الأديعة لم يتأثر بدفء شمس الربيع التي بزغت من وراء السحب...

الفصل الحادي والخمسون

انتهت الحرب الروسية القفقاسية، ولكن مأساة الأديغة لم تنته مع نهاية الحرب. يتجه من نجا منهم من الحرب إلى شاطئ البحر من كل الطرق والdroob، عيونهم إلى الوراء، لا يعرفون ما يتتظرون، وأملهم أن يعودوا يوماً¹. يتذكر ل. أ. تيخومiroف الذي شهد هذه الأحداث: "... كنا نسكن في "تيمرووه" حين بدأ طرد الشراكسة من غرب القفقاس بعدما احتل الشرق. رأيت بعيني المأساة الكبيرة التي حدثت في غرب القفقاس، وعانيته في قلبي. لا أتخيل أنه يمكن حدوث مثل هذه المصيبة، لم تمر مصيبة، بما فيها الهجرة الكبيرة، أسوأ منها. مررت أمام عيني حكايات طرد الشراكسة من أرضهم. وإن كنت نسيت شيئاً منها أو التبس على بعضها فما أقوله له أساسه. وبما يمكن أن أنا نفس العلماء.

عقد بارياتينسك في عام 1860 اجتماعاً في فلاديفوستوك لبحث ما يجب فعله للسيطرة على غرب القفقاس بعد احتلال شرقه. وقد عُرض في الاجتماع حلان للمسألة. كان رأي الجنرال فيليبيسون أن الشراكسة يمكن إقناعهم بالسيادة الروسية إذا أطليعوا على مقدار القوة العسكرية الروسية ومدى التسلیح، وإذا عولموا معاملة إنسانية. ولكن كان تصديق الفكرة، دعك من تنفيذها، صعباً. فمن جهة سيفقد الشراكسة أملهم في أن يتبعوا نمط حياتهم الذي ربّوه إذا أصبحوا تحت النير الروسي: حين كان الشراكسة يعيشون أحراضاً خلال قرون لم

¹ "... حين أرسلت عام 1872 ثمانية آلاف وخمسين أسرة من طردوا إلى تركيا رسالة إلى القيسار ألكسندر الثاني يعبرون فيها عن رغبهم في العودة إلى بلادهم. - يكتب زعيم قاسبولات في كتابه "الأديغة: الصراع والطرد" - كتب القيسار على الرسالة: "لا رجعة". المؤلف.

تكن روسيا قائمة. كان اليونان القدماء يعرفون الـ "كيركيس" ويعتبر آخر "الشركس - الأديعة". ومنذ هذا التاريخ هوجم الشراكسة خلال آلاف السنين، ولكنهم كانوا يتخلصون من الغزارة بسرعة. ولم تكن حرمتهم تنتقض. وتبقى أراضيهم لهم، ويرتبون عيشتهم كما يريدون. وحدث أن عزل الشابسخ أمراءهم في غمرة حروبهم. إنهم لا يقبلون أي سيادة عليهم، ولا سيما سيطرة الغريب، ابن فيهم سلطان تركيا.

وكانت نوايا إفدوكيروف مختلفة. لا يمكن التعايش مع الأديعة، ولا يمكن غض النظر عنهم. والسبب هو أن هذا الوضع يمكن أن يخرب أمن روسيا؛ فإن شنت تركيا أو دول أخرى حرباً على روسيا كان الشراكسة دعمأً كبيراً لهم. ولذلك يجب إبادة الأديعة كي لا يسيئوا إلى أمن روسيا. وكيف تبيّد هؤلاء؟ أفضل حلٍ هو طردهم إلى تركيا، وتوطين الروس في أراضيهم. ومن كان يمكن أن يفكروا هذا التفكير هم أمثال إفدوكيروف. وهو ابن أسرة فلاحية، وسيق إلى الخدمة في الجيش القيصري، ولم يدخل بقوته وبوقته ليستحق لقب العسكري الحقيقي. واستمر في خدمته مستفيداً من طبيعته الميالة للظلم. ولم يكن يتورع عن شيء لمصلحته الشخصية. تأمل إفدوكيروف الذي لم يكن عنده أي تحصيل علمي في العلاقات الروسية - الأديعية بعقل سديد ونشاط فائق وتحمّد لما يسمى الرحمة، فاختار إبادتهم بدلاً من مصالحتهم. وبهذا عبر الجنرال إفدوكيروف عما في قلب مثل القيسير في القفقاس بارياتينسك.

كان بارياتينسك يبحث عن مثل المدح الذي استحقه يرموروف وفوروتسوف عن طريق الحرب على الجبلين بدءاً من عام 1835 التي جرح فيها عدة مرات. لم يكن هناك أي شخص قادر على الانتصار على الجبلين، ولكن ظهر من يتمنى له ذلك وهو بارياتينسك. وحقق ما كان يتمناه. وكان قد فهم جيداً ما

قاله إفدوكيروف بخصوص الأديعة: إما نحن، وإما هم. لن نستطيع العيش معًا هنا. ولذا قرر بلا تردد: إن كان الأمر هكذا فليمث هؤلاء. ونحن نعيش مكانهم هنا.

لا أظن أن بارياتينسك يمكن أن يتفق مع إفدوكيروف المتهمس لإبادة أي شعب كامل. أعرف أنه كان من الصعب أن يفعل هذا. كان بارياتينسك مثقفًا جدًا. كان حقاً رجلاً عاش حياة مترففة، ويحب النساء. وكان يعتقد أن مهمته هي الحرب والنصر والسلب والإمساك بالزعامة. ولكنـه كان ظلـماً إلى حد يتورع عنه كرومـوـيل ونـابـليـونـ. ولم يـجـدـ بـاريـاتـينـسـكـ حـلـاًـ آخرـ منـ أجلـ إـنجـازـ المـهمـةـ وإـخـضـاعـ شـمـالـ القـفـاسـ. وافق بـاريـاتـينـسـكـ إـفـدوـكـيـرـوفـ، وـلـمـ يـكـنـ الأـخـيـرـ قـادـرـاـ علىـ فـهـمـ ماـ يـعـتـمـلـ فيـ قـلـبـ بـاريـاتـينـسـكـ. لمـ يـكـنـ منـ الـذـيـنـ فيـ قـلـوـبـهـ رـحـمـةـ وـحـرـصـ علىـ حـيـاةـ الـآـخـرـينـ. وـمـعـ أـنـ طـبـاعـ سـلـيلـ الـأـرـسـتـقـرـاطـيـةـ وـطـبـاعـ الجنـرـالـ سـلـيلـ الـعـامـةـ مـنـ النـاسـ مـخـلـفـةـ فـقـدـ اـتـفـقـتـ نـظـرـهـمـاـ إـلـىـ الـمـوـضـوـعـ لـأـنـ كـلـيـهـمـاـ كـانـ جـاهـزاـ، لـاـ يـتـورـعـ عـنـ شـيـءـ لـوـسـيـعـ حـدـودـ روـسـيـاـ وـتـقـوـيـتـهـاـ.

ومع أن بارياتينسك كان يتمتع بصلاحيات واسعة فقد كان عليه استشارة القيصر في ما يقرر. ولكن ألكسندر الثاني، ربيب جوكوفسك لم يكن يحبذ القوة المفرطة والقسوة. والآن إن انتشر خبر ما قرر بشأن الأديعة فسيشاع في أوروبا كلها أن الروس ليسوا بشراً، بل هم وحوش. وكان عنده "روح بطرسبورغ" كما عند الجنرال فيليسيون. وفي عام 1861 مرض بارياتينسك، وتخلى عن منصبه عام 1862.

ورغم أن بارياتينسك لم يستطع الإمساك بزمام الأمور في غرب القفقاس فإنه لم يكن عديم النفع في تحقيق هذه المهمة: وطـدـ سـلـطةـ إـفـدوـكـيـرـوفـ، وـاعـتـبـرـ سيـاسـتـهـ فيـ إـبـادـةـ الـأـدـيـعـةـ صـائـبـةـ. ولكنـ الـقـيـصـرـ أـلـكـسـنـدـرـ الثـانـيـ لمـ يـوـافـقـ

بارياتينسك الذي ناقشه في تنفيذ خطة إفدوكيروف. والحق يقال إن القيسار لم يستبعد تماماً أفكار إفدوكيروف: اتفقا على رأي واحد، واختلف ما فعلاه. استفاد من كل الإمكانيات الدبلوماسية من أجل سلب الأديعة أرضهم. وكان رأي إفدوكيروف هو إحلال القوزاق محل الأديعة ما إن يخلوا أرضهم. ولكن كيف يمكن جلب هؤلاء إلى هنا؟ تقرر إرسال القوزاق على شكل جيوش كاملة. واتفق على أن يختار نصفهم من جيش لينينا والآخر من جيش البحر الأسود. ولكن الجيشين تمردا على الأمر. وجابه القوزاقُ الجيوش التي أرسلت لإخماد التمرد، وكاد الطرفان يشتباكاً. وكان منصب أتابمان إيكاتريندار¹ في ذلك الوقت، إن لم تخفي الذاكرة، بيد الجنرال كوساكوف. وكان قد هرب من المدينة التي جرى فيها التمرد غير أن القوزاق لاحقوه وأعادوه. وهم يهتفون: "أنت أتابماننا، ومهمنك تأييد مطالبنا". وباختصار: أعطوا لкосاكوف ورقة القرار الذي ينقض الحريات التي كانت منحتها لهم إيكاتريين الثانية، كي يوصلها إلى إفدوكيروف. وكان القوزاق يقاومون كل من لا يؤيدهم. وكان الجنرال يعقوب كوخارينك قوزاقياً حقيقةً محترماً جداً من قومه. ولكنه حين تكلم في بطرسبورغ مؤيداً فيليسيسون لم يغفروا له. وفي إحدى رحلاته إلى ستافروبول أبلغوا الأديعة أنه هو الجنرال بابيش الذي سلب أرض الأديعة فألبوهם لهاجمة عربة كوخارينك، وفي هذه اللحظة تخلى عنه حراسه القوزاق واختبأوا.

مع أن كوخارينك الذي أوقعوه بيد العدو بهذه الطريقة من الخيانة جابه المتأمرين بالسيف، فقد عجز بدبيه عن الانتصار عليهم، ووقع بيد الأديعة

¹ الأتابمان زعيم محلي عند القوزاق. وإيكاتريندار مدينة وقلعة قوزاقية على ضفة نهر بشنة الفاصل بين الأديعة البدجوغ والقوزاق.

مثخناً بالجراح. ولكنه لم يعمر طويلاً فمات متأثراً بجراحته. ولم يكتف القوزاق بما فعلوه ببابيش فهاجموا قريته واغتصبوا أولئك من وقعن بأيديهم.

عرضت تصرفات القوزاق أهداف إفدوكيروف للخطر. والآن صار لزاماً عليه أن يجاهد القوزاق أيضاً بالإضافة إلى الأديغة. وكان من شأن هذه الأحداث أن يجعل القيصر يرتاتب في نوايا إفدوكيروف، وتجعله يسيء النظر إليها. وهنا تراجع إفدوكيروف، وبدأ يبحث عن وسائل أخرى لتحقيق ما ينويه بحق الأديغة. وغير الأمر الذي كان أصدره في موضوع ترحيل القوزاق. وسحب الجيش من مستوطناتهم. ونقل إليهم عبر مقابلاته لهم اعترافه بالأخطاء التي ارتكبها نتيجة سوء التفاهم. وأصدر حالاً معايير جديدة في ترحيل هؤلاء. قرر الآن ترحيل أسرٍ منفردة، ليس من قوزاق بشزة وحدهم بل من قوزاق منطقة الذين ومن منطقة تيريك أيضاً، دون التعرض للجيوش الكاملة وللقرى القوزاقية الصغيرة. ومن أجل ترغيب هؤلاء في الرحيل حمل الدولة على مساعدتهم في الامتلاك. ارتاح القوزاق، وخرج من بينهم عدد كافٍ في رأي إفدوكيروف لاستيطان أراضي الأديغة. ومن أجل ألا يرتاتب القيصر في أي شيء من مشروع توطين القوزاق أبلغ إفدوكيروف حين قابل بشخصه ألكسندر الثاني أنه هو المسؤول عن الأخطاء، وأن لا ذنب للقوزاق في ما حصل.

وعلى كل حال لم يكن إفدوكيروف ليتورع عن شيء مقابل أن يضع القيصر غرب القفقاس تحت تصرفه. ولهذا كان هو أيضاً يخاطر بنفسه، ولا يرحم أحداً. ويقدم للقوزاق عطاءات كثيرة: يسكنهم في البيوت التي جهزها للجيش مسبقاً، والمحتوية على إسطبلات، ويقدم لجيش بشزة الذي أعيد تجميعه مساعداتٍ مالية. وظلت الدولة تساعدهم في التغذية من ثلاثة إلى خمس سنوات. وبالنهاية كانت الأمور تجري في هذه المنطقة على نحوٍ جيد.

ولكن كان من الناحية الأخرى خوفٌ من نوع آخر: كان من المحتمل أن يشقق القيصر على الأديعة فلا يطربهم. ووقتها كان سيتعين تخيير الأديعة بين الانتقال إلى أماكن أخرى، ككلٌّ كما يختار، إما إلى إقليم نهر بشزة، أو ضواحي ما يقواب، أو النزوح إلى تركيا. ولكن إن قرروا عدم النزوح فهل يتسع هذا الإقليم للأديعة كلهم؟ وحينها، وبتكليف حكومي، بدؤوا بتقديم أرقام منقوصة جداً لتعداد الأديعة. والآن لا أستطيع أن أذكر الرقم المقدم، ولو من أجل عدم إثارة الأحزان، ولكني شاهدٌ على أنهم قدموا رقماً كاذباً، ينقص ثلاث مرات على الأقل عن الرقم الحقيقي. وحين ظهر عدد المطرودين انكشف الكذب. ولكن بعد ما حدث ما حدث. والرقم الذي ذكرناه في ما سبق احتاجوه لدقة واحدة. — فقط من أجل خداع القيصر ورجالات الدولة.

والحق أن تقديم أرقام منقوصة كان ذا أثر ضارٍ من ناحية أخرى. والسبب هو أنه جعل التفكير على النحو التالي ممكناً: إذا كان عدد الأديعة قليلاً إلى هذا الحد فإنّ بقاءهم في أراضيهم لن يكون تأثيره سلبياً جداً. ومن أجل إبعاد مثل هذه الفكرة عن ذهن القيصر كان يجب إقناعه بأن الأديعة لن يقبلوا الانضواء تحت سلطة الدولة الروسية. وقد تحقق هذا لإفديوكيموف عام 1861 ودون أن يكون لبارياتينسك يدٌ في الموضوع.

وفي السنة نفسها زار القيصر ألكسندر الثاني شمال القفقاس. وقد قرر إفديوكيموف أن يخدع القيصر والأديعة كي تسير الأمور كما يريد قبل زيارة القيصر. كان بين الأديعة من يخدعهم الجنرال منادياً إياهم بـ "الأصدقاء". بدأ الجنرال يجمع هؤلاء ويحدّثهم عن حبه للأديعة، وعدم رغبته في إخراجهم من بلادهم، وإن كان جابهم إلّا بأمر من بارياتينسك. وها هو القيصر الروسي قادم الآن، وهو يريد مقابلة موظفي الأديعة، ولا أحد يفوقه إنسانيةً، ويرغب

في أن يُسعد كل الأعراق البشرية. ولذا يمكن للأديعة أن يحملوا إليهم مطالبهم ليقطعوا الشك باليقين. ولا شك في أنه سيتحقق لهم مطالبهم. كان إفدوكيروف يُشيع مثل هذه الأفكار بين الأديعة.

من السهل خداع الجبليين الذين لا علم واسعاً لهم بالسياسة. جاء القيصر في كانون الأول عام 1861 إلى جيشنا المحتشد عند فرزابشه. وقد اجتمعت وفود من الأباخ والشاسغ والوبيخ، ومن أعرق أخرى في هذا المكان. وحملوا إلى القيصر كلَّ ما في قلوبهم: إزالة قلاع الجيش الروسي من أراضيهم، وسحب الجيش، وعدم تشييد قرى روسية في الأرض الأديعية، وفي كل الأحوال عدم رغبهم في أي نوع من الوصاية الروسية. فإن تُؤذن لهم هذه المطالب كلها قبلوا بحكم السلطة القيسارية الروسية، وعاشوا بسلام.

كان واضحاً ما سيليه اللقاء لأن من الصعب تصديق أن روسيا المنتصرة دائماً يمكن أن تستجيب لمثل هذه المطالب القاسية. فهم القيصر أن من المستحيل عقد أي اتفاق مع الأديعة، وفي الشهر نفسه أجاب بالموافقة على الورقة المتضمنة أفكار إفدوكيروف. وشرع الجنرال بكل طاقته عاقداً العزم على التنفيذ بأسرع وقت ممكن.

كان الأديعة يتأملون الحماية من تركيا وأوربا. وقد أرسلوا موظفيهم إليهم، ولكن لم يحصلوا على شيء. صحيح أن تركيا قبلت بالاتفاق مع القيادة الروسية استقبال الأديعة. كانت روسيا، وقد ألحأت الأديعة إلى شاطئ البحر، مشغولة بزيادة عدد السفن التي تستقلهم، ولذا كانت تستغل الآمال المتباينة. وكما قلتُ سابقاً كان الأديعة يعارضون الهجرة، وكان هذا سبباً في تضامنهم، وحرهم الفدائة. ولكن اليأس كان يتسرّب شيئاً فشيئاً إلى نفوسهم فيتوقفون. وكان الجيش الروسي يضعهم في موقف حرج. وبيني في القرى التي يجبرهم على

هجرها بيوتاً وإسطبلات للقوزاق.

أصيب الأديعة باليأس مما يحدث لهم. وتحوّل أكثراًهم إلى اللامبالاة، ولا يريدون الرحيل إلى أي مكان. ولا يعرفون أين يتوجهون. ولا يُمنحون الفرصة للتفكير. ويلجؤون إلى القرى التي لم تُسلب بعد، وإلى أعماق الغابات. ولكن كان يُعثّر عليهم فيها أيضاً.

كانوا يعتنون الأديعة المتجمهرين على شاطئ البحر الأسود في السفن والراكب العادية، وينقلون إلى تركيا. وتجاوز عدد من صاروا وراء البحر نصف مليون. وكان من الصعب العثور على مراكب تنقل كل هؤلاء. فيقيم المطرودون التعبوء شهوراً على الشاطئ.

يُبَشِّرُ الحكومة التركية من أعداد المهاجرين. ويعتقد أن السبب هو المغالطة في أرقام المهاجرين الأديعة. بدأت المراكب الكبيرة، والعادية المتوسطة ذات المجاذيف تُرسّل إلى الأديعة عبر البحر. وكان الناس الذين يُكَدَّسون في هذه المراكب مقابل أجرة مرتفعة يموتون بالكوليرا وغيرها من الأمراض المعدية الأخرى. واستمرت مأساة الاستعجال القليق هذه أربع سنوات حتى عام 1864.

كنت شاهد عياناً على الظلم الذي يمارس ضد الأديعة. كانوا يُطردون من غابة بسه مز، ودخان قراهم التي تُحرق يتتصاعد شاهداً عليه. لم نعرف أن هذا العدد من الناس يقطن الجبال. ولا أحد غير الله يعرف كم من الأديعة قضى في تلك الفترة من البرد والجوع والمرض. ولم يُحصِّ أحد عدد الجثث التي تفسخت في الغابات والجبال، بل لم يخطر لأحد أن يفعل هذا. وكانت الجثث على ساحل البحر تُدفن على عجل لصعوبة إحصائهما. ولم يكونوا يفكرون إلا في تجنب العدوى من الجثث.

وبحسب الروايات، وعلى سبيل المثال، يموت كل يوم مئتان من كل خمسين ألفاً في المناطق المختلفة التي تجتمع فيها الأديغة في تركيا. وهل كان الوضع من جانبنا أفضل؟ كان الأديغة المطرودون إلى تركيا منتشرين على امتداد الساحل. وأكثر المغادرين ينطلقون من ميناء بسه مز. وبحسب الإحصاءات الرسمية فمن بين خمسين ألف أديغي على ساحل البحر أبخر مئة ألف من هذا المكان.

ولابد من القول، في كل الأحوال، إن بين الأديغة من استطاع الاختباء في مضائق الجبال. وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر، بعدما اختبأوا زهاء عشرين عاماً، خرج بعض مئات من هؤلاء من مخايمهم، واستقروا على الساحل في قريتين، إحداهما بسه فابا¹، والأخرى نسيت اسمها. ولم يتعرض أحد هؤلاء، وطمأنوهم على حياتهم.

كان يتجمع من الأديغة باستمرار زهاء عشرين ألفاً في بسه مز. يرتدون الأسمال، وأكثراهم مرضى. وبين الأطفال كثيرون من الأيتام. ونصف هؤلاء يعيشون بين أنقاض القلعة القديمة في مدينة بسه مز، والنصف الآخر في واديها وخليجها. وكانت الحياة في أنقاض قصر سيريريا كوف لهم لأن الجدران كانت سليمة ولو دون سقف، فتحميمهم من الريح. وهؤلاء ينتظرون السفن أو المراكب التي تقلّهم إلى تركيا.

الناس الذين لم يبق لهم مكان يرتدونه ولا أمل إلا تركيا، يبيعون مواشيهم وأمتعتهم البيتية، وملابسهم، وغيرها بأرخص الأسعار. وكانت تعثر على أحصنة ممتازة وأحصنة سباق. ويتم البيع كلها بنقود فضية لا بعملات ورقية، ولم يكن سكان بسه مز حينها يملكون ذهباً.

¹ يعني مشرب ماء.

ولما كان موت الأديعة من المرض والمَحْلُ على مرأى من أهل البلدة فقد بدؤوا يحملون إليهم الطعام واللباس. ووالدي مع نساء آخر من فاعلات الخير كن يساعدن النساء الضعيفات جسدياً. وبدأ كثيرون يتبنّون الأيتام.

حقاً لم أر بعيّني من رُبُوا في أسر قوزاقية، ولكنني أعرف بعض الأسر من بسه مز من ربوا أطفالاً من المهاجرين. وعلى سبيل المثال فقد ربي الدكتور صانع المشروبات ميخائيل فيدوتوفيتش بيشنول ولداً من يُغبطون على كل شيء فيهم. ومنحه نسّبه وعمده في الكنيسة، ودرّبه على الخدمة. وانتهى الولد المسمى سيرغي إلى ولد عاقل مهذب. وحين كبر أعطاه ميخائيل، وقد صار عجوزاً، كرّم عنب في وادي سوس - حبله يعمل فيه. ثم تزوج سيرغي، وفتح باب التجارة في بسه مز، وأبواها أخرى للعمل. واختير بعدها زعيماً على مدينة بسه مز. وكان غنياً ومحترماً جداً.

وتبنّى آل رودكوفسك طفلاً أديعياً يربونه. وكانت أمي احتضنت طفلاً وطفلة أديعين. وعمدتهما كلّيهما. وصارت الفتاة حين كبرت جميلة جداً، حلوة الطباع مهذبة. ثم تزوجت من جندي جاء إلى بسه مز للحرب وعاشت سعيدة. غير أن الصبي الذي سمي أليكسى لما عُمِدَ تبيّن عن ولد غليظ الطباع مشاكس حاقد على الجميع، فصار صعباً على الأسرة تحمله. من الصعب علىي أن أقول الحقيقة عن أليكسى لأنه لم يكن من النوع الذي يُطليعك على ما في قلبه. ولا أعرف إن كان يكره الروس على إحراقهم بلاده، غير أنه كان يبدو عليه عدم رغبته في العيش معنا. والحق أنه ليس مستغرباً ألا يحب الأديعة الروس. ونادر أن تجد في التاريخ البشري من يشبههم في إبادة عرق.

من الصعب معرفة عدد الأديعة الذين كانوا يقطنون من ساحل البحر الأسود إلى نهر لابا. وفي اعتقادي أنهم كانوا أكثر من مليون. ومن قصوا في الحروب،

وخلال طردهم، وفي الطريق إلى البحر، ومن ماتوا على الساحل نتيجة الملح، والبرد، والأمراض، عدة مئات من الألوف.

وهكذا "طُهِّرَتْ منهم" الأرض التي لا أجمل منها، والتي عاشوا عليها آلاف السنين. وكان الأديغة الذين انتكبا من مظالم الروس يلعنونهم وهم يرکبون السفن، ويتوسلون إلى أرضهم ألا تُغلَّ حبة واحدة على الروس. ولكن الطبيعة التي لم تتأثر بالمسألة العظمى للأديغة استقبلت الروس بوجه طلق ولم تُقصَّ شيئاً من جمالها..."

وفي عام 1896 كتب الضابط أ. ف. ستاروستافيسك ذكرياته في مطبوعات "أخبار أوريا": "... سواء نتيجة خدمتنا أم بسبب فضولنا، كنا نأتي من مكان احتشاد جيشهنا يومياً تقريباً لنراقب الأديغة البؤساء. ماذا كنا ننتظر نحن؟ ماذا كان أمثالنا من أصحاب المناصب الصغيرة يستطيعون أن يقدموا لهؤلاء النعساء؟ كانت البلاد محتاجة إلى أن يصبح هؤلاء في تركيا.

كنت تحتاج إلى قلب قوي لترى المأساة التي تحدث على الساحل. الناس الذين فقدوا بيوتهم وإسطبلات مواشיהם يعيشون معاً أساساً في أودية الأنهر التي تصب في البحر الأسود، بين ركام الأحجار والرمال. يعيشآلاف من الناس في الأرض الضيقة التي حددت لهم ليَّلهم ونَهَارَهُم. وليس في الأرض التي يُمنع عليهم مغادرتها شجرة واحدة، ولا ظل. والأجحاف القليلة اليابسة لا تكاد تكفي ليشوا عليها قطعة لحم أو يُعدوا عليها قِدراً من الحساء.

وهكذا يندثر نظام حياة كامل أنسنه الأديغة على مر القرون. وضحايا هذا الرزِّال ليسوا آحاداً، ولا عشرات ولا مئات بل يعذون بالآلاف. كم من الأديغة قضوا على ساحل البحر من الأمراض ومن غيرها، وكم منهم لم يصل سالماً إلى الساحل التركي، وكم مات على هذا الساحل؟ لم يقم أحد بالإحصاء، بل من

يحتاج إليه؟!

كنا نرى مأساتهم، ونفهم ما يتطلّبونه، قلوبنا تتألم، ولكن ماذا يقدّم لهم؟
نلمّح لجنّالنا من وقت لآخر أن هؤلاء محتاجون إلى النار والملح وما شاكلهما،
وأنّهم محتاجون أن نسمح لهم بارتياد سفوح الجبال القريبة. في البداية كان
يستمع إلينا عن طيب خاطر، وكان كمن يعطف على بعضهم، ثم ينهرنا إذ لا
شأن لنا بال الموضوع. ويدركنا بأنه هو نفسه ليس إلا مأمورةً عليه التنفيذ
فحسب، وأن هذه مسألة تتعلّق بالدولة. "مسألة دولة" ما أشدّ الظلم الكامن
في هذه العبارة! كم من مثل هذه المآسي حدثت في التاريخ البشري منذ القدم،
وإلى الآن، بذرية مصلحة الدولة؟..."

وهذا ما يكتبه الفرنسي الذي شهد مأساة الهجرة إلى تركيا أ. فونفيل: "...
الأديغة الذين كنا معهم وحاربنا لم يبق مسوّغ لوجودنا معهم مزيداً من الوقت
مع أننا كنا واثقين من سلامتهم طويّتهم.

منذ أن احتل الروس طوابصه كانت السفن التركية ترتاد الساحل الشركسي
بكثرة، تنقل من يهجرن بلا دهم بأجرة مقبولة إلى ضواحي سامسون أو
طرابزون. وكان هذا سهل المنال لنا جداً إذ أننا نستطيع العبور بواحدة من
السفن الكثيرة المغادرة دون أن يلاحظنا الروس.

ولم يكن الروس يقفون حجر عثرة البتة في طريق هجرتهم لأن ما يهمهم هو أن
يعيّروا عن أنظارهم وكفى.

قررنا - نحن الفرنسيين - أن نتوزّع على المراكب فرداً ونُبحّر. وقد اخترنا
هذا الحلّ مخرجاً كي لا يعتقلنا الروس مجتمعين. وإن قُبض على أحدهنا كان لنا
أمل أن يصل غيره إلى تركيا.

كان الأديغة مشغولين ما إن يظهر مركب على الشاطئ بمساومة صاحبه. وفي

المساء حين تهب الريح مواتية تبحر المراكب ممتلئة بأكثر من طاقتها؛ إما بسبب لففة الأديعة على الوصول إلى تركيا، وإما بسبب جشع أصحاب المراكب. والمركب الذي يتسع لخمسين أو ستين شخصاً يُحشر فيه من ثلاثة إلى أربعين. ولم يكن المهاجرون يحملون من الزاد إلا حفنة من الذرة وجرة من الماء. والوصول إلى تركيا يستغرق من خمسة أيام إلى ستة. ولقطع هذه المسافة لا يمكن تصوّر الاضطهاد الذي يلحق بجم من أصحاب المراكب.

وحيث تهب العواصف الممطرة تغوص المراكب إلى جوف الماء. والمراكب قليلة الركاب تتسبب الرياح في خضّهم على متنها، وهم الذين لا يعرفون وجهتهم، وصلُم بعضهم بعض حتى ليكاد يعصر بعضهم بعضاً. لم تكن أوقات الصحو بأفضل، فالمراكب لا تريم من أماكنها لتوقف الريح، فينفد زاد المسافر ويصبح على شفا الموت جوعاً.

يروي لنا البحارة الأتراك ما يرونه من تعاسات هؤلاء الفارين بأرواحهم: غرفت بعض المراكب برِّاكابها. وبعضها مات نصف رِّاكابها فكانت جثثهم ترمى في البحر. ومع ذلك، وبسبب عدم اكتئاث هؤلاء الجبليين بأنفسهم، وبسبب الذعر الشديد، يغامرون بأرواحهم. والهمّ الأول لهم هو أن يجدوا أنفسهم في أي مركب بأسرع ما يمكن، مستسلمين لفكرة أن ما يصيّبهم هو من الله. فهم في جميع الأحوال، سواء ماتوا في البحر أم على المركب، واثقون من عجزهم عن دفع القدر.

كان وضع البلاد يبعث على اليأس، وما ينتظره الأديعة على الشاطئ هو وصول المراكب بسرعة. ولم يكن يخطر ببال هؤلاء البوسّاء أن يشيدوا ما يقيهم المطر أو الريح من ظل أو عريشة، لأن يائساً مطبيقاً استولى عليهم. أمر واحد في أذهانهم وقلوبهم وهو الوصول بأسرع ما يمكن إلى تركيا؛ لم يبق أملٌ غيره.

يقضون سحابة خارهم على مرتفع من الشاطئ يرصدون أي مركب يظهر في البحر ليلفتوا انتباه رباني بأي طريقة، وليقنعوا بالاقتراب من الشاطئ.

كنت غادرت "فاردان" بصحبة الربان يعقوب. كنت أقابله كثيراً على الشاطئ في ما مضى، وكثيراً ما نفعني في مناسبات أخرى. أجلسني في مكان أرى منه ما يجري وأسمع ما يقال. ولكن أستطيع القول إنني لم أر شيئاً تقريباً بسبب الضباب وما يرافقه من ظلام. كان الرجال ينقلون نساءهم وأطفالهم عبر الماء الذي يغمرهم إلى أوساطهم. ولم يكونوا يتخذون أماكنهم إلا بعد أن ينزلوا النساء في قلب المركب ويتخذن ملائكتهن. وكان هم يعقوب ألا يقى مكان شاغر. ورغم أن المركب امتنأ عن آخره لم يكن عاجزاً عن إيجاد مكان لواحد جديد طارئ. الرجال يجلسون على السطح مقرضين حتى ليكاد البحارة المكلفون بعمل ما على السطح يمشون على رؤوس الركاب.

جلس يعقوب إلى جانبي. رفع الأشرعة وانطلقنا. ليست الريح قوية جداً ولكن سرعة المركب مقبولة. ومع الصباح صرنا في عرض البحر. وفي هذا الوقت فحسب استطعت أن أعد الركاب واحداً واحداً: كانوا ثلاثة وسبعة وأربعين. حدثت جلبة في المركب عند الظهيرة حين ظهرت نقطة سوداء في الأفق، ثم تبين أنها سفينة. وفيما أنا مستغرق في مراقبتها لاحظت أن بعض رجال الشرаксة يتتحدثون إلى زعيم مسّن لهم.

سألت يعقوب:

- من هذا العجوز الذي يتتحدثون إليه؟

أجاب يعقوب بصوت منفعل:

- دعك منه، لا يقول شيئاً مهماً!

- وهل يعقل ألا يقول شيئاً؟ بل يبدو لي أنني أنا موضوع الحديث.

لم أتفق مع يعقوب لأني كنت أرى الناس ينظرون نحوه:

- ألا تُخبرني ماذا يقول! لا تُخفِّ عني شيئاً!

- حقاً إنه يتكلم عليك. لا يتحدث عنك بغير. ستفهم كل شيء قريباً جداً.

لم يكن خافياً على أحدٍ ما يسببه لي هذا الحديث من قلق. وألححت على يعقوب ثانية أن يصارحي.

- يريدون أن يرموا بك في البحر، ولكن في حال تبين أن السفينة روسية فحسب - قال لي يطمئنني إلى حد ما - يخشون أن يعتقلهم الروس إن وجدوك هنا، ولكنهم إن لم يجدوك فلن يعترضوا المركب. هذا كل ما في الأمر.

بدأت أراقب السفينة وقد فقدت كل أمل لي في الحياة. كان يبدو لي أن نقطة السوداء لا تتحرك. ولشدة ما حدّفت فيها فقدت عيناي القدرة على تمييز الأشياء. ثم رأيت العلم التركي على السفينة. فعادت إلى الطمأنينة.

مضى اليومان الأولان من الطريق دون حوادث تذكر. واليوم الثالث هو اليوم الذي أُقيمت فيه جثث امرأتين وطفل في البحر قضوا عصراً بين الأجساد نتيجة الازدحام. وفي اليوم نفسه مات رجلان وامرأة. وفي اليوم الرابع خمسة عشر شخصاً. وفي اليوم الخامس ظهر الشاطئ التركي. كانت قوانا قد وهنت من التعب والجوع. نُفِدَ الزاد في يومين، ولو كتب علينا أن نبقى في المركب وقتاً إضافياً بقدر ما أبحرنا لغرق نصفنا قبل الوصول إلى طرابزون.

الثلج ما يزال يغطي قمم جبال "آسيا الصغرى" ولكن أشجار الزيتون التي على الشاطئ مكللة بكمالها بالزهر الرمادي. مشينا مدة محاذين الشاطئ لأن المرسى كان قرب بلدة "آجي" التي يمكننا بجانبها فقط إنزال النساء والأطفال بأمان. وكانت تظهر أحياناً من القرى غير الكبيرة سطوح البيوت البيضاء وماذن المساجد. والشراكسة ينظرون بفضول إلى بلادهم الجديدة. يرددون دون

انقطاع "الله أكبر" "الله أكبر" يعبرون عن امتنانهم لله الذي أوصلهم أحياء إلى هنا.

سبق لي أن زرت بلدة آجي، ولذا تعرفت بسهولة على القلعة التركية الصغيرة غير البعيدة عنها، ورأيت أناساً كثيرين قادمين من جهتها. ولما اقتربنا أكثر من الشط، تبين أنهم أديغة. وسمعوا بكاءهم.

كان على الشط أربعة عشر مركباً شبيهاً بمركبنا. بعضها فارغ يستعد للقفول إلى الشاطئ الآخر وإقلال الأديغة، وبعضها ينزل المهاجرين القادمين الذين سبقونا ووجوههم الشاحبة تشي بالمهالك التي اجتازوها كما اجتننا.

ألقينا المرسى، وجاء الرجال وهم في الماء بالنساء والأطفال والجناتين. وأخيراً حان دوري: وضعت رجلي على اليابسة وقلبي يفيض فرحاً. كنت قد تعبت جداً، والجوع هدني، وقدمائي تحملاني بمشقة؛ فمنذ يومين لم أذق شيئاً، ولم أشرب ماء منذ أيام. اقتربت من الماء الذي ينبع من أسفل الجبل، وارتويت، فرجم إلى العزم. كنت أحاول الوصول إلى طرابزون بأسع ما يمكن لأنني أعرف صعوبة وضعي بصفتي غريباً بين هذه الجموع.

وعلى ما علمت فقد قضى خمسة عشر ألفاً من الشراكسة الذين هاجروا في بداية الشتاء دون أن يُصغوا إلى نصائحنا. وصلوا ولم يكن معهم ما يكفي من الطعام، ووضعهم الصحي متراجع جداً، وجلبوا معهم إلى طرابزون الأمراض السارية من جدري وطاعون وغيرهما، ولهذا مات كثيرون من سكان تلك البلدة، ولهذا بدأ الأتراك المذعورون من الأمراض التي حملها الأديغة يهجرن عليهم في الشاطئ، ونشروا الجنود لمنعهم من دخول البلاد.

وضعت قدمي على شاطئ آسيا الصغرى في ذروة المجرة الشركسيّة. كان في بلدة آجي وحدها خمسة عشر ألفاً منهم. ورغم برودة الجو كانوا يسكنون

عرائش من أغصان الزيتون فحسب. ويعيشون بعدهما استنفدوا زادهم على القليل من الطعام الذي تجود به تركيا من حين إلى حين.

شهدت كيف كان الطعام يوزع عليهم: جيء بثلاثة مستوعبات للخبز، وترك إليها معبر ضيق محروس بالجندول المسلمين. وكان على الأديعة أن يمرروا بينهم فرادي إلى حيث يحصلون على الخبز. ولكن كان مستحيلاً أن يحظى به كل هؤلاء فلا يكاد يكفي لنصفهم. وعلى النصف الآخر الانتظار إلى الوجبة التالية.

ولما كانت قد تجولت في كل تلك الأماكن التي جاؤ إليها المهاجرون اقتنعت في هذه اللحظة بأنهم رغم كل هذا الازدحام كانوا يتبعون بكل صدق نهجاً معيناً بهم: كانوا متوزعين حسب الأسر، وكل أسرة تستوطن ظل شجرة محددة. وكل ما يشاهد على "ثروتهم" هو الصندوق الذي يضم بعض ملابسهم وأغطيةهم، والكيس الذي فيه شيء من الحبوب. والنساء يسلقن وعيونهن دامعة ما بقي لهن من الذرة.

دعا المؤذن مع الغروب إلى الصلاة. توضأ الرجال وتوجهوا إلى الكعبة، وبسطوا فرواتهم أمامهم. كانت الأشعة التي ترمي بها الشمس الغاربة تنير وجوههم فتكسوها بإمارات خوف مكتوم.

الإمام يتلو من القرآن، والجميع يهمهمون وراءه، ثم يهونون على رؤبهم، وكلما ترك المصليون سمع صوت صليل السيف والبنادق المعلقة على أجنابهم، صوت ينم عن أن هذا العرق القوي، رغم الهزيمة، حمى حريته مادام عنده شيء من القدرة. وبعد الأدعية دفنا الجنائز. كان أربعة رجال تحت النعش دائماً، ويحملونه غيرهم باستمرار. ووراء النعش رجال حملوه، والنساء وراءهم يخطوة يندبن

المتوفى. كانت مآتم الأديعة صعباً تحملها إذ يتعدد صوت البكاء وصداه بين الجبال فيعصر القلب.

وأخيراً، ودون مشقة تذكر، وجدت العجوز المزوح ذا اللحية البيضاء أحمد الذي دلني عليه يعقوب، والذي سيوصلني إلى طرابزون. ورغم أنهم كانوا يفتشون كل سفن طرابزون فقد وعدني أن يوصلني.

- أنا قادر على أن أصل إلى أي مكان - قال لي جواباً على توجّسي. مهمتي هي العبور خفية بين سفن حاكم طرابزون.

- ومع ذلك فكيف سترتب الأمر؟

وبدلاً من أن يجibني نحض وقادني إلى الإسطبل القريب من بيته، وأراني حوض الماء الطويل الذي تستقي منه الدواب. وتبين أن هذا المشروب ما هو إلا زورق جاهز يتسع لثمانية أشخاص. فاطمأن قلبي.

لما حان وقت السفر انضم إلينا المجدفون بنداء من أحمد. دفعوا الزورق إلى الماء وانطلقنا.

شرعّت أصوات الأديعة تخفّت شيئاً فشيئاً. ثم لم يبق أمام عيوننا إلا النار المرتفعة من أماكن سكنهم. ومع أن فرحي كان يزداد كلما اقتربنا من طرابزون لم أكن أستطيع أن أُبعد عن قلبي الأديعة البؤساء الذين كنت ضيفاً عليهم، ورفاق سلاح، والذين أفارقهم إلى الأبد.

لم يكن أحمد الذي أركب زورقه عابراً إلا بشؤونه. لا يُقلّه شيء من كل ما يراه وما يسمعه. لا يهمه إلا أن تخترق عيناه الضباب.

- ما أتعس هؤلاء الأديعة المساكين! قلت له أريد اختبار لا مبالاته.

- ليس لنا أن نغير شيئاً من أمرهم. هذا ما كتبه الله عليهم - أجابني بصوت هادئ.

- ومع ذلك ألن يقتلهم جميعهم البرد والجوع؟!
- قال العجوز دون أن يقلقه شيء: بنات الأديعة سيكّن أرخص من أي وقت مضى في سوق إستانبول...

